الشيخ نديم الجسر
مفتي طرابلس ولبنان الشمالي

قصة الإيمان

بين الفلسفة والعلم والقرآن

Bibliotheca Alexandrina
0014251

297.2
٨٥

الشيخ نديم الجسر
مفتي طرابلس ولبنان الشمالي

29722

قصة الإيمان

بين الفلسفة والعلم والقرآن

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina
297.2
ج س ٨٥

طرابلس - لبنان

كتاب
البيان والتبيين

سقيا لملاعب الصِّبا ، ومغانيَ الشباب ، ما احلاها ، وما امرَّها على قلوبنا ، اذا عُدْنا اليهـــا ، بعد طول الاغتراب ، لنراها بعيون غشّاها المشيب بسُحُب من الوهَن ... انها تُثير ، في صدورنا ، زوبعـــة من الذكريات ، يعْتلج فيها الأنس والحنين والاسف والوحشة والحزن والجزع واليأس والتأسي ، فيلذّ لنا ، في غَمْرة هذه الكآبة الحُلوة ، ان نَبكي... على انفسنا ، وعلى اولئك الذين فارقونا ، والذين اوْشك ان نفارقهم ، بكاء المسافر النّازح ، الذي لا يُخفّف من لوعته ، على فراق احبّة اعزاء ، الّا املٌ بلقاء اعزاء آخرين ، ينتظرونه في بلدٍ بعيدٍ بعيد...

في هذه المواقف الاخيرة من العُمر ، نجد الحياة ، في اعيننا ، اغْلى واحْلى ما تكون ، واتفَه وامرّ ما تكون ، فتُرعبنا فكرة الفنـــاء ، ونشْعر ، اكثر من أيّ وقت مضى ، بحاجتنا الى الخلود ، وبفقرنا الى الأيمان بالخالد الأزليّ السّرمَديّ ، الذي وعدنا بحيـــاة اخرى ، لولاها لكانت حياتنا الدنيا عبثاً ظالما .

ومن مغاني صباي ، في بلدي ، (جامع طَيْنَال) ، الذي يثْوى عند منقطع العمران ، في روضة من بساتيننا العَطرة الساحرة . فلي فيه ، من ذكريات الطفولة ، كلٌّ عزيز . انه يُذكّرني باصْبوحات العيـــد ، حيث كان ابي يأتي ، وانا وراءَه ، قبل شروق الشمس ، ليزور موتانا في المقبرة التي تُجاور الجامع ، ثم يؤدي صــلاة العيد فيه ، ويُذكّرني بامسيّات الصيف الحلوة ، التي كنت العب فيهـا ، عند الشجرة في فناء المسْجد ، بين الحوض والبئر ، وابي قاعـــدٌ في غرفته ، يتحلّق حوله رهط من الشيوخ ، يستدمون اليه ، فاذا تغفّلتُه عدوْتُ الى البستان ، اقطع من

سياجـــه قصبة اجعلها جواداً ... ويُذكّرني بتلك المأذنة ذات السلّم اللولبية المزدوجة ، التي كنا نصعد فيها ، من فناء المسجد ، لنجدَ انفسنا ، بعد لحظة ، في داخل الحرم ... ويذكّرني بذلك المؤذن العجوز ، الذي كنت الجّ عليه ان يصعد معي الى المأذنة ، ليؤذّن في غير وقت الصلاة ، وهو يتحيّر كيف يُعلّلني ويُسوّفني حتى يدخـــل وقت المغرب ... ويُذكّرني بأمي ، التي كنت احدثها عن المأذنة العجيبة ، والبئر العميقة ، وسياج القصب ، فتُحذرني من الأفاعي ، وتلحّ عـــلى خادمنا ، ان لا يتركني اطلع الى المأذنة أو ادنو من البئر ...

يُذكّرني بكل هؤلاء ، الذين طواهم الموت ، فذهبوا وخلّفوا في قلبي غُصَصاً ، تغور في الأعماق ، تحت ركام الأيام والسنين ، فاذا عُدتُ إلى (طَيْنَال) ، عادتْ تَشدُّ على هذا القلب العميد باصابعَ من حَجَر وحديد ...

وطوّحتْ بنا الايام والسنون ، فبَعدنا عن الحَيّ ، وبَعدنا عن الجامع ، وبَعدنا ، اخيراً ، عن البلد كله... ثم عدنا بعد طول الاغتراب ... وحمَلني الشوق الى (طَيْنال) ، فجئته في يوم ، رأد الضُحى ، عند غيبة المصلّين ، وتنقّلتُ في ملاعب الطفولة ، واثرْتُ الذكريات كلّها ... وبكيت ما شاء الله ان ابكي ...

وفيما انا مستغرق في صمتي ، لا اسمـــع الّا صَدَى النشيج ، تُردّده قباب المسجد الشاهقة ، اتاني صوت من داخل الحُجرة الشرقية ، التي كنت احذر ، في طفولتي ، ان اقترب منها ، خوفاً من القبور التي فيها . ثم اطلّ من بابها ، شيخ مهيب الطلعة ، ابيض الشعر ، غريب الزيّ ، ومشى اليّ . وبعد ان القى السلام ، قعـد بجانبي ، وقال بلغة عربية فصيحة ، فيها اثرْ من لُكْنَةٍ عجماء : ما الذي يُبكيك يا اخي ؟

قلت : ذكريات لي ، في هذا المسجد ، من عهد ابي ، وايام صباي .

قال : ومَنْ ابوك ؟ فما كدت اتلفّظ باسم ابي ، حتى ارتعش بدنه . وقال ، وهو يُحدّق اليّ بعَيْنين تجول فيها الدموع : ابوك الشيخ الجسر؟. قلت نعم . ومَنْ انت يا سيدي ؟

قال : انا ، في الأصل البعيد ، من مصر ، من (آل المائي) ، الذين نزح بعضهم الى ديار الشام ، وبعضهم الى الحجاز . ومن الحجاز ساقت الاقدار جدّ ابي الى الهند ، واستقرّ فيها . واُسمي « حَيْران بن الأضْعَف البَنْجَابي ».

قلت : ما الذي جاء بك ، من الهند ، الى هذا المكان ؟

قال : اني لست آتياً من الهند ، بل من سَمَرقَنْد ، بل على الأصح ، اني آتٍ من قرية (خَرتَنْك) في سمرقند .

قلت : ما الذي جاء بك ، من ذلك المكان البعيد ، الى بلدتنا ، وما الذي اقامك في هذا المسجد ؟

قال : عَرّجت على بلدكم لأزور اباك ...

فنظرتُ اليه متعجباً ، فقد مضى ، على موت ابي ، زمن بعيد .

قال : لا تعجب . جئتُ ، وانا في طريقي الى الحجاز ، ازور قبره ، وازور هذا الجامع الذي حبّبه اليّ شيخي حين وصفه لي ، واخبرني ان اباك كان يُلقي الدروس فيه . وقد دلّني المصلون على هذه الغرفة التي كان يأوى اليها ابوك . ووجدتُ هذا المسجد اشبه شيء ، بمسجد (خَرْتَنْك) ، الذي قضيتُ فيه اغلى واحلى ايام حياتي ، فطاب لي ان اقضي فيه اياماً ، قبل ميقات الحجّ ، لأنقطع الى عبادة الله ، في مقام الرجل الذي هَدَى شيخي الى الله ...،

قلت : ومَنْ هو شيخك يا مولاي ؟

قال : هو الشيخ ابو النُّور الموزون رحمه الله ، من علماء سمرقند .

قلت : اتقضي ايامك كلها بالعبادة ؟

قال : امّا الآن فنعم ، ولكني ، قبل ذلك ، كنت اكتب قصّة ضلالي وايماني ، التي املاها عليّ شيخي الموزون ، ومنها عرفتُ اباك رحمه الله .

قلت : ما هي قصة ضلالك وايمانك ؟

قال : انها طويلة ، وسأنشرها للناس اذا يسّر الله .

ثم نهض الرجل ودخل الى غرفة القبور ، وعاد يحمل دفتراً كبيراً ، وضَعه بين يديّ .

وقال : هذه أمالي الشيخ الموزون ، ولكني نسختها نسخاً حسناً ، من دون ان ازيد فيها شيئاً .

قلت : هذا كتاب كبير . اتسمح لي ان احمله الى داري لأقرأه ، في ليلتين ، واردّه اليك ؟

قال : اتُحْسِنُ التركيّة ؟

قلت : نعم أُحْسِنُها جداً .

قال : أسمَحُ لك بالكتاب ، اذا وثقتُ بانك ابن الجسر حقاً ، وانك اهل لقراءة الكتاب .

قلت : ليس لي ان اؤكد لك صدق نسبي ، الا اذا تكرمتَ بمرافقتي الى داري ، ليشهد لك الناس ، ولأريك كتب ابي .

قال : لا يحتاج الامر الى كل هذا . ولكنْ اسألك سؤالاً واحداً . ما هو اعظم كتب ابيك ، وما هو الباب الأهمّ فيه ؟

قلت : اشهر كتب ابي (الرسالة الحميدية) ، والباب الأهم فيه ؛ هو الذي يدور البحث به حول اثبات وجود الله ، والردّ على الطبيعيين المُلحدين . ولكن هذا الباب الأهمّ مدفون ، بين مباحثَ اخرى تتعلق باثبات النُبوّة ، في صدْر الكتاب ، وببعض الحِكَم في آخره ؛ لذلك وقع في نفسي ، ان اجرّد المبحث الاهمّ ، وان الخّصه ، واطبعه على حدته .

قال : آمنتْ بانك ابن الشيخ حقاً ، وبانك اهل لحمل هذه الامانة . وكتابي هذا هدية مني اليك ، ففيه ما ذكرتَ من التلخيص لكتاب ابيك ، وفيه قصّة ضلالي وايماني كلها . فخذه وترجمْه واطبعْه وانشره بين الناس . ولا اسألك عليه اجرا ، ولكن اسأل الله الكريم ، ان يجعل عملي خالصاً لوجهه ، وان ينفع به الناس ، وينفعني ، اذا جاء اجلي ، وانقطع عملي ...،

وسافر الرجل ، بعد ايام ، الى الحجاز . واخذتُ انا في ترجمة الكتاب ، في بضع سنين . ثم طوّحتْ بي طوائح الزمن الى (طَشقَنْد) . وكان اعظم همّي ان اصِلَ الى (خَرْتَنْك) ، لأزور حيْران بن الاضعف، واعرض عليه الكتاب ، بعد الترجمة ، وازور ضريح الامام البخاري

رضي الله عنه . وساعدني ، على ذلك ، رجل النبل والمروءة الشيخ ضياء الدين باباخان ، ابن العبد الصالح العابد الزاهد ولي الله باباخان مفتي البلاد الاكبر رحمـــه الله ، الذي كان من احباب ابي ؛ فلما احس مني بتلك الرغبة في زيارة (خَرْتَنْك) ، تفضّل بمرافقتي الى سمرقند ، ومنهـا الى (خرتنك) . وهناك علمت من خادم المسجد ، ان حيران بن الأضعف ، كان ذهب الى اداء فريضة الحج ، وقضى نحْبه في مكـّة . وزرنا مسجد الامام ، ووقفنا على ضريحه ، فاذا المسجد كما وصفه (حيران) رحمه الله ، اشبه شيء ، بجامع طَيْنَال ، بمزلته بين الرياض ، واذا قبر الامام ، قائم بالعراء ، في روضة صغيرة ، تحت شجرة وارفة الظلال ، وهو على حاله ، بلا تخْصيص ولا ستر ولا زخرفة ، ودخلت الى الغرفـة الصغيرة ، التي كان يقرأ بها حيران وشيخه ، فاذا هي ، كما وصفَ ، تُطلّ على قـبر الامـــام . وجاثيتُ فيها ، وترحّمتُ على حيْران بن الاضعف ، وخنقتني الدموع ، حتى تعجّب صاحبي من بكائي ...،

هكذا وصل اليّ هذا الكتاب الذي اقدّمه للقراء اداءً للأمانة .

الفقير الى رحمة الله
عبد الله نديم بن حسين الجسر
مفتي طرابلس

الفِـرَارُ
الىَ الشَّيخ المَوزونـ

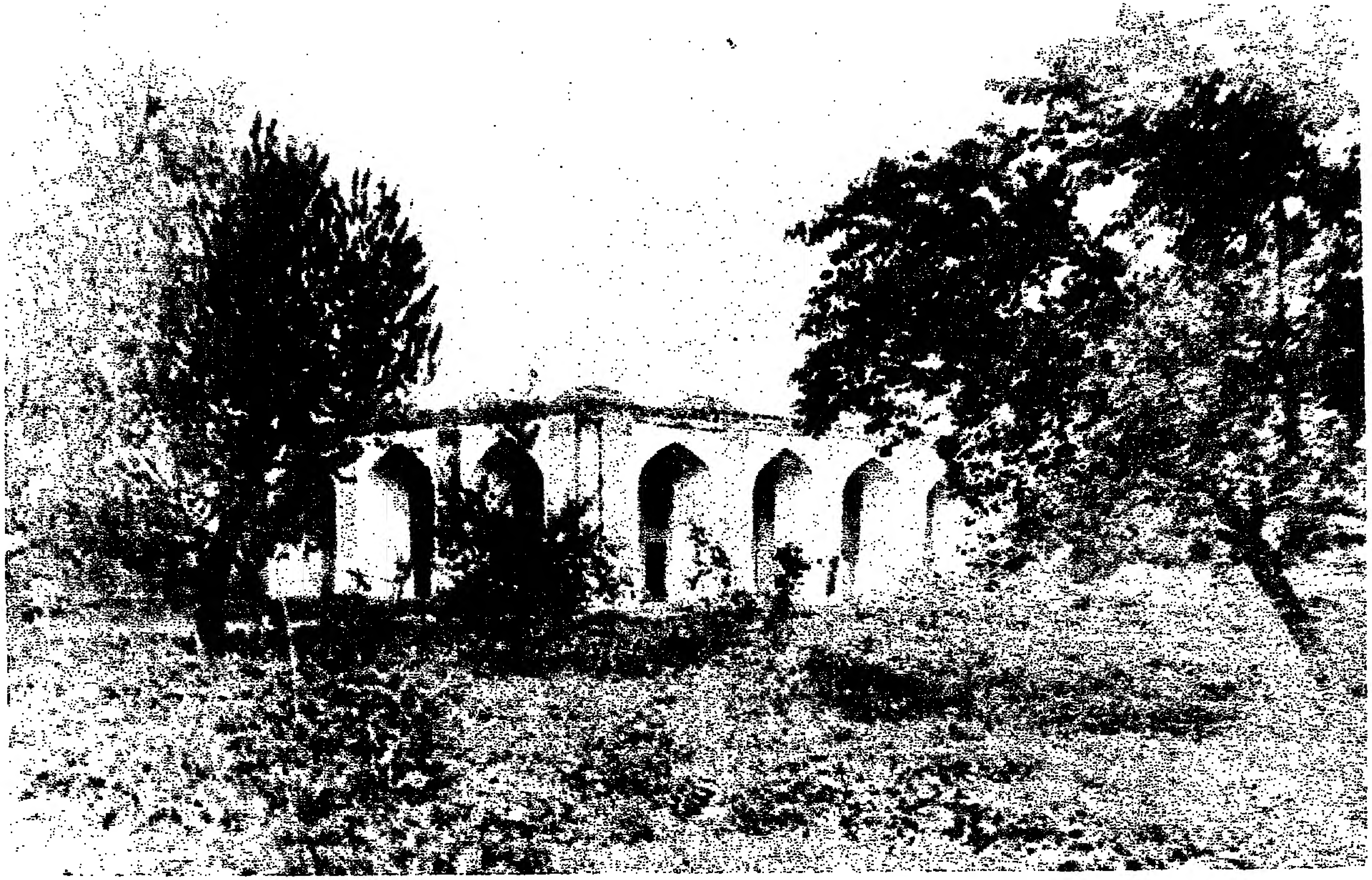

مسرح القصة: مسجد الإمام البخاري في قرية خَرْتَنْك قرب سمرقند

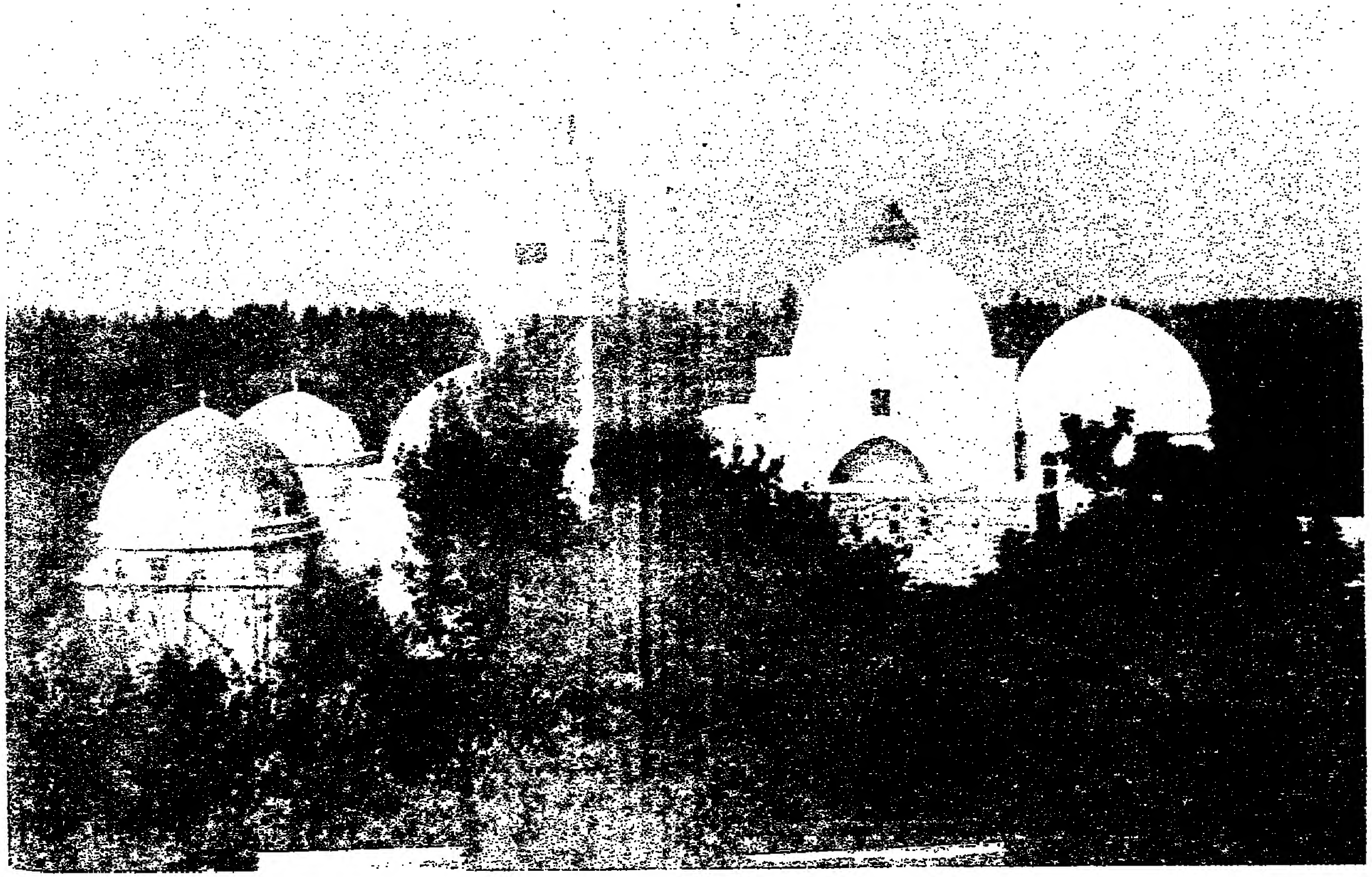

مسرح القصة : مسجد الامير (طينال) في طرابلس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الانبياء والمرسلين ، وبعد :

يقول العبد الضعيف ، الفقير الى رحمة الله ، حيران بن الاضعف المائي البنجابي :

لما كنت اطلب العلم في جامعة (پيشاوَرْ) ، كانت النفس المُطلعَة مشوقة ، بفطرتها ، الى المعرفة : تستشرف كل غيب ، وتشرئبُّ الى كل مجهول ، فتبحث عن اصل كل شيء وكنهه ، وسببه وعلّته ، وسرّه وحكمته ؛ فكان دأبي وديدَني ان اسأل الشيوخ والرفاق ، عن هـذا العالَم ، ما هو ، ومتى خُلِق ، وممّ خُلِق ، ومَن الذي خلقه ، وكيف خلَقه ؟ فلا أقابَل على هذه الاسئلة الا بالزَّجر ، ولا أُجاب عليها الا بالسُّخر ، فيقول المشايخ عني : هذا ليس بطالب علم ولا دين ... إنْ هو الّا متفلسف سخيف ... حتى عمّ هذا التسخُّر مني كل الرفاق ، فنبذوني ، وتسابقوا ، ترضّياً للمشايخ ، الى نَبْزي باشنع الالقاب ، حتى ضاقت بيَ الجامعة ، على رحبها ...

وزادني هذا التهكم اصراراً وشكاً ، حتى وَقَر في نفسي ان الحقائق التي انشُدها ، لا تدرَكُ ولا تُعلَم ، الا من طريق الفلسفة ، وانّ العقل

والدين لا يجتمعان ؛ ولولا ذلك ما نفر مشايخي من الفلسفة ، ولا تهرّبوا من الخوض معي ، في كل جَدَل عقــلي ، حول سرّ الوجود ؛ فاهملتُ دروس الدين ، واخذت ابحث عن كتب الفلسفة ، فما وجدت منها ، في بلادنا ، الا النذر اليسير ، فصرت اقرأ بلا فهم ، وازداد ، في كل يوم ، حـيرةً وشكاً ، وثرثرةً وجدلاً . وما زال هـــذا حالي ، حتى يأس المشايخ مني ، وخافوا ان يسري الداء الى الرفاق ، فحكموا بطردي من الجامعة .

ونزل النبأ على نفس ابي نزول الصاعقـــة ، فحاول انـ يردّني الى الهُدى ، بكل ما أُعطي من عقل وحنان ، ونصحني ان اترك هــــذه الفلسفة ، وانصرف الى علْم الدين ، فاذا انقضت ايام الدرس كان بامكاني ، اذا شئتُ ، ان انكبّ على الفلسفة انكباباً صحيحاً . وقال لي في آخر حديثه : يا حيران ! لقد مررتُ في مثل الذي انت فيه ، فمالت نفسي الى الفلسفة ، واوغلتْ في الشك والحيرة ، ولكن استاذنا الاكبر العارف بالله الشيخ ابو النور الموزون السمرقندي ، الذي كان فقيهاً كبيراً ، وعالماً جليلاً ، وفيلسوفاً عظيماً ، نصحني ، يومئذ ، بمثل ما انصحك به اليوم ، وقال لي (ان الفلسفة بحْر ، على خـــلاف البحور ، يَجِدُ راكبُه الخطر والزيغ في سواحله وشطآنه ، والأمانـ والإيمان في لُجَجه واعماقه) . فدعْ عنك ، يا ولدي ، هذه القراآت الناقصة المشوشة البتْراء ، فانهـــا شديدة الخطر على عقلك وايمانك .

قلتُ : وهل العقل والايمان على طرَفيْ نقيض ؟

قال : معاذ الله .

قلتُ : اذاً ، لماذا يُنكر عليّ ، هؤلاء الشيوخ العلماء ، كل جدل عقلي في امر العالَم وخَلقِه ؟

قال : ان اكابر علماء الدين ، قد خاضوا في هذا الجدل العقلي ، رداً على الشكّاك والملحدين ، والّفوا في ذلك المُطَولات ، ولكنهم يَكْرهون ، من الطالب هذا الولع بالفلسفة ، لأنه ، في نظرهم ، يزعزع الايمان .

قلتُ : ولكن اخواننا ، في المدارس والكليات الاخرى ، يَدْرسون الفلسفة ، كعلم اصيل لا بدّ منه ، فما الفائدة ، اذاً ، من ابعاد طــلاب علوم الدين ، وحدهم ، عن الخوض في الفلسفة ، وهم قلّة بالنسبة لطلاب علوم الدنيا ؟ وكيف يصنعون اذا هم اصبحوا ، يوماً ، في مركز الارشاد والفُتْيا ، وألقى عليهم ، احــد الناس ، شبهة عَرَتْه من اثر الفلسفة ، التي تَعَلّمها رُغم انفه ؟ اتراني سأقف ، من الناس ، يومئذ ، نفس هــذا الموقف الجامد ، الذي يقفه مني الاساتذة اليوم فاطرد السائلين ...؟ الا ترى ، يا ابي ، ان دوام هذا الحال ، يؤدّي الى زيادة انتشار الألحاد بين الناس ...؟

قال : هذا صحيح ، ولكنّ شيخنا الموزون ، يقول ، كما اخبرتك ، ان قارئ الفلسفة لا يكفيه ، منها ، القليل . أفترى انّ بالامكان ان تتوسع المدارس في درس الفلسفة ، حتى يكون كل الطلاب ، وكل الناس ، فلاسفة ؟

قلتُ : كلّا . ولكنّ هذا التوسع ، الذي هو غير ممكن ، وغــير ضروري ، بالنسبة لكافة الطلاب ، اصبح ضرورياً بالنسبة لعلماء الدين ، بــل واجباً اصيلاً عليهم ، ليستطيعوا القيــام بما هو مطلوب منهم من الارشاد الى الحق ، والدعوة الى الله .

قال ابي ، وهو يهزّ رأسه بمرارة : هذا حقّ ، ولكن ما العمل...؟

قلتُ : وهل بَرَّ ، شيخك الموزون ، بوعْده ؟

قال : انه لم يُخلف وعده ، ولكنه مال ، في شيخوخته ، الى الزهد . ثم رحل ، عن البنْجاب ، الى وطنــه سمرقند . وهو اليوم في قرية قريبة منها ، تسمّى (خَرتَنْك) ، منقطع الى الله ، في مسجد مبني عند ضريح الأمام البخاري رضي الله عنه .

قال ابي هذا ، وهو لا يعلم انه دلّني على طريق الفرار من الجامعة ، التي كان يحاول ردّي اليها ، وحكم على نفسه ، وهو على عتبة الشيخوخة ، بأن لا يرى وجهي الى الابد ... ووصلتُ الى سمرقند بعد سفر طويل ، مشياً على الاقدام ، وسألت عن (خرتنك) ، فدلوني عليها ، وهي غــير

بعيدة عن المدينة ، فذهبت اليها ماشيا ، وبلغتها قبيل غروب الشمس ، فتلقاني صبيان القرية ، بالدهشة التي يُلاقى بها الغريب عند اهل القرى ، واتصل خبري بالرجال ، فجاء ثلاثة منهم ، يرحبون بي ، ويدعونني الى دار كبير القرية ، الذي اكرم وفادتي ، وسألني عن حاجتي ؛ ولما عرفها تبسم وقال : هيهات ان يسعدك الحظ بلقاء مولانا الشيخ الموزون ، فانه منقطع ، منذ اكثر من خمس سنوات ، الى العبادة ، في البساتين التي حول مسجد الامام ، ولا يأوى الى المسجد الّا اذا اسدل الليل ستره ، فينام ، اذا كان الصيف ، في الروضة ، عند ضريح الامام ، واذا كان الشتاء ، يأوى الى غرفة صغيرة تُطلّ على الضريح ، لا يدخلها عليه احد ابداً . وقد حاول كثير من الناس ، ان يتصلوا به ، فما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، بل نحن اهل هذه القرية لا نتصل به ، وانما نوصل اليه طعامه ، مع خادم المسجد ، فيضعه له في سياج البستان ، من غير ان يراه .

قلتُ : لعل الله يُقدّر لي ، من نعمة الوصول اليه ، ما لم يقدّره لغيري . وكل ما ارجوه ان تُعينوني على ذلك ، وتَعْهدوا اليّ بحمل طعامه . فقال الرجل : هذا اهون شيء تطلبه .

وفي الصباح الباكر حملتُ جُونة الشيخ ، وامر كبير القرية ، رجلاً ، ان يدلني على البستان الذي يسْرح الشيخ فيه . فسار بي حتى اوصلني الى المسجد ، ثم دلني على البستان ، وعلى المكان الذي جرت عادته ان يضع فيه الطعام ؛ فدنوت من سياج البستان ، ووضعت الجونة في مكانها ، ثم علّقتُ بحرفها ورقة صغيرة كتَبتُ فيها هذه الكلمات :

ما ...؟ ومَنْ ...؟ وممّ ...؟
وكيف ...؟ واينَ ...؟ ومتى ...؟

ثم قفلت راجعاً ، حتى وارتْني شجرة متشابكة الاغصان ، كمنتُ فيها ، لأرى الشيخ ، اذا حضر ، من حيث لا يراني . وبعد ساعة ، ظهر ، من خلال الاغصان شيخ مهيب الطلعة ، طويل القامة ، محدودب الظهر ، حنطي اللون ، عربي الوجه ، اقنى الانف ، خفيف العارضين ، عاري

الرأس ، ودنا من السياج ، واقبـــل نحو الجونة . فلما تناولها ، ووقعت عيناه على الورقة ، وقرأ ما فيها ، اخذ يتلفت يمنــة ويسرة ، ثم ترنّح وسقط مغشياً عليه . فعدَوتُ نحوه ، وفعلت كل ما امكن حتى انعشْته. فلما افاق من غشيته ، فتح عينيه ، ونظر اليّ نظرة طويلة ، ثم تمتم قائلاً : لا تخفْ . ساعدْني على النهوض . فساعدته حتى دخلت بــه البستان ، فجلس على حرف الساقيــة ، فغسل وجهه ، واستسلم الى السكون ، وهو مغمّض العينين . وبعد صمت طويل ، سمعته يقول ، بصوت فيه بُحّـــة الباكي : لا حول ولا قوة الا بالله ، يكررها ثلاثاً ... ثم التفت اليّ وقال :

يا بُنيَّ . لقــد ازعجتني ، وافسدتَ عــليّ لذة استغراقي في ذلي وانكساري الى الله ، وذكّـرتني بِشَـرّ ما كانت تعانيه النفس من غُصَص الحيرة والشك ... سامحك الله ... سامحك الله . من انت يا ولدي ؟

قلتُ : انا حيران بن عبد الله الأضعَف ، تلميذك البنجابي القديم .

قال : اهلاً بك . كيف حال ابيك ؟ قلت : بخير .

قال : اراك وقعتَ في مثل ما وقع فيه ابوك من قبل ؟

قلتُ : نعم ، وهو الذي دلني عليك وارشدني اليك يا مولاي .

فنظر اليّ الشيخ نظرة طويلة ، ثم حوّل وجهه الى الماء واطال النظر فيه ، واغرورقت عيناه بالدموع ، ثم قال : وارحمتاه لكم يا شباب هــذا الجيل ... انتم المخضْرمون بين مدرسة الايمان من طريق النقل ، ومدرسة الادراك من طريق العقل . تلوكون قشوراً من الدين ، وقشوراً من الفلسفة ، فيقوم في عقولكم ، ان الايمان والفلسفة لا يجتمعان ، وان العقل والدين لا يأتلفان ، وان الفلسفة سبيل الالحاد ... وما هي كذلك يا ولدي ، بل هي سبيلٌ للأيمان بالله ، من طريق العقل ، الذي بُنيَ عليه الايمان كلّه . ولكنّ الفلسفة ، يا بُنيّ ، بحر على خلاف البحور ، يجد راكبه الخطر والزيْغ في سواحله وشطآنه ، والأمان والإيمان في لججه واعماقه . وهذا ما قلته لأبيك من قبل ...

فاهويْتُ على يد الشيخ اقبّلها ، واشكو اليه ما اعاني من عـــذاب

التردد ، والحيرة ، والشك . فاطرق طويلا ، وهو ينكث التراب بعود في يده ، ثم قال : يا حيران ، ليس الامر على ما تظن من السهولة واليُسْر ، بل يحتاج الى جهد عظيم ، ووقت طويل . وقد جئتني ، يا ولدي ، وانا على حافّة قبري ... اين منزلك في القرية ؟ قلت : لا منزل لي فيها ، وقد وصلت اليها امس ، وبتُّ في دار شيخها ، الذي اكرم وفادتي .

قال : ليس في هذه القرية بيوت للكراء ، ولا يصح ان تبقى ضيفاً على الرجل ... قمْ الآن واذهب الى القرية ، واشتر لنفسك فراشاً ، وغطاء ، ودفتراً كبيراً ، وعد لتنام في المسجد ... وسنجعل الليل للدرس ، فهو اهدأ واصفى واوسع وقتاً ، اما النهار فلا اترك فيه عزلتي ، فانه لم يبق لي ، من لذّات الحياة ، الّا هذا الانقطاع لذكر الله ، بين الرياض ، من الفجر الى مغيب الشمس . ولا يُفسد عليّ بهجتي الّا البرْد اذا قرس ، فحبسني بين الجدران ... فالى اللقاء يا حيران ...

الباحثون عن الله

يقول حيران بن الاضعف :

جئتُ المسجد ، احمل فراشي ، قبيل المغرب ، فوجدته خالياً ، الّا من شيخ عجوز يُشعِلُ القناديل ، وهو الذي رافقني الى المسجد في الصباح ؛ فلما وقع بصره عليّ اقبل نحوي ، وسلم عليّ ، ثم سألني عن حـــالي ، فاخبرته باني عزمت على المبيت في المسجد ، لأنقطع الى العبادة ، بجوار الامام البخاري رضي الله عنه ، فابتهج الرجل العجوز وقال : اهلاً بك ، ولكنْ نرجو ان لا تحرمنا من صحبتك ، كما يفعل مولانا الشيخ الموزون ، الذي جاءنا ، مثلك ، من خمس سنوات ، مجاوراً ، ثم انقطع الى العبادة ايّما انقطاع ، فلا نراه ابداً ، لأنه يخرج الى الغياض مع الفجر ، قبل ان اجيء انا من القرية ، ولا يأوى الى المسجـد ، الا بعد غروب الشمس ، ولا يرضى ان يراه احد من الناس .

قلتُ : انت خادم المسجد ؟ قال : نعم ، انني اخدم في هذا المسجد منـــذ خمسين عاماً . قلت : مالي اراه خلوا من المصلين ؟ قال : من اين يأتي المصلّون ...؟ ان المسجد بعيـد عن القرية ، فلا يصلّي فيه الا عابر سبيل ، أو زائر لضريح الامام . وبعد ان صلّينا المغرب والعشاء ، ارشدني الرجل العجوز الى موضع الماء ، وطلب اليّ ان اطفئ القناديل ، اذا لم اكن محتاجاً اليها ، وان أرتج الباب بعد خروجه ، ثم ودّعني وذهب الى القرية . ولما خرج ارتجْتُ باب المسجد . فما سمع الشيـــخ الموزون صوت الرتاج ، حتى فتح باب غرفته الصغيرة وناداني ، فاتيته ، فقال ادخـــلْ ، فدخلت وقبّلت يده ، فرحّب بي ، واستفسر عن حـــالي ، وحدثني عن ابي ، ساعة كاملة . ثم قال : هل احضرت الدفتر ؟ قلت نعم . قال عليّ

ان آملي ، وعليك ان تكتب كلامك وكلامي ، لتراجعه في النهار ، فقد اخترتُ لك طريقة الحوار ، فهي ايْسر للفهم والتفهيم والمناقشة . والآن هات اسئلتك .

حيران – اسئلتي هي التي كتبتها لك ، يا مولاي ، في الورقة الصغيرة ، ولا اجسر على تكرارها ...

الشيخ – اسئلتك هذه ، هي التي شغلتْ عقول الفلاسفة ، بل عقول الناس كافة ، منذ بدأ الانسان يفكر . والفلسفة هي التي تحاول ان تجد لها جوابا ... اما انها وجدت الجواب الصحيح ، على كل سؤال ، أو لم تجده ، فهذا شيء سوف تعرفه اذا بلغت الغاية . فالفلسفة تريد ان تعرف ، يا حيران ، حقيقة كل شيء وكنهه ، واصله ، وغايته ؛ ولا تكتفي بالظواهر ، بل تريد النفوذ الى البواطن ، ولا تكتفي بهذا العالـَم المحسوس ، بل تريد ان تعرف ما وراءه ، وما كان قبْله ، وتريد ان تعرف مَن الذي خلقه ، ومن ايّ شيء خلقه ، ومتى خلقه ، وتريد ان تعرف ما هو هذا الخالق ، وما كُنْه ذاته ، وما حقيقة صفاته ، وما هو هذا الانسان ، وما حقيقته ، وما هو عقله ، وكيف يتم ادراكه ، وما مبلغ هذا الادراك من الصحة ، وما هو الخير ، وما هو الجمال ، ولمَ كان الخير خيرا ، والجميل جميلا ؛ الى غير ذلك من الاسئلة التي لا تنتهي ، سعياً وراء معرفة المبادئ الاولى لكل شيء . ولذلك قالوا في تعريف الفلسفة : (انها النظر في حقيقة الاشياء) ، وقالوا : (انها علم المبادئ الاولى) ، وقالوا غير ذلك . امّا انا ، فاني اعرّفها لك ، بانها (محاولة العقل ادراك كُنْه جميع المبادئ الاولى) ، وسوف ترى ان كنتُ على حق في هذا التعريف .

حيران – ان العلم يبحث ايضاً ، يا مولاي ، عن حقائق الاشياء ، فهل العلم غير الفلسفة ؟

الشيخ – الفرق بين العلم والفلسفة ، ان العلم يكتفي بدرس ظواهر هذا الكون ، ونـُظـُمه ، ونواميسه . اما الفلسفة فتبحث في اصل الكون ، وعلّته ، وحقيقته . فالعالِم الطبيعي يكتفي بدرس المظاهر الطبيعية للمادة ،

من غير ان يفكر في اصلها وعلة وجودها . والرياضي يبحث في الهندسة والحساب ، من غير ان يتكلف عناء التفكير في معنى المكان والزمان . وكلاهما يبحثان ، بوساطة هذا العقل ، الذي يتمتعان به ، من غير ان يفكرا في كُنْه هذا العقل ، وقدرته على ادراك الحقيقة . اما الفيلسوف فانه يريد ان يفهم ، في آن واحد ، كنه المادة ، واصلها ، وعلة وجودها ، ومعنى المكان والزمان ، وكنْه العقل ، وحقيقته ، ومبلغه من السلامة والقدرة على ادراك الحقيقة ؛ فيتناول ، بدرسه وبحثه ، المعقولَ والعقلَ ، في آن واحد ...

ومن البحث في الكون وعلته تكوّنت (فلسفة الوجود) . ومن البحث في العقل وكنهه وقدرته تكونت (فلسفة المعرفة) . ومن البحث في كنه الخير والجمال والقبح تكونت (فلسفة القيَم) . والذي يهمني ان ابسطه لك ، من هذه المباحث ، هو (مبحث الوجود) و (مبحث المعرفة) ، دون سواهما .

حيران — لم افهم ، يا مولاي ، وجه هذه العناية بمبحث دون مبحث .

الشيخ — وجه العناية ظاهر ، لو تأملت . فمبحث الوجود يتناول طبيعة الموجود ، وحقيقته ، واصله ، وعلته ، أي المخلوقَ والخالق ؛ ومبحث المعرفة يتناول الآراء التي قالها الفلاسفة في كيفية حصول المعرفة ، ووسائلها ، ومبلغها من الصحة . واسئلتك ، التي تشغل بالك ، وتُلقيك بين براثن الحيرة والشك ، تكاد تنحصر في المبحثين الاولين ، وليس لها كبير علاقة بمبحث القيَم ، الذي يتكلم في حقيقة الجمال والقبح والخير والشر وما الى ذلك .

حيران — حقاً انّ الذي يشغل بالي يكاد يكون منحصراً في (مبحث الوجود) دون سواه ، فما هو الداعي للتبسط في مبحث المعرفة ؟

الشيخ — ان المسألة الميتافيزيقية ، التي اعلم انها هي وحدها التي تشغل بالك ، لا يمكن درسها الّا على ضوء (مبحث المعرفة) ، لأن درسنا ، للآراء العديدة ، التي قيلتْ في تفسير المسألة الميتافيزيقية ، لا يتمّ ولا

يستقيم ، الا بعد درس طرق المعرفة ووسائلها ، والوقوف على صدق هذه الوسائل وقدرتها على ادراك اليقين من الحق الذي نبحث عنه .

حيران — اذاً ، يكون مبحث المعرفة خادماً لمبحث الوجود ، ووسيلة لادراك الحق ، في المسألة الميتافيزيقية .

الشيخ — هذا هو الواقع .

حيران — اذاً ، يكون جوهر الفلسفة هو المسألة الميتافيزيقية .

الشيخ — هذا هو الواقع . فالفلسفة ، كانت وما زالت ، في جوهرها ، عبارة عن البحث عن الله .

ثم اخرج الشيخ ، من تحت وسادته ، كتاباً ضخماً ، وقال هيّا نبدأ .

حيران — ما هذا الكتاب يا مولاي ؟

الشيخ — هذا الكتاب يُحدّثنا عن مفكرين يبحثون عن الله .

حيران — ما اسمه .

الشيخ — فلاسفة اليونان .

حيران — كيف قال مولاي الشيخ انه كتاب لمفكرين يبحثون عن الله .

الشيخ — نعم هو لمفكرين يبحثون عن الأله الحقّ . الم اقل لك ان جوهر الفلسفة هو البحث عن الله .

حيران — انني قرأت شيئاً من اقوال هؤلاء الفلاسفة اليونانيين الاوّلين، فوجدت انهم كافرون .

الشيخ — نعم انهم كافرون بآلهة اليونان . وامّا الأله الحق فهم يبحثون عنه . فمنهم من يهتدي اليه ، ومنهم من يعجز عقله عن تصوره ، ومنهم من يقوده العجز الى الضلال . وسوف ترى ان اراءهم ، على ما فيها من ذكاء واخلاص في البحث ، تنطوي على نظرات الى الكون ساذجة حائرة ، فيها ومضات من نور الحق ، في ظلمة حالكة من الابهام والغموض والتناقض والشكّ والسفسطة .

فطاليس ، يبدأ بالعقدة الكاذبة ، التي لازمت عقول كل الفلاسفة ، بل كل البشر ، فيرى ان العالم لا يمكن ان يكون مخلوقاً من (العدم المحض) .

وان كل بداية ليست في الحقيقة سوى تغيّر ، فيجب اذن ، افتراض مادة اولى ازليّة نشأت عنها كل الموجودات . وهذه المادة الازلية ، هي الماء . والذي حمله على اختيار الماء ، انه بحث ، في الموجودات ، عن مادة لها قابلية التغير والتشكل ، فرأى الماء يكون مائعاً ، فيصبح تارة ثلجاً كثيفاً ، وتارة بخاراً لطيفاً ، ثم يرجع ماء . ورأى ان الرطوبة شرط في الحياة ، فاعتقد ان الماء ، الذي له هذه الخواص ، هو اصل الموجودات كلها ...

ولكن (انِكْسيمنْس) يرى ان الهواء اكثر من الماء مرونة وقابلية للتحول ؛ لأنه يبرد فيصير ماء ، ويسخن فيصير بخاراً ، ثم يزداد تخللاً فيرجع هواء ؛ فزعم انه لو زاد تخلله لصار ناراً ، وكوّن شموساً واقمارا ، وانْ تكثّف صار سحاباً ، ثم ماءً ، وان زاد تكثّفه ، انقلب اتربة واحجاراً ، ورأى انه لازمٌ للحياة فاعتبره اصل الكائنات ...

اما (انِكْسيمنْدر) ، الذي تنطوي افكاره على تفكير عميق ، رغم ما يبدو في ظاهرها من سخافة ، فقد قال : ان القول بالماء والهواء ، لا يتفق مع صفات الاشياء كلها : فللماء صفات ، يمتاز بها ، وللهواء صفات ، وللموجودات الاخرى صفات ، فلا يعقل ان تكون كل الكائنات ، على تباين صفاتها ، ناشئة عن اصل يختلف عنها بصفات خاصة به ... ومن هنا اضطره عقله السليم الى القول بان اصل الكائنات (مادة لا شكل لها ولا نهاية ولا حدود) .

حيران — حقاً ان بحث انكسيمندر ، عن شيء يصلح ان يكون اصلاً لهذه الكائنات المختلفة ، ويخالفها جميعاً بالشكل والحد والرسم والصورة ، يدلّ على عمق في التفكير ، ولكنْ ما معنى ان يسميها (مادة) ، وان يقول انه لا شكل لها ولا نهاية ولا حدود ؟

الشيخ — من هنا تدرك صدق ما قلتُه لك . فهؤلاء الفلاسفة الاولون ، نذورون في كفرهم بآلهة اليونان ، ومحقّون في بحثهم العقلي الطليق ، عن مصدر للعالم ، عند غير هؤلاء الآلهة ، الذين لهم كل صفات البشر ،

واخلاقهم ، ورذائلهم ؛ لأن عقولهم لم تصدقْ ، ان يكون هذا العالَم ، من خَلْق اولئك الالهة المبْطانين ، السكيرين ، الكذابين ، المحتالين ، الزناة ؛ فاخذوا يبحثون عن الآله الحقّ ، الذي ليس (كمثله شيء) ، من حيث لا يشعرون ...،

ثم جاء (فيثاغور) ، الذي لم يعجبْه ذلك الاتجاه ، الذي يسير في تفسير نشأة العالم وجهة (طبيعية) ، فاتّجه ، في التفسير ، وجهة (رياضية)، فقال مع اتباعه : ان الماء والهواء وكل مادة ، مهما كانت ، لا تصلح ان تكون اصلاً لهذا العالم المركب من اشياء متباينة ، مادية وغير مادية ، فلا بد لنا ان نبحث عن شيء له صفة عامة ، تشمل كل شيء ، من الماديات ، وغيرها . وما من صفة تشمل العالم ، بما فيه من مادة وغير مادة ، الا صفة العدد (le nombre) ، فنحن نستطيع ان نتصور هذه الاشياء ، بلا الوان ، ولا طعوم ، ولا روائح ، ولا احجام . ولكننا لا نستطيع ان نتصور شيئاً غير قابل للعدّ . فالعدد ، اذاً ، هو الصفة الوحيدة المشتركة التي يتصف بها كل ما في الكون . وهو ، وحده ، الذي يصلح ان يكون اصلاً له . ولما كان ما في الكون عبارة عن عدد متكرر ، والاعداد عبارة عن تكرار (الواحد) ، (فالواحد) اذن هو اصل الكون وعلته وحقيقته .

وهذه الاراء التجريدية ، على اغراقها في الخيال ، تدل كلها على محاولة الناس ، ان يصلوا الى فكرة الاله الحق المجرد عن صفات المادة ، من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون .

حيران ــ وهل كان عند هؤلاء اليونانيين القدماء فكرة وجود اله غير آلهتهم ؟

الشيخ ــ ان فكرة وجود الاله الحق لم تخلُ منها الارض منذ صار الانسان انساناً ، يمتاز بهذا العقل المفكر .

وهذا (اكزنوفنس) ، احد فلاسفة اليونان الاوائل ، الذي سما على اهل عصره ، فنبذ اساطير اليونان القائلة بفكرة التجسيد البشري للالَه

(Anthropomorphisme) ، وسخر من آلهتهم التي تأكل وتشرب وتلد وتموت ، يقول : (ان الناس هم الذين اخترعوا الالهة وتصوروها بمثل هيئاتهم ، ولو كانت الثيران أو الاسود أو الجياد تعرف التصوير لرسمت لنا الاله على اشكالها ثوراً أو اسداً أو جواداً . كلا ثم كلا . انه لا يوجد غير اله واحد ، هو ارفع الموجودات ، ليس مركباً على هيئتنا ، ولا يفكر مثل تفكيرنا بل كله بصر ، وكله سمع ، وكله فكر) . واما ادراك كنه هذا الاله الواحد العظيم ، فان اكزنوفنس يراه مستحيلاً على عقولنا . ويقول في ذلك كلمته ، التي قفز بها ، في تاريخ الميتافيزيقية ، الفيْ سنة ، الى الامام : (ما من انسان يستطيع ان يعرف الله معرفة دقيقة ، حتى لو شاءت المصادفة لإنسان ان يقول ، في وصف الله ، الحقّ كل الحق ، فهو نفسه لن يعرف انه يقول الحق) .

حيران — افهم من قولك ، يا مولاي ، ان اكزنوفنس قفز بكلمته هذه ، الفي سنة ، الى الامام ، ان الفلسفة انتهت الى الايمان بوجود الله ، فاذا كان الامر كذلك ، فارجو من مولاي الشيخ ، ان يريحني ، ويريح نفسه من سخافات الاولين ، التي قرأت شيئاً منها في (پيشاور) ، وينقلني الى الفلسفة الحديثة .

الشيخ — لقد أوصيتك من قبل بالصبر ، والان اكرّر لك النصيحة . فانه لا ينفعك ، ان انتقل بك ، بخطوة واحدة ، الى النتيجة التي انتهت اليها الفلسفة التي تشغل بالك ، بدون ان تكون قد عرفت ما قاله الاوائل والاواسط . فقد لا يعجبك رأي الاواخر ، ويأتيك من يوسوس لك ، بان الحقيقة عند الاوائل ، فيرجع اليك شكك ، وتعود اليك حيرتك . ولن يتم لك يا حيران فهم الاواخر ، الا اذا سبقه العلم بمن قبلهم . فعليك بالصبر .

حيران — لقد ادركت حكمة مولاي الشيخ في الربط بين سلاسل التفكير ، فارجو ان لا يوآخذني .

الشيخ — ثم يأتي (بارْمنيدسْ) الذي يرى ان الماء والهواء والعدد ،

أو أي شيء آخر ، لا تصلح ان تكون اصلا للأشياء . لأن هذه الأشياء كلها (متغيرة) . ونحن لا نعرف عنها الا صفاتهـــا الظاهرة . وكل هذه الصفات يعتريها التغيير والفناء ، الا صفة واحدة ، وهي صفة (الوجود) (l'être) فهذا الوجود الدائم ، هو الذي يصح ان نتخذه اصلاً للكائنات .

حيران – ما هو هذا (الوجود) ، وماذا يريد به ؟

الشيخ – ان بارمنيدس يصفه لنا بانه وجود (ازلي) ، (لا يتغير) ، و (لا يفنى) ، وليس له ماض ولا مستقبل ، بـــل هو يستوعب الازل والابد . وهو (لا يتحرك) ، و (لا يتجزأ) ، لأن الحركة صورة للتحول ، وهو (كامل) ، وليس وراءه وجود آخر .

حيران – كيف يكون الوجود مبرأ من الحركة والتغير ، ونحن نرى هذه الاشياء متحركة ومتغيرة ؟

الشيخ – ان بارمنيدس لا يرى ان هذه الاشياء ، التي نراها ونحسّها ، هي من الوجود ، بل يعتبرها (مظاهر apparences) وهمية ، لأنهـــا فانية ، والوجود خالد ، لأنهـــا متغيرة ، والتغير يقتضي اجتماع الوجود واللاوجود ، وهذا مستحيل .

حيران – انني لم افهم . هل يريد بارمنيدس القول بوحدة الوجود ؟

الشيخ – هكذا ، يا حيران ، يفعل التجريد في العقل . فان هؤلاء الفلاسفة ، لا يريدون في الحقيقة انكار الموجودات ، وانما هم يبحثون عن اصل كامل ، ثابت ، غير متغير ، مجرد عن صفات الموجودات ، يصلح ان يكون مُوجِداً لها ؛ وهذا لعمري هو البحث عن الله ، من حيث لا يريدون ولا يشعرون ...»

وجاء بعد بارمنيدس ، تلميذه (مليسّوس) . فزاد على رأي استاذه ان هذا الوجود غير متناه ، وان (حيـــاة عاقلة) ؛ ولو استمعت الى برهانه على ان الوجود ازلي ابدي غـير متناه ، ولا متحرك ، وله حياة عاقلة ، لقلتَ معي ، ان هذه العقول كانت تبحث عن الله الواحد الأحد ، من حيث تدري أو لا تدري .

انه يقول : كل حادث لا بد له من مبدأ . وليس الوجود حادثا ، لأنه لو كان حادثاً ، لكان من اللاوجود . فالوجود ، اذاً ، ليس له مبدأ وما ليس له مبدأ ليس له نهاية . وبما انه غير متناه فإنه لا يتحرك ، لأنه لا يوجد مكان بَعدَه يتحرك اليه . وهو غير متغير ، لانه لو تغير لأصبح اكثر من واحد . فهو واحد ، ازلي ، ابدي ، حيّ ، عاقل ، لا يتغير ... فتأمل يا حيران .

وجاء (هرقْليطْ) الذي يتردد في الرأي ، بين النزعة التجريدية والنزعة الطبيعية ، فقال ان الاشياء ، كما نراها ، في تغيّر دائم ، وتقلّب مستمر ، لا تستقر على حالة واحدة ، لحظة واحدة . وان هذا الاستقرار النسبي ، الذي نشاهده ، هُوَ وهمٌ ، وعجز منا عن رؤية التغيّر . واستنتج من ذلك ، ان الشيء الواحد ، يكون موجوداً وغير موجود ، في آن واحد . وهذا الاتحاد الآني بين الوجود واللاوجود هو (الصيرورة) التي هي حقيقة الوجود .

ولكن هرقليط ، لا يثبت على هذا الخيال ، في تفسير الكون . بل يعود الى النزعة الطبيعية القديمة ، فيقول : ان اصل الكون (نار) ، تحولت الى هواء ، ثم تحول الهواء الى ماء ، والماء الى يابس ، ثم يعود اليابس ماء فهواء فناراً . وكأنه رأى حياة الحيوان ترافقها الحرارة فزعم ان الروح نفسها عبارة عن نار .

وجاء (امْبدوقْلِسْ) ، فيلسوف العناصر الاربعة ، فاراد ، اولاً ، ان يوفّق بين رأي بارمنيدس ، وهرقليط ، فقال : ان الوجود مكوّن من ذرات . وان ما قاله بارمنيدس ، في وصف الوجود بانه لا يزيد ولا ينقص ، ينطبق على الذرات ، وان ما قاله هرقليط ، عن (الصيرورة) المستمرة ، يصدق على الاجسام ، من حيث الصور المتغيرة فيها . ثم اراد ان يتخذ رأياً وسطاً بين القائلين بتكوّن العالم من مادة واحدة تتحول ، كالماء والهواء والنار ، وبين القائلين بان مادة الوجود لا تتحول ، فوضع نظرية (العناصر الاربعة) ، التي ظلت تسيطر حتى القرن الثامن عشر ؛ فزعم ان الوجود مجموعة من عناصر اربعة هي : (التراب والماء والنار

والهواء) ، وجميع الاشياء مزيج من هذه الاربعة ، وما اختلافهـــا الاّ لاختلاف نسبة هذه العناصر في كل واحد منها ...

والى هنا يبدو امبدوقلسْ منسجما مـــع العلم في عصره ، بل سابقاً لعصره في وضع فكرة المبدأ الذرّي . ولكنــه حين يتكلم في سر القوة التي تحرك الذرات ، يبدأ بالتفكير السليم ، وينتهي الى الخيال العقيم ... فبينما نراه يقول : ان مادة الكون موات لا حياة فيهــا ، ولا حركة لها من ذاتها ، ولا بد من التسليم بان حركتها منبعثة من قوة خارجة عنها ، نراه يجنح الى الخيال فيقول : ان حركة المادة عبارة عن اتصال وانفصال، وهما ضدّان لا ينشآن من قوة واحدة ، بل لا بد لهما من قوّتين ، احداهما تدفع والاخرى تجذب . وهاتان القوتان هما الحب والنفور (l'amour et la discorde) . وان العناصر الاربعة كانت متصلة بقوة الحب ، ففرّقتهـــا قوة النفور الى اربعة ، ثم استجمع الحب قوته ، واخــذ في التأليف بين العناصر الاربعة ، فتكونت الاشياء التي نراها ...

حيران – ولكن من اين جاءت قوة الحب والنفور ؟

الشيخ – اتريــد ان تناقش رأياً مبنياً على الخيال ...؟ ان الرجل لم يكتف بهـــذا ، بل زعم ان الالهة والنفوس تتكون ايضاً من العناصر الاربعة ، ولكن يرجح فيها عنصر الهواء والنار ؛ فالنار هي الاله (زفس)، والهواء هو الاله (هيرا) ، والارض هي الاله (اركوس) ، والماء هو الاله الرابع المسمى (نستيس) الذي يبكي فتتساقط دموعـــه ندى على الارض ... ثم لج في هذا الهذيان حتى جعلنا كلنا الهة ، حيث قال : ان النفوس البشرية ليست سوى آلهة خاطئة ، ُقضي عليها أن تقيم بعيدة عن مقرّ السعداء ، متلبسة باجسام الصور الفانية ... وان الاجسام الحية تنبت في الارض رؤوساً ، دون رقاب ، واذرعاً بلا اكتاف ، وعيوناً بلا جباه ثم تتقارب ، بقوة الحب ، فتكون انساناً ...

حيران – اكاد اعود فارجو ، من مولاي الشيـــخ ، ان يطوي عني ذكر هذه السخافات .

الشيخ – اني ما ذكرت لك هذه الاقوال ، الا لأريك كيف تدرجت العقول في ادراك الكون ، وفي البحث عن قوة تسيّره وتحركه ... فهذا البحث ظل ، طيلة عصور الفلسفة ، يؤلف الجانب الاعظم من المسألة الميتافيزيقية . فاصبر فاني اسير بك الى غاية .

ثم جاء (ديموقريطس) الذي يُنسب اليه المذهب الذرّي ، لأنه فصّله حين قال : ان الكون يتألف من عدد لا يتناهى من الذرّات (atomes) ، وهي متشابهة متجانسة ، ازلية ، ابدية ، متحركة بذاتها ، في فراغ ، ومن حركتها واختلاطها تكونت الاشياء ، وتكوّن العالم باسره . اما اختلاف صفات الاشياء فناتج عن اختلاف تلاقي هذه الذرّات وتآلفها ، واوضاعها في الجسم ، واختلاف الناظر اليها . وحجته على انها ازلية ابدية ، هي ان الوجود لا ينشأ من اللاوجود ، كما ان الوجود لا يصير الى اللاوجود ، ولولا وجودها في فراغ لامتنعت عليها الحركة ؛ ومن هنا انتهى الى القول : ان في الكون حقائق اولية ثلاثاً وهي الذرّات والفراغ والحركة (les atomes, le vide, le mouvement) .

حيران – ليس في تكوّن العالم المادي من الذرّات شيء بعيد عن العقل ، ولكن من الذي خلق هذه الذرّات ومن الذي حرّكها ؟

الشيخ – الجواب على اسئلتك لم يكتب لديموقريطس ، بل كتب لسواه . اما هو فقد تجرّد عن سلامة التفكير حين زعم ان حركة الذرّات هي نتيجة (ضرورة عمياء) تدفعها الى الحركة والتلاقي ، والتشابك والتمازج ، وتكوين هذا الكون ، بما فيه من جماد ونبات وحيوان ... ، حتى الارواح والالهة ، في نظره ، مركبة من ذرّات تسير بقوة هذه الضرورة العمياء .

وجاء (اناكساغورس) ، بعد ديموقريطس ، ففنّد آراءه في الضرورة العمياء ، وسفّهها ، فقال ، كأنه اعظم المؤمنين ، (من المستحيل على قوة عمياء ، ان تبدع هذا الجمال ، وهذا النظام اللذين يتجليان في هذا العالم ، لأن القوة العمياء لا تُنتج الا الفوضى ؛ فالذي يحرك المادة هو عقل ، رشيد ، بصير حكيم) .

حيران – هذا عظيم ، فهل يمكن ان يكون اناكساغورس قصد باقواله هذه ان يثبت وجود الله ؟

الشيخ – لا ادري يا حيران ، فان هدى الله ، بلسان الرُّسُل ، اقدم من اليونان وفلسفتهم ؛ بل اني ارجح ان كثيراً من فلسفة الاقدمين ، في مصر والصين والهند ، هي بقايا نبوّات نسيها التاريخ ، فحُشِرَ اصحابُها في عداد الفلاسفة ، ولعلهم من الرسل أو اتباع الرسل .

ولكن الظاهر من اقوال اناكساغورس انه كان يحوم حول هذا الايمان ، حين ادرك بعقله السليم ان هذا النظام المحكم ، لا يمكن ان يصدر الا عن عقل حكيم ؛ ولذلك عُدّ انكساغورس اول من فتح باب الفلسفة الروحية ، واتى برأي يحوم حول الحق ، وهــذا ما جعل ارسطو يقول عنه انه (الوحيد الذي احتفظ برشده امام هذيان اسلافه) .

حيران – الحمــد لله ، فقد وصلنا الى مطلع الفلسفة التي تتسامى عن الهذيان .

الشيخ – لا ريب ان الفلسفة تسير ، نحو الحق ، ولكن بخطى بطيئة ، يعرقلها احياناً رهط من الشكاك ، كالسوفسطائيين ، الذين كادوا يقضون ، بجدلهم العجيب ، على كل تفكير سليم .

حيران – انني اسمع بكلمة سفسطة التي يراد بها الجدل الخدّاع .

الشيخ – نعم ، من كلمة السوفسطائية جاءت السفسطة . فالسوفسطائية هي طريقة الجماعة ، الذين برعوا في تعليم الناس قلب الحقائق ، بالجدل الكاذب . واسمهم هذا من كلمة (سوفيسْتْ) ، وهي تدل ، في اليونانية ، على المعلم ، من أي فرع من الصناعات والعلوم . ثم صارت تُطلق عــلى هؤلاء المعلمين ؛ ومنها نحَتَ العرب كلمة (سفسطة) . وليس للسوفسطائيين مذهب فلسفي معلوم ، ولا اراء تربطهـا روح الفلسفة ، التي تبحث عن الحق ، ولكنهم جماعــة من المعلمين ظهروا في بلاد اليونان ، في ظروف اجتماعية ، كانت تطغي فيها على البلاد موجــة من الشك والكفر بآلهة الاساطير ، وموجــة من الديمقراطية فتحت للناس ابواب المناصب ، من

طريق التلاعب بالجماهير ؛ فمهروا في تعليم الناس فنون البيان ، والخطابة ، والجدل ، وتزويق الكلام . وكانوا يفخرون بانهم يستطيعون ان يؤيدوا الرأي ونقيضه ، وتمادوا في غوايتهم ، حتى كادت طريقتهم تؤدي الى هدم اسس العقل والمعرفة ، وتمزيق الاخلاق .

واشهرهم (بروتاغوراس) ، واضع المحور الذي تدور عليه سخافات السوفسطائيين ، بقوله المشهور (انّ الإنسان مقياسُ كل شيء) ؛ فقد كان العلماء والفلاسفة يرون ان الحقيقة تُدرك بالعقل لا بالحس ؛ لأن الحواس خادعة ، فجاء بروتاغوراس هذا ، ينكر المعرفة بالعقل ، ويزعم ان الاحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة . ولما كان الناس يختلفون باحساساتهم ، باختلاف اجسادهم ، واعمارهم ، فقد اصبح ادراك الحقيقة مستحيلاً ، واصبح ما يدركه كل شخص صحيحاً ، بالنسبة اليه ، ولا يوجد شيء يمكن ان يُسمى خطأ ، لأن كل رأي هو صحيح بالنسبة للشخص المدرِك ... وقد اطلق العرب على هذا المبدأ ، القائل بان الإنسان مقياس كل شيء ، اسم (العِنْدّية) ، لأنه يؤدي لاعتقاد كل فرد بما عنده .

ثم جاء احدهم ، (غورجياس) ، فدفع السوفسطائية الى غايتها الاخيرة في السخافة والهذيان والتعطيل ، حين انكر ، دفعة واحدة ، وجود الاشياء . وقال باستحالة المعرفة ، والتعارف والتفاهم ، بين الناس . وانت ترى ان هذا الهذيان اضعف واهون من ان يدخل في مباحث الفلسفة ، وان كان له الفضل من حيث انه خلق لنا سقراط ...

حيران — كيف خلق هذا الهذيان سقراط الحكيم ؟

الشيخ — ان سقراط هو الذي اسس وبنى فلسفة المعرفة ، التي لا تزال تسيطر على العقول السليمة ، منذ اكثر من ألفي سنة الى اليوم الذي نحن فيه ، مهما اختلف الجدل حولها ، يا حيران . وما كان لسقراط في الفلسفة من غرض الا ان يضع قواعد المعرفة على اساس العقل ، وألّا ان يوّطدَ دعائم (الفضيلة) ، في صدور الناس ، على اساس من الحقّ الذي لا ريب فيه . فقد رأى هذا الفيلسوف القدّيس ، ان اخلاق عصره تنهار

امام دجل السوفسطائيين الذين انكروا العقل ، والحق ، واليقين ، وفضائل الاخـــلاق ، بما زعموا من ردّ اصول المعرفة كلها الى الاحساس ؛ فاراد ان يردّ ، اصول المعرفة ، الى العقل ، الذي يتفق الناس جميعاً على احكامه بلا خلاف ، ليصل بهذا الى وضع حدٍّ وتعريف للفضيلة .

يقول سقراط : لا يعقل ان تكون المعرفـة مبنية على الحواس ، لأن الحواس تختلف باختلاف الافراد والظروف والاحوال ، فعلينا ان نلتمس اصلاً ثابتاً للمعرفة ، لا يختلف فيه الناس ابداً . واذا نظرنا الى معارفنا ، رأينا انها تنطوي على ادراكات جزئية ، تأتينا من طريق الحواس ، وعلى ادراكات كلية عامة ليس لها وجود في الخارج ليمكن الاحساس بهـا وضرب على ذلك مثلاً معنى (النّـوع) الذي تدركه عقولنا ، بجمع الصفات التي يشترك بهـا كل افراد النوع ، وطرح الصفات العارضة التي تظهر في بعض افراده ؛ فقال ان هذا الادراك ، لشيء لا يُحس ، ولا وجود له في الخارج ، هو ادراك كليّ ، لا يرتاب عاقل في كونه من عمل العقل وحده وهـذا الادراك الكلي العقلي ، هو الذي يجب ان تؤسس عليه المعرفة . فاذا كانت المدركات الحسية الجزئية تختلف باختـلاف الافراد والظروف والاحوال والاوضاع ، فان العقل ، الذي هو عام ومشترك بين الناس ، لا يختلف ما دام سليما . ونحن ، بهذه الادراكات العقلية الكلية ، نستطيع ان نضع لكل شيء حدّاً وتعريفاً ، ونستطيع بهذا ، ان نضع مقاييس صحيحة ثابتة للحقائق ، ونعرف ما هي الفضيلة .

وجاء بعد سقراط ، تلميذه (افلاطون) الشهير ، فأيد نظرية المعرفة التي وضعها استاذه ، وزادها توطيداً . ولكن لا ندري لماذا وضع هـذه المعرفة على اساس (المُثُـل) وأي شيء يقصد بالمُثُـل ؟

انه يقول : ان المعاني الكلية ليست مما يمكن ادراكه بالحواس ، وانما يكون ادراكها بالعقل وحـــده ؛ فالجمال والقُبـح ، مثلاً ، هما معنيان ندركهما في اشياء كثيرة مختلفة في مظاهرها واشكالها ؛ فما الذي عرّفنا ان هذه الاشياء تشترك في الجمـــال ، وهذه تشترك في القبح ؟ ليست

حواسنا هي المدركة لهذا الاشتراك ، بل هي عقولنا ، التي تقابل وتقارن بين الاشياء المشتركة في الجمال ، فتدرك ان فيها جمالاً . ولكن لكي تقدر عقولنا على هذه المقابلة والمقارنة ، لا بد ان تكون لديها فكرة ، اصيلة سابقة ، عن الجمال والقبح . ولو قلنا ان هذه الفكرة من اختراع عقولنا ، لرجعنا القهقرى الى السوفسطائية ، التي تقيس الحقائق بقياس شخصي فرديّ محض . فلا بد لنا ، اذنْ ان نقول انْ هذه المعاني الكلية لها وجود حقيقي وراء عقولنا ؛ وهذه هي التي اطلق عليها افلاطون اسم (المُثُل les idées) . وقال ان نفوسنا ، قبل حلولها في الاجسام ، كانت تعيش في عالم المُثُل ، فلما حلّت في الاجسام ، نسيت عالم المثل ، بعض النسيان ، ولكنْ اذا وقع نظرها على معنى كليّ ، كالجمال والقبح ، تذكّرتْ مثاله ، فادركت ، بالمقارنة ، ما في الاشياء من جمال أو قبح . وهكذا الحال في كل المعاني الكلية كالفضيلة والعدل والخير وغير ذلك . فالعلم هو تذكُّرٌ للمُثُل ، والجهل نسيان لها . وما التجارب ، في الحياة الدنيا ، الا وسيلة لتنبيه العقول وتذكيرها ، بما عرفته ، من قبل ، في عالم المُثُل ...

حيران – ولكن ما هذه المُثُل يا مولاي وما حقائقها ؟

– حق لك ان تعجب ، وقد عجب من قبلك ارسطو ؛ فان افلاطون وصف هذه المثل بأوصاف عديدة تجعلها غير مفهومة ولا معقولة ، الّا اذا كان يريد بها ما في علم الله تعالى من الامور ؛ وهذا ما ارجحه يا حيران ؛ فانه يقول عن المثل : انها ليست مادية ، بل هي معان مجردة ، وان عناصر وجودها من نفسها لا من شيء خارج عنها ، وانها اساس الاشياء ولا تعتمد على شيء ، بل غيرها يعتمد عليها ، وهي دائمة وثابتة وابدية وساكنة وكاملة ، ولا يحدّها زمان ولا مكان . افلا تفهم ، من هذا الوصف ، انه يكاد يريد ما في علم الله من الامور ؟

حيران – هل كان افلاطون يؤمن بوجود الله ؟

الشيخ – ان افلاطون من اول الفلاسفة القائلين بوجود الله ، وبأنه

الخالق للعالم والمدبّر لأمره . ويقيم على ذلك براهين اهمّها برهان النظام ، فيقول ان العالم آية في الجمال والنظام ، ولا يمكن ابداً ان يكون هذا نتيجة علل اتفاقية ، بل هو صنع عاقل ، كامل ، توخّى الخيرَ ، ورتّب كل شيء عن قصد وحكمة .

ولكن افلاطون حين يريد ان يتصور ويصف كيف خلق الله هذا العالم ، تعترض عقله العقدة التي تعترض عقولنا جميعاً ، فلا يستطيع ان يتصور الخلق من العدم ، فيقول ان الاشياء مؤلفة من مادة (matière) وصورة (forme) . وهذه الصورة هي التي تجعل المادة شيئاً معيناً . وهي من اثر المُثُل التي تعطي للشيء طابع شكلها . فالشيء ، قبل ان يأخذ صورة مثاله ، كان مادة ، لا صفة لها ولا شكل ، ثم اخذ ينطبع على مثاله ، فاكتسب حقيقة الوجود بعد ان كان عدماً . وان الذي يعطي المادة طابع مثالها ، فيوجدها ، بعد ان كانت عدماً ، هو الله .

حيران – انني لم افهم كيف كانت المادة قبل ان تأخذ طابع الصورة عدماً .

الشيخ – انك لا تفهم ، وانا ايضاً لا افهم ، وافلاطون نفسه ، بعقله السليم الكامل السامي ، لا يفهم كيف يكون الشيء مادة وعدماً في آن واحد . ولكن هذا العقل الجبار يُساق ، كغيره من العقول الجبارة ، الى تقرير هذه المزاعم بسبب العجز ، عن تصور الخلق من العدم المحض ، الذي يأتينا من (قياس التمثيل) الخادع ، المسيطر على عقولنا ، التي ما تعودت تصور خلق شيء من العدم : انهم يرون الاشياء ، ويرون انها متغيرة من صورة الى صورة ، فيحكمون ان هذه الصور مُحْدَثة ، ويجرّهم الجدل العقلي الى تصور مادة قديمة بلا صورة ، ويحارون في وصف ماهية هذه المادة ، التي لا صورة لها ، فيقولون انها بلا صفة ولا شكل ولا لون ولا حجم ولا وزن ولا طعم ولا رائحة ، لأن جميع هذه الاوصاف تأتي من الصورة ، فينتهي بهم الأمر ، الى القول بان المادة (عدم) ، ثم تعجز عقولهم عن تصور خلق العالم من العدم ، فيقولون

ان الله وَجد المادة التي لا شكل لها ولا صفة ، ورأى المُثُل المجردة ، فشكّل المادة على صورة المثل ، أي اعطى الصورة للمادة فصارت شيئاً معيناً ، فكأنهم ينتهون بك الى القول ، ان الله خلق العالم بمادته التي اوجدها من العدم ، واعطاه صوره التي كانت في علمه القديم ... وبغير هذا يكون كلامهم خُلفاً غير مفهوم ولا معقول . وعلى كل حال ، فان افلاطون ادرك وجود الله ، وادرك انه الخالق المدبّر لامور هذا الكون بقدرته وحكمته ، ولكنه لما اراد الدخول في سرّ الخلق ادركه العثار ، كما ادرك تلميذه ارسطو ، سيد الفلاسفة المؤلهة الاقدمين .

حيران — انني اعرف ان ارسطو هو اعظم الفلاسفة الاقدمين وهو واضع علم المنطق حتى لقبوه بالمعلم الاول ، فكيف ادركه العثار ؟

الشيخ — ان ارسطو ، هو حقاً ، اعظم الفلاسفة المؤلهة الاقدمين ، وكان من المؤمنين بوجود الله ؛ ولكنه لما اراد الدخول في سر الخلق ، ادركه العثار كما ادرك سواه . ولو سمعتَ الى رأيه في المعرفة ، لعجبت كيف يتعثر هذا العقل الجبار الحكيم .

انه يقول ان اول خطوة يخطوها الفكر في سبيل المعرفة هي (الادراك الحسّي) . فاذا تجمّعتْ في الذهن طائفة من الادراكات الجزئية الحسّية ، واحتفظت بها الذاكرة ، بدأ الفكر مرحلته الثانية في (التجربة) ، التي تقوم على مقارنة الاشياء ، ومعرفة علاقاتها ، وعللها ، واسبابها . ثم ينتقل الفكر الى المرحلة الثالثة وهي مرحلة (التأمل النظري) للوصول الى الاستنتاج والحكم . والطريق الفطري الذي يسلكه العقل في هذه المراحل ، من الادراك الحسّي ، الى التجربة ، الى المقارنة ، والتأمل والتعليل ، والقياس ، والأستنتاج ، والحكم ، هو المنطق الفكري الذي رتّب ارسطو قواعده ، وجعله علماً ، فاستحق به ان يُسمّى ، في تاريخ الفلسفة ، باسم (المعلم الاول) .

ولكن هذا المعلم الاول ، صاحب هذا المنطق السليم ، لما اراد ان يفسر نشأة العالم ، تعثر في عقبة الفكرة (المادية) ، التي تسيطر على عقولنا ،

وتخدعها بقياس التمثيل الذي تعوّده الإنسان ، من ممارسة الاشياء المادية في الحياة ، فصعب عليه ان يتصور خلق المادة من العدم ، فادّعى قِدَم المادة . ثم ساقه عقله السليم الى الاعتراف ، بان هذه المادة يستحيل ان تكون شيئاً معيّناً ، لأنها بلا صورة ، فحار في تعريفها . وانتهى به الامر الى ان قال عنها انها عبارة عن (قابلية التلقي) ... فكأنه قال انها عبارة عن العدم .

حيران – لقد ارتبك عقلي يا مولاي ، فاوضح لي بالله كيف تكون المادة عبارة عن قابلية التلقي ؟

الشيخ – انك معذور . وسأوضح لك رأيه بأوجز كلام وأبسطه : يقول الفيلسوف المعاصر هنري برغسُون (ان جزء من عقولنا نشأ لكي يمارس ادراك الاجسام المادية ، فاكتسب من هذا المحيط المادي اكثر تصوراته) ، وهذا صحيح ، ولا تكاد تستطيع التملص منه اكبر العقول، حتى عقل ارسطو . فلما اراد ان يفسر نشأة العالم ، فسّرها كما يفسر نشأة أية اداة ، يصنعها الإنسان، من مادة معينة ، على هيئة معينة ، لغايةمعينة...

فهو يقول : ان كل شيء ينشأ ويتكون بتأثير علل اربع :

العلة المادية (la cause matérielle) وهي المادة التي يتكون منها الشيء .

والعلة الصوريّة (la cause formelle) وهي الصورة التي تصير بها المادة شيئاً معيناً .

والعلة الفاعلة (la cause efficiente) وهي العلة التي تصنع الشيء ، وتعطيه شكله وصورته .

والعلة الغائيّة (la cause finale) ، وهي الغاية التي من اجلها قامت العلة الفاعلة بصنع ذلك الشيء ، على تلك الهيئة .

فالعلة المادية في السرير مثلاً ، هي الخشب . والعلة الصورية فيه، هي (الصورة) التي خُلعَتْ على الخشبة ، فجعلتها بشكل سرير ، لا بشكل مائدة . والعلة الفاعلة ، هي النجّار الذي صنع السرير . والعلة الغائية هي النوم والراحة .

ثم مزج ارسطو بين (الصوريّة والغائيّة والفاعلة) ، وركّزها في علة واحدة ، سمّاها (الصورة) ، فقال : ان العلة الصوريةَ ، التي هي ماهيّة الشيء ، كامنةٌ في نفس الغاية ونابعة منها ، لأن الشيء انما تتحقق فيه الغاية عند اخذه لصورته ، وانما تُبنى الصورة على الغاية منه . واذا كانت العلة الصورية متحدة بالعلة الغائيّة ، بما تقدم ، فهما آتيتان من العلة الفاعلة ، لأن العلة الفاعلة ، انما يظهر اثرهـا في الغاية والصورة . فالسرير لا يمكن صنعه ، الا اذا سبقت الغاية هـذا الصنع . ولا تخرج الغاية من القوة الى الفعل ، الا بعد صنع السرير واعطائه صورته المخصوصة . والفاعل الذي هو النجار لم يكن فاعلاً بالفعل إلا بعد ان صنع السرير ، امّا قبل ذلك فالنجار فاعل بالقوّة .

وبعد تركيزه العلل الثلاث الصورية ، والغائية ، والفاعلة في (الصورة) لم تبق لديه إلا العلة المادية وهي (المادة) ، أو الهيولىَ .

حيران — ارى ان ارسطو يسير حتى الآن سيراً معقولاً في تفسير نشأة التنوعات التي في هذا العالم . ولكن مثال السرير والنجار لا ينطبق على قضية نشأة اصل العالم ، فخشب السرير موجود اصلا . وليس النجار هو الذي اوجده ، وانما هو الذي خلع عليه صورة السرير . فمن الذي اوجد الخشب وخلقه ؟ بل من الذي اوجد مادة العالم الاصلية وخلقها ، وخلع عليها صورتها الهيولانية الاصلية ؟

الشيخ — ان ارسطو لا يقصد (بالمادة والهيولى) مـا نفهمه نحن من كلمة مادة ، لأن المادة ، التي نفهمها نحن ، لها شكل وحجم ووزن ، على الاقل . اما الهيولى عند ارسطو فليس لها صفات مطلقاً ، ولا تأخـذ صفاتها الّا من الصورة . فهي قبل ان تأخـذ صفاتها لم تكن شيئاً يمكن وصفه وتحديده . أي ان الهيولى ، عنـد ارسطو، ليست الا شيئاً بالقوة (en puissance) ولكن بعد تلقي الصورة ، تصبح شيئاً معيّناً (بالفعل en acte) ؛ فالهيولى عنده ما هي الا عبارة عن قابلية التلقي (réceptivité) ، وهذا ما جعلني اقول لك ان المادة التي ذكرها ارسطو هي عبارة عن العدم .

حيران — ولكن هذا يا مولاي شيء غير مفهوم ولا معقول .

الشيخ — نعم انه غير مفهوم ولا معقول ، وارسطو نفسه يدرك انه غير مفهوم ولا معقول . لذلك نراه بعد ان قسم اصل العالم الى (مادة وصورة) قال : انه لا يتصور وجود صورة من غير مادة ، ولا وجود مادة من غير صورة ؛ فالصورة لا يمكن ان تظهر الا في مادة ، والمادة لا يمكن ان تظهر الا في صورة . وهذا الانفصال ، الذي نتحدث عنه ، هو في الذهن فقط . وهذا هو اساس فلسفته الميتافيزيقية التي خلص منها الى القول ، بأن العالم قديم بمادته وصورته وحركته ومحرّكه .

حيران — ومن هو المحرك الذي اعطى العالم صورته وحركته ؟

الشيخ — يقول ارسطو ، هو الله ، وانه هو العلة الصورية والغائية والمحركة .

حيران — اذا كان الله هو العلة الصورية والغائية والمحركة ، فهو ، اذاً ، الذي اعطى الصورة للهيولى التي لم تكن شيئاً سوى (قابلية التلقي) ، على زعم ارسطو ، وبالتالي يكون الله هو الذي خلق العالم بمادته وصورته ، فكيف يكون العالم قديماً بمادته وصورته وحركته ؟

الشيخ — ان ارسطو يريد ان يخرج من هذا التناقض في قضية القِدم ، فيقول ان العالَم لا أول له في الزمن ، وانما سبق الله العالَم ، كما تسبق المقدمة النتيجة . وان علاقة الله بالعالم ، ليست علاقة علة بمعلول ، ليكون للزمان دخْل فيها ، ولكن هي علاقة منطقية . فالله منح العالم وجوده ، كما تمنح المقدمةُ النتيجةَ وجودَها . وتَقَدُّم المقدمةِ على النتيجة هو بالفكر لا بالزمن .

والذي جرّه الى القول بقدم العالم ، هو اعتقاده بقدم الحركة . فهو يقول : ان العلة الاولى للحركة ، وهي الله ، ثابتة ، ولها نفس القدرة من الازل . فلو فرضنا وقتاً لم تكن فيه حركة ، لزم عن ذلك ان لا تكون حركة ابداً ؛ لأن القول بحدوث الحركة ، بعد ان لم تكن ، يعني ان مرجحاً قد استجدّ ، فأوجب الحركة ، والحال ان المحرك الاول ثابت ، له نفس القدرة ، ولا يُتَصور حصول مرجح يرجح عنده الحركة .

وهـذا الخطأ في الاستدلال نشأ من الوقوف عند صفـة (القدرة) وتناسي صفة (الارادة) وهو الخطأ الذي خـدع كثيراً من الناس ... وقد رد عليه الغزالي ، كما سترى عندما احدثك عنه ، رداً مفحماً حيث قال : (ان العالم حدث بارادة قديمة ، اقتضت وجوده ، في الوقت الذي وجد فيه . وان يستمر العدم الى الغاية التي استمر اليها . وان قِدَم العلة لا يستتبع قدمَ المعلول ، الّا اذا كان المعلول من شأنه ان يَصْدر عن علتـه صدوراً (ضرورياً) ، ولا يكون صدوره ضرورياً الا اذا تكافأ المعلولُ مع العلة ؛ وليس بين الله والعالم (المتغيّر) تكافؤ ، حتى يصدر عنه العالم صدوراً ضرورياً .

فلا مجال للقول بقدم الحركة ، كما زعم ارسطو ، لانها ليست ضرورية عقلاً . ولا مجال للقول بتجدد مرجح ، كما توهم ، لأن الارادة القديمة هي التي عينت وقت الحركة ...،

حيران — ان هذا البيان في غاية الوضوح ، فكيف غفل عنه المعلم الاول ؟

الشيخ — اعود فاكرر عليك ان الخطأ الفكري الاول ، الذي نشأت عنه كل هـذه الاخطاء والتحكمات ، هو عجز العقول عن تصور الخلق من العـدم ، ووهمها في ادراك معنى الزمان وحقيقته ، وما اعتراهـا من استشكالٍ في (مدة التّرك) قبْل الخلق ، وسترى الردّ على هذا كله في كلام الغزالي ، وابن طفيل ، وعمانوئيل كانط . وبعـد فانك ، اذا تلبعتَ جميع ما قاله ارسطو في العلم والفلسفة ، ستجد ان الرجل ، على عظم عقله وسعة علمه ، قد وقع في تخليطات واوهام وتخيلات كثيرة ، عندما حاول ان يتوصل بعقله الى ادراك سر الخلق . كما انه وقع في اخطـاء علمية عديدة . فلا تجعلْه في مقام التقديس والعصمة ، الذي جعله فيـه عاشقه ، ابن رشد .

خذ لك مثلاً انه يقول ، في جملة ما رُوي عنه : ان الله لا يحرك العالم حركة الدّفع ، لأن هذا يستلزم ان تُنسب اليه حركة محـدودة ، ولكنه يجذب العالم الى غايته ، كما ننجذب نحن الى الخير والجمال ، بدون

عمل منها . ويُروى عنه في موضع آخر : ان الله حرك العالم حركته الدائرية ، ثم تركه يدور على نفسه . ولا ادري ما الفرق بالنسبة الى الله بين حركة الدفع والحركة الدائرية ، ويقول ان هذه الحركة الدائرية هي علة دوران الشمس حول الارض ... وعلة ما يظهر على الارض من كون وفساد ، اذ تتحول العناصر وتمتزج ، وتتكون اجساد ، وتنمو وتفنى، بتفاعل القوتين الفاعلتين ، وهما ، الحار ، والبارد ، والقوّتين المنفعلتين ، وهما الرطب واليابس ... ويقول ان الارض ساكنة ، وهي مركز العالم ... ويقول عن الله انه يَعقل ذاته فقط ، ولا يَعقل غيره ، لأنه اذا عقل غيره ، فقد عقل اقل من ذاته ... الى غير ذلك من التحكمات ، والسخافات ، التي تناقض قوله السابق ، ان الله هو العلة الفاعلة والمحركة ، وتناقض العلم والعقل ، والمنطق الذي وضعه (المعلم الاول) . ولذلك يترجّح عندي ان الروايات عنه ليست كلها صحيحة .

والمهم ان ارسطو لم ينكر وجود الله ، بل اكده ، ولكنه لما اراد وصف ذات الله وكيفية الخلق ، ادرك عقله الكلال ، كما ادرك اولئك الذين روَوا عنه وشرحوا اقواله ...

ثم اصيبت نظرية الوجود الميتافيزيقية بنكسة (مادية) عند الرواقيين والابيقوريين ، ادت الى ظهور (الشكاك) . حتى جاءت (الفلسفة الافلاطونية الحديثة) ، تؤكد وجود آله خالق للكون . وهكذا تكرر الدور الاول الذي بدأ بالمادية ، على لسان الفلاسفة الاولين ، ثم توسطته السفسطة بشكّها السخيف ، ثم انتهى بتوكيد وجود الاله الخالق للعالم على لسان الفلاسفة الآلهيين : سقراط ، وافلاطون ، وارسطو .

حيران — وماذا يقول الرواقيون والابيقوريون ؟

الشيخ — اما الرواقيون فانهم ، في نظرية المعرفة ، يعودون الى الشك في قدرة العقل على التمييز بين الحق والباطل ، اذ يقولون : ان المعرفة تصدر عن الاشياء المحسوسة ، وتصل الينا بواسطة الحواس ، وما المدركات الكلية الا افكار كوّنتها عقولنا ، مما تلقت في الحياة من احساسات

جزئية ؛ فلا يجوز ان نتخذها مقياساً للتمييز بين الحق والباطل ، ويخلصون من هذا الى القول بأن الحقيقة انما تُعرف من طريق (الشعور) ، فالشيء الحقيقي يبعث فينا شعوراً قوياً ليس لإنكاره سبيل .

اما في نشأة العالم ، فان الرواقيين ، يكادون يكونون ، مؤلهة ومُلحدين في آن واحد : فبينا تراهم يقولون ، انه ليس في الوجود الا المادة ، وان كل موجود مؤلف من عنصرين : منفعل (passif) غير متحرك ، وفاعل (actif) وهو القوة التي تعطي المادة حركتها ، وجميع اشكالها ، وان هذه القوة ما هي الّا (نار) ، تراهم يقولون ان الله هو النار الاولى ، وانه لم يكن في الاصل غير الله ، في هيئة نار ، ثم تحركت هذه النار ، وحولت جزءً منها الى هواء ، وجزءً من الهواء الى ماء ، وجزءً من الماء الى تراب . وسيعود كل شيء الى النار ، ثم يرجع كرة اخرى ... وان الله هو نفس العالم ، والعالم جسم الله ...

حيران — عجيب والله امر هؤلاء . أليس الرأي في تفسير الوجود يجب ان يكون مبنياً على الرأي في طرق المعرفة . فاين هو رأيهم في (الشعور) القوي ، الذي اعتبروه اساساً لمعرفة الحقيقة ؟ وكيف استطاع هذا الشعور ان يدرك ويتصور هذا الآله الناري العجيب ؟

الشيخ — حق لك ان تعجب ، وما ذكرت لك رأيهم هذا ، الا لأدلّك على الرابطة ، التي بين سخافات هؤلاء وهذيان بعض المتأخرين .

اما الابيقوريون فانهم ، في نظرية المعرفة ، لا يكادون يخرجون عن رأي ارسطو ، فيقولون ان ما لدينا من الافكار ، هو سلسلة من الادراكات الحسية ، تحتفظ بها الذاكرة ، ثم تتناولها بالموازنة والمقارنة ، لتصل الى الاحكام الكلية ، فالادراك الحسي هو مقياس صحيح ، وما بني عليه من الادراكات والاحكام صحيح ايضاً .

ثم يتسامى (ابيقور) شيخ الطريقة في تفكيره حين يقول : اننا انما نتعرض للخطأ ، عندما نتجاوز ما اتت به الحواس ، فنحاول ان نستنتج منه رأياً في الاسباب الحقيقية ، التي تختبئ وراء الظواهر .

ولكن هذا العقل السليم ، الذي يعترف بعجزنا عن ادراك ما وراء الطبيعة ، يخرج عن هذه الطريقة الحكيمة الحذرة ، التي رسمها للمعرفة ، عندما يتكلم في نشأة العالم ، فيأتينا بآراء كلها حدس وتخمين .

انه يأخذ برأي ديموقريطس ، فيرى ان اصل الوجود هو الذرات ، وانها متحركة بذاتها ، ويقول ان علة حركتها موجودة فيها ، وهي ثقلها ، وانها لثقلها تتحرك من اعلى الى اسفل ولكنها تنحرف قليلاً ، وهي ساقطة ، فتلتقي ، وتؤلف المركبات . . وان الحياة كلها نشأت عن هذا التأليف مصادفة واتفاقاً ...

حيران — لم افهم لماذا فرض ان تكون الذرات متحركة من اعلى الى اسفل ، بقوة ثقلها ، والثقل هو اثر الجاذبية .

الشيخ — ان ابيقور يُعذر في هذا التصور ، لأن ناموس الجاذبية لم يكن معروفاً في عصره ، كما تعلم ، فأخذ بظاهر ما تأتي به الحواس ، من سقوط الاجسام ، بقوة الثقل ، من اعلى الى اسفل ، وبقي على شرطه ان لا نتجاوز ما تأتينا به الحواس . ولكنه لا يُعذر حين يخرج عن هذا الشرط ، ويزعم ان الحياة نشأت صدفة واتفاقاً !

وبعد ، فليس هذا الخروج عن شرطه في هذا الرأي باعجب من قوله بوجود آلهة باشكال بشرية يأكلون ، ويشربون ، ويتكلمون اليونانية ، واجسامهم من عنصر الضوء ، وهم في سعادة دائمة ، ولا يتدخلون في شؤون العالم ، فتأمل ...

اما رأيه بتكوّن العالم ، والحياة صدفة واتفاقاً ، فليس هذا اوان مناقشته ، وسنصل الى هذه المناقشة ، اذا وصلنا الى الذين تبنوا هذا الرأي في العصور الحديثة .

حيران — ومن هم الشكاك الجدد ، وهل اتوا بشيء غير الذي اتى به السوفسطائيون ، حتى يحدثني الشيخ عنهم ؟

الشيخ — لولا ان هؤلاء الشكاك الجدد اتوا بأمر جديد ، لما حدثتك عنهم . انني اسير في الحديث معك عن الاراء الفلسفية ، في نظرية المعرفة ،

الى غاية ... ولهؤلاء الشكاك الجدد آراء لا يجوز ان تجهلها كل الجهل و فيمتريك ، اذا قرأتها بعد ذلك ، كثير من الارتباك .

ولا ريب في ان الامر ، الذي يتفق به السوفسطائيون القدامى مع الشكاك الجدد ، هو الشك ؛ ولكن الفرق بينهم يتجلى في الطريقة ، والاسلوب ، والغاية . فالسوفسطائيون ليسوا باصحاب مذهب فلسفي كما علمتَ ، بل هم معلمون محترفون متكسبون . اما الشكاك فلم تكن غايتهم الكسب ، ولكنهم جماعة من المفكرين ، خُيل لهم ان الوصول الى الحقيقة امر غير مستطاع ، فشكوا وقالوا : (لا نَدْري) ، وجعلوا (اللاأدرية) مذهباً فلسفياً قائماً بذاته .

وخلاصة مذهبهم : اننا لا نعرف من الاشياء الا ظواهرها ، وهي تظهر بمظاهر مختلفة ، وليس لدينا وسيلة للتمييز بين الفكرة الحقيقية وغيرها ، مما نراه في المنام ، أو يخيل لنا بخداع الحواس . وان الحواس قد تضلّ ، كما ان ادراكات الحس تختلف باختلاف الظروف والاوضاع والاحوال في الشخص المدرِك والشيء المُدْرَك . ثم ذهبوا الى اكثر من ذلك فانكروا قانون العلّية ، وقالوا ان الناس يفسّرون علل الاشياء بظواهرها ، ولكن هذه الظواهر تُفسّر باشكال مختلفة ، فلا مجال للقطع والجزم في شيء . وانكر بعضهم صحة القياس والاستقراء ، ثم تمادي بعضهم في الشك حتى زعم ان المبادئ الاولية هي نفسها فروض غير مبرهنة ، واننا لو اردنا تفاديَ التسلسل في البرهان ، وقعنا في البرهان الدوري ، الذي يقيم المقدمة على النتيجة ، والنتيجة على المقدمة ، وهو باطل ؛ فالبرهان ، اذاً ، ممتنع .

والمعتدلون من هؤلاء الشكاك هم الذين يطلق عليهم اسم (الاحتماليين) Probabilistes ، لأنهم قالوا بترجح بعض الحقائق ، التي تبدو لنا واضحة ، من غير ان نتجاوز هذا الترجيح الى البرهنة على صحتها ، فعلينا ان نأخذ بالتجربة ، واذا رأينا ظواهرَ الطبيعة ، وترابطَ اسبابها ، توقّعنا ظهور النتائج ، من غير ان نعتقد ان هذه النتائج ترتكز على اساس (قانون العلّية) .

حيران – حقاً ان غلوّ هؤلاء الشكاك في انكار الحقائق اشد خطراً من هذيان السوفسطائيين ، فاولئك ينكرون الحقائق ويعترفون بان انكارهم يقوم على اساس المهارة في الجدل ، اما هؤلاء فانهم جادون في انكار المبادئ العقلية غير هازلين .

الشيخ – ان غلوهم يبدو قبيحاً وسخيفاً جداً ، كما قلتَ ، في انكار المبادئ العقلية الاولية ، التي زعموا انها هي ايضاً فروض غير مبرهنة .. اما الاحتماليون منهم فقد كانوا في بعض نظراتهم الى الظواهر الطبيعية ، على شيء من بُعد النظر ، وقد ايدتْ المفاجآت الحديثة في العلم ، وجوب القول (بالاحتمال) ، فيما لم يقم البرهان العقلي القاطع على صحته ، فانك لو قارنت بين آراء الاقدمين عن الارض والشمس والكواكب ، وعن المادة وحقيقتها ، وبين حقائق العلم في عصرنا الذي نعيش فيه ، لوجدت فروقاً كبيرة ، تدلك على ان القول بالاحتمال والترجيح ، ليس فيه كثير من الغلوّ . ولكن الغلوّ ظهر في زعمهم ان كل المبادئ العقلية الاولية تفتقر الى برهان ؛ لأننا اذا كنا نتطلب ان يُقام لنا البرهان مثلاً : على ان الكلّ اكبر من جزئه ، وعلى ان الحاوي اكبر من المُحوّى ، وعلى عدم جواز اجتماع النقيضين ، وعلى ان الواحدَ نصف الاثنين ، نكون قد طلّقنا عقولنا ، وتطلبْنا اقامة ميزان التفكير ، بعقول وراء عقول البشر ، وهذا خروج عن الموضوع ؛ لأننا انما ننظر الى الحقائق بهذه العقول ، التي تنطوي بفطرتها على مبادئ اولية بديهية ، لا يمكن ان يتطلب العقل برهاناً عليها ، وهي الاساس الذي يرتكز عليه الحكم على كل ادراك عقلي ؛ فانكارها تعطيل لعمل العقل ، فضلاً عما فيه من تناقض ، يجعل القائلين بها عرضة للسخرية اذا قيل لهم : طالما ان المعرفة عندكم مستحيلة ، فكيف عرفتم انها مستحيلة ؟ وكيف عرفتم ان القضايا الاولية غير مبرهنة ، وان الحواس تخدع ، والعقول تخطيء ؟ وكيف عرفتم ان التسلسل باطل ، وان البرهان الدوري غير صحيح ..؟ ان هذه الاقوال هي (معارف) ، فاذا صح قولكم ان المعرفة مستحيلة ، تكونون قد عرفتم الحقيقة ،

ويكون قولكم ان المعرفة مستحيلة قولاً باطلاً ، واذا لم يصح قولكم ، تكون المعرفة غير مستحيلة...، وان قلتم ان بطلان الدور والتسلسل بديهي في العقول ، فقد اعترفتم بوجود قضية عقلية اولية يقطع العقل بصحتها ، وان انكرتم هذه البداهة انهارت حججكم من اساسها ...

حيران — كيف ، اذاً ، نبت ايمان الافلاطونية الحديثة بين اشواك تلك المادية الرواقية الابيقورية وهذا الشك المعطل للعقل ؟

الشيخ — اتعجب من هذا ، وهو التطور الدوري الدائم لقضية الايمان ، الذي لا ينهض من كبوته ، ولا يستيقظ من غفلته ، من طريق العقل أو من طريق الوحي ، الّا بعدَ دور من الشك والالحاد ؟

لقد اجتمع للافلاطونية الحديثة الامران كلاهما : العقل والوحي ، فهي مزيج من مذهب افلاطون والنصرانية بدأ بها (فيلون الاسكندري) وجدّدها بعد ذلك (افلوطين) . فقد نشأ فيلون في الاسكندرية قبل المسيح بعشرين سنة ، ومات في الرابعة والخمسين من الميلاد ، أي في الوقت الذي كانت فيه مدينة الاسكندرية قد خلفت اثينا ، في مركزها العالمي العظيم . وكان المذهب المسيطر فيها ، يومئذ ، هو مذهب افلاطون ، وكثر البحث والجدل في اصل العالم ، وكونه حادثاً أو قديماً ، فوضع فيلون الاسكندري شرحاً كبيراً لآراء افلاطون . ثم جاء بعد ذلك (افلوطين) بين سنة (٢٠٧ و ٢٤٠) فجدد هذا المذهب ، الذي عرف بعد ذلك (بالافلاطونية الحديثة) .

وخلاصة رأي الافلاطونية الحديثة في نظرية الوجود وخلق العالم : ان هذا العالم كثير الظواهر ، دائم التغيير ، فلا يمكن ان يكوُن قد وُجد بنفسه ، بل لا بد له من خالق مبدع ، وهذا الخالق هو الله ، وهو واحد احد ، ازلي ، ابديّ ، قائم بنفسه ، وهو فوق المادة ، وفوق الروح . ولما كان الشبه منقطعاً بينه وبين الاشياء ، فلا يمكن وصفه الا بصفات (سلبيّة) : فهو ليس مادة ، ولا يوصف بانه متحرك أو ساكن ، ولا يقال انه موجود في زمان أو في مكان . ولا يمكن ان تضاف اليه صفة ،

لأن هذه الاضافة تشبيه له بشيء من مخلوقاته ، وتحديد له . وهو لا نهائي ، وكامل ، ولا يفتقر الى شيء . ولسنا نفهم من طبيعته الا انه يخلق كل شيء ، ويسمو على كل شيء ، ولا تدرك كنهَه العقول .

وهذا الكلام ، على ما فيه من حق ، ينطوي على كثير من الغلو في التنزيه ، حتى يكاد يجعل الله موجوداً بلا ماهية . فالاكتفاء بالصفات السلبية غير صحيح ، لأنه وان كان فيه اعتراف وايمان بصفات الوجود ، والقِدم ، والبقاء ، والمخالفة للحوادث ، والقيام بالنفس ، الّا انه لا يُثبت لله صفات العلم ، والقدرة ، والارادة ، مع انها متوجبة عقلاً لله تعالى .

وعلى كل حال ، فالمهم ان المذهب يعترف بوجود الله وبانه خالق العالم ، فلا غرض لنا بالأسهاب في نقده ، لغفلته عن بعض صفات الله تعالى ، المتوجبة له عقلاً . ولكني اريد ان اعلمك باخطاء اخرى ، وقع فيها صاحب المذهب ، افلوطين ، حينما اراد ان يصف كيفية الخلق ، فجمح به الخيال ، وتردّى في هوة من الاوهام ، حيث يقول : ان الله لا يمكن ان يخلق العالم مباشرة ، لأنه لو خلقه مباشرة لاضطر للاتصال به ، وهو واحد لا يصدر عنه العالم المتعدد ...

حيران — اذن ، كيف كان الخلق ؟

الشيخ — يقول لنا افلوطين : ان تفكير الله في نفسه نشأ عنه (فيْض) ، وهذا الفيض هو العالم . واول شيء انبثق عن الله هو (العقل) ، وهذا العقل له وظيفتان : التفكير في الله ، والتفكير في نفسه . ومن العقل انبثقت (نفس العالم) ، ومن نفس العالم انبثقت النفوس البشرية ، وانبثقت نفس ثانية ، هي الطبيعة . وان نفس العالم هذه هي من العالم الروحاني ، غير ان مركزها على هامشه ، وقريباً من عالم المحسوس ، وهي الوسيط بين عالم المحسوس وبين العقل ...

وانما ذكرت لك هذه الخيالات عن كيفية الخلق ، والفيض ، والانبثاق ، والعقول والنفوس ، لأدلك على منشأ تلك السخافات ، التي وقع بها الفلاسفة الاسلاميون ، الذين اخذوا الكثير من الافلاطونية الحديثة وكانوا يُطلقون عليها اسم مذهب (الاسكندرانيين) ويسمون افلوطين (الشيخ اليوناني) .

مِنْ فَارَانْ إلى البِيرِينِهْ

نُورٌ علىٰ نُور

يقول حيران بن الاضعف : عرفت من كلام الشيخ انه سيحدثني في هـذه الليلة عن الفلاسفة المسلمين ، وكان لديّ كتاب يتحدث عن الرازي والفارابي وابن سينا ، عثرت عليه في خزانة ابي ، فاخذت اطالعه في النهار ، ولما حان وقتي مع الشيخ دخلت عليه وانا اتأبط الكتاب ، فلما رآني قال :

الشيـخ — ما هذا الكتاب يا حيران ؟

حيران — لقد ظننت انك ستحدثني عن فلاسفة المسلمين ، وهذا الكتاب فيه كلام عن الرازي والفارابي وابن سينا .

الشيـخ — هل قرأته

نعم قرأت بعضه ، ففهمت شيئاً ، وغابت عن فهمي اشيـــاء ؛ فقد وقعت فيا قرأت على كلام صعب معقّد فيه شيء مما ذكر مولاي الشيخ عن ترهـّات الافلاطونية الحديثة ، فهل كان هؤلاء الثلاثة من ضعيفي الايمان بالله كما يشاع عنهم ؟

الشيـخ — معاذ الله ياحيران ، انهم من اعظم المؤمنين بالله ، ومن اصدقهم برهانا على وجـود الله ، وكيف لا يكونون كذلك ، وهم كغيرهم من فلاسفة المسلمين ، قد جمعوا الى ايمان الوحي الصادق ، ايمان العقل السليم ، نورا على نور . ولكن هؤلاء أخذوا بترّهات الافلاطونية الحديثة وخيالاتها في مراتب الخلق ووسائطه ، واختلط عليهم الامر فحسبوها من كلام ارسطو ، وحال اجلالهم للمعلم الاول ، دون تمحيصها ؛ لذلك كان على من يكتب عن هؤلاء ان يمحّص اقوالهم ويميّز بين ما فيها من الحق النيّر والباطل المظلم ؛ وهذا ما لم يفعله الذين كتبوا عنهم ، امّا عجزاً عن التمييز ، او زهداً في نصرة الايمان ، او كيْداً للايمان .

فالرازي كان من اصدق المؤمنين . ولو لم يكن لدينا دليل على صدق ايمانه الا قوله « ان وجود العقــل في بعض الكائنات الحية وقدرتها على اتقان الصنعة يدل على وجود خالق احسن كل شيء خلقه » لكفانا . فهذا الكلام ، عندي ، ادل على صدق الايمان من كل برهان نظري مركب ، لانه يعتمد على البرهان البسيط الواضح الذي لا سبيل الى الشك فيه ، لامن قائله ولا من سامعه . والذي يهدي الناس لمثل هــذا لا يكون ضعيف الايمان يا حيران .

حيران — والفارابي ، ما رأي مولاي الشيخ فيه ؟

الشيخ — الفارابي ياحيران ، من اعظم الفلاسفة المؤمنين ، واصحّهم منطقا ، واصدقهم برهانا على وجود الله ؛ فقد بدأ بالدفاع عن العقل ، فاثبت له احـكامه الاوّلية البديهية ، التي تعتمد عليها البراهين كلها ، واتخذ ، من هذا ، طريقه الى اثبات وجود الله ؛ وما زالت اقواله ، في المعرفة والوجود ، تتحكم في عقول العلماء والفلاسفة والمتكلمين ، الى يومنا هذا الذي نحن فيه .

يقول الفارابي : ان العلم ينقسم الى تصوّر مطلق ، وتصور مع تصديق . فمن التصور ما لا يتمّ الا بتصور يتقدمه ، كما لا يمكن تصور الجسم ما لم يتَصَوّر الطول والعرض والعمق . وليس يلزم ذلك في كل تصور ، بـل لا بد من الانتهاء الى تصورٍ يقف ولا يتَصَوّر تصورٌ يتقدمه ، كالوجود ، والوجوب والامكان ؛ فان هذه لا حاجـة الى تصور شيء قبلها ، بل هي معان ظاهرة ، صحيحة ، مركوزة في الذهن .

اما التصديق فمنه ما لايمكن ادراكه ما لم تدرك قبله اشياء اخرى : كما ان تريد ان تَعْلَمَ ان العالم (مُحْدَث) ، فيحتاج ، اولا ، ان يحصل التصديق بان العالم (مؤلّف) ، وكل مؤلف محدث . وهذه (احكام اولية) ظاهرة في العقل ، كما ان طرفي النقيض ، ابدا ، يكون احدهما صدقاً والاخر كذباً ، وان الكل اعظم من الجزء . فهذه معان مركوزة في الذهن يمكن اظهارها (على سبيل التنبيه) اذْ لاشيء اظهر منها ، ولا يُبرهَن عليهـا ، لانها بيّنة بنفسها ، ويقينية الى اقصى درجات اليقين ، ولا يمكن

الاستغناء عنها في اقامة البرهان على اي قضية ، لانها اسسٌ واصولٌ بديهية .

حيران — هذا والله كلام في اعلى مراتب اليقين .

الشيخ — وعلى هذا اليقين وضع الفارابي برهانه على وجود الله فقال : ان الموجودات على ضربين : احدهما (ممكن الوجود) ، والثاني (واجب الوجود) . وممكن الوجود ، اذا فرض غير موجود ، لم يلزم عنه محال ، وليس بغنيّ ، بوجوده ، عن علته ، واذا وجد صار واجب الوجود بغيره ، لا بذاته . اما (الواجب الوجود) ، فمتى فرض غير موجود لزم عنه محال ، ولا علة لوجوده ، ولا يجوز كونُ وجوده بغيره . والاشياء (الممكنة) لا يجوز ان تمرّ بلا نهاية ، في كونها علة ومعلولا ، ولا يجوز كونها على سبيل الدّور ، بل لا بد من انتهائها الى شيء واجب ، هو الموجود الاول ، الذي هو السبب الاول لوجود الاشياء ، وهو الله تعالى .

حيران — وهذا ، والله ، كلام في اعلى مراتب اليقين .

الشيخ — لا يكفي ان تقول ، يا حيران ، انه كلام في اعلى مراتب اليقين ، بل احفظه في صدرك ولا تدعْ احدا من المجادلين في الله ، بغير علم ولا هدى ، يتغفّلك اليه بحشو او تشويش . وسوف ترى كيف سيطر هذا البرهان على العقول ، حتى جاء (لايبنز) العظيم يجدّده ويمجّده بعد سبعمائة عام .

حيران — اذن ، كيف قال مولاي ان الفارابي اخذ بترهات الافلاطونية الحديثة ؟

الشيخ — انني على يقين من ان اخذه بترهات الافلاطونية الحديثة ، في سر الخلق والتكوين ، ومراتبه ، كان بلسانه لا بقلبه ، تظاهراً وتفاخراً بالتحذق والتفلسف . فالعقل الذي يضع قواعد المعرفة بذلك الاتزان ، لا يخوض في هذه الخيالات عن قناعة وايمان . ولو استمعتَ اليه كيف يقر بعجز العقول عن ادراك اسرار الله ، في كنه ذاته ، وصفاته ، ورأيت كيف يستمسك باتزانه ، وحكمته ، وادبه مع الله ، لكذّبت كل ما نُسب اليه من هذيان ، في مراتب الخلق ووسائطه .

انه يقول : (ولما كان الباري اكمل الموجودات ، وجب ان تكون معرفتنا به اكمل معرفة ، كما ان معرفتنا بالرياضيات اكمل من معرفتنا بالطبيعيات ، لان موضوع الاولى اكمل من موضوع الثانية . ولكننا امام (الموجود الاول) كأننا امام ابهر الانوار فلا نستطيع احتماله ، لضعف ابصارنا ، لان الضعف الناشئ عن ملابستنا بالمادة يقيّد معارفنا ويعوّقها) .

هكذا ، يا حيران ، يتسامى هذا الرجل في بيانه واتزانه ، واقراره بالعجز الذي اقر به كل عاقل ، حتى اذا اراد ان يقلد الافلاطونية الحديثة في تكهناتها ، عن كيفية خلق العالم ، نفخ حُبُّ التحذّق والتفلسف في انفه ، فلم يكتف بما اخترعته الافلاطونية الحديثة من عقول ، ونفوس ، وافلاك ، بل زادها عقولا ، ونفوسا ، وافلاكا ، حتى لتحسب ان الذي يخال هذه الاخيلة انسان آخر غير الفارابي .

حيران — وهل وقع ابن سينا ، الذي اسمع انه اعظم من الفارابي ، في مثل ذلك ؟

الشيخ — ان ابن سينا من اعظم الفلاسفة المؤمنين ، وهو اشبه الناس باستاذه الفارابي ، سموا ، واتزانا ، عند البحث في (المعرفة والوجود) ، واسفافاً عند الكلام في مراتب الصدور ، والعقول ، والأفلاك .

فاستمع اليه في مبحث المعرفة يقول : ان الادراك الحيواني ، امّا في الظاهر ، وامّا في الباطن . فالادراك الظاهر هو بالحواس الخمس . ووراء المشاعر الظاهرة ، شِباكٌ وحبائلُ لاصطياد ما يأتي به الحس من الصور : من ذلك قوة (مصوّرة) تثبت صور المحسوسات بعد زوالها . وقوة تسمى (وهماً) وهي التي تدرك من المحسوس مالا يُحَسّ ، كالقوّة التي بالشاة اذا رأت شبح الذئب تُدرك عداوته لها ، اذ حاسة البصر ، وحدها ، لا تدرك هذه العداوة . وقوةٌ (حافظة) وهي خزانة ما يدركه الوهم ، كما ان المصورة خزانة ما يدركه الحس . وقوة (مفكرة) وهي التي تتسلط على الودائع في خزانتي المصورة والحافظة ، فتخلط بعضها ببعض ، وتفصل بعضها عن بعض .

ثم يقول ، وما اجمل واعظم ما يقول : الحس لا يدرك (صِرفَ المعنى) ، ولا يدرك الصورة الاّ في المادة ، والاّ مع علائق المادة ، من كمّ ، وكيف ، واين ، ووضع . والروح الانسانية هي التي تتمكن من تصور المعنى بحدّه وحقيقته ، منفوضاً عنه اللواحق الغريبة ، مأخوذا من حيث يشترك فيه الكثير ، وذلك بقوة تسمى (العقل النظري) . وليس من شأن المحسوس ، من حيث هو محسوس ، ان يُعقل . ولامن شأن المعقول ، من حيث هو معقول ، ان يُحَسّ . . . ، والحسُّ ، تَصَرُّفه فيما هو من عالم الخلْق ، والعقل تصُّرفه فيما هو من عالم الأمر . وما هو فوق الخلق والامر فهو محتجب عن الحس والعقل . والذات الاحدية لا سبيل الى ادراك كنه ذاتها ، بل تُعرف صفاتها . وان عقولنا لا تصلح ان تكون حَكَماً ، نحكم بها على اعمال الله تعالى ، واسراره في خلقه ، وتدبيره وقضائه وقَدَره .

حيران — لله هذا البيان الساحر الرائع !

الشيخ — اروع منه برهانه على وجود الله ، فانه ينهج نفس النهج الذي سلكه الفارابي ، ويأتي بنفس الدليل على اثبات وجود الله ، حيث يقول : انه لا ينبغي ان نلتمس البرهان على اثبات الباري بشيء من مخلوقاته . بل ينبغي ان نستنبط من (امكان) ما هو موجودٌ ، و (ما يجوز) في العقل وجوده ، موجوداً اولا (واجب الوجود) ، ... وهــذا العالم (ممكن) يحتاج الى علة تخرجه للوجود ، لان وجوده ليس من ذاته ... وبهذا لا نحتاج ، في اثبات (الاول) ، الى تأمل بغير نفس الموجود ، من غير ان نحتاج للاستدلال عليه بشيء من مخلوقاته ، وان كان ذلك دليلا عليه ، الاّ ان الاستدلال الاول ، اوثقُ واشرف . . . والاستدلالان كلاهمـا موجودان في قوله تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حَتَى يَتَبَيّنَ لَهُمْ أنه الحقّ . أوَ لَمْ يَكفِ بربّكَ أنه عَلىَ كلِ شَيءٍ شَهيد) .

هذا بعض بيانه الساحر ، وبرهانه الباهر ، في (العقل والمعرفـة والوجود) ، فاحفظه يا حيران ، فاني سأريـك كيف اقتبس برهانه على وجود الله ، بعض اعاظم الفلاسفة المتأخرين ، اقتباسا يكاد يكون حرفيا . . .

حيران – لقد قرأت ان ابن سينا يجاري ارسطو في رأيه عن قدم العالم ؟

الشيخ – ان ظاهر كلام ابن سينا يدل على انه يجاريه . ولكني افهم ، من باطن كلامه ، انه يخرج عن كلام ارسطو ، ويفسر معنى القدم تفسيرا بديعا ، يدل على بعد نظره ، وسلامة تفكيره ، وصدق ايمانه ، حيث يقول : (القِدَم يقال على وجوه : (قدم بالقياس) ، وهو شيء زمانه في الماضي اكثر من زمان شيء آخر ، فهو قديم بالقياس اليه . واما (القديم المطلق) فهو ايضا يقال على وجهين : بحسب الزمان ، وبحسب الذات . فالقديم (بحسب الزمان) ، هو الذي ليس له مبدأ زماني . والقديم (بحسب الذات) هو الذي ليس له مبدأ يتعلق با ، وهو الواحد الحق، تعالى عما يقول الظالمون عُلوّاً كبيراً) .

فمن كلامه هذا في معنى القِدم ، وما يشير به الى معنى الزمان ، الذي اوضحه الغزالي من بعده ، يظهر لك انا لا يرى ابدا ان العالم قديم بذاته ، وغير مخلوق لله . بل يريد ان قِدَم العالم ، انما يُسمى قدماً مطلقاً ، لان الله خلقه قبل الزمان فليس له مبدأ زماني . ولا يقاس هذا القدم المطلق الزماني (بالقدم المطلق الذاتي) ، الذي يوصف به الله القديم المطلق الازلي الحق ، فقد كان الله ولم يكن عالم ولا زمان ، ثم خلق الله العالم فبدأ الزمان . واذا كان العالم يوصف بانه قديم ، فانما يراد انه قديم بحسب الزمان ، لا بحسب الذات .

حيران – ان ذهني يرتبك ويكلّ ، يا مولاي ، عند تصور هذا الزمان الذي لم يكن له وجود .

الشيخ – لا تبتأس يا حيران ، فسوف ترى ان اعاظم الفلاسفة كالغزالي ، وابن طفيل ، وعمانوئيل كانط ، يشيرون الى هذا الارتباك الذي يعتري العقول .

حيران – لماذا لاتحدثني يا مولاي عن الغزالي ، فانك تكثر من ذكره ؟

الشيخ – سأحدثك عنه اذا جاء دوره في الترتيب الذي اخترته لك ، بعد ان احدثك عن ابن مسكويه وابن خلدون وابن طفيل .

حيران — انني لم اسمع لابن مسكَوَيْه بهذه الشهرة .

الشيخ — ان لابن مسكويه ، في فلسفة الاخلاق والمعرفة والوجود ، كلاماً لا يقلّ سمواً وبياناً عما جاء به اعظم الفلاسفة ، وسأذكر لك طرفاً من آرائه في (المعرفة والوجود) ؛ اما فلسفته الاخلاقية ، التي اشتهر بها اكثر مما اشتهر في النواحي الاخرى ، فلا احدثك عنها ، لانها ليست من موضوعنا الذي نحن فيه ، ولكني اوصيك بان تقرأها ، لانها من اطرف ما كُتِبَ في (فلسفة القيم) .

يقول ابن مسكويه ، في المعرفة ، بعد ان يتكلم عن النفس ، ويبرهن على انها ليست بجسم ولا عَرَض :

ان الجسم قواه لا تعرف العلوم الا من الحواس . امـا النفس فانهـا ، وان كانت تأخذ كثيراً من مباديء العلوم عن الحواس ، فلها من نفسها مباديء اخر وافعال لا تأخذها عن الحواس البتّة ، وهي المباديء الشريفة العالية ، التي تُبنىَ عليها القياسات الصحيحة . وذلك : انهـا اذا حكمت انه ليس بين طرفي النقيض واسطة ، فأنها لم تأخذ هذا الحكم بشيء آخر ، لأنه (اوليّ) ، ولو اخذته من شيء آخر لم يكن اوّليا .

فالحواس تدرك المحسوسات فقط . واما النفس فانها تدرك اسباب الاتفاقات ، واسباب الاختلافات ، التي في المحسوسات ، وهي معقولاتها التي لا تستعين عليها بشيء من الجسم ، ولا اثار الجسم . وكذلك اذا حكمت على الحس ، انه صدق او كذب ، فليس تأخذ الحكم من الحس ، لان الحس لا يضادّ نفسه ، ونحن نجد النفس العاقل فينا ، تستَدرك شيئاً كثيراً من اخطاء الحواس ....

ثم ان النفس ، اذا علمتْ انها ادركت معقولاتها ، فليس تعلم هذا العلم من علم آخر ، فانها لو علمت هذا العلم من علم آخر لاحتاجت في ذلك العلم ايضاً الى علم آخر ، وهذا يمرّ بلا نهاية . فاذنْ علمها بانها علمتْ ، هو من ذاتها وجوهرها ، اعني العقل ، وليست تحتاج في ادراكها ذاتهـا الى شيء آخر غير ذاتها) .

هكذا يفصّل ابن مسكويه نظرية المعرفـة الحسية والعقلية ، تفصيلا

دقيقاً رائعاً ، يوافق ، بل يسبق ويفوق ما ذهب اليـه اعاظم المتأخرين أمثـال ديكارت ولوك وعمانوئيل كانْـط . وقد يكون هذا منهم نتيجة توافق في التفكير ، وتوارد في الخواطر ، ولكني ارجّح بان اقوال هؤلاء الفلاسفة المسلمين قـد غذّت كثيراً من آراء المتأخرين ، وان لم يعترفوا لهم بهذا الفضل ...

اما في (الوجود) ، فان ابن مسكويه يعترف بان العالم مخلوق ، وان الله تعالى خلقه من العدم ، حيث يقول : ان الصانع جل جلاله جليّ غامض . امّا انه جليّ ، فمن قِبَل انه الحقّ ، والحق نـيّر . واما انـه غامض ، فلضعف عقولنا ، بسبب تكاثر الاغشية الهيولانية على جوهرها . وان الله الواحد الازلي ابدع الاشياء كلها من لاشيء ، اذْ لا معنى للابداع انْ كان عن شيء موجود .

ولابن مسكويه ، في وصف تسلسل المخلوقات ، ونموها ، وارتقائها ، رأي بديع يشير فيه الى مذهب النشوء والارتقاء ، اشارة صريحة ، لم يزدْ عليها المتأخرون ، الاّ في التفاصيل ، حيث يقول : ان الموجودات مراتب ، وكلها سلسلة متصلة . . . وكل نوع من الموجودات يبدأ بالبساطة ثم لايزال يترقى ، ويتعقّد ، حتى يبلغ افق النوع الذي يليه . فالنبات في افق الجماد ، ثم يترقى حتى يبلغ اعلى درجة ، فاذا زاد عليها قَـبِـلَ صورة الحيوان . وكذلك الحيوان يبدأ بسيطاً ثم يترقى حتى يصل الى مرتبة قريبة من الانسان . ثم يخلص ، ابن مسكويه ، من هذا ، الى القول بان الانسان نفسه لا يزال يترقى ، ويزداد ذكاء ، وصحة في التفكير ، وجودةً في الحكم ، حتى يبلغ الافق الاعلى الذي يتعرض به لأحدَى منزلتين : امّا ان يديم النظر في الموجودات ليتناول حقائقها ، فتلوح له الامور الآلهية ، وامّا ان تأتيه تلك الامور من الله تعالى ، من غير سعْيٍ منه . وصاحب المنزلة الاولى هو (الفيلسوف) ، وصاحب المنزلة الثانية هو (النبيّ) الذي يتلقّى فيضاً من الله تعالى . فـاذا التقى مَن وصل مِن اسفل بالتفلسف ، ومَن تلقّى مِن اعلى بالفيض ، اتفق رأيهما ، وصدّق احدهما الاخر ، بالضرورة ، لاتفاقهما في تلك الحقائق .

حيران – ارى مولاي يذكر كلام ابن مسكويه عن النشوء والارتقاء ، بدون ان يعقّب عليه بكلمة ، ويذكر كلامه عن تساوي النبي والفيلسوف بدون ان ينتقده ، فهل يقرّ مولاي الشيخ هذا القول ؟

الشيخ – اما عن النشوء والارتقاء ، فاترك الجواب الى شيخي الجسْر رحمه الله ، الذي سأحدثك عنه اذا جاء دوره ، فقد تكلم ، عن فلسفة النشوء والارتقاء التي تشغل اليوم بالكم ، انتم الناشئة ، كلاما فيه كثير من آيات السموّ في التفكير . . .

واما كلام ابن مسكويه عن تلاقي الفيلسوف مع النبي على الحق ، فمِن اين اتاك انه يريد به معنى التساوي في القدر ، والقيمة ، والكرامة ، والعصمة ، والعلم ؟ انه انما اراد التلاقي على (الحق) في شيء واحد ، وهو الايمان ، بوجود الله ، دون ما سوى ذلك من امور النبوّة ، واحكام الشرائع ، التي يستعد المتفلسف السليم التفكير للتصديق بها ، من غير ان يستطيع ادراكها بنفسه ، بلا وحي ولا رسالة . ولا ريب في ان الايمان بوجود الله الواحد الاحد ، الازلي الابدي ، القادر ، الخالق ، الباريء المصّور المتصف بصفات الكمال ، قد يصل اليه الانسان بعقله من طريق التأمل النظري الصحيح . وهذا الأيمان العقلي الخالص ، مطلوب في الشرع من المؤمنين . ولا يمكن ان يُفْهم من هذا عدم الحاجة الى النبوّة ، لان الذين يستطيعون الوصول الى هذا الايمان بالله ، وصفات كماله ، من طريق التفكير ، هم القلّة ، بل الندرة. فلا بد من النبوّة ، لنشر هذا الهدى الكريم ، بين الناس كافة .

هذا ما اراني افهمه من كلام ابن مسكويه . واني به لفرح وفخور ، لانه يؤيد الرأي القاطع ، الذي أُرشِدْتُ اليه ، ثم خبرته بنفسي ، بعد حياة طويلة وتأمل عميق ، وهو ان نتاج الفلسفة الصحيح لا يتنافى أبداً مع الدين الحق ، في اثبات وجود الله ووحدانيته ، بل يؤيد هذا الاثبات الذي جاء به الوحي بالنظر العقلي الخالص . وسترى ان ابن طفيل يؤيد هذا الرأي في قصة الايمان والعقل .

حيران – ماذا يقول ابن طفيل ، وماهي قصة الايمان والعقل ؟

الشيخ – لقد ابدع ابن طفيل في تصوير هذا التلاقي ، بين النظر العقلي الخالص ، وبين الوحي ، في قصته الشهيرة «حيّ بن يقظان» ، وسألخصها لك في الليلة القادمة ، لان الذي بقي من هذه الليلة يضيق عنها ، ولا اريد ان امرّ بها مروراً عابراً .

حيران – لماذا يحدثني مولاي عن ابن خلدون وهو من المؤرخين لا من الفلاسفة ؟

الشيخ – ابن خلدون عالم كبير واسع الاطلاع متزن التفكير ، بذل مجهوده في فلسفة الاجتماع والتاريخ ، فاخرج للناس (مقدمة) تاريخه العظيمة التي استحق بها ان يُعتبر ، عند علماء الغرب ، واضعاً لفلسفة الحضارة . وتجد زبدة فلسفته السامية البديعة في (التاريخ والاجتماع) ملخصة في موجز كنت وضعته قبل عشرين عاماً . اما مباحث الفلسفة الاخرى فلم يُعن بها عناية خاصة ، وان كانت (مقدمته) لا تخلو من آراء قيمة ، في مبحثي المعرفة والوجود ، يطيب لي ولك ان تعرفها ، لتدرك كيف يتفق اكابر العلماء ، واعاظم المفكرين على الحق الذي لاريب فيه .

اما في المعرفة ، فله كلام في اعلى مراتب السموّ والجمال . فهو يرى ان الاصل في الادراك انما هو المحسوسات وان جميع الحيوانات ، من الناطق وغير الناطق ، مشتركة في هذا الادراك الحسي ، ولكن الانسان يتميز عنها بادراك (الكليّات) وهي مجردة من المحسوسات . ثم يتحدث عن المبادىء الأولية المركوزة في عقولنا بفطرة الله فيقول : ان تصورات الفكر ، مهما رُدّت الى تصورات سابقة ، فليس كل ما يقع في النفس من التصورات يُعرف سببه ، اذ لا يطلع احد على مبادىء الامور النفسانية ، وعلى ترتيبها . انما هي اشياء يلقيها الله في الفكر يتبع بعضها بعضا ؛ والانسان عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها . وانما يحيط العلماء ، في الغالب ، بالاسباب التي هي طبيعية ظاهرة .

ويعترف ابن خلدون بعجز العقل عن ادراك كنه الاشياء بذاتها فيقول : ولا تثقن بما يزعم لك الفكر ، من انه مقتدر على الاحاطة بالكائنات ،

واسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كله ، وسفّهْ رأيَكَ في ذلك .
واعلمْ ان الوجود عند كل مدرِك ، في باديء رأيه ، منحصر في مداركه لا يعدوها . والامر في نفسه بخلاف ذلك ، والحقّ وراءَه .

يقول هذا ، ثم يخشى ان يفهم من كلامه اتهام العقل بالعجز المطلق ، الذي قال به الشكّاك ، واهل السفسطة ، فيبادر الى القول : (وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح ، واحكامه يقينية لا كذب فيها . غير انك لا تطمع ان تزن به امور التوحيد والاخرة وحقيقة النبوّة وحقائق الصفات الآلهية وكل ما وراء طوره ، فان ذلك طمع في محال ، ومثال ذلك : مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب ، فطمع ان يزن به الجبال . وهذا لا يدل على ان الميزان في احكامه غير صادق ، ولكن العقل قد يقف عنده ، ولا يتعدّى طوره ، حتى يكون له ان يحيط بالله وصفاته ، فأنه ذرّة من ذرّات الوجود الحاصل منه .

وهكذا يتفق ابن خلدون ، في هذا ، مع الغزالي ، وكثير من عقلاء المتقدمين والمتأخرين ، الذين سوف ترى انهم لم يخرجوا عن هذا الرأي ، في قدرة العقل وعجزه .

اما رأيه في الوجود فيعتمد فيه على الدليل المشهور ، دليل الحدوث ، فيقول :

(ان الحوادث في العالم ، سواء اكانت من الذّوات او من الافعال ، لا بد لها من اسباب متقدمة عليها ، وكل واحد من هذه الاسباب حادث ايضاً ، فلا بد له من اسباب اخرى ، ولا تزال تلك الاسباب مُـرتقيةً حتى تنتهي الى مسبب الاسباب ، وموجدها ، وخالقها سبحانه لا اله الا هو) .

بَيْنَ وَحَيْنَ

يقول حيران بن الاضعف : وفي مساء اليوم الثاني ، قال لي خادم المسجد العجوز ، وهو يعطيني كتّيباً صغيراً ، سلّمْ هذا الكتاب الى مولانا ، فقد مضى عليه يومان وهو يلجّ في طلبه ؛ فأخذت منه الكتاب ، ولما دخلت على الشيخ ، ورآه في يدي ، بدا عليه البِشْر وقال :

الشيخ – واخيراً وجدوه ... ؟ ليس الذنب ذنبهم ، على كل حال ، وانما هو ذنبي . تَصَور ، يا حيران ، اني كنت قد وضعت هذا الموجز في الفلسفة ، منذ عشر سنوات ، على ما اظن ، ثم طبعوه باذني ، وانا اليوم لا املك منه سوى نسخة واحدة لا ادري اين محلها ...

حيران – وما هو وجه الضرورة لهذا الموجز حتى لج مولاي في طلبه ؟

الشيخ – ليس ثمة ضرورة ، ولكني اريد ان الخص لك قصة (حيّ بن يقظان) ، وهي ملخصة في هذا الكتيّب ، ففضلت ان اوفر على نفسي عناء تذكرها وتلخيصها من جديد .

حيران – لقد فهمت من مولاي الشيخ ، انها قصة خيالية وضعها ابن طيفل ، فهل تكون الفلسفة ، التي هي البحث عن الحق ، في حنايا قصة من نسيج الخيال ؟

الشيخ – ليس في القصة من الخيال الا اسم البَطل والمسْرح ، يا حيران . ولو ابدلتَ كلمة (حيّ بن يقظان) بكلمة (العقْل) ، واعتبرتَ ان الجزيرة النائية هي ارضنا التي نعيش عليها ، لانقلبت القصة تاريخاً صحيحاً ، ليس فيه اثر للخيال .. الاّ حيث يتخلى (العقلُ) ، (البطلُ) عن دَوْره ...

حيران – وكيف ذلك يا مولاي ؟

الشيخ – ان آراء ابن طفيل ، في المعرفة ، والوجود ، والايمان بالله ، والفضيلة ، واضحة في ثنايا قصته ، التي لولا ما فيها من مجاراة لابن سينا وغيره على اوهامهم في (مراتب الصدور) ، لكانت قصة الحق من الفلسفة ، بل قصة العقل ، كيف يتدرج في مسالك المعرفة ، ويترقى في مراتب الفلسفة ، حتى يعرف الله والحق والخير والجمال ...

وقبل ان اقرأ عليك خلاصتها ، اريد ان اضع امام عينيك اهم الآراء ، التي اراد ابن طفيل ان يبسطها في ثنايا قصته ، لتكون عالما بما بين السطور من مقاصد وافكار .

لقد اراد ابن طفيل ان يبين في قصته الحقائق الآتية :

أ – المراتب التي يتدرج بها العقل ، في سلّم المعرفة ، من المحسوسات الجزئية الى (الافكار الكلية) .

ب – ان العقل الانساني قادر ، من غير تعليم ولا ارشاد ، على ادارك وجود الله ، بآثاره في مخلوقاته ، واقامة الادلة الصادقة على ذلك .

ج – ان هذا العقل قد يعتريه الكلال والعجز في مسالك الادلّة ، عندما يريد تصور الازلية المطلقة ، والعدم المطلق ، واللانّهاية ، والزمان ، والقدم والحدوث ، وما شاكل ذلك

د – ان العقل سواء ترجح لديه (قدم العالم او حدوثه) ، فان اللازم من كل واحد من الاعتقادين شيء واحد ، وهو وجود الله .

هـ – ان الانسان قادر ، بعقله ، على ادراك اسس الفضائل ، واصول الاخلاق العملية ، والاجتماعية ، والتحلّي بها ، واخضاع الشهوات الجسدية لحكم العقل ، من غير اهمال لحق الجسد ، او تفريط فيه .

و – ان ما تأمر به الشريعة الاسلامية ، وما يدركه العقل السليم ، بنفسه ، من الحق والخير والجمال ، يلتقيان عند نقطة واحدة بلا خلاف .

ز – ان الحكمة كل الحكمة ، هي فيما سلكه الشرع من مخاطبة الناس على قدر عقولهم ، دون مكاشفتهم بحقائق الحكمة واسرارها ، وان الخير كل الخير للناس ، هو في التزام حدود الشرع ، وترك التعمّق .

حيران – ما اشد شوقي الى قراءة هذه القصة العجيبة .

الشيخ – اليك تلخيص القصة :

يصور لنا ابن طـَفيلْ ، طفلاً رضيعاً يسمى (حيّ بن يقظان) ، أُلقيِ به في جزيرة خالية من الناس ، فحنت عليه ظبية ، فقدت ولدها ، فارضعته وتعهّدته ، حتى ايْفع وتعلم اصوات الحيوانات . ورآها كاسية مسلحة ، وهو عار اعزل ، فاتخذ من الورق والريش ستراً وكساءً ، ومن العصى سلاحاً ...

ثم ماتت الظبية ، فهاله سكوتها وسكونها ، فأراد ان يعرف علتها ، فلم يجد في ظاهرها تغيّراً ، فترجح عنده ان العلة في عضو محجوب عن بصره ، فشق صدرها ، بالمحدّد من الحجارة وشقاق القصب اليابس ، حتى اهتدى الى قلبها ، فلم يجد في ظاهره آفة ، فلما شقه وجد البيت الايسر منه خالياً ، فقال : ان هذا الشيء ، الذي كان في هذا البيت وارتحل عنه ، هو الذي افقد الظبية حياتها . واخذ يفكر في هذا الشيء ، فأدرك ان الظبية هي ، في الحقيقة ، ذلك الشيء المرتحِل . وما جسدها الّا آلة . وزاده يقينا بهذا ، انه رأى الجسد يُنتن . ثم رأى غراباً يواري اخاه الميت ، فوارى ، هو مثله ، الظبية في التراب .

ثم اكتشف النار ، وقَبَسَ منها ، واخذ يمتحنها ، وجرب ان يلقي فيها بعض ماطرحه البحر من الحيوانات ، فاهـــتدى الى شـيّ اللحوم وانضاجها ... وزاد عجبه من هذه النار التي لها قوى كثيرة ، وخطر بباله ان الشيء الذي ارتحل من قلب الظبية قد يكون من جوهر النار ، فأخذ يبحث عن ذلك بتشريح الحيوانات ، فتعلم كثيراً من وظائف اعضائها . ثم بدا له ان يُعمّر بيتاً يأوى اليه ، وان يتخذ اسلحة يدافع فيها عن نفسه ، ويصطاد بها الحيوانات .

وكان قـد بلغ العام الحادي والعشرين من عمره فأخذ يتأمل في هذا الكون ، وما فيه من حيوانات ونباتات ومعادن ، فرأى لها اوصافاً كثيرة وافعالاً مختلفة ، وانها تختلف ببعض الصفات ، وتتفق في بعضها ، فتكونت عنده فكرة (الكثرة) . ثم اخذ ينظر الى الحيوانات والنباتات ، وما يتفق

فيه كل منها ، وما يختلف ، فتكونت عنده فكرة (النوع) وفكرة (الجنس) . ثم رأى الحيوان والنبات جنسين متفقين في بعض الامور كالتغذي ، فأعتقد انها شيء واحد . ثم نظر اليها والى الجماد فرأى ان الثلاثة تتفق في (الجسمية) ، ولكن تختلف في الخواص الاخرى ، فأعتقد ان الكل شيء واحد ، وان عمّته الكثرة . ثم تأمل في هذه الاشياء كلها ، فوجد انها تتحد في معنى (الجسمية) وتختلف في الصورة ، ولاح له ان الروح الحيواني لا بد ان يكون شيئاً زائداً على هذه الجسمية ، وهو الذي يصلح لان يعمل تلك الاعمال الغريبة ، ويفهم ضروب هذه الادراكات ؛ فعظُم في عينه امر (الروح) ، وعلم انها اعظم واسمى من الجسد الفاني . ثم أخذ يفكر في اصل الاشياء فزعم ان ابسطها الماء والتراب والهواء والنار ؛ فنظر لعلّه يجد وصفاً جامعاً لهذه الاجسام ، فلم يجد الّا معنى (الامتداد) ولكن وراء هذا الامتداد معنى آخر وهو (صورة) الشيء الذي تبدّل وتحوّل ، فتكونت عنده فكرة (المادة والصورة) ، فأشرف بذلك على تخوم العالم العقلي .

ثم عاد الى الاجسام البسيطة ، فرأى صورها تتغير ، كالماء يكون ماءً ، فيصبح بخاراً ، ثم يرجع ماءً ، فادرك ان اختلاف الصور لا يمكن ان يكون من اصل الشيء ، وعلم ان كل حادثٍ لا بد له من محدث . وتحقق له ان الافعال المنسوبة الى الاشياء ، ليست في الحقيقة لها ، وانما هي لفاعل يفعل بها . فحدث له شوق لمعرفة هذا الفاعل ، فجعل يطلبه من جهة المحسوسات ؛ ولكنه لم يرَ ، في المحسوسات ، شيئاً بريئاً عن الحدوث ، والافتقارِ الى الفاعل ، فاطّرحها كلها ، وانتقل الى الاجرام ، وتفكر فيها وتساءل : هل هي ممتدة الى ما لا نهاية ؟ فتحير عقله ؛ ثم ادرك ، بقوة نظره ، ان جسماً لا نهاية له باطل ، وشيء لا يمكن ، ومعنى لا يُعْقل . ثم تفكر في العالم بجملته ، هل هو شيء حدث بعد ان لم يكن ، وخرج الى الوجود بعد العدم ، او هو امر كان موجوداً ولم يسبقه العدم ؟ فتشكك في ذلك ، ولم يترجح عنده اي الحكمين ؛ وذلك انه كان اذا

ازمع على اعتقاد (القِدم) ، اعترضته عوارض كثيرة ، من استحالة وجود لا نهاية له ، وانّ هذا الوجود لا يخلو من الحوادث ، فهو محدث ايضاً ؛ واذا ازمع على اعتقاد (الحدوث) ، اعترضته عوارض اخر ؛ وذلك انه كان يرى ان معنى حدوثه ، بعد ان لم يكن ، لا يُفهم الّا على معنى ان الزمان تقدّمه ، والزمان في جملة العالم ، وغير منفك عنه ، فاذاً لا يُفهم تأخر العالم عن الزمان . ثم كان يقول : لمَ احدثَه المحدثُ الآن ، ولمْ يحدثْه قبل ذلك ، ألطارئٍ طرأ عليه ، أم لتغير حدث في ذاته ، ولا شيء هنالك .

وما زالت تتعارض عنده الحجج ، حتى تحيّر ، وجعل يفكر ما الذي يلزم عن كل واحد من الاعتقادين ؟ فلعل اللازم عنهما يكون واحداً . فرأى انه ان اعتقد حدوث العالم وخروجه الى الوجود بعد العدم ، فاللازم عن ذلك ، ضرورةً ، انه لا يمكن ان يخرج الى الوجود بنفسه ، وانه لا بد له من فاعل يخرجه الى الوجود ، وانّ ذلك ليس بجسم ، لأنه لو كان جسماً ، لاحتاج الى محدِث ، ولو كان المحدث الثاني جسماً ، لاحتاج الى محدِث ثالث ، والثالث الى رابع ، ويتسلسل الى غير نهاية ، وهو باطل . وان اعتقد قدم العالم ، فان اللازم عن ذلك ان حركته قديمة ؛ وكل حركة لا بد لها من محركٍ ، ضرورةً . والمحرك اما ان يكون قوة سارية في جسم من الاجسام ، واما ان لا يكون كذلك . وكل قوة سارية في جسم تنقسم بانقسامه ، فتضعف بضعفه ، وكل جسم لا محالة متناه ، فكل قوة متناهية . فلا بد ان يكون المحرك بريئاً عن المادة وعن صفات الاجسام . فانتهى نظر (حي بن يقظان) ، من هذا الطريق ، الى ما انتهى اليه بالطريق الاول . ولم يضره تشككه في قدم العالم وحدوثه .

ثم رأى انه يتوجب ، عقلاً ، لهذا الفاعل العظيم ، جميع صفات الكمال : من علم وقدرة وارادة واختيار ورحمة وحكمة .

ولما حصلت له المعرفة بهذا الفاعل العظيم اراد ان يعرف بأي شيء

عرفه ؟ فلم يجد في الحواس وسيلة لادراكه ، لأنهـا انما تدرك الاجسام ، وهو بريءٌ من صفات الأجسام . فتبين له ان ذاته التي ادرك بها هـذا الفاعل ، بريئة من الجسم ، ثم تحقق له ان هـذه الذات البريئة من الجسم لا يعتريها الفناء ، وانها ستبقى في حياة خالدة ، منعمّة أو معذبة ، بحسب ما كان لها من حظ الاقبال في حياة الدنيا ، على ملاحظة الفاعل العظيم ومراقبته ، فحمله هذا الاعتقاد على ان يفكر بطريقة ينظم بهـا حياته ، لينصرف الى التأمل في هذا الخالق .

ولما نظر الى نفسه ، رأى فيها شيئاً من سائر انواع الحيوان ، بجزئـه الخسيس ، وهو البدن المظلم الكثيف ، الذي يطالبـه بالمحسوسات ، وعلم ان هـذا البدن لم يُخلق له عبثاً ، وانه يجب عليه ان يُصلح من شأنه ، وهذا لا يكون الا بفعل يشبه افعال سائر الحيوانات... ورأى انه يشبه ، من جهـة ثانية ، الكواكبَ ، من حيث ان لها اجساماً ، وذرات عارفة تعرف (الموجود الواجب الوجود) . ورأى من جهة ثالثة ، انه ، بجزئه الاشرف ، الذي عرف به (واجب الوجود) ، فيه شبهٌ مّا منه ، فوقر في نفسه وجوب التشبّه بهذه الثلاثة : فيتشبه بالحيوانات في فعل ما يضمن صلاح جسده وبقائه بقدر الضرورة والكفاية ، ويقتصر على التغذي بالنباتات ، وان لم يجدها اخذ من الحيوانات ، على شرط ان يحتفظ ببذور النبات ، وان يختـــار من الحيوانات اكثرها وجوداً ، وان لا يستأصلها . ويتشبّه بالاجرام السماوية ، من حيث انها شفافة ومنـــيرة وطاهرة ، ومتحركة بالدوران ، ومن حيث انها تعطي ، ما تحتها ، النور والحرارة ، ومن حيث كونها تشاهـــد (واجب الوجود) ، وتتصرف بحكمته ، ولا تتحرك الا بمشيئته ؛ فألزم نفسه ان لا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مَضَرة ، من الحيوان والنبات ، وهو يقدر على ازالتها ، الا ويزيلها ، فمتى وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب ، أو تعلق به نبات آخر يؤذيه ، أو عطش عطشاً يكاد يفسده ، ازال عنه ذلك ؛ ومتى وقـــع بصره على حيوان قد ارهقه سبع ، او نشب به ناشب ، او تعلق به شوك ، او

مسّه ظمأ او جوع ، تكفّل بازالة ذلك ، واطعمه واسقاه . ومتى وقع نظره على ماء يسيل الى سقي نبات او حيوان ، وقد عاقه عن ممرّه عائق ، ازاله . وألزم نفسه التشبه بالكواكب بالطهارة والنظافة في جسده ولباسه . وألزم نفسه ، من ضروب الحركة ، الاستدارة مثلها ؛ فكان يطوف بالجزيرة ، ويدور على ساحلها ، أو في بيته ، ادواراً متعددة ، اما مشياً أو هرولةً ، ويديم التشبه بها ، بالتفكير بالموجود الواجب الوجود ، ويحاول ان ينقطع عن عالم المحسوس ، وان يستغرق في التفكير ، مستعيناً ، على ذلك ، بسدّ حواسه ، والدوران على نفسه ، حتى يغيب عن احساساته ، ويتخلص من عوائقها ، ويتاح له مشاهدة الموجود الواجب الوجود .

اما التشبه بالله ، فرأى حي بن يقظان انه لا يتيسّر ، في صفات الايجاب ، الا في صفة العلم ، وهو ان يعلمه ولا يشرك به شيئاً . واما في الصفات السلبية ، التي تتنزه عن الجسمية فقد حاول (حيّ) ان يتجرد من جسمانيته ، منقطعاً الى التفكير في الله ؛ فكانت تمضي عليه ايام ، وهو مستسلم الى هذه الغيبوبة . وما زال يطلب الفناء عن نفسه ، والاخلاص في مشاهدة الحق ، حتى تأتّى له ذلك ، وغابت ذاته في جملة الذوات ، ولم يبق الا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود . وحصل له من اللذة ، ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وتلك حال ، يقول (حيّ) انه لا يمكن وصفها ، ولا التعبير عنها ؛ ومن رام شيئاً من ذلك ، فهو بمنزلة من يريد ان يذوق الالوانَ ، أو يطلب ان يكون السواد حلواً أو حامضاً ...

ثم يذكر ابن طفيل ، يا حيران ، بلسان حي بن يقظان ، وصفاً خيالياً غريباً لما شاهده في الفلك الاعلى ، والافلاك الاخرى ، بكلام يعترف ، هو نفسه ، انه غير مفهوم . ويقول فيه ان مجال العبارة ضيّق ، وان الالفاظ توهم غير الحقيقة .

ثم ينتقل ابن طفيل ، في القصة ، الى وصف جزيرة قريبة من جزيرة حيّ بن يقظان ، فيها ملّة تدين بدين بعض الانبياء (ويعني بذلك الملّة

المحمدية) ، وانه كان من جملة المؤمنين ، بهـذا الدين الجديد ، فتيان (احدهما يدعى (ابسال) والآخر (سلمان) . فأخذا يتفقهان في الدين الجديد ، ويحاولان ادراك ما وراء تلك الشريعة من صفات الله وملائكته واخبار المعاد . فكان احدهما (ابسال) اشدّ غوصاً على الباطن ، واطمع في التأويل . وكان الثاني (سلمان) اكثر احتفاظاً بالظاهر ، وابعد عن التأويل . فانصرف ابسال الى اعتزال الناس ، اخذاً بما ورد ، في الشريعة ، من اقوال تحمل على (العزلة) . وانصرف سلمان الى معاشرة الناس ، اخذاً بما ورد ، فيها ، من اقوال تحمل على (مداراة الجماعة) . وكان اختلافهما سبب افتراقهما . ثم ارتحل (ابسال) الى الجزيرة ، التي فيها حي بن يقظان ، ليعتزل الناس ، وينقطع الى العبادة . واجتمع (بحيّ) ؛ فلما سمع (حيّ) ، قراءةَ ابسال ، ورأى صلاته وتسبيحه ودعاءَه ، ادرك انـه من الذوات العارفة ، وانْ لم يفهم كلامه . وعلّمه (ابسال) اسماء الاشياء كلها ، حتى استطاع النطق والكلام . واخبر (حيّ) صديقَه الجديد بتاريخ حياته وكيف انه ترقى بالتفكير حتى انتهى الى معرفة الله تعالى . فلما سمع منه (ابسال) وصفه لذات الحق ، لم يشك في ان جميع الاشياء التي وردت في شريعته ، هي نفس ما عرفه حي بن يقظان وادركه بعقله ، فتطابق عنده (المعقول والمنقول) ، وقرُبت عليه طرق التأويل . ولما اخبر (ابسال) صديقَه (حيّاً) بما ورد في شريعته ، لم ير حيّ فيه شيئاً على خلاف ما شاهده ، وعرفه بنفسه . فعلم ان الذي وصف ذلك ، وجاء به محق في وصفه ، صادق في قوله ، رسول من عنـد ربه ، فآمن به وصدقه وشهد برسالته . ثم تعلم ما جاء به هذا الرسول من امر ونهي فالتزمه كله . الا انه بقي في نفس حيّ امران ، لم يتضح له وجه الحكمة فيهما : احدهما: لمَ ضربَ هذا الرسول الأمثال للناس، في اكثر ما وصفه ، من احوال العالم الألهـيّ ، ولمَ اضْربَ عن المكاشفة ، حتى وقع بعض الناس في التجسيم ، واعتقدوا في ذات الحق اشياء هو منزّه عنها؟ والثاني : لمَ اقتصر هذا الرسول على هذه الفرائض ، واباح اقتناء الاموال ، والتوسعَ في المكاسب ، حتى تفرغ الناس للباطل ، واعرضوا عن الحق ؟

وحدّثتْ (حيّ بن يقظان) نفسُه ، ان يتصل بالناس ، ويحدثهم بما اتضح له ، من الحق ، بالمشاهدة ، وفاوض صديقه (ابسال) بذلك، وقيّض الله لهما سفينةً مارةً بالقرب من الجزيرة ، فاقلتهما الى جزيرة ابسال . واجتمع (ابسال) بأصحابه ، وعرّفهم بحال (حي بن يقظان) ومقامه ، فأعظموه وبجّلوه واقبلوا عليه ، فشرع (حيّ) في تعليمهم ، وبثّ اسرار الحكمة اليهم ، فما خرج عن الظاهر الا قليلاً ، حتى جعلوا ينقبضون عنه فيئس من اخلاصهم — وهم خاصة القوم — فكيف بحال العامة ، الذين وجدهم متكالبين على الدنيا ، منغمسين في الجهالة ؛ فتحقق له ان مخاطبة الناس بطريق المكاشفة لا ينفعهم ، وان تكليفهم من العمل فوق القَدْر الذي كُلّفوا به لا يمكن . وادرك ان الحكمة كلها ، والهداية والتوفيق فيما نطق به الرسل ، ووردت به الشريعة ، وان لكل عملٍ رجالاً ، وان كلاً ميسر لما خُلقَ له . فأنصرف الى (سلمان) واصحابهِ ، من اهل الظاهر ، واعتذر اليهم عما تكلم به معهم ، واعلمهم انه قد رأى مثلَ رأيهم ، واهتدى لمثل هديهم ، واوصاهم بالتزام ما هُمْ عليه من الوقوف عند حدود الشرع ، والايمان بالمتشابهات ، والتسليم بآياتها ، واجتناب الخوض فيما لا يعنيهم ، والاعراض عن البدع ، والاهواء ، والاقتداء بالسلف الصالح ، وانه لا نجاة الا بهذه الطريق ، وانهم ان ارتقعوا ، الى يَفاع الاستبصار ، اختلّ ما هم عليه من امر دينهم ، وتذبذبوا ، وانتكسوا وساءت عاقبتهم ؛ وان هم بقوا على ما هم عليه من امر دينهم فازوا . ثم ودّعهم وعاد مع صاحبه (ابسال) الى جزيرته ، وبقيا فيها ، يعبدانِ الله تعالى ، حتى اتاهما اليقين .) .

خصومة المؤمنين

يقول حيران بن الاضعف : قضيت نهاري كله كالثمل النشوان بما سمعته أمس من قصة (حيّ بن يقظان) ، وعكفت عليها ، حتى اقبل الليل ، اكرّر تلاوتها ، واتفكر فيما كشفه ابن طفيل من الحق في امر القِدم والحدوث ، ولا سيما قوله ان ارتباك العقل وكلاله عن تصوّرهما ليس بقادح في الايمان بالله ، لأن العقل اذا آمن بحدوث العالم ، آمن بوجود الله الذي احدثه ، وإن كلّ عن تصوّر الحدوث فظن بالقدم ، فأنه لابد من الانتهاء ، بهذا أيضاً ، الى الايمان بوجود الله الذي اعطى المادة حركتها الدائمة . ولمّا دخلتُ على الشيخ ، بعد صلاة العشاء ، لاحظ على وجهي آيات البشر ، فتبسم وقال :

الشيخ — الآن بدأت تباشير الفجر يا حيران .

حيران — ايّ فجر هذا يا مولاي ؟

الشيخ — فجر ايمانك بان الفلسفة والدين لا يتناقضان عند اهل العقول السليمة . والاّ فمالي اراك مستبشراً ؟

حيران — هذا هو الحق يا مولاي .

الشيخ — سأحدثك اليوم عن صاحبك الغزالي الذي طالما كنت تتعجل الحديث عنه .

حيران — ما اعظم شوقي الى حديثك عن الغزالي .

الشيخ — وانا ايضاً ما اعظم شوقي الى تحديثك عن الغزالي بالذات .

حيران — وما وجه الشوق عندك يا مولاي ؟

الشيخ — ان الغزالي ، في شبابه ، صورة عنك وعن امثالك من الناشئة في شكّه وحيرته ، وولوعه بالفلسفة ، ورغبته في معرفة الحق ؛ فلعل قلبك يطمئن اذا عرفت احواله ورأيت ان هذا الشك ، الذي انت فيه ،

قد يَعتري اعظم العقول اتزانا واصدق القلوب ايماناً . هـذا وجه الشوق عندي ، فما هو وجه الشوق عندك ؟

حيران — انني سمعت ان شهرة الغزالي طبّقت الخافقين ، حتّى لقّبوه بحجة الاسلام ثم رأيت أن كثيراً من علماء الدين لا تعجبهم طريقته .

الشيخ — هؤلاء هم العلماء (السلفيّون) الذين يكرهون هذا التعمق الفلسفي في الاستدلال على وجود الله ، وفي البحث عن صفـات كماله ، فلا يعجبهم الخوض مع الفلاسفة ، ولو كان للرد عليهم ، لا من الغزالي ولا من علماء الكلام ، فكيف اذا رأوا عالمـا من علماء الدين يبلغ به الخوض في الفلسفة الى ان يضع كتاباً خاصاً في تبسيط آراء الفلاسفة وادلتهم وشبهاتهم واستشكالاتهم كأنه واحد منهم ؟

حيران — وهل يرى مولاي ان اولئك السلفيّين على حق في كراهتهم للخوض مع الفلاسفة ، اذا كان الخوض للرد على شبهاتهم ؟

الشيخ — انهم كانوا على حق قبل ان تعمّ البلوى ؛ فقد كان المسلمون في العصر الأول من الاسلام لا يعرفون هـذا الجدل الفلسفي حول وجود الله وصفاته ، واما بعد ان تُرجمت الفلسفة اليونانية ، وخاض كثير من علماء المسلمين فيها والّفوا ، وانتشرت بين الناس شُبَه الفلاسفة واشتهرت وعمّت البلوى ، وانبرى كثير من علماء الدين للرد على تلك الشُبَه ، فقد اصبح الخوض في الفلسفة امراً لا بدّ منه ، بل اصبح الاطلاع عليهـا واجباً على علماء الدين بوجه اخص ليتمكنوا من حسن الدعوة الى الايمان بالله .

حيران — ولكن مولاي يقول ان الغزالي وضع كتاباً خاصاً بسط فيه آراء الفلاسفة كأنه منهم ، من غير أن يردّ عليهم .

الشيخ — يقول الغزالي، وما أصدق ما يقول : (انّ ردّ المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه ، ردٌ في عماية) ولهذا رأى أن يطّلع على آراء الفلاسفة الالـهيين اطلاعاً تاماً قبل ان يردّ عليهم، فوضع كتابه المسمّى (مقاصد الفلاسفة) الذي بسط فيه آراءهم وشبهاتهم واستشكالاتهم بسطاً وافياً كأنه احدهم ، شأن القويّ الراسخ الراسي على صخرة الحق ، لا شأن الضعيف المتقلقل

الذي يحمله الخوف على ان يطوي بعض ادلّة الخصم او يحيطها بحجاب من الغموض والابهام ، واراد بذلك ان يبرهن لهم على انه كامل الاطلاع على اقوالهم ، عميق الفهم لشبهاتهم . ثم وضع بعد ذلك كتابه الشهير (تهافت الفلاسفة) الذي تولىّ به إبطال ما يخالف العقل والدين من اقوال اولئك الفلاسفة الالـٰهيين المقرّين بوجود الله القائلين بقدم العالم مع الله ، دون سواهم من الماديّين المنكرين لوجود الصانع ، الذين قال عن مذهبهم : (ان هذا المذهب المادي لم تقل بـه الا شرذمة يسيرة من ذوي العقول المنكوسة والآراء المعكوسة الذين لا يُؤبه لهم ولا يُعبأ بهم فيما بين النظّار) .

حيران – كيف ذلك يا مولاي وانا ارى ان مذهب الماديين اشد خطراً على الايمان ؟

الشيخ – انت تراه اشدّ خطراً في هذا العصر الذي نحن فيه ، اما في عصر الغزالي فقد كان الايمان بوجود الله اقوى من ان يتطرق اليه الشك ، وانما هي شُبَهٌ عرت الناس ، بعد ترجمة كتب الفلاسفة الالـٰهيين ، ولا سيما ارسطو والافلاطونية الحديثة ، في كيفية الخلق وزمانه وقدم العالم وغير ذلك ، فأراد الغزالي ، وهو رجل الدين ، ان يفرغ الى معالجة هذه البلوى وإبطال هذه الشُبَهْ .

حيران – لقد ذكر مولاي الشيخ ، عند الحديث عن ارسطو ، بعض الذي ردّ به الغزالي عليه في مسألة خلق العالم ، فأرجو ان اسمع الآن ايضاحاً لكل ما ورد في كتابه (تهافت الفلاسفة) .

الشيخ – سأبسط لك ، من كتاب التهافت ، كلامه في حدوث العالم ، وكونه مخلوقاً لله ، وما ردّ به على الفلاسفة في هذا الباب دون سواه . اما ردوده في الابواب الاخرى فلا اذكرها لانها كلها تنطوي تحت هذا المبحث الاهمّ الأعظم ، فمتى تمّ الايمان بوجود الله ، وبأنه هو الخالق لهذا العالم ، اصبح الجدل في الامور الأخرى هيّناً . ولكني سأحدثك اولاً عن رأيه في المعرفة لترى كيف كان شكّه في حواسه وعقله ، وكيف عالج هذا الشك بالأدلة العقلية الأولية البديهية ، كما عالجه (ديكارت) الذي جاء بعده بستة عصور .

يصف الغزالي شكّه فيقول : ان التعطش الى درك الحقائق كان دأبه وديْدنه ، وانه حاول ان يعرف حقيقة الفطرة التي يكون عليها الانسان قبل الاعتقادات العارضة ، ليتوصل بذلك الى العلم اليقيني الذي لا يتطرق اليه ريب ولا يتسع القلب للشك فيه ؛ ولما امتحن علومه لم يجد من بينها علماً يبلغ مرتبة اليقين الا الحسّيات والعقليات ؛ ولكنه تأمل في المحسوسات فلم يجد فيها اماناً لأن العين قد تخدع فترى الظل ساكناً وهو متحرك ، وترى الكوكب صغيراً وهو اكبر من الأرض . ورأى ان الذي كذّب الحس وعرّفه خداعه هو العقل . ولما بطلت ثقته بالمحسوسات لم يبق لديه الاّ العقليات . فحاول ان يشكك نفسه فيها فرأى أنه كان واثقاً بالمحسوسات حتى كذبها العقل ، ولولاه لأستمر على تصديقها . ولعل وراء العقل حاكماً آخر اذا تجلّى كذّب العقل في حكمه كما تجلّى العقل فكذّب الحسّ في حكمه . وتوقف عقله في الجواب وتأيد الشك والاشكال عنده بما يراه النائم من امور يعتقد انها حقيقة ثم يظهر له عند اليقظة انها لم تكن الاّ احلاماً . ودام شكّه هذا مدة شهرين كان فيهما ، كما يصف نفسه ، على مذهب السفسطة ، بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال .

ثم ما زال يتأمل حتى وقر في نفسه انه ليس له علاج الا بالدليل ، فأدرك ما ادركه (عمانوئيل كانط) بعده بستة عصور ، وهو وجود الافكار الفطرية وهي الأوّليات الضروريات البديهيات التي لا تقوم الادلة الصحيحة الّا عليها ، ولا يصل العقل الى اليقين الاّ بها ، ورأى ، مثلما رأى الفارابي من قبل ، ان هذه الاوّليات هي معانٍ ظاهرة مركوزة في الذهن ولا شيء اظهر منها ، ولا يبرهَن عليها ، لأنها بيّنة في نفسها ويقينية الى اقصى درجات اليقين ، ولا يمكن الاستغناء عنها في اقامة البرهان على ايّ قضية ، لانها اسس واصول بديهية لا مجال للشك فيها عند عاقل .

ثم نظر فيما قالوه عن الادراك الحسّي والادراك العقلي ، فرأى ان الحواس تأتي بالمدركات الحسية مجموعة فيتناولها العقل بالتفصيل والمقارنة ، ولكنه أدرك ، كما أدرك من قبله ابن سينا ، ان هذا العقل يحكم بثبوت

شيء لا اشارة له ولا وضع ولا يكون منشؤه الحس ، وهو المعقول في نفسه لا المدرَك من المواد . ايْ انه ادرك كما ادرك عمانوئيل كانط من بعده ان للعقل فطرة خاصة يتمكن بقوتها من اصدار احكام انشائية جديدة لا يكون منشؤها الحس ولا يمكن ادراكها من المواد . وهكذا رجع الى يقينه بالعقل واحكامه ، كما رجع (ديكارت) من نفس الطريق وبنفس الاقوال .

واذا لم يكن الغزالي سابقاً في ادراكه ان هذه الأوليات البديهية ليس منشؤها الحس ، فأنه ليسمو على السابقين واللاحقين حين يبحث ، في ردّه على ارسطو ، عن معنى (الزمان والمكان) ، ويصف ارتباك العقل عند تصّور الزمان الذي لا زمان قبله والمكان الذي لا مكان بعده . وسوف ترى يا حيران ان عمانوئيل كانط ، الذي جاء بعده بأجيال ، قد اخذ ، في قضية الزمان والمكان ، وارتباك العقل فيهما ، بجميع ما قاله الغزالي .

حيران — ما اعظم افتخاري بهذا السبق ، وكم انا مشتاق الى سماع كلامه في هذا الباب .

الشيخ — ان جوهر البراهين التي يسوقها الغزالي للرد على القائلين بقدم العالم يكاد يكون مرتكزاً على الكلام في (صفة الارادة) التي غفل ارسطو وغيره عن تحديد معناها ، وعلى الكلام في حقيقة معنى (الزمان) .

يقول الغزالي لأرسطو وللفلاسفة الالـهيين : انكم تعترفون بوجود الله وتصفونه بكل صفات الكمال ، ولكنكم قلتم بقدم العالم وبأنه لم يزل موجوداً مع الله ، ومعلولاً له ومساوقاً معه ، غير متأخر عنه بالزمان ، مساوقة المعلول للعلة ، وانّ تقدُّم الله على العالم هو كتقدم المقدمة على النتيجة ، أي هو تقدم بالذات والرتبة لا بالزمان ، وان صدور العالم عن الله كان صدوراً (ضرورياً) . والذي دعاكم الى هذه المزاعم انكم قلتم : لا يمكن صدور حادث من قديم لأن القديم اذا لم يصدر عنه العالم ثم صدر فلا بد لهذا الصدور من مرجّح ، فمن هو مُحدث هذا المرجّح ، ولِمَ لم يحدث العالم قبل حدوثه ؟ وانه لا يمكن ان يحال ذلك على عجز

القديم عن الإحداث ، ولا على استحالة الحدوث ، ولا يمكن ان يقال لم يكن قبله غرض ، ثم تجدد غرض ، ولا ان يحال على فقد آلة ، ولا ان يقال صار مريداً بعد ان لم يكن مريداً ، لأن حدوث الارادة في ذاته محال . واستشكلتم في (مدة الترك) التي مضت قبل ان يخلق الله العالم ، فقلتم ان الله قبل خلق العالم كان قادراً على الخلق فكأنه صبر ولم يخلق ثم خلق . ومدة الترك هذه ان كانت متناهية صار وجود الباري متناهي الاول . ولا يجوز عقلاً ان تكون غير متناهية .

وبعد ان يفصّل الغزالي اقوال الفلاسفة ويورد حججهم لا ينقص منها شيئاً ، شأن القويّ الواثق من قدرته على دحضها ، يردّ عليهم من اسهل طريق واهونه ردًّا بسيطاً موجزاً ينبثق من نفس اقوالهم وادلتهم ومن احكام المنطق التي وضعوها ، ومن اعترافهم بوجود الله واقرارهم بصفات كماله ، فيقول لهم ما خلاصته :

لقد استبعدتم صدور حادث من قديم ، ولا بد لكم من الاعتراف به ، فان العالم (حوادث) ولها اسباب . فان قلتم ان الحوادث استندت الى حوادث الى غير نهاية فهو محال ، وليس ذلك معتقد عاقل . ولو كان ممكناً لاستغنيتم عن الاعتراف بالصانع واثبات واجب الوجود . واذا كانت (الحوادث) لها طرف ينتهي اليه تسلسلها فيكون ذلك الطرف هو القديم ، فلا بد اذاً ، على اصلكم ، من تجويز حادث من قديم .

اما قولكم بصدور العالم عن الله صدوراً (ضرورياً) فان هذا الصدور الضروري لا يسمى (فعلاً) . ومن قال ان السراج يفعل الضوء والشخص يفعل الظلّ فقد جازف وتوسّع في التجوّز ، فالفاعل لا يسمى فاعلاً بمجرد كونه سبباً بل بكونه مسبِّباً على وجه مخصوص ، وهو وقوع الفعل منه على وجه (الارادة والاختيار) . وصدور المعلول عن علته صدوراً (ضرورياً) لا يكون الا اذا تكافأ المعلول مع العلة ، وليس بين الله والعالم (المتغير) تكافؤ حتى يصدر عنه العالم صدوراً ضرورياً .

وانتم تعترفون بوجود الله وتصفونه بكل صفات الكمال ، ومن أول

صفات الكمال (القدرة والارادة) . والارادة صفة من شأنها تمييز احد الضدّين عن الآخر ، ولولا ان هذا شأنها لاكتفينا بوصف الله (بالقدرة) . ولكن لما تساوت نسبة القدرة الى الضدّين (يعني الايجاد والعدم) كان لا بد من صفة تُخصص الشيء عن ضدّه وهي الارادة .

فاما وانه قد ظهر ان الارادة من جملة صفات الكمال المتوجبة لله عقلاً ، وان الخلق بعد العدم لا يكون بمجرد القدرة بل لا بد له من الارادة التي تفضّل الايجاد على العدم ، فلم تنكرون على من يقول ان العالم حدث (بارادة قديمة) اقتضت وجوده في الوقت الذي وُجد فيه ، وان يستمر العدم الى الغاية التي استمر اليها ، وان يبتدئ الوجود من حيث ابتدأ ، وان الوجود قبله لم يكن مراداً فلم يحدث ، وانه في وقته الذي حدث فيه مراد بالارادة القديمة ؟ فما المانع لهذا الاعتقاد وما المحيل له ...؟

حيران — هذا ، لعمري ، كلام في غاية الوضوح ، فالفلاسفة الالـٰهيون هم الذين قالوا ان العالم (متغير) وهم الذين قالوا ان العالم (حوادث) لها اسباب وعلل ، وهم الذين قالوا باستحالة (التسلسل) الى غير نهاية ، وهم معترفون بوجود الله ، ومقرّون بتوجّب كل صفات الكمال له عقلاً ، ومن ابرز صفات الكمال (الارادة) التي معناها ان يكون الله مريداً مختاراً يخلق أو لا يخلق ، واذا قضى بالخلق حدد له وقته . وبهذه الارادة القديمة تنتفي كل الشُبَه التي ذكروها عن تجدد مرجح أو تجدد غرض .

هذا ظاهر ؛ ولكن كيف استطاع الغزالي ان يرد على استشكالهم في (مدة الترك) التي مضت قبل خلق العالم ؟ ان ذهني يكل يا مولاي عن تصور ان تكون مدة الترك متناهية لأن هذا يؤدي الى اعتبار وجود الله متناهي الاول في الزمن . وان قلت انها غير متناهية في الزمن فكيف اذاً خلق العالم ؟

الشيخ — هنا يتسامى الغزالي في تفكيره فيأتي بكلام بديع يسبق به الاوّلين والآخرين فيبين معنى الزمان الذي لم يكن له وجود قبل خلق العالم .

حيران — الزمان لم يكن له وجود قبل خلق العالم ؟ !!

الشيـخ – نعم نعم ان الزمان لم يكنْ له وجود ولا يمكن تصوّر وجودِه قبل خلق العالم . فما هو الزمان يا حيران ؟ هل هو شيء سوى الفكرة التي نتصورهـــا من تعاقب الحوادث في العالم ؟ واذا لم يكن عالـَم ولا حوادث تتعاقب فكيف نتصور الزمان ؟ ولكنك معذور في كلال ذهنك عن تصور زمان حادث مبتدأ لا زمان قبله ؛ وهذا ما ادركه الغزالي وادركه من بعده عمانوئيل كانط .

حيران – ماذا يقول الغزالي ؟

الشيـخ – انه يقول للذين استشكلت عقولهم في (مدة الترك) وكونها متناهية أو غير متناهية : ان الزمان حادث ومخلوق وليس قبله زمان اصلاً ... وما تصوركم وجود الزمان الّا من عجز الوهم . فان الوهم يعجز عن فهم وجود مبتدأ الا مــع تقدير (قبْل) له . وذلك (القبل) الذي لا ينفكّ الوهم يظن انه شيء محقق موجود هو (الزمان) . وهذا العجز في الوهم كعجزه عن ان يقدّر تناهي الجسم في جانب الرأس ، مثلاً ، الّا على سطح له (فوق) . فيتوهم ان وراء العالم مكاناً ، اما خلاء واما ملاء . واذا قيل له ليس فوق سطح العالم (فوق) ولا بُعدٌ ابعدَ منــه ، كلّ الوهم عن الاذعــان ...) .

والوهم ، في تقديره فوق العالم خلاء ، مخطيء ، لأن الخلاء هو بُعــد لا نهاية له . والخلاء في نفسه غير مفهوم . فالبعد تابع للجسم . فاذا كان الجسم متناهياً كان البعد التابع له متناهياً ، فانقطع الخلاء . فثبت ان ليس وراء العالم لا خلاء ولا ملاء ، ولكن الوهم لا يذعن لقبول هــذا . وكما جاز ان يكون الوهم مخطئاً في تقدير (البُعد المكاني) ، فكذلك يكون مخطئاً في تقدير (البُعد الزماني) ، فالبعد المكاني تابــع للجسم ، والبعد الزماني تابع للحركة . لأن البعد المكاني هو عبارة عن امتداد اقطار الجسم ، والبعد الزماني هو عبارة عن امتداد الحركة ، وكما ان قيام الدليل على تناهي اقطار الجسم منعَ اثباتَ بعدٍ مكانيٍّ وراءَه ، فقيام الدليـــل على تناهي الحركة ، يمنع من تقدير بعدٍ زماني وراءهــا) .

هكذا يبسط الغزالي فكرتي الزمان والمكان ، ويعتبرهما نابعتين من خلق العالم وتحريكه ، ويرى انه لا يصح ان تكون قضية الزمان اساساً للبرهنة على قدم العالم أو حدوثه . وسوف ترى ، يا حيران ، انه فيما ذكره عن اثر الوهم في تصور البعد المكاني والبعد الزماني ، قد سما على اهل عصره ، ونفذ ببصيرته الى ما انتهى اليه عقل (عمانوئيل كانط) ، بعده بستة عصور ، حتى ليكاد ، الواحد منهما ، يكون متفقاً مع الآخر بالالفاظ ، فضلاً عن المعاني ... فهل اخذ الثاني عن الاول ، أم هو الحق الذي تتلاقى عليه العقول السليمة يا حيران ...؟

ثم يلتفت الغزالي الى الذين اخذوا برأي الافلاطونية الحديثة في مراتب الخلق والصدور ، فيشبعهم تهكماً حيث يقول عن زعمهم ان الواحد لا يصدر عنه الا واحد : (يلزم من قولكم هذا ان لا يكون في العالم شيء واحد مركب من افراد ، بل تكون الموجودات كلها آحاداً ، فكيف ، اذاً ، وُجدت هذه المركّبات التي نراها في العالم ؟ أمِنْ علة واحدة ، فيبطل قولكم لا يصدر من الواحد الّا واحد ، أو عن علة مركبة ، فيتوجه السؤال نفسه في تركيب العلة ...

واما عن قولهم ان المبدأ الاول فاض عنه (العقل الاول) وبتعقّله لعلته يصدر عنه عقل ثان وثالث ، وافلاك ونفوس ، فيقول لهم : (ان ما ذكرتموه تحكّمات ، وهي ، على التحقيق ، ظلمات فوق ظلمات ، لو حكاه انسان عن منام رآه ، لاستُدل به على سوء مزاجه . وانه ، على رأيكم هذا ، يكون المعلول اشرف من العلة ، من حيث ان العلة ما فاض عنها الا واحد ، وقد فاض عن هذا ثلاثة : عقل ونفس وفلك ، ومن حيث ان الاول ما عقل الا نفسه ، والثاني عقل نفسه ، ونفس المبدأ ، ونفس المعلولات ... ومن قنع ان يكون قوله في الله تعالى راجعاً الى هذه الرتبة ، فقد جعله احقر من كل موجود يعقل نفسه ويعقل غيره ؛ وقد انتهى بكم التعمق في التعظيم الى ان ابطلتم كل ما يُفهم من العظمة ، وقربتم حاله من حال الميت ، وهكذا يفعل الله بالزائغين .)

يقول حيران بن الأضعف : وهنا سكت الشيخ الموزون ، واغمض عينيه ، واحنى رأسه ، واستسلم الى سكون عميق حتى خلتُه يشكو شيئاً ، ولكني احترمت صمته وصبرت . وبعد برهة وجيزة رفع رأسه فسألته :

حيران – هل يشكو مولاي الشيخ شيئاً ؟

الشيخ – كلا يا حيران لا اشكو شيئاً ولكني ، وقد انتهيت من الحديث عن الغزالي ، استعرضُ الكلام عن ابن رشد ، فأرى ان نترك الحديث عنه الى الليلة القادمة .

حيران – ارجو ان لا يقطع مولاي سلسلة الحديث عن هذين الخصمين .

الشيخ – ايّ خصمين ؟ انها خصومة المؤمنين يا حيران .

حيران – ماذا يريد مولاي بخصومة المؤمنين ؟

الشيخ – ان ابن رشد يتفق مع الغزالي في جميع آرائه عن الوجود والخلق والخالق .

حيران – كيف ذلك وانا اسمع ان ابن رشد ، هو عدو الغزالي وناقده ومخالفُه في كل آرائه ، حتى انه وضع في نقده كتابه المشهور (تهافت التهافت) . واسمع ايضاً ان ابن رشد كان من القائلين بقدم العالم ، وبانكار الروح والعقل والشخصية الانسانية ، ولهذا اتُّهم بضعف الايمان ، ونُكب في هذا السبيل نكبة كبرى .

الشيخ – ان ابن رشد عالم من اعظم علماء الدين، وفيلسوف مفكر من اصدق الفلاسفة المؤمنين ؛ فكن على يقين من هذا ، واياك ان تأخذ او تُؤخذ بما اتهمه به بعض رجال اللاهوت ، او علماء الكلام ، او بما اذيع عنه بين العامة من سؤ القالة ، فكلهم قد اخطأوا في فهم هذا المفكر العبقري المؤمن .

والذي جعل الناس يظنون به الظنون ، يرجع الى اسباب كثيرة ، منها العرَضي ، ومنها الجوهري . اما العرضية : فمنها ان ابن رشد اولع بفلسفة ارسطو وشرحها ، على ما رُوي عنه ، شروحاً ثلاثة : شرح مختصر كان الكلام فيه لابن رشد ، وشرح متوسط كان ابن رشد يتناول فيه ، عند مطالع الفصول ، فقراتٍ من كلام ارسطو ويشرحها ، ومنها شرح

مطول كان يذكر فيه كلام ارسطو فقرة فقرة ويشرحه شرحاً وافياً . ولا يخفى عليك ان طريقة الشرحين المختصرين قد تحمل القـاريء على الظن بأن الكلام يعبّر عن رأي ابن رشد نفسه ، والحال ان ابن رشد انما كان في كل ذلك يفسر كلام ارسطو .

ومنها اغلاط الترجمة ، فأن ابن رشد لم يأخذ فلسفة ارسطو عن كتبها اليونانية ، بل اخذها معرّبة مخلوطة بما كتبه الاسكندر الافروديسي ، وثامسطيوس الاسكندري . ثم لما أخذ الافرنج فلسفة ابن رشد ، لم يأخذوها من كتبه العربية ، بل اخذوها من المترجمات اللاتينية والعبرانية . وناهيك بما يقع في هذه السلسلة الطويلة من التعريب والترجمة والنسخ من تشويش وابهام ، وخلط بين آراء ابن رشد الخاصة ، وآراء ارسطو وافلاطون ، والافلاطونية الحديثة . وهذا ما جعل الفليسوف اللاهوتي توماس اكويناس، يرمي ابا الوليد بالالحاد ، ويحمل عليه حملة شعواء بلغ من اشتهارها ، بين الناس في اوروبا ، ان احد المصورين وضع صورة كبرى جعل فيها اكويناس على كرسيّ عالٍ ، وابن رشد ساقطاً على الأرض امامه ، اشـارة لانتصار اكويناس على ابي الوليد . ومن الغريب ان هذه الصورة الفلسفية حوت ايضاً صورتي ارسطو وافلاطون ، وقد جُعلا في مكان قريب من اكويناس ، وفي يد كل منهما كتاب يصعد منه شعاع الى رأسه ، تنويهاً بما استفاده من فلسفتهما ، وماقبسه من نورهما . امـا ابن رشد ، الذي لم يكن له عمل سوى شرح ارسطو ، والذي يتضح من كتبه الخاصة التي بقيت لنا انه من أعظم المؤمنين بالله وبيوم الدين ، فقد جعله المصور الفيلسوف مطروحاً ارضاً ، كالمغلوب المقهور . والحال ان توماس اكويناس اذا كان قد انتصر حين قال بوجود الله ووحدانيته وحدوث العالم ، فانما انتصر على ارسطو وافلاطون اللذين يشير المصور الى كونه تلقى النور منهما ، وانمـا انتصر بالأدلة التي اتفق عليها ابن رشد مع الغزالي ...

ومن اسباب النكبة ان ابن رشد كان معجباً بارسطو الى حد التقديس . ومن هنا اتاه الحرص الشديد على الدفاع عن آرائه وتأويلها . فلما وضع الغزالي

كتابه (تهافت الفلاسفة) ، وردّ فيه على ارسطو وغيره ، في مسألة قدم العالم وخلقه ، عمد ابن رشد للردّ على الغزالي في كتاب سماه (تهافت التهافت) . فذاع بين الناس ان (حجة الاسلام) يدافع عن الدين ، وان ابن رشد يكذبه . والحق ان الرجل لم يكذب الغزالي ، ولا كذب المتكلمين من الأشاعرة في الامور الجوهرية . ولكنه ، سامحه الله ، لم يكن مخلصاً كل الاخلاص في وضع هذا الكتاب ، وفي تسميته ، ولا مبرّأ من حب التحذق ، واظهار الفضل والسبق في مضمار الفلسفة ، فناقش الامام ، في كل ما ردّ به على الفلاسفة من المسائل ، مناقشة لم يقصد بها إبطال الحقائق التي دافع عنها الامام ، بل اراد بها اظهار خطأه في طريقة الاستدلال ، وتقصيره في فهم مقاصد الفلاسفة . وقد كان ، رحمه الله ، في غنى عن هذا اللمز والتفيْهق ، مع رجل يدافع عن الدين ، وكان يكفيه ان يتناول المسائل الكبرى كوجود الله وخلق العالم ، فيبيّن ، باسلوب العالم المخلص العفّ اللسان ، ان الفلاسفة لم ينكروها ، ويتأول لهم ما شاء واراد من اقوالهم ، من غير غمز او لمز ، ومن دون ان يسمي كتابه (تهافت التهافت) ، في مقابلة تسمية الغزالي لكتابه ؛ ففي هذه التسمية ، من الظلم وقصر النظر ، مالا يتفق مع الحق والحكمة والاخلاص والأدب مع الله . فالغزالي انما سمى كتابه (تهافت الفلاسفة) وهو يعتقد انه يُبطل اقوال جماعة يكادون ينكرون وجود الله ، بما يزعمون من قدم العالم ، وبما يقولون في علم الله وارادته ؛ وسواء اكان على حق في فهمه لأقوالهم ، او على غير حق ، كما يظن ابن رشد ، فانه على كل حال رجل مخلص يدافع عن الله ويدعو الى الايمان ، ويسد على الناس باب الشبهات . فأي داع يدعو لأن يُسمى عمله هذا (تهافتاً) من غير تفكير ، بما ينجم عن هذه التسمية من تصغير لقدر الكتاب ، وتزهيد للناس فيه وتشكيك لهم بما ينطوي عليه من الحق والخير ؟

من هنا ، يا حيران ، جاءت النكبة لأبي الوليد ، وقُدّرت عليه ، ومن هنا فُتحت عليه لاعدائه وحساده ابواب الأذى والوقيعة ، وفشا بين الناس ، من غير المحققين ، سوء القالة فيه . اما المحققون المخلصون ، الذين يترفع بهم

ادب العلم عن كتمان الحق ، فيعلمون ان ابن رشد ، كان من اصدق المؤمنين ، ومن اعظم المفكرين ، ومن اعرفهم بطرق الاستدلال على الله . ولكن علم الرجل كان اكبر من عقله يا حيران .....

حيران – وما هي اسباب التهمة التي قال عنها مولاي الشيخ انها جوهرية ؟

الشيخ – الأسباب الجوهرية ، واعني بها ما يتعلق بصميم فلسفة الرجل ، تكاد تنحصر بأمر واحد : وهو ان ابن رشد كان يستصعب ، لنفسه ، او لغيره على الاصح ، الأدلة النظرية المركبة (كدليل الحدوث ودليل الوجوب) اللذين قال بهما الفلاسفة واعتمد عليهما المتكلمون ، اكثر ما اعتمدوا ، في الاستدلال على وجود الله . وكان يفضّل عليهما (دليل النظام) الذي يسميه هو (دليل العناية والاختراع) . وربما كان على حق في تفضيله ، ولكنه لم يكتف بهذا ، بل طعن في طريقتي الاستدلال الأولين ، وزعم انهما غير صحيحتين ، وتكلم في معنى الحدوث والقدم ، ومعنى (الارادة) ، واكثر من الجدل ، وتعمد ، في بعض ردوده على المتكلمين ، اضعاف اوجه استدلالهم ، وهو يدرك ان بعض الضعف في كلامه . فكأنما كان في هذا تاجراً ، يريد ان يُكسد بضاعة جاره لتروج بضاعته . وما هذا شأن المتاجرين في مرضاة الله ، وجهاد في سبيله ، من التآزر على نصرة الحق ، من كل الطرق التي تفضي اليه . وكان يكفيه ان يشير الى ما يلاقيه الذهن ، من الصعوبة في طريقتي الأستدلال الأخريين ، وان ينصح بابعاد غير العلماء عنهما ، وبالتزام طريقة الأستدلال السهلة الصالحة لمخاطبة الناس كافة ، من غير ان يحاول ابطال ادلة قام البرهان العقلي القاطع ، عند العقلاء ، على صحتها .

حيران – وهل كان ابن رشد ممن يقولون بقدم العالم وينكرون صفة الأرادة لله تعالى ؟

الشيخ – ابداً ، لم يقل بقدم العالم . وحاشا ان ينكر صفة الأرادة لله ؛ ولكن الرجل كان يتفلسف في ايضاح معنى القدم ، وايضاح معنى الارادة ، لا لشيء ، سوى ان يبرهن على ان ارسطو والفلاسفة لم ينكروا وجود

الله ، ولم ينكروا صفة الارادة . وهل يعقل يا حيران ان يكون ابن رشد قائلاً بقدم المادة على معنى انها غير مخلوقة لله ، وموجودة بذاتها وغير مفتقرة الى من يوجدها ، وارسطو نفسه لم يقل بذلك ، بل قال بقدمها ، على معنى ان الله لم يزل خالقاً من الأزل ؟

يدلّك على هذا قوله في كتابه (فصل المقال) : (واما مسألة قدم العالم وحدوثه فان الاختلاف فيها ، عندي ، بين المفكرين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين ، يكاد يكون راجعاً للاختلاف في التسمية ، وبخاصة عند بعض القدماء . وذلك انهم : اتفقوا على ان ههنا ثلاثة اصناف من الموجودات : طرفان ، وواسطة بين الطرفين ؛ فاتفقوا في تسمية الطرفين واختلفوا في الواسطة . فاما الطرف الواحد فهو موجود وجد من شيء غيره ، وعن شيء ، اعني عن سبب فاعل ومن مادة ، والزمان متقدم عليه اعني على وجوده وهذه هي حال الاجسام التي يُدرَك تكوّنها بالحس مثل تكون الماء والهواء والارض والحيوان والنبات وغير ذلك . فهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع من القدماء والأشعريين على تسميتها محدثة . واما الطرف المقابل لهذا ، فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا عن شيء ، ولا تقدمه زمان وهذا ايضاً اتفق الجميع من الطرفين على تسميته (قديماً) ، وهذا الموجود مدرَك بالبرهان وهو الله تبارك وتعالى الذي هو فاعل الكل وموجده والحافظ له سبحانه وتعالى قدره . واما الصنف من الموجود الذي بين هذين الطرفين ، فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا تقدمه زمان ولكنه موجود عن شيء اعني عن فاعل وهذا هو العالم باسره ... فهذا الموجود الآخر ، الأمرُ فيه بيّن : انه قد اخذ شبهاً من الموجود الكائن الحقيقي (يعني عالم الشهادة) ومن الموجود القديم (يعني الله) ؛ فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم ، على ما فيه من شبه المحدَث ، سماه قديماً ، ومن غلّب عليه ما فيه من شبه المحدث سماه محدثاً) .

فإذن ترى ، يا حيران ، من هذا الكلام ، انه يعترف بحدوث العالم ، وبأنه مخلوق لله بمادته الاصلية وصورته الحاضرة ، ولكنه يحاول التقريب

بين رأي المتكلمين ورأي ارسطو . والذي افهمه من كلامه هـذا ، ومن اقواله الأخرى ، ان فكره قـد تعثر في نفس الصعوبة التي تعثر بها ابن طفيل ، وغيره من الفلاسفة ، عنـد تصور معنى الخلق من العدم ، ومعنى الزمـان ؛ فلجأ الى القرآن ، ففهم منه ان الخالق العليم الحكيم ، الذي يعلم ما يعتري عقولنا من الكلال في تصور هذه الأمور ، اراد ان يُهوّن على الناس امر الأيمان ، فخاطبهم ، على قدر عقولهم ، بما يدل على ان خلق هذا العالم المشاهَد كان من مادة خلقها الله من قَبلُ ؛ فقال رحمه الله في كتـاب فصل المقال « ان قوله تعالى ، (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة ايام وكان عرشه على الماء) ، يقتضي ، بظاهره ، وجوداً قبل هذا الوجود ، وهو العرش والماء ، وزماناً قبل هذا الزمان . وانّ قوله تعـالى (ثم استوى الى السماء وهي دخـان) يقتضي ، بظاهره ، ان السموات خلقتْ من شيء » .

وكأنه ، رحمه الله يخاف ان يكون هذا الكلال العقلي ، عن تصور تلك الأمور العويصة ، سبباً للتهمة ، فيعتذر فيه عن نفسه ، وعن غيره ، حيث يقول: (ويُشبه ان يكون المختلفون في هذه المسائل العويصة ، امّا مصيبين مأجورين ، وامّا مخطئين معذورين ؛ فان التصديق بالشيء ، من قِبلَ الدليل القائم في النفس ، هو شيء اضطراري لا اختياري . اعني انه ليس لنا ان لا نصدّق او نصدّق ، كما لنا ان نقوم او لا نقوم . واذا كان شرط التكليف الأختيار ، فالمصدّق بالخطأ ، من قِبَل شبهة عَرضت له ، اذا كان من اهل العلم ، معذور) .

ويذكرني اعتذاره هذا ، يا حيران ، بما كتبه الشيخ محمد عبده المصري في حاشيته على شرح العقائد العضدية ، بعد ان برهن على حدوث العالم ، واخذ في الاعتذار عمن تعجز عقولهم عن تصور معنى الحدوث ، والزمان ، حيث يقول : (واعلَمْ اني وان كنت برهنت على حدوث العالم ، وحقّقت الحق فيه ، على حسب ما ادّى اليه فكري ووقفني عليه نظري ، فلا اقول بان القائلين بالقدم قد كفروا بمذهبهم هذا ، او انكروا به ضروريا من الدّين القويم . وانمـا اقول انهم قد اخطاؤا في نظرهم ، ولم يسددوا مقدمات

افكارهم . ومن المعلوم ان من سلَكَ طريق الاجتهاد ، ولم يعولْ على التقليد في الأعتقاد ، ولم تجب عصمته ، فهو معرّض للخطأ ؛ ولكن خطوءه عند الله ، واقع موقع القبول ، حيث كانت غايته من سيره ، ومقصدُه من تمحيص نظره ، ان يصل الى الحق ، ويدرك مستقر اليقين) .

هذا بعض كلام الشيخ محمد عبدُهُ . ولست اراه فيه ، الا معتذراً عن ابن رشد بالذات ، ومشيراً الى مـــا يعتري العقول من الأرتباك في تصور معنى القدم المطلق واللانهاية المطلقة والزمان والمكان ، وغير ذلك مما نوه به الغزالي نفسه وابن طفيل والمتأخرون .

فهل رأيت يا حيران ، في كلام ابن رشد انه يقول بان المادة الأصلية التي خُلق منها العالم غير مخلوقــة لله ؟ وهل رأيت فيه شيئاً يدل على ضعف الأيمان بالله ؟

حيران — كلّا يا مولاي كلّا ، بل فيه شيء يدل على قوة الأيمان بالله ، وعلى الرغبة في توفير هذا الايمــان ، وتيسيره للناس كافة ، والبعد بهم عن كل ما يرتبك العقلُ فيه ...

الشيخ — امّا مانسب الى ابن رشد من انكار (صفة الأرادة) فأنه غــير صحيح . ولكن ابن رشد عندما ناقش الغزالي والمتكلمين في معنى الأرادة ، اراد ، كعادته ، ان يَتَفَيْهَق ، ففصّل معنى الأرادة (بالفعل) والارادة (بالقـوة) . ثم نفى وانكر ان يكون الفلاسفة القدماء قالوا ان العالم يصدر عن الله على سبيل الطبع بلا ارادة ؛ وانتهى الى اثبات الارادة لله ، والبرهنة عليها ، بمثل ما برهن به الغزالي . حيث يقول في الرد عليه (امّا قوله ، عن الفلاسفة ، انهم يرون ان ما يصدر عن الباري تعالى يصدر عن طريق الطبع ، فقول باطل عليهم . والذي يرونه ، في الحقيقة ، ان صدور الموجودات عنه ، هو بجهة اعلى من الطبيعة والارادة الانسانية . فان كلتا الجهتين يلحقها النقصان ، اذ قام البرهان على انه لا يجوز ان يكون صدور الفعل عنه صدوراً طبيعياً ، ولا صدوراً ارادياً على نحو مفهوم الاردة هنا (اي بين النــاس) ؛ فهو صـادر عنه بجهة اشرف من الارادة ؛ ولا يعلم

تلك الجهة الا هو سبحانه . والبرهان على انه مريد ، انه عالم بالضدّين ؛ فلو كان فاعلاً من جهةٍ ما هو عالمٌ فقط ، لَفَعَل الضدّين مُعاً . وذلك مستحيل . فوجب ان يكون فعْله احد الضدّين باختيار) .

ومِن هذا تعلم ، يا حيران ، ان الرجل انما يجادل ليظهر التحذّق ، ويدافع عن الفلاسفة ، ثم ينتهي الى نفس ما انتهى اليه صاحبه ، او خصمه ، في اثبات معنى الارادة ، واقامة البرهان على توجبها لله عقلاً . وكذلك كان شأنه عندما جادل الغزالي في علاقة الاسباب بالمسبّبات .

حيران — وهــل انكر الغزالي الأسبــاب والمسبّبات حتى جـادله ابن رشد فيها ؟

الشيخ — ان الغزالي لم ينكر ابداً ، ولا يعقل ان ينكر ، علاقة السبب بالمسبِّب ، او خواص الأشياء التي وضعها الله فيها ؛ بل اراد ان يظل تفكير الانسان متجهاً الى خالق الاشياء وخالق الخواص والنواميس ، ليُقصِي عن العقل فكرة المادية الملحدة ، التي تقول بتكوّن تَنَوّعات العالم بالمصادفة من تفاعل عناصر المادة بذاتها ، وبقوة هي من طبعها ؛ فانكر وجود (ضرورة عقلية) توجب ان تكون للاشياء هذه الخواص التي هي فيها ليتوصّل الى القول بانها مفتقرة الى من يمنحها وجودها ، ويعطيها خواصها وطبائعها فقال : ان ما نشاهده من التقارن بين السبب والمسبب ، لا يجوز ان (نقطع) بكونه سبب الظواهر ، طالما ان وراء علمنا اسراراً خفية ، قد تكون هي السبب الأصح في ظهور الظاهرة . ويضرب الغزالي على ذلك الأمثال بحجر الطلّق الذي يحول دون الاحتراق ، والأعمى الذي يصبح بصيراً ، فيحسب ان ازالة الغشاوة عــن عينيه ، هي السبب الوحيد للأبصار ؛ حتى اذا ذهب النهار وجاء الظلام ، ادرك ان وراء العين المبصرة سبباً آخر ، يسمح للعين بالأبصار ويمنعها منه ، وهو النور .

اما ابن رشد ... يخرج ابداً عن هذا المنطق السليم والأيمان الكامل حيث يقول : واما هل الأفعال الصادرة عن موجودٍ (ضرورية الفعل) ، او هي (اثارية) ، او فيهـــا الأمران جميعاً ، فمطلوبٌ يستحق الفحص

عنه . فان الفعل والانفعال الواحـــد ، بين كل شيئين من الموجودات ، انما يقع باضافةٍ مّا من الاضافات التي لا تتناهى ؛ فقد تكون اضافة تابعة لأضـافة ؛ ولذلك لا يُقْطَـع ان النار اذا دنت من جسم حساس فعلتْ (ولا بدّ) ؛ لأنه لا يبعُد ان يكون هنالك موجود ، يوجد له الى الجسم الحساس اضافـــة تعوّق تلـك الأضاقة الفاعلة للنار مثلما يقال في حجر الطّلْق . ولكن هذا لا يوجب سلب النار صفة الأحراق ، ما دام باقياً لها اسم النار وحدُّه .) ثم يقول ، وما احْـكَـمَ ما يقول: (والعقل ليس هو شيئاً اكثر من ادراكه الموجودات بأسبابها ، وبه يفترق عن سائر القوى المدركة ؛ فمَن رفَـعَ الأسباب فقد رفع العقــل . وصناعة المنطق تضع وضعاً ان ههنا اسبابا ومسبَّبات . وان المعرفة بتلك المسببات لا تكون على التام الا بمعرفة اسبابها . فرفعُ هذه الأسباب هو مبطل للعلم ، ورافع له . فأنه يلزم ان ان لا يكون ههنا شيء معلوم اصلاً على حقيقته ، بل انْ كان فمظنون ، ولا يكون ههنا برهان ولا حدّ اصلاً . ومن يقنعُ ، انه لا علم واحـــد ضروري ، يلزمه ان لا يكون قوله هذا ضروريا . واما من يُسَلّم ان ههنا اشياء بهذه الصفة ، واشياء (ليست ضرورية) ، وتحكم النفس عليها حكماً ظنياً ، وتوهم انها ضرورية ، وهي ليست ضرورية ، فلا ينكر الفلاسفة ذلك ....)

ثم ينتهي فيقول ، وما اعْظَـم ما يقول ، وما اصْدقه اتفاقاً في النتيجة ، مع الذي قصد اليه الغزالي ، من استدامـــة التوجُّه الى خالق الأشياء ، ومعطيها طبائعها وخواصها (فلا ينبغي ان يُشَكّ في ان هذه الموجودات قد يفعل بعضها ببعض ، وانها ليست مكتفية بأنفسها في هـذا الفعل ، بل بفاعل من خارج ، فعْلُـهُ شرطٌ في فعلها ، بل في وجودها ، فضلاً عن فعلها) .

حيزان — حقاً ان ابن رشد لا يختلف من حيث النتائج ، في شيء ، مع الغزالي ، ولا يقلُّ عنه ايماناً ؛ فحدثْني يا مولاي عن الطريقة التي اختارها في الاستدلال على وجود الله .

الشيخ – انه يرى ، كما قلت لك ، ان طرق الاستدلال ، بدليل الحدوث أو دليل الوجوب ، ليست طرقاً يقينية ولا شرعية ؛ لأنها (مركّبة) وكثيرة المقدّمات . وان الطريق اليقينية الشرعية هي طريق الأستدلال بدليل (النظام) الذي سماه دليل (العناية والاختراع) . وهي الطريقة التي اعتمدها القرآن لأنها جمعتْ وصفين : احدهما انها يقينية ، والثاني انها بسيطة غير مركبة ، أي قليلة المقدمات ، فتكون نتائجها بسيطة غير مركبة .

حيران – أصحيح يا مولاي ان طرق الأستدلال الأخرى غير يقينية ؟

الشيخ – انه غير صحيح ابداً ، يا حيران . والقرآن نفسه لم يُهمل طريقتي الأستدلال المذكورتين ، بل اتى بهما ؛ لأن الله ، سبحانه ، عليم بما سبق نزول القرآن من الجدل الفلسفي حول وجود الله ، والخلق والتكوين ، والحدوث والقِدم ، وعالم بما سيكون من استمرار هذا الجدل ، ما دام على الأرض هذا الإنسان المفكر ، الذي وصفه خالقه بأنه اكثر شيء جدلاً ؛ ولكن القرآن ، مع اشارته لطرق الاستدلال النظرية المركبة هذه ، اشاراتٍ دقيقةً يدركها اربابها القائمون بممارستها كالفلاسفة والمتكلمين ، قد اعتمد ، اكثر ما اعتمد ، في مخاطبة الكافة ، على دليل النظام والاختراع والعناية ، الذي لا يختلف عن الادلة العقلية النظرية المركبة الأخرى ، الّا بكونه ابسط منها واسهل وايسر في الوصول الى اليقين ، كما قال ابن رشد . ولو اكتفى ، رحمه الله ، بتفضيل هذه الأدلة البسيطة السهلة ، على ما سواها من الأدلة المركبة ، واكتفى بوصف هذه المركبة بالصعوبة ، ولم يطعن في صحتها ، لما كان على كلامه ايُّ مأخذ ؛ فكل الأدلة ، التي اجمع عليها اعاظم الفلاسفة والمتكلمون من المتقدمين والمتأخرين ، موصلة الى اليقين ؛ وما مَثَلها في ذلك الا مَثَل البراهين التي تقام ، من عدة اوجه ، على قضية رياضية صحيحة ؛ فانه اذا جاز للمعلم ، او حَسُنَ به ان يختار اسهلها واقربها الى ذهن الطالب ، فلا يجوز له ان يطعن في صحة البراهين الأخرى ويعطلها ؛ والّا عاد هذا التعطيل على نفس العقل ، بل على الأيمان الذي ليس له عماد الّا العقل .

هذا هو خطأ ابي الوليد . ولكن لو استمعتَ اليه كيف يسوق دليل الاختراع ، ويفصّله ، لرأيته ، فيه ، اقوى واخلص واصدق ما يكون المؤمن الصدّيق ، وأفقه ما يكون الفقيه ، وابرع ما يكون العالم ، واعظم ما يكون الفيلسوف .

حيران – أسمعني يا مولاي بعض ما يقوله هذا الرجل في طريقة الأستدلال التي يراها ابسط واسهل واكثر يقيناً في الدلالة على الله .

الشيخ – انقل لك كلامه عن كتابه (الكشف عن مناهج الأدلة) : فان قيل ، فاذا كان قد تبين ان هذه الطرق كلها ليست واحدة منها هي الطريقة الشرعية التي دعا الشرع منها ، جميع الناس على اختلاف فطرهم ، الى الاقرار بوجود الباري سبحانه ، فما هي الطريقة الشرعية التي نبّه الكتاب العزيز عليها واعتمدتها الصحابة رضوان الله عليهم ؟ قلنا : الطريق التي نبّه الكتاب العزيز عليها ، ودعا الكلّ من بابها ، اذا استقرئ الكتاب العزيز ، وُجدت تنحصر في جنسين : احدهما طريق الوقوف على العناية بالأنسان ، وخلق جميع الموجودات من اجله . ولنُسَمّ هذا (دليل العناية) . والطريقة الثانية ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات : مثل اختراع الحياة في الجماد ، والأدراكات الحسية ، والعقل ، ولنُسَمّ هذه (دليل الاختراع) . فاما الطريقة الاولى فتُبنى على اصلين : احدهما ان جميع الموجودات التي ههنا موافقة لوجود الانسان . والاصل الثاني ان هذه الموافقة هي ، ضرورةً ، من قبَل فاعلٍ قاصد لذلك ، مريد . اذ ليس يمكنُ ان تكون هذه الموافقة بالاتفاق (يعني بالمصادفة) . فاما كونها موافقة لوجود الانسان ، فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الانسان ، وكذلك موافقة الازمنة الاربعة له ، والمكان الذي هو فيه ايضاً وهو الارض . وكذلك تظهر ايضاً موافقة كثير من الحيوان له ، والنبات والجماد ، وجزئيات كثيرة مثل الامطار والانهار والبحار ، وبالجملة الارض والماء والنار . وكذلك ايضاً تظهر العناية في اعضاء البدن ، واعضاء الحيوان ، اعني كونها موافقة لحياته

ووجوده . وبالجملة فمعرفة منافع الموجودات داخلة في هذا الجنس . ولذلك وجب على من اراد ان يعرف الله تعالى المعرفة التامة ان يفحص عن منافع الموجودات .

واما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الحيوان كله ، ووجود النبات كله ، ووجود السماوات ... وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات . ولذلك كان واجباً على من اراد معرفة الله ، حق معرفته ، ان يعرف جواهر الاشياء ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات . لان من لم يعرف حقيقة الشيء ، لم يعرف حقيقة الاختراع . والى هذا الاشارةُ بقوله تعالى (او لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلَق الله من شيء) .... وبعد ان يذكر ابن رشد عدداً من آيات القرآن المنطوية على الاشارة الى دليل العناية والاختراع ، يقول : (فقد بان من هذه الادلة على وجود الصانع انها منحصرة في هذين الجنسين (دلالة العناية ودلالة الاختراع) ، وتبين ان هاتين الطريقين هما باعيانها طريقة الخواص ، واعني بالخواص العلماء ، وطريقة الجمهور ؛ وانما الاختلاف بين المعرفتين ، في التفصيل : أنّ الجمهور يقتصرون ، من معرفة العناية والأختراع ، على ما هو مدرَك بالمعرفة الاولى المبنية على علم الحس ، واما العلماء فيزيدون على ما يُدرك من هذه الاشياء بالحس ، ما يُدرك بالبرهان ...

ثم يشير في موضع آخر من كتابه الى دلالة القصد والحكمة في المخلوقات على وجود الخالق الحكيم فيقول : (ان الانسان اذا نظر الى شيء محسوس ، فرآه قد وُضع بشكل مّا ، وقدر مّا ، ووضعٍ مّا ، موافق في جميع ذلك للمنفعة الموجودة في ذلك الشيء المحسوس ، والغاية المطلوبة ، حتى يعترف انه لو وُجد بغير ذلك الشكل ، او بغير ذلك الوضع ، او بغير ذلك القدر ، لم توجد فيه تلك المنفعة ، عَلِمَ ، على القطْع ، ان لذلك الشيء صانعاً صنعه ، ولذلك وافق شكلُه ووضعُه وقدرُه تلك المنفعة وأنه ليس يمكن ان تكون موافقة اجتماع تلك الاشياء لوجود المنفعة بالاتفاق (اي المصادفة) ...

ثم يعود ابن رشد الى ذكر آيات متعددة من القرآن تنطوي على دليل العناية والاختراع ، ويوضح بعض ما وصل اليه العلم في عصره من منافعها ، وينتهي الى القول (ولو ذهبنا لتعداد هـذه الآيات ، وتفصيل ما نبّهت عليه من العناية التي تدل على الصانع والمصنوع ، لما وسع ذلك مجلدات كثيرة ، وليس قصدنا ذلك في هذا الكتاب ، ولعلنا إن أنسأَ اللهُ في الاجَـل ، ووقع لنا فراغ ، ان نكتب كتاباً في العناية التي نبّه لها الكتاب العزيز) .

حيران – حقاً ان هذا الرجل من اعظم المؤمنين ، فهل يعلم مولاي انه وضع ذلك الكتاب الذي منّى نفسه بوضعه ؟

الشيخ – لا اعلم انه وضع كتاباً خاصاً في هـذا الباب . وقد هُديت بفضل الله ، يا حيران ، الى جمع اكثر آيات القرآن التي تنطوي على ادلة النظام والقصد والحكمة والعناية ، وسأكشف لـك عن وجوه مطابقتها لما انتهى اليه العلم الحديث من اسرار الخلق والتكوين ، بقدر ما وصل اليه علمي .

حيران – بقي لي سؤال واحد ، وهو انني قرأت ، فيما قرأت ، ان ابن رشد انكر وجود (الشخصية الفردية الانسانية) وقال بفنائها مع الجسد ، وهذا من جملة ما حمل اخصامه على اتهامه بالالحاد ، وانكار البعث . فما هو مبلـغ الصحة في هذه القالة الشنيعة عن رجل له مثل هذا الايمان بالله وكتابه ؟

الشيخ – ان الذي اتهمه بالالحـاد وانكار البعث هو الفيلسوف توماس اكويناس ، الذي يتردد هو نفسه في امر الروح . ولست اراه على حق في هذا الاتهام ، من حيث النتيجة التي يصل اليها المتأمل في اقوال ابن رشد ؛ لانه اذا كان قد جارى ارسطو في قوله ان النفس عبارة عن وظيفة الجسد ولا وجود لها بغيره ، وان العقل الفردي الشخصي هو استعداد الانسان وقدرته على التفكير ، وانه يفنى بفنائه ، فليس في هـذا كله ايّ معنىً يوجب اتهامه بالالحاد ؛ لأن حقيقة الروح والعقل لا تزال غامضة خافية علينا ، وسوف تبقى ، فيما اظن ، سراً الى الابد ؛ ولا يقدح في الايمان ايُّ قول يقال فيهما ، ما دام قائله لا ينكر انهما من امر الله . وكذلك القول بفناء

الشخصية الفردية ، فانّه لا ينفي امر البعث ، الذي هو احياء جديد وخلق جديد ، بقدرة الله الذي خلق الاجساد والنفوس واحياها اول مرة .

وبعد ، فلو رجعت يا حيران الى رأي توماس في امر النفس لوجدت انه متردد وغير واضح ، فبينما تراه يعرّف الشخصية بانها مزيج من الجسم والنفس ، ويعتبر ، في بعض اقواله ، الجسم والنفس حقيقة واحدة موحدة ، تراه من جهة اخرى يقول ان النفس حقيقة غير جسمية وانها شيء روحي يبعثه الله فينا . وبينما تراه يقول ان هذه القوة الروحية الموجودة فينا تبقى بعد موت الجسم ، تراه يقول ان النفس ليست ذات شخصية ، فهي لا تقدر ان تحس او تريد او تفكر بل هي طيف لا قوة له ولا يستطيع ان يقوم بعمل بغير الجسم ، وانها لا تكوّن شخصية منفردة خالدة الآ اذا عادت للاتحاد مع الجسم .

وقد يكون قوله هذا في اعتماد النفس على الجسم وتوقفها عن الاحساس والارادة والتفكير عند الانفصال عنه ، صحيحاً او غير صحيح ، فنحن ، كما قلتُ لك ، لا نعلم من امر النفس الا انها من امر الله ؛ ولكننا نتساءل ، بعد ان يكون هذا رأي توماس في النفس ، لماذا اثار تلك الحملة الشعواء على ابن رشد وكيف استنتج من اقواله انه ينكر البعث ... ؟

ولو رجعتَ الى اقوال ابن رشد في كتبه التي بين ايدينا لرأيتَ انه لم ينكر البعث ابداً بل آمن به وصدّق ، ووصف الذين ينكرونه (بالزنادقة) ، وانما كان جداله مع الغزالي في صورة البعث وكيفيته ، فقال ان النشأة الاخرى تكون بخلق جديد للجسم . وهذا لا يخالف الدين في شيء . اما النفس فقد صرح ابن رشد ، بعد الاخذ والرد مع الغزالي ، بغموض امرها فقال : (فالكلام في امر النفس غامض جداً وانما اختص الله به من الناس الراسخين في العلم) ؛ ولا ندري يا حيران ان كان ابو الوليد يرى نفسه من هؤلاء الراسخين ... ولعله منهم في كل امر الآ في امر الروح والنفس وما شاكلها من المتشابهات التي بقيت وسوف تبقى من اسرار الغيب التي لا يعلمها الا الله .

اما الراسخون الراسخون فهم الذين يختارون الوقف في الآية ثم يقولون (آمنّا به كلٌّ من عند ربنا وما يذّكّر الا اولوا الالباب) .

حيران – لقد عرفت رأي اكويناس في النفس ، فهل لمولاي ان يذكر لي رأيه في وجود الله وخلق العالم ؟

الشيخ – لو سمعتَ كلامه في وجود الله وخلقه للعالم ، لحسبتَ انك تسمع الغزالي وابن سينا وابن رشد يتكلمون . انه يقول : (ان عقْلنا يستمد المعرفة من الحواس . ولكن هذا العقل ، الذي خلقه الله فينا ، هو قوة منظّمة تستطيع تنظيم التنبهات الحسية ، وتحويلها الى افكار كلية وافكار مجردة . ولكن معرفة العقل المباشرة مقصورةٌ على عالم الحس ، وليس في مقدوره ان يعرف ، من طريق مباشر ، العالم الذي فوق المحسوس ووراء الطبيعة ، وان كان في مقدوره ، بالمقارنة والقياس ، ان يستمد معرفة غير مباشرة لوجود الله ، ويدرك انه الكائن الخالق لجميع الكائنات ، وانه واحد احد ، لا يتعدد ، ولا يتحول ، ولا يحيط به زمان ؛ لان سرّ العالم الموحّد ليكشفُ لنا عن عقل واحد وقانون واحد . اما ما وراء ذلك ، من اسرار الغيب ، فالعقل عاجز عن ادراكه ، كما انه يصعب عليه تصور الامور غير المادية كالروح ، لان تجاربنا الخارجية كلها ، مقصورة على الاشياء المادية ، بل هو عاجز عن ادراك كثير من حقائق الحياة ، فما من عالِم قد عرف حتّى اليوم حقيقة ذبابة

حيران – هذا والله عظيم .

الشيخ – واعظم منه طُرق الاستدلال ، التي سلكها اكويناس ، في اثبات وجود الله . فانه يعتمد ، في اثبات وجود الله وخلقه للعالم ، على طرق الاستدلال الثلاث التي اعتمدها الغزالي وابن سينا وابن رشد والمتكلمون ؛ فيقول في (دليل الحدوث) : انه يمكن البرهنة على وجود الله بعلل طبيعية : فالحركات كلها تنشأ من حركات سابقة ، وهذه تنشأ من اخرى قبلها ، وهذه امّا ان تنتهي الى محرك اول ، او تستمر في النشوء من حركات اسبق ، بتسلسل لا نهاية له ، وهذا مستحيل عقلاً . كذلك

يقول في (دليل الوجوب) ان ما في هذا العالم هو من (الممكن الوجود) ، وهو مـا قد يكون ولا يتحتم ان يكون ؛ وهذا (الممكن) لا بد ان يعتمد على (الضروري) الذي لا بد ان يكون وهو (الواجب الوجود) عقلاً ، وهو الله . كذلك يقول في (دليل النظام) ان في هـذا العالم شواهـد ، لا تحصى ، تدل على مـا فيه من نظام ، حتى في الجمادات التي تتحرك بطريقة منظمة ، فكيف يمكن وجود هذا النظام والاحكام ، الاّ اذا كانت هناك قوة عاقلة هي التي خلقت الاشياء ؟ (ان في وسعنا ان نعرف ، بطريق الفهم الطبيعي ، ان الله موجود ، وانـه واحد ، لان وجوده ووحدانيته تتلألأ في عجائب العالم وحسن تنظيمه) .

ومع ان اكويناس يتردد في الرأي حين يبحث في خلق الله للعالم في زمن معين ، واستشكالِ الفلاسفة في (مدّة التّرك) ، ويرى ان العقـل يكلّ ويعجز عن تصور ذلك ، الاّ انه يعود فيتلاقى مع الغزالي ، تلاقياً يكاد يكون حرفياً ، حيث يقول : (ان البحث في هذا الامر لا معنى له لان الزمن لم يكن له وجود قبـل العالم . اذ الزمن لا يتصوّر بدون الحركة والتغيير) ، بـل انه ليجاري الغزالي في قوله ان العالم خلق في الوقت الذي خلق فيه بالارادة القديمة فيقول : (ان عمليـة الخلق وان تكن ازلية ، الاّ انها تنطوي على (الارادة) ، ومن الارادة تحديد الوقت الذي يريد الله فيه خلق العالم) .

حيران — هذا عظيم يا مولاي وما كنت اتوقع ان اسمعه ، فقد كنت قرأت ان توماس اكويناس اطّلع على آراء ابن سينا والغزالي وابن رشـد وانتقدها ، فكيف ينتقد آراء ظهر انـه يأخذ بها اخـذا يكاد يكون حرفياً ؟

الشيخ — ان توماس قـد يناقش الفلاسفة الاسلاميين في بعض الامور ولكنه يعترف اعترافاً صريحاً بما اقتبسه من ابن سينا والغزالي وابن رشد . ونحن هنا يا حيران انما نذكر من اقوال الرجل ، كفيلسوف ، ما يتلاقو فيه على الحق مـع الفلاسفة الثلاثة في اثبات وجود الله ووحدانيته ،

والاستدلال عليه بأدلة واحـدة من طريق العقل السليم الذي كان توماس شديد التمسك به ، من غير ان نتعرض لتفصيل وجوه هذا التمسك الذي تدركه لو قرأت شيئاً من كتابه الكبير ورأيت ان صراحته في تحديد ما ينطبق على العقل وما لا ينطبق من الامور قد عرضته للنقد من اهـل ملّته . اذ نحن في هذا الحديث معك ، انما نسير الى غاية واحدة : وهي ان نريك ان كل العقول السليمة ، عند كل الملل تتفق ، في مجال النظر العقـلي الخالص المبرأ من شوائب الهوى ، على الاعتراف بوجود الله ، وعلى الاقرار الصريح بانه واحدٌ احدٌ لا يتعدد ولا يتحوّل ، وتتفق في طرق الاستدلال على هذا الحق الذي لا ريب فيه ...

اختِلَافُ الحُظُوظ

حيران — لقد حدثني الشيخ عن كل من سمعت بهم من الفلاسفة الاسلاميين الّا (المَعَرّي) ، أفلا تريد يا مولاي ان تحدثني عن ابي العلاء ؟

الشيخ — كيف لا احدثـك عن ابي العلاء ، وبيت القصيد عندي ، شَطْرُهُ في الحديث عن ابي العلاء ... ولكني لن احدثك عنه كفيلسوف ؛ لاني لا اعرف له رأياً فلسفياً واضحاً معللاً ، في قضايا الفلسفة الكبرى ، لابسطه لك . فاننا اذا اخذنا بمعنى الكلمة اللغوي جاز لنا ان نسمي ابا العلاء فيلسوفاً ، لان الفيلسوف ، لغةً ، هو (محب الحكمة) ؛ والمعرّي كان ، ولا ريب ، محباً للحكمة ، وان لم يُقدّم الى هـذه الحبيبة خدمة تُرضيها كل الرضى . واما اذا اخذنا بالمعنى الاصطلاحي الصحيح ، لم يكن لنا ان نحشر ابا العلاء في جملة الفلاسفة ؛ فاسم الفيلسوف حقاً انما ينطبق على مَن توفّر له : نظر عقلي خالص مؤسس على المعرفة ، وبحث في قضايا الفلسفة الكبرى او في بعضها ، وتكوين رأي فلسفي قاطع معلل فيها . فاذا استطاع محب الفلسفة ان يفعل كل هذا فهو من رجالها حقاً ، بقطع النظر عن صحة آرائه او بطلانها ؛ واما اذا لم يكن له ، من هذا كله ، سوى نظرات مشتتة في بعض قضايا الفلسفة ، فهو اجْدر ان يُعَدّ من انصاف الفلاسفة .

والمعرّي ، في نظري ، من هؤلاء الانصاف : فان له نظراً عقلياً مؤسساً على شيء غير يسير من المعرفة ، وله نظرات مشتّتة في كثير من قضايا الفلسفة ، القاها في ثنايا شعره ونثره ، من غير تنسيق ، ولا ترابط ، ولا تحقيق ، ولا برهنة .

لقد كان ابو العلاء زاهداً في الدنيا ، منصرفا ، بل مصروفاً ، عن كل

طيباتها ومباهجها ، فاورثه سوء حظه من الحياة كثيراً من الحيرة والقلق والشك ، ولم يجد لكربه تنفيساً الا بالشكوى والسخرية والتهكّم . فصاغ كل خطرة من خطرات نفسه الكئيبة الناقمة شعراً ، وزيّن هذا الشعر بما يُرضي غريزة حب الظهور من ضروب التزيين وفنون التزويق ، الدالة على طول باعه في اللغة والادب ، واطلاعه على شيء من الفلسفة ؛ فجاء ديوانه صورة صادقة لما في نفسه ، من ألم ونقمة وحيرة وتهكّم وسخرية ، وطموح يستّتِر بالزهد ، وزهد ينطوي على الطموح ، وايمان مشوبٍ بالشك ، وشكّ مشْدودٍ الى الايمان ....

ولعمري انه ليس من الحق في شيء ان نحشر مع الفلاسفة كل من اطلق لسانه بشيء من الشك ، معبّراً عن خطرات نفسه ، بلسان الشعر ، الذي لا يصلح ابداً للبحث الفلسفي المنظم القائم على البرهان ؛ لان هذه الشكوك تسري ، في غمار الحياة وشقائها ، الى اكثر النفوس ، وتعتري اكثر العقول ؛ ولكن ما كُل مَن عرض له شك ، او ألمّت به نكبة ، او غمرت نفسه سحابة من التشائم ، يُفضي بما في صدره ، بلغة الشعر ويجعله من غير بحث ، ولا تأمل ولا تعليل ولا برهنة ، اساساً للرأي في حقائق الكون الكبرى . واذا وُجد بين الناس من تضيق نفسه بشكوكه وآلامه ، فيلقيها للناس شعراً ، مشوباً بشيء من الشك ، وشيء من الايمان ، فهل يستحق ان نعدّه مع اولئك الذين قضوا اعمارهم في النظر العقلي الخالص المجرد المنظم ، فاخرجوا للناس فلسفة واضحة صريحة متماسكة الاجزاء ، مترابطة الاطراف ، متلائمة النتائج موحّدة الأتّجاه ، مؤسسة على البرهان ؟

اننا اذا نظرنا في ديوان ابي العلاء ، وفي رسالة الغفران ، وفي اجوبته لداعي الدعاة .. وهذا كل ما يمكن ان نستخرج منه آراءه — لم نجد له بحثا صريحا منظماً منسقاً معلّلا مدلّلا ، لا في مبحث المعرفة ، ولا في مبحث الوجود ، ولا في النفس ، ولا في الاخلاق ، والاجتماع ، بل نجد تشاؤماً مظلماً عنيفاً طاغياً ، يتردد الرجل بسببه بين الشك واليقين .

ولستُ اطيل في بيان اسباب هذا التشاؤم الذي يغمر نفس الرجل : فانك لتعلم ، يا حيران ، انه قد يعتري كثيراً من الاصحّاء المبصرين المنعمين الموسرين ، لنكبة تنزل بهم ، او أملٍ يخيب لهم ؛ فما قولك برجل يحمل في صدره طموح العباقرة ونفس الجبابرة ، اذا وجـد نفسه ، من اوّل حياته ، كفيف البصر ، مشوّه الوجه ، مجبوراً على العزلة ، محروماً من نشاط الحركة ، مُعَرّضاً لسوء الهضم ، مرغماً على الزهـد ، محجوباً عن المجد ، يائساً من الناس ، قانطاً من رحمة الله ... ؟

لقد كان من الطبيعي ان ينتج هـذا كله شكاً في نفس ابي العلاء ؛ وهو الشك الذي لا يأتينا ابـداً في الحياة الّا من (اختلاف الحظوظ) ولا ينجو منه ، خلا الصدّيقين ، احد ابداً ممن يفكرون في سرّ الاقدار ؛ فان كل ما في الكون يـدل على الله ؛ ولكن الشك انما يأتينا من شقاء الحياة ، واختلاف حظوظنا من الصحـة والمرض ، والفقر والغنى ، والعز والذل ، وطول العمر وقصره ، وغير ذلك . فاحفظ هذا يا حيران ولا تنسَه ، فاني سأعود بك اليه اذا استطعتُ ان ابرهن لك على ان كل ما في الكون يدلّ على الله ...

حيران — ولكن الى اي مدى وصل الشك بابي العلاء ؟

الشيخ — هنا بقية السرّ في تحدّثي اليك عن ابي العلاء . لقد كشفتُ لك عن سبب شكه ، الذي يعتري كل النفوس البائسة ، وسأكشف لك عن ايمانه ، الذي يلازم كل العقول السليمة .

ان المعري قد شكّ في كل شيء ... الا في امر واحد ، لم يتطرق الى عقله الشك فيه ابداً ، وهو وجود الله تعالى . وان قيل لك غير هذا فلا تصدقْه ؛ فلقد اظهر المعرّي حيرته في القضاء والقدر ، وحرية الارادة ، وعلة الخلق ، وحقيقة الروح ، وكيفية البعث ؛ ولكنـه بقي معتصماً بايمانه بوجود الله ، لان عقله السليم دله ، بالبرهان ، على هذا اليقين الذي لا يمكن للعقول السليمـة الافلات منه ، مهما اعتراها الكلال في ادراك كنه الذات الاحدية ، او في تصور الحدوث والقدم ، والخلق من العدم ،

او في تصور الزمان والمكان ، ومهما الحّ عليهــــا الشك الذي يثيره في نفوسنا (اختلاف الحظوظ) وغموض سر القدر .

هذا هو الحق في الشيء الذي يسمونه (فلسفة المعرّي) ؛ وان اردتَ ان تلمسه بيدك فارجع الى ديوانه ، واجمـع اقواله ، وصنفها ، وقارنْ بينها ، وانعم النظر فيها ، يظهر لك هذا الحق الذي لا ريب فيه .

حيران – هــذا عجيب يا مولاي ، فاني طالمــا سمعت ، من الذين يتحدثون عن ابي العلاء ، او يكتبون عنه ، او يروون شعره ، مـا يدل على انه كان ضعيف الايمان بالله .

الشيخ – وهذا الولع من الناس بانشاد شعر ابي العلاء ، وكلّ شعر فيه شيء من شكوى الاقدار ، والتعتّب عليها ، او التعجب منها ، او الشك في حكمتها ، هو ايضاً من اثر (اختلاف الحظوظ) في الحياة ؛ فمـا من انسان الا وهو عرُضة لأن يصاب في ذات نفسه ، او فيمن حوله من اهله وولده واحبابه ، فيلذّ له ان يشكو سوء حظه ، لينفّس من كربه ، بترديد ابيات من هذا الباب . ولكن مثل هذه الابيات المفردة ، التي ما قالها قائلها ، الّا تنفيساً لكربة من كرب الحياة ، لا يصح ان تكون ، وحدها ، اساساً للحكم على رأيه في الايمان والكفر . بـل يجب ان نجمع كل ما قاله الشاعر ، في هـذا الباب ، وننعم النظر فيه ، لنصل الى رأيه الصحيح القاطع .

ولو شئنا ، يا حيران ، ان نعتبر ابا العلاء من الفلاسفة ، ونبحث عن حقيقة رأيه ، في المعرفة والوجود ، بين ثنايا هذا الشعر وطيّاته ، لظهر لنا ان الرجل ، على الرغم مما ساقه اليه التشاؤم ، من الحيرة والشك ، لم يستطع ابداً ان يخرج عن ثقته بعقله ، وعن ايمانه بربّه ، من طريق هذا العقل وحده .

وهل تشك في هذا يا حيران اذا سمعتَه يقول ، وما اصدق ما يقول :

وليس يُظْلِم قلبٌ   وفيه لِلّبِّ جَذْوَةْ

نعم يا حيران ، واللهِ لا يُظلم قلب رجل في رأسه شعلة من العقل السليم ؛ وقد كان ابو العلاء شديد الثقة بهذا العقل ، عظيم الاعتماد عليه ، متمرداً على

كل رأي ، او خبر يتنافى مع احكامه القاطعة ، كما يظهر لك من قوله :

(فلا تقبلنْ ما يُخبرونك ضلـّةً اذا لم يؤيّدْ ، ما اتوك به ، العقلُ)

وقوله : (وما تُريكَ مرائي العين صادقة فاجْعَلْ لنفسك مرآةً من الفِكَرِ)

وقوله : (سأتبع من يدعو الى الخير جاهداً وارحل عنه ، ما امامي سوى عقلي)

وبهذا العقل آمن هذا العبقري ، المحروم الصابر ، بوجود الله ، وبانه سبحانه ، الاله الواحد الاحد ، الاول ، الازلي ، السرمدي ، العلام ، القادر ، المصوّر ، المبدي ، المعيد ، الذي ليس كمثله شيء . وهل من سبيل لنا الى الشك ، في هذا الايمان الكامل الشامل ، اذا سمعنا ابا العلاء يقول :

(بوحدانيـــة العلّام دنـّا فدعْني اقطع الايام وحدي)

كأنه يشير لنا الى ايمانه بالله ووحدانيته ، يلازمه في وحدته ، وعزلته ووحشته وتشاؤمه .

وسمعناه يقول :

(يمـــوت قومٌ وراء قومٍ ويلبث الاوّل العـــزيزُ)

(يجوز ان تبطيء المنايا والخُلْدُ في الدهر لا يجوزُ)

وسمعناه يقول عـــن قدرة الله الذي يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، فيبدع جوهر الحياة من عَرَض المادة الموات ، ثم اذا شاء نزعه منها ، فعادت ، بقدرته ، مواتاً كالعَرَض :

(جواهر الـّفتـْهـــا قدرةٌ عجبٌ وزايلتْها ، فصارتْ مثل اعراضِ)

حيران — ولكني يا مولاي احفظ من كلامه قوله :

(قلتـُم لنــا خــالق عليم قلنا صدقتم كـذا نقولُ)

(زعمتموه بـــلا مكان ولا زمـــان الا فقولوا)

(هـــذا كلام له خَبِيءٌ معناه ليست لنا عقولُ)

أفلا يدل هذا على ضعف الايمان بالله يا مولاي ؟

الشيخ — انني لست اعجب من ان تحفظ ، يا حيران ، هـذه الأبيات الثلاثة ولا تحفظ قوله :

(والله اكبر لا يدنو القياس له ولا يجوز عليه كان او صارا)

فانكم ، معشر الناشئة ، مولعون بالشك ، وبكل ما يسوق الى الشك ؛ ولكني اعجب لك كيف لم تدرك ، وقد مرّ بك ما مر من الحديث الطويل العريض عن وهْم العقل وكلاله عند تصور معنى الزمان والمكان ، انّ هذه الأبيات انما قصد بها المعرّي ان يشير الى كلال عقله عن تصور معنى الزمان الحادث الذي لا زمان قبله ، والمكان الحادث الذي لم يكن له وجود قبل خلق العالم ، كما قال الغزالي ؛ وأن هذه الاشارة الى كلال العقل لا تدل ابداً على انكار وجود الله الذي يدرك ابو العلاء انه (اكبر من ان يدنو القياس له او يجوز عليه كان او صار)، اي لا يقاس وجوده الأزلي على وجود الاجسام المحدثة ، التي يقترن حدوثها ، ضرورة ، بالمكان والزمان ، ولولا حدوثها ، لما كان للمكان والزمان وجود ولا معنى يمكن تصوره .

كذلك قل يا حيران عن رأيه في البعث ؛ فأن المولعين بالشك والتشكيك انما يحفظون قوله :

(تُحطمنا الأيام حتى كأنّنا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبكُ)

وقوله : (لو كان جسمك متروكاً بهيئته بعد التلاف ، طمعنا في تلافيه)

ولا يحفظون ابداً قوله :

(اذا ما اعظُمي كانتْ هباءً فان الله لا يُعْييهِ جَمْعي)

وقولـه:(ومتى شاء الذي صوَّرنا اشعر الموت نشورا فانتشرْ)

وقولـه:(قد يمكن البعث ان قال المليك به وليس منا لدفع الشرّ امكانُ)

وقولـه:(وأعْجَبُ ما نخشاه دعوة هاتف اتيتم فهبّوا يا نيام الى الحشر)

(فيا ليتنا عشنا حياة بلا ردى يَدَ الدهر، او متنا مماتاً بلا نشر)

وقوله بلسان المؤمن الخائف :

(ان كان نقلي من الدنيا يعود الى خير وارحَبَ فانقلْني على عَجَل)

(وان علمتَ مآلي عند آخرتي شراً واضيق فانْسأ ربِّ في الأجل)

ولعمري ان هذا الأقبال على حفظ ما فيه الشك والظن، والانصراف عما فيه الأيمانُ مع البرهان ، ليس من شأن المنصف الذي يريد معرفة الحق من رأى

الرجل ؛ وانما السبيل الى الحق ان نُنْعم النظر في كل اقواله ، ونفاضل بينها بالبرهان . فانّ قوله : (لا يعاد لنا سبك) وما شاكله لا يجوز ان يُصرف لانكار البعث ، بقدر ما يُصرف الى رأي العلماء الذين قالوا ان البعث انما يكون بخلق جديد . اما قوله (ومتى شاء الذي صوّرنا اشْعَرَ الموتَ نشورا فانتشرْ) فانه يحمل ، في طياته ، برهانه العقلي على امكان بعث الأجسام ، بقدرة الذي خلقها وصوّرها وانشأها اول مرة ... فتأمل يا حيران .

كذلك قوله في الروح :

(امـــا الجسوم فللتراب مآلها ... وعييتُ بالأرواح انّى تذهبُ)

وقوله : (روح اذا اتصلت بجسم لم يزل ... هو وهي في مرض الفناء المكمد)

(ان كنتِ من ريح فيا ريح اسكني ... او كنتِ من نار فيا نار اخمـــدي)

وقوله : (ان يصحب الروح عقلي بعد مظعنها ... للموت عني، فاجدر ان ترى عجبا)

(وان مضت في الهواء الرحب هالكة ... هلاك جسمي في تربي فوا شجبا)

فانها كلها اقوال لا تقدح في ايمان الرجل ابداً ، ولا يمكن ان نفهم منها سوى الأشارة الى ان الروح شيء غير الجسد ، وانها تتصل به لتقاسي ألم الحبس ، ويقاسي هو ألم الحياة ، وأنّ ابا العلاء لا يدري ما هي الروح ، وهل لها وجود مستقل عن الجسد أم هي وظيفة الجسد في حياته وتفنى بموته ، ويجرّه حُبُّ القافية ، وكره الحياة ، الى افتراض كونها ريحاً أو ناراً ، كما زعموا ، ليتمنى سكونها أو خمودها ... وكل هذا ، مهما قلّبتَ وجوه الرأي ، لا يقدح في الإيمان ابداً ؛ لأننا لا نعرف حقيقة الروح ، ولم يُفرض علينا ان نقول فيها شيئاً ، سوى انها من امر الله ...

اذا عرفتَ كل هذا من كلام المعرّي ، ياحيران ، وانعمت النظر فيه ، وذكرت للرجل استكانته وخضوعه الى الله ، بتذلل لا يُتصوَّر الرياء فيه ، علمتَ حق العلم ، وايقنتَ ان ابا العلاء ، رحمه الله ، لم يكن ، على تشاؤمه وسخطه على الحياة وتعجبه من اسرار الاقدار ، الّا مؤمناً ، بل من اصدق الناس ايماناً بالله وصبراً على بلائه ، .

تلاقي العباقرة

١

٥

جئت الشيخ في موعدنا بعد صلاة العشاء ، فرأيته قـد نشر بين يديه ورقة كبيرة ، مقسّمة الى حقول، وهو يشير فيها الى فقرات متقابلة ، ذات اليمين وذات اليسار ، يخطط تحتهـا خطوطاً ؛ فتلقفتْ منّي العينُ اسم الغزالي ، وابن طفيل ، واسماء اخرى عربية ؛ يقابلها اسماء افرنجية ؛ فأخذت محلّي امـام الشيخ صامتاً ، لا اعكّر عليه عمله ، وبسطت دفتري على الخوان الصغير .

وبعد برهة وجيزة ، رفع الشيخ الموزون رأسه ، وقال لي وهو يبتسم : اهلاً بالحيْران .

قلتُ : ماذا يريد مولاي بهذا التعريف ؟ انني لم اعـد حيران بالقدر الذي كنت فيه يوم جئت الى الشيخ ، وأنْ كان فكري يرتبك في بعض التصوّرات .

الشيخ — اعرفُ اعرف . هذا الارتباك لا بدّ منه . ولكني وصفتك بالحيران لأنني رأيتك متحيراً فيما افعل .

حيران — نعم تحيرت مذ وقع نظري على هذه الخريطـة ؛ فهل عاد الحديث للغزالي وابن طفيل ؟

الشيخ — كلا ؛ ولكن هي مقارنة ، أهيئها لك ، بين ما قاله هؤلاء المسلمون ، وبين ما قاله عباقرة الفلسفة في الغرب بعد ٥٠٠ سنة .

حيران — ان صحّ ظني فأن مولاي سيحدثني ، اليوم ، عن نهضة الفلسفة ؛ فلقد كنت رأيت مـع بعض الرفاق كتاباً بهذا الاسم عن فلاسفة العصور الاخيرة ، فاستعرته منه ، وجئت به الى الجامعة ، فكان من اكبر اسباب النقمة عليّ . وقد اخذوه مني ومزقوه ، لأنهم قالوا ان فيه الالحاد كلّه...

الشيخ — لا تقلْ نهضة الفلسفة ، فالفلسفة كانت ناهضة من قبل ، ولكن قل نهضة الغربيين في ميدان الفلسفة .

حيران — لم افهم الفرق بين القولين .

الشيخ — بالنسبة الى اوروبا ، والظلمة التي كانت تخيّم عليها ، يمكن ان يقال ان هنالك نهضة في الفلسفة ، بل هنالك يقظة ، بعد سبات عميق تفتّحت فيها عيون العباقرة على النور الذي اتى ، من المشرق ، كعادته ... فان قلتَ انهم تلاقوا مع المشرقيّين على الحق لم يكن بعيداً ، وان شئت ان تقول ، معي ، انهم قبسوا كثيراً من ذلك النور فهو اقرب .

حيران — اذنْ لا يريد مولاي ان يحدثني عن فلسفة هؤلاء الغربيّين .

الشيخ — كيف لا احدثك عنهم يا حيران ، وانا اعلم ان الحديث عنهم هو الذي يستهويك ...

حيران — لقد رأيتُ مولاي يقول انهم اقتبسوا اقوالهم من المشرقيّين ، فحسبتُه يهوّن من شأنهم ، ويصغّر من قدرهم ، ليصرفني عمّا في اقوالهم من الشك والالحاد .

الشيخ — ومتى رأيتني اكتم عنك رأي الشكاك والملحدين ؟

حيران — لقد رأيت ان اكثر من حدثني الشيخ عنهم من عظماء الفلاسفة كانوا من المؤمنين الموحّدين .

الشيخ — وما ذنبي اذا كان الشكاك والملحدون قلةً من الاصاغر ، بالنسبة للكثرة من الاكابر ... ? والآن سوف ترى ان هذه النسبة لم تتبدل قط في جميع من سأحدثك عنهم .

واما قولك اني اهوّن من شأنهم واصغّر من قدرهم ، حين ارجّح انهم قبسوا بعض اقوالهم من المشارقة ، فلا ادري من اين اتاك هذا الظن ؟ ان تاريخ الفلسفة عبارة عن سلسلة ، متصلة الحلقات ، من الاقتباس ، يأخذه اللاحق عن السابق ، ويضعه تحت التمحيص ، فيرضَى منه ما هداه عقله الى انه الحقّ ، وينبذ منه ما سواه ؛ ولما كان الحقّ نيّراً ، فانه قليلاً ما تختلف العقول فيه . وهذا ما يفسر لنا السرّ في ذلك (التّلاقي) على

الحق ، في وجود الله ووحدانيته ، بين اكثر الفلاسفة من المشارقة المسلمين والمغاربة النصارى .

وسواء أكان هذا التلاقي من باب الاقتباس ، او من باب توارد الخواطر على الحق ، فان هؤلاء ، الذين سوف احدثك عنهم ، قد اتوا ، في الدفاع عن العقل ، وفي اثبات وجود الله وصفات كماله ، بما يبهر العقول ويشرح الصدور .

حيران — هذا عجيب !

الشيخ — ليس بعجيب ولا غريب ، وسوف احدثك عن عشرة هم اعظم الفلاسفة واشهرهم ، وكلهم مؤمنون بالله ، ما فيهم الّا واحد متشكك ، وآخر حائر يؤمن بالله ولا يدري كيف يصفه ، وهكذا ترى ان النسبة بين المؤمنين والشكاك لا تزال واحدة .

حيران — من هم هؤلاء الذين يريد مولاي ان يحدثني عنهم ؟

الشيخ — قل لي انت من هم الذين شغفتك اسماؤهم حبًا واجلالاً ؟

حيران — انني طالما سمعت بشهرة باكون وديكارت وكانط وسبينوزا وبرغسون وداروين ، وقرأت نتفاً عنهم .

الشيخ — سأحدثك باختصار عن كل هؤلاء : عن باكون وديكارت وباسكال ومالبرانش وسبينوزا ولوك ولَيبنز وهيوم وكانط وبرغسون ؛ اما داروين فله حديث خاص آخر ؛ وسوف ترى ان ثمانية من العشرة تلاقوا ، مع الذين حدثتك عنهم من فلاسفة المسلمين ، على الايمان بالعقل ، والايمان بوجود الله ووحدانيته ، وعلى البراهين الدالة عليه تلاقياً يكاد يكون حرفياً .

حيران — انني اسمع ان باكون ، واضعَ الفلسفة الحديثة ، قد ابطل المنطق ، وحمل على ارسطو حملة شعواء ، فكيف يقول مولاي الشيخ انه تلاقى مع الاوّلين في الدفاع عن العقل ؟

الشيخ — لم يبطل فرنسيس باكون احكام المنطق ، ولا يستطيع ابطالها لأنها احكام العقل السليم ، ولكنه ذهب الى ما ذهب اليه سميُّه (روجر

باكون) من القول بأن التجربة هي البرهان الأوحد في العلوم الطبيعية ، وجاراه في الحملة على منطق ارسطو .

حيران – من هو روجر باكون هذا ؟

الشيخ – ألم تسمع به ؟ هو الراهب الفرنسيسكاني الانكليزي اشهر علماء القرون الوسطى ، الذي جاء الى الدنيا قبل فرنسيس باكون بأمد طويل. ولقد تشابه هذان الرجلان في الرأي كما تشابها في الاسم والوطن ، فحمل روجرْ على الطريقة الفلسفية المتبعة في عصره ، واعلن ان التجربة هي البرهان الاوحد في العلوم الطبيعية ، وتظاهر برفض منطق ارسطو حتى تمنّى لو اوتي القدرة على احراق كتبه ، وان كان لم يستغن ابداً عن ذلك المنطق العقلي في كلامه ، واشار الى نفس الاسباب التي قال فرنسيس باكونْ انها تجرّنا الى الخطأ .

اما فرنسيس باكون ، الذي جاء بعد روجر باكثر من عصرين ، ليبتكر ، أو يتبنّى الآراء نفسها ، فقد قال بالتجربة في العلوم الطبيعية ، واحتقر منطق ارسطو ، حتى وصف المعلم الاول بأنه سوفسطائيّ قبيح ، وان كان لم يستغن ، كسميّه ، عن الأخذ بذلك المنطق ، وعدّد الاسباب التي تجرّنا الى الخطأ ، وسمّاها (اصناماً) ، تشبيهاً لها بالاوثان التي تصرفنا عن عبادة الحق ، وهي تكاد تكون نفس الاسباب التي ذكرها روجرْ من قبل .

اما الطريقة التي اختارها فرنسيس باكون للبحث فهي مبنية على : التجربة المؤسسة على الاختبار الصّارم والملاحظة الدقيقة ، واحلال الطريقة الاستقرائية التي يذهب بها العقل صعداً من الجزئيات الى الكليات (induction) محل الطريقة التي ينزل بها العقل من الكليات الى الجزئيات (déduction) . وما هذا بالشيء الجديد ، فالبرهان الصاعد والبرهان النازل ، معروفان عند القدماء ، والتجربة كذلك هي اول شيء عرفه الانسان في درس احوال الطبيعة ؛ ولكن باكون فلسف هذه التجربة ، ونظّمها ، ورسم لها خطوطاً ، وحدّد لها مراحل ، ووضع لها جداول ، فكان هذا

التنظيم لطرق البحث عماد شهرته في عالم الفلسفة .

حيران – لا ريب في ان هذه الطريقة المنظمة للاستنتاج الصاعد من الجزئيات الى الكليات ، هي اكثر ايصالاً للحقيقة في الامور الطبيعية والاشياء الحسية ، ولكن كيف نطبّقها في معرفة الامور التي وراء الظواهر المحسوسة ؟

الشيخ – ان باكون يرى ان اول خطوة لدراسة الفلسفة تبدأ بدراسة الطبيعة ، وبعد ان نستوفي درس ظواهر الطبيعة ، ونقف على قوانينها الخاصة ، يصحّ ان ننتقل الى دراسة القوانين العامة التي تنطوي تحتها القوانين الخاصة ، ولا نزال نترقى حتى نصل الى القانون العام الاكبر ، الذي تنطوي تحته كل القوانين ، ونصل الى (البديهيات) التي تكون صحيحة في أيّ علم ؛ وبهذه البديهيات يمكننا دراسة الاسباب العليا التي نشأ عنها الكون ، والوصول الى ميتافيزيقيّته السّامية .

وكما ان فرنسيس باكون يتلاقى ، في هذه النظرة الشاملة الى الفلسفة ، مع ابن رشد ، الذي يذهب الى معرفة الله من طريق (درس الجزئيات) من آياته ، في مخلوقاته ، وفيما اقيم عليه الخلقُ من النظم الكاملة والنواميس الشاملة ، ويتلاقى مع ابن مسكويْه وابن طفيْل على ما قالا به من امكان الوصول الى ادراك وجود الله من طريق العقل بالنظر الفلسفي الخالص فيقول كلمته الحكيمة المشهورة : (اذا كان قليل من الفلسفة يُبْعِد عن الله ، فالكثير منها يردّ الى الله ((Si un peu de philosophie éloigne de Dieu, beaucoup de philosophie y ramène) فأن (روجر باكون) يتلاقى، مع معاصره توماس اكويناس ومع القرآن ، على الايمان بالله ، والعجز عن ادراك كنْه ذاته سبحانه ، عند النظر في حقيقة ذبابة فيقول : (انه لا يوجد عالم من علماء الطبيعة يستطيع ان يعرف كل شيء عن حقيقة ذبابة واحدة وخواصها ، فضلاً عن ان يعرف كنه ذات الله) ؛ فكأنه يتلو نص الآية في قوله تعالى (يَا أيّها النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ إنّ الذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقوا ذُباباً

ولَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ والمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِهِ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عزيز .) ، فتأمل يا حيران .

حيران – هذا عظيم يا مولاي ...

الشيخ – وسوف ترى ، من هـذا التلاقي على الحق ، ما هو اعظم واوضح عند ديكارتْ وغيره ، يا حيران .

حيران – ان لديكارت شهرة عظيمة في عالم الفلسفة ، فما اشد شوقي الى معرفة وجه تلاقيه مع فلاسفة المسلمين ومع القرآن .

الشيخ – ان ديكارتْ استخرج اليقين من الشك ، وجعـل من نفس الشك سبيلاً لاثبات وجود الله ، ومعرفة صفات كماله ؛ فما اشبهه بالغزالي ، في شكّه ويقينه ، بل في كل احواله واقواله . انـه نظر الى وسائل المعرفة ، فرأى انها عبارة عن الحواسّ الخمس التي نتلقّى بها اثر المحسوسات ، والعقلِ الذي ندرك به المعقولات ؛ ورأى ان الحواس كثيراً ما تخدعنا ، والعقلَ كثيراً ما يخطيء ، حتى لنحسب ان ما رأيناه في المنام حقيقة شاهدناها في اليقظة . وطالما ان الحواس تخدع والعقل يخطيء ، فانـه لم يبق لنا من وسائل المعرفة شيء نثق بـه ونعتمد عليه في معرفة الحق واليقين .

وبعد هذا الشك ، الذي قضى به على وسائل المعرفة كلها ، عاد ديكارتْ الى اليقين ، كما عاد الغزالي ، من قبل ، باسلوب من البيان الساحر والحجة البالغة ، الواضحة المبسّطة ، التي تجعل الدرهان على الشك برهاناً على اليقين ، فقال : مَهْما شَكَكْتُ في حواسي وعقلي ، وشككتُ في وجود العالم ، فانه ستبقى لي حقيقة واحدة لا يمكنني الشك فيها ، لانها تزداد يقيناً كلما ازددتُ شكاً ، وهـذه الحقيقة هي (انني أشكّ) ؛ ومعنى اني اشكّ ، انّي افكر ، لان الشك تفكير ، والتفكير لا يكون الا من ذات مفكرة ، وهذه الذات المفكرة هي (انا) ؛ حتى لو حاولتُ ان اشك في اني افكر ، فهذا الشك نفسهُ دليل على انّي افكّر ...

ومن هنا وضع كلمتـــه المشهورة : (انا افكـّر ، اذنْ انا موجود . (Je pense, donc je suis .

وعلى هذه الكلمة بَنى قواعـــد برهانه على صحة الحواس ، وصدْق العقـــل ، وتوصّل الى اثبات وجود الله ، وعرف جميع صفات كماله المتوجبة عقلاً .

ومن هذه القاعدة انتقل ديكارت الى اثبات وجود الاوليات العقلية ، ثم ترقـّى ، بعد ذلـك ، الى الاستدلال على الله بدليل الحدوث ، ودليل الوجوب حيث يقول :

لماذا يستحيل عليّ ان انكر هذه الحقيقة القائلة (انا افكـّر ، اذنْ انا موجود) ؟ انه يستحيل عليّ انكارها لانها واضحة جداً . وهنالك قضايا لا تقلّ عن هـذه القضية وضوحاً في العقل ، مثل قولنا : ان الشيء لا يصدر من لا شيء ، وقولنـــا ان النتيجة لا يمكن ان تكون اكبر من المقدمة ، وان المسبَّب لا يمكن ان يكون اكبر من سببه .

وبعد ان يتوصل ديكارت الى هـــذا اليقين في اثبات القضايا الاولية البديهية المركوزة في عقولنـا ، يقسم الافكار الى ثلاثة اقسام : افكار بالمصادفة او مباشرة (adventices) وهي التي تتكوّن لدينا من الاشياء الخارجية مباشرةً بدون اعمال الذهن ، وافكار صُنعيّة (Factices) وهي التي نُكـَوّنها نحن من افكار مختلفة ، وافكار فطريّة (innées) مركوزة في عقولنا . ثم يقول ان القسمين الاولين يجب فيهما الحذَر ، كي لا يتسرب اليهما شيء من اغلاط الحواس واوهامها ، واما الافكار الفطرية فانها ، في حالة سلامـــة العقل ، تكون سالمة من الخطأ ، لانها جزء اساسي من تكوين عقولنا ، ومنها نقتبس احكامنا اليقينية كلهـــا ، ونستدل على وجود الله .

وبعد ذلك ينتقل ديكارت الى اثبات وجود الله فيقول : انا موجود . فمَنْ اوجدَني ومَن خلقني ؟ انني لم اخلق نفسي ؛ فلا بد لي من خالق . وهذا الخالق لا بدّ ان يكون (واجب الوجود) ، وغير مفتقر الى مَن

يوجده ، او يحفظ له وجوده ، ولا بدّ ان يكون متصفا بكل صفات الكمال . وهذا الخالق هو الله بارىء كل شيء .

وبعد ان يتخذ ، من نفسه ووجوده ، ومن العالم الموجود ، دليلاً على الله ، يسلك نفس السبيل الذي سلكه الرئيس ابن‌سينا ، من قبله باربعة عصور ، فيتخذ من الله ومن صفات كماله دليلاً على صدق العقول وصحة احكامها ، ودليلاً على وجود نفسه ، ووجود العالم فيقول : ان من صفات الكمال المتوجبة ، عقلاً ، لله صفة الصدْق ؛ وحاشا ان يكون سبحانه قد وهبنا عقولاً مضلّلةً خادعة . فلا بدَّ لنا ، اذن ، ان نثق بان هذه العقول ، التي فطرنا الله عليها ، هي عقول صادقة وصالحة لادراك الحق . وكل ما تدركه هذه العقول ، ادراكاً واضحاً جلياً (كالاوليات البديهية) ، هو حق لا ريب فيه . وعقولنا (التي قررنا انها صادقة وتدرك الحقائق الاولية) ، هي التي تدلنا على وجود الله وصفات كماله ، وعلى انه خالقُ العالم ومدبّرُ امره ...

هكذا تدرَّج وتسامى ديكارت في الاستدلال : فاستدل بنفسه وبالعالم على الله وكماله ، ثم استدل ، بوجود الله وكماله ، على صدق العقول ، وعلى وجود العالم ؛ فاتخذ الله دليلاً وشاهداً على مخلوقاته ، بعد ان استدل على وجوده بمخلوقاته ؛ فسلك نفس الطريق التي سلكها ابن‌سينا ، كما رأيت ، فصَدَق عليه في هذا قول الله تعالى : (سَنُريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنْفُسِهِمْ حتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُ الْحَقُّ أوَ لَمْ يَكْفِ بربِّكَ انّه على كلِّ شيءٍ شَهيد) . فقد اراه الله آياته ، وهَداه ، (حين قال : انني لم اخْلق نفسي ، فلا بدّ لي من خالق) ، الى الحجّة البالغة في قوله تعالى : (امْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شيءٍ امْ هُمُ الخالِقُون ?) ، فتأمل ...

ولما هاجمه النقاد بانه اتخذ النتيجة ، التي بلغها في الاستدلال الاول ، اساساً للمقدمة التي استخرج بها تلك النتيجة ، قال لهم ديكارت : ان العقل كان في الاستدلال الاول يعتمد على قضية بديهية تفرض نفسها

من غير تفكير فيها ، فان وجود (نفسي) قضية بديهية . واما في الاستدلال الثاني فان العقل يعتمد على استنتاجه في التدليل ، عندما امكنه ان يبرهن على السبب الذي من اجله اعْتُبِر العقلُ وسيلةً يُرْكَنُ اليها في الادراك والحكم . فكأنّه يقول لهم رأيتُ آية اللهِ في (نفسي) بالبداهة ، ثم رأيت الله ، بصفات كماله ، شاهداً على صحة عقلي الذي عرفت بـه الحق ، فاكْتَفَيْتُ بالله شهيداً على كل شيء . وهـذا نظْم الآية . فتأمل يا حيران ...

حيران – هذا والله عظيم ، زدني يا مولاي زدني !

الشيخ – ماذا ازيدك ؟ ان الزيادة لن ترضيك ابداً ، لانها ستُشوّه في عينيك جمال الصورة التي اخذتها عن هذا العقل السامي .

حيران – كيف ؟

الشيخ – ان هذا العقل السليم يظل منطقياً حتى يهجم على غير عرينه ، وينسى الحذر الذي اوصانا به في مسالك الافكار (المباشرة) والافكار (الصناعية) ، فكبا ، كما يكْبو الجواد في الحَزْن ، عندما حاول ان يفسر كيف كان خلق العالم ، وما هي الحياة ، وكيف يتصل العقل الروحاني بالجسد المادي .

انه يزعم ان الله قسم المادة الى اجزاء ، منها الكبير ، ومنها الصغير ، ثم بث فيها الحركة في اتجاهات مختلفة ، فجرَت وتصادمت ، فمنها ما تماسك ، وتجمّع كتلاً كبيرة ، ومنها ما تحوّل الى ذرّات وهباء ؛ ومن الكتل الكبيرة كان التراب ، ومن الذرات كان الهواء ، ومن الهباء كان الأثير ، ومن الأثير كانت النار والشمس والنجوم ... فما اجْمله خيالاً ...

ويزعم ان الحياة اصلها هو الدم ... ويصف كيف يصل الدم الى القلب ، فيسخن بحرارته ويتبخر ، ويرتفع الى الرئتين فيبرد ، ويرجع الى القلب ... فما احلاه تعليلاً للدورة الدموية ، وان كان لا يُرضي مُعَاصِرَه (وليمْ هارفي) الذي وُلد قبله بثمانية اعوام ، ومات بعده بسبعة ... ولعل ديكارت تشاءَم ممّا حلّ (بميشال سرفه) ، فلم يشأ ان يقول الحق

في هذه الدورة الدموية الدائمة ، التي هي من عجائب صنع الله ، ومن اولى الدلائل على وجوده وقدرته .

اما كيف يتم الاتصال بين العقل الروحاني والجسد المادي فان ديكارت يجد لهذا الاتصال وسيطاً في (الغدة الصنوبرية) ...

ولكن الرجل بعد ان يسبح في اجواء هذه الخيالات يعود الى صوابه ، ويرجع الى الحذر الذي اوصانا به عند فحص الافكار المباشرة والصناعية فيقول : (اننا لا نستطيع ان نعرف كيف يتم هذا الاتصال بين الروح والمادة ، فلم يبق لنا الا ان نعلله بانه آية من آيات الخلاق الحكيم القادر) .

ولا يقلّ باسكال ومالبرانش ، اشهر تلاميذ المدرسة الديكارتية ، ايماناً بالله عن استاذهم ، ولكن الثاني ذهب مع الخيال الى حدّ القول (بالجَبْر المحض) بل سبق معاصره لايبنز الى القول بالتناسق (السابق التّوطيد) .

حيران — ما هذا التناسق السابق التوطيد ؟

الشيخ — سيأتيك خبره وبيانه ، فاسمع الان ما يقول باسكال فانه لا يقل بياناً وبرهاناً عن ديكارت :

اما في المعرفة فيقول باسكال : ان الحواس تَخدع والعقل يخطىء ، ولكن بالقلب ، وحده ، نعرف الحق ... فبالقلب نعرف المبادىء الاولى ، ومعنى الزمان ، والمكان ، والحركة .

والعقل انما يؤسس ادراكه على هذه المعارف ، التي هي (قضايا اولية) ، لو اردنا البرهان عليها لوجب ان نفرض وجود قضايا اخرى سابقة ، ولو قلنا بذلك لذهب بنا الى التسلسل ، ولمّا امكن الوصول الى قضايا اولية ، فبالقلب ندرك هذه الحقائق ، وبالقلب ندرك وجود الله .

حيران — ماذا يعني بالقلب ؟

الشيخ — انه يعني تلك الافكار الفطرية المركوزة في عقولنا ، والتي نراها واضحة نيّرة لا تحتاج الى برهان . ولا فرق بين ان تكون في القلب ، او في الدماغ او في الروح ... ولكنّ كلمة القلب كانت تعبر في الماضي عن معنى الدماغ ، وهكذا اتخذها العرب .

حيران — اذنْ يرى باسكال ان الانسان قادر بعقله او بقلبه على ادراك كل حقائق الوجود ؟

الشيخ — كلا يا حيران ، ان باسكال احكم من ان يقول بذلك . انه يتلاقى مع الفارابي وابن سينا فيقول : ان العقل يستطيع ، بما لديه من الافكار الفطرية الاولية ، ان يدرك الحق فيما يتعلق بالمبادئ الاولى ، ويدرك منها وجود الله . وامّا ما وراء ذلك من اسرار الوجود والخلق والخالق ، المحجوبة عنا بحجب الغيب ، فيرى باسكال اننا اعجز من ان ندرك كنهها وحقيقتها ، لأن حواسنا لا تدرك غايات الاشياء : فالصوت ، اذا افرط في الشدة ، يُصمّ اسماعَنا ، والنور، اذا افرط ، يُعْشي ابصارَنا ، والقرب يمنعنا من الرؤية ، اذا افرط ، كما يمنعنا البعد ؛ فتكادُ غايات الاشياء تكون غير موجودة بالنسبة الينا .

ثم يتحدث عن ضآلة الانسان ، بالنسبة الى عالمنا ، وما وراءه من عوالم ، ويشير الى عجز العقل وارتباكه عند التفكير في غايات المكان والزمان ، ويصف الرُعب الذي يعتري الانسان ، اذا تصوّر نفسه محمولاً بين هاويتي اللانهاية والعدم ، وصفاً ساحراً ، ينتهي منه الى القول : فلنعلمْ اذاً قَدْرَنا فاننا بعض الشيء ولسنا كل شيء ، ومقامُ عقلنا في المعقولات ، كمقام جسمنا في الامتداد .

حيران — هذا قول كريم .

الشيخ — واكرم منه تلاقيه مع الفارابي وابن سينا حيث يقول : ان ادراكنا لوجود الله ، هو من الادراكات الأولية ، التي لا تحتاج الى جدل البراهين العقلية (فانه كان يمكن ان لا اكون ، لو كانتْ امّي ماتتْ قبل ان اولد حيّاً ، فلستُ ، اذاً ، كائناً (واجب الوجود) ، ولست دائماً أو (لا نهائياً) ، فلا بدّ من كائن واجب الوجود ، دائم لا نهائي ، يعتمد عليه وجودي ، وهو الله الذي ندرك وجوده ادراكاً اولياً ، بدون ان نتورّط في جدل البراهين العقلية ، ولكن على الذين لم يقدر لهم هذا الايمان القلبي ان يسموا للوصول اليه بعقولهم...)

وفي هذا يُلقي باسكال حكمته الاجتماعية البالغة ، التي هي اشبه بكلام العارفين حيث يقول : (هناك صنفان من الناس فقط يجوز ان نسميها عقلاء ، وهم الذين يخدمون الله جاهدين لأنهم يعرفونه ، والذين يجدّون في البحث عنه لأنهم لا يعرفونه) .

حيران — حقاً انه لقول كريم ، ولكن باسكال لم يخرج في استدلاله على الله ، عن (دليل الوجوب) ، وهو دليل عقلي مركب ، يقوم على الاوليات البديهية ، ويستخرج منها .

الشيخ — هذا صحيح . ولكن باسكال يرى دليل الوجوب هذا ، كأنه ، لسرعة قيامه في النفوس وشدة ظهوره ، من الاوليات العقلية . ثم ادرك ان هذه البداهة قد لا تتيسر لكل انسان ، فاشار باللجوء الى البرهنة العقلية للوصول اليها . اما الذي انكر هذه البرهنة ، واقتصر ، في الايمان بوجود الله ، على (الالهام) ، دون سواه ، فهو (مالبرانش) الذي وضع نظرية (الرؤية بالله) .

حيران — ما معنى هذا ؟ وهل يريد به ما قاله ديكارت من اننا نرى الله شاهداً على كل شيء ، ام يريد به اننا انما ندرك بالعقل الذي وهبنا الله اياه ؟

الشيخ — لا هذا ولا ذاك .

حيران — اذن هو رجل يتظاهر بالايمان ويريد ان يعطّله .

الشيخ — كلا كلا . انه من اخلص المؤمنين بوجود الله . ولكن عقل الرجل يقف كغيره عند عقدة لا يستطيع حلها الّا باخرى اكثر تعقيداً ، كما فعل افلاطون في (مُثُله) ، فان مالبرانش نظر فيما قال ديكارت عن الاتصال بين العقل الروحاني والجسد المادي ، فعجز عقله عن ادراك امكان هذا الاتصال ، فانتهى ، من هذا ، الى القول بان الافكار الالهية هي وحدها التي تتمتع بالوجود ، ونحن نرى هذه الافكار بالله ، فليس هنالك افكار فطرية مركوزة في عقولنا ، ولا افكار صنعيّة تكونها عقولنا ، ولا ادراكات حسية تتلقاها هذه العقول من الأشياء ، ولكنّ الموجود ، هو

الافكار الالـهية ، ونحن لا ندرك العالم الخارجي بذاته ، بل ندركه بالله الذي عنده علم الكـُل" .

هذه نظرية الرؤية بالله . وهي نظرية تَمُتُ الى المثـــل الافلاطونية باوثق صلة ، على ما ارى . وبمقتضاها لا يرى (ما لبرانش) لزوماً لاقامة البرهان على وجود الله ، لأننا نراه ونرى به كل شيء ؛ فلسنا نعرفه من طريـــق الافكار الفطرية والاوليات البديهية الموصلة الى اثبات وجوده بالبرهان ، بل نحن نعرفه بالرؤية ، والبداهة المباشرة ، فلا حاجة لاثبات وجوده بالأدلة والبراهين .

حيران – ما هو رأي مولاى في هذا الأيمان ؟

الشيخ – هذا يصح ان يكون من كلام الصوفية ، لا من كلام الفلاسفة والمتكلمين ، الذين لا يعتمدون الّا على النظر العقلي الخالص ، والبرهان العقلي القاطـع . وليس بمستحيل ان يُنـْعم الله ، على بعض عباده ، بهذه (المشاهدة) ، ولكنّ هذا يكون من باب الشذوذ . فالقاعدة ان الايمان يكون بالعقل الذي وهبنا الله اياه ، وبالبراهين العقلية التي أعطانا ، سبحانه ، القوة والقدرة على تركيب مقدماتها واستخراج نتائجهـا . ولولا ذلك لما دلنا ، في كتبه ، بلسان رسله ، على هذه البراهين .

ولو وقف (مالبرانش) عند هذا الايمان الصوفي لهان الأمر ، ولكنه ذهب الى مـــا وراء ذلك فانكر الاتصال بين الروح والجسد من اصله واساسه ، وانتهى به الكلام الى (جبرية) محضة حيث يقول : ان الفعل لله وحده ، فلا الأرواح تعمل ولا الأجسام تعمل ، ولكن هذا النظام الذي نشاهده ، ونظن انـه اتصال بين الروح والجسم ، ما هو الّا تناسق بين ميول الأرواح وحركات الأجسام . وكل ذلك من فعل الله وحده ، فهو يخلـق الميول والرغبات في الأرواح ، وهـو يحرك الأجسام وَفـْق ميول الأرواح ... وبكلمة واحـدة أنّ الله هو خالقنا وخالق افعالنا . وهذا منتهى الغلو في (الجَبْر) الذي لا يقلّ سخافةً وهذياناً عن (وحدة الوجود) التي يقول بها معاصره سپينوزا .

حيران – وما معنى وحدة الوجود ؟

الشيخ – القائلون بوحـــدة الوجود ، مِنَ الذين يتغلّب خيالهم على عقلهم ، فئتان : فئة تقول ان الله روح العالم والعالم جسده ؛ فالله عندهم هو الكلّ . وفئة تقول ان كل الاشياء التي في الطبيعة ليس لهـا حقيقة سوى وجود الله نفسه ؛ فالكلّ عندهم هو الله .

حيران – كيف يؤمن سپينوزا ، وهـــو المفكر الشهير بهذا الهذاء ، وكيف قال عنه مولاي الشيخ انه مؤمن بالله ؟

الشيخ – قلت لك انـــه يؤمن بالله ولا يدري كيف يصفهُ ، وعنيتُ بذلك انه غير منكر لوجود الله بالمرّة ليُعدّ من الطبيعيين القائلين بتكوّن العالم بالمصادفة . وهو ، على كل حال ، لم يبلغ به الهذيان الى حدّ ان يقول ان العالم هو جسد الله ، ولكنه قال ان الله هو الموجود وحـده ، والعالم اعراض صفاته .

حيران – لماذا يُتعب مولاي نفسه بذكر هذا المذهب وردّه ؟

الشيخ – حقاً أنه مذهب سخيف لم يقل به احد من عظماء الفلاسفة الذين حدثتك او سأحدثك عنهم . ولكنْ ألاَ تذكر ، يا حيران ، قولَ الغزالي (انّ ردّ المذهب ، قبل فهمه والاطلاع على كنهه ، ردٌّ في عمايه) .

حيران – بلى .

الشيخ – اني ألخص لك كلام سپينوزا في وحدة الوجود كي لا أدَعَك في العماية عن مذهب رجل أعلمُ ان شهرته العظمى قد تستهويك ، ولا بدّ ، اذا لم تعلم سببها ، ان تغويك ...

حيران – ما هو سبب هذه الشهرة يا مولاي ؟

الشيخ – سببها ما لآرائـــه في المعرفة والاخلاق من سمو تتلاشى في جانبه سخافته الميتافيزيقية . وسأبدأ بذكر بعض آرائه في المعرفة ، لترى ما فيها من حقّ ، ولترى كيف يتناقض الرجل ، بعد ذلك ، مع نفسه عندما يبحث قضية الوجود .

ان سپينوزا لا يجعل للتجربة ذلك المقام الأول الاعظم الذي قال به

باكونْ ، ولا يعتمد ، كل الاعتماد ، على البرهان الصاعد الذي يترقّى فيه العقل من الجزئيات الى الكليات ؛ بل يعتمد على البرهان الذي ينزل فيه العقل ، في الاستدلال ، من العام الى الخاص ومن الكليات الى الجزئيات ؛ ويثق ، اكثر ما يثق ، بالأوليات والبديهيات . ولكنه ينهج نهج باكون ، فيوصينا بتنقية العقل ، قبل البحث ، من اوهامه ، لنعلمَ ، من معارفنا ، ما هو قويّ يؤدّي الى (اليقين) ، وما هو سخيف لا يوثق به ؛ ويوصينا بالحذر ، الذي اوصانا به شيخه ديكارت . ثم يقسم هذه المعارف ، مِثْله ، الى انواع : منها نوع ضعيف يأتينا من طريق (الاشاعة) ، او من طريق (التجربة الغامضة) ، وهذا لا يجوز الاعتماد عليه والوثوق بـه . ومنها نوع يأتينا من طريق (الاستدلال والاستنتاج) ، وهـو اقوى من النوع الأول ، ولكنه محتمل التعديل والتبديل . اما النوع الثالث فهو ما ندركه من طريق (البداهة) كادراكنا (ان الكلّ اعظم من الجزء) وهذا ارقى انواع المعرفة واسماها وابعثها على اليقين .

حيران — هـذه اسس صحيحة لا ريب فيها . فكيف بَنَى الرجل عليها رأيه في وحدة الوجود ؟ واين هي البداهة التي توحي الينا ان الله والعالم (المتغيرَ) شيء واحد ؟

الشيخ — ان سپينوزا ينطلق من نفس الأستدلال العقلي بدليل (الحدوث) ودليل (الوجوب) فيقول : ان كل مـا هو موجود ، وما يمكن ان يُدْرَك انه موجود ، ينحصر ، في حكم العقل ، بين ثلاثة اقسام . جوهر قائم بذاتـه (Substance) وصفات او خواص (Attributs) واعراض (Modes)

فالجوهر ، عنده ، ما هو كائن بذاته ، وقائم بذاته ، وواجب وجوده بذاته ، وهو الله الأزلي الابديّ السرمديّ الواحد الأحـد . اما الصفات او الخواص فهي مـا يدرك العقلُ انه في الجوهر كقوام لذاته . واما الاعراض فيريد بها سپينوزا اعراضَ ذلك الجوهر ، التي تبدو لنا بشكل أشياء لنراها ، وندرك بها ذلك الجوهر الواجب الوجود .

حيران — ليس في هذا التقسيم هذاء ولا سخف ، بـل هو الحق كله

والأيمان كله . لأن الرجل يعترف بوجود الله الواجب الوجود ، ويعترف له بصفات الكمال المتوجبة له عقلاً ، ويعترف بان الله اراد ان يتجلّى بصفات كماله من طريق هذا العالم . ومن تجلّيه بصفة (الخلّاق) كان هذا العالم ، ومن تجلّيه بصفة القدرة والحكمة كان ما في العالم من نظام واتقان واحكام ، ومن ارادته ان يُدرَك هذا التجلّي خلق الانسان ووهبه هذا العقل ليستطيع به ادراك وجوده وصفاته فيعبُده حقّ عبادته . وهذا معنى الأثر المشهور (كنتُ كنزاً مخفياً فخلقتُ الخلْق ليعرفوني) .

الشيخ – كل هذا صحيح . وقد يكون سپينوزا اراد هذا المعنى بذاته في اول مراحل تفكيره السليم المتّزن ، ولكنه ، ويا للعجب ، يخرج عن هذا الاتّزان حين يقول : ان الله لا يخلق شيئاً ، ولكن من طبيعته ان يتجلّى تجلّياً (ضرورياً) ، ومن تجلّيه يكون العالم الذي هو اعراض صفاته .

حيران – لم افهم . هل ينكر سپينوزا من صفات الله صفة (الخلّاق) بعد ان اعترف له بصفات الكمال .

الشيخ – ان سپينوزا يقول ان العقل يحكم ، ضرورةً ، بوجود الجوهر ايْ الله ، ويحكم ، ضرورةً ، بأنّ له خواصاً وصفات ، ولكننا لا نشاهد من هذه الصفات الّا صفتين تتجليان لنا في (الأعراض) أي في الأشياء التي يتألف منها العالم ، وهي صفة (الفكر) (la pensée) وصفة (الامتّداد) (l'étendue) . والعالم ، بما فيه من اشياء ، هو اعراض تجلي هاتين الصفتين . والانسان ، وحده ، هو الذي يجتمع فيه عرَض الامتداد الى عرَض الفكر .

حيران – ولكن البداهة التي اعتبرها سپينوزا اسمى انواع المعرفة وابعثها على اليقين ، والتي حكمتْ عليه بان يؤمن بوجود الجوهر (الله) ، وبأنّ له خواصاً وصفات، هذه البداهة نفسها تقضي بأن يكون لله صفة القدرة والارادة ، وبها يكون الخلق . واذا كنا لا نشاهد ، باعيننا ، الّا عرَض الامتداد في الاجسام ، وعرَض الفكر في النفوس ، فاننا ، بعقولنا ، نرى ان هذين العرَضين هما من اثر القدرة والارادة ، كما نرى

ان النظام والأتقان من اثر الحكمة . فكيف تخلّى سپينوزا عن منطقه السليم ليقول ان الله نفسه له خاصية الامتداد ، بدلاً من ان يقول ان له صفة القدرة التي يخلق بها الامتداد والفكر ؟

الشيخ – قلت لك ، مِن قبلُ ، ان هؤلاء المفكرين يقفون ، في مسالك التفكير الخَطرة ، امام عُقَد يرتبك العقل في تصورها ، ويعجز عن حلها . فمن كُتبتْ له الهداية ترك العقدة وانحرف عنها الى الادلة العقلية الضرورية البديهية فاحتكم اليها ، وخرج ، من هذا الاحتكام ، الى نور الحق . اما الذين لم تكتب لهم الهداية فيقفون امام العقدة لا يحيدون عنها ، ويُصوّر لهم الوهم انها ضرورة عقلية لا سبيل الى تركها ، وهي لا تكون من الضرورات العقلية أبداً ، بل من عمل الوهم الذي اشار اليه الغزالي من قبل وعمانوئيل كنط من بعد .

والذي اظنه ان سپينوزا وقف به الفكر بين نظْرتين : احداهما تستند الى اوليات عقلية ضرورية . والثانية تنطوي على وهم عقلي : ذلك انه رأى عالم الأشياء متغيراً فحكم بأنه حادث ، وحكم بأن كل حادث لا بد له من محدث ، وحكم بأن التسلسل الى غير نهاية مستحيل عقلاً ، فلا بدّ ان تقف المحدثات عند قديم كائن بذاته ، قائم بذاته ، وهو مستَنَد وجودها وعلة حدوثها .

ثم كَلّ عقله عن تصور الخلق من العدم ، كما كلّت عقول كثيرة ، من باب الوهم الذي يأتينا من قياس التمثيل ، فحسب ان الخلق من العدم مستحيل ، وهو ليس بمستحيل (عقلاً) وان كنا نراه مستحيلاً في (العادة) ، ولم يهتد الى الانحراف عن هذه العقدة الوهمية ، كما انحرف غيره من العباقرة السابقين ، واللاحقين الذين سأحدثك عنهم ، ولم يجد سبيلاً للخروج من هذا الاشكال الّا بأن يقول ان الموجود حقاً هو الله وحده وما العالم الّا (اعراض) لتجلّى صفاته بالضرورة ، فجعل الله والعالم شيئاً واحداً .

وكأنه ادرك تفاهة ما في هذا الخلط بين الجوهر (الله) الذي يصفه ، هو نفسه ، بانه الواحد الأحد ، الواجب الوجود ، الازلي ، اللانهائي ، القائم

بذاته ، وبين العالم المادّي ، المتعدّد ، الممكن ، المحدود ، المتغير المتبدل ، فقال كالمعتذر عن نفسه : ان الفرق بين الله والعالم يأتي من اختلاف وجهات النظر ...

وهكذا اراد هذا العبقري ، الذي بدأ النظر مستمسكاً بعقله ، وحذّرنا من الاوهام ، واوضح لنا كيف يجب ان نستند في الاستدلال على البديهيات دون سواها ، ان يجرّنا ، من وجهة نظره العجيبة ، الى القول بوحدة الوجود بين الله وعالم الأشياء ، والى ان نُرغم عقولنا التي تدرك ، بقوة البداهة ، وجه التناقض بين الاحديّة والتعدد ، والازليّة والتناهي ، والوجوب والامكان ، والقدرة والعجز ، والخير والشر ، والعلم والجهل ، على ان تعقل ان الله تعالى يجمع ، في كال ذاته وصفاته وتمام أحديته ، بين كل هذه المتناقضات ، فيكون واحداً متعدداً ، وازلياً متناهياً ، وواجباً ممكناً ، وصغيراً كبيراً ، وعاجزاً قديراً ، وخيّراً شريراً ، وجاهلاً عليماً ، وجانياً اثيماً ، ونبياً كريماً ، وشيطاناً رجيماً ...

تلاقي العباقرة
٢

يقول حيران بن الاضعف : قضيت ليلتي ، بعد ان فارقت الشيخ ، مكتئباً قلقاً ، ولما اقترب الفجر ، اخذتني سنة من النوم ، فرأيت ابي ، في بيتنا ، وهو يقرأ القرآن ، ولم اسمع من التلاوة الّا قوله تعالى : (ومِنَ الناس من يُجادل في الله) ، ثم التفت اليّ عندما اتمّ القراءة ، مبتسماً وقال لي : يا حيران . ألا تقرأ القرآن ؟ ، وقبل ان اجيبه فتحتُ عينيّ ، واعتراني كرب عظيم من هذه الرؤيا ، وفهمت منها ان ابي غير راضٍ عني ، فقضيت نهاري كله منقبضاً حزيناً .

ولما حان موعدنا مع الشيخ ، دخلت عليه ، فوجدته يتلو القرآن ، فاخذني العجب من هذا الاتفاق ، بين ما رأيته في المنام وما أراه في اليقظة ، ولما احسّ بدخولي ، ختم التلاوة ، والتفت اليّ ، فرآني منقبضاً شارد الفكر ، فقال ما بك يا حيران ...

حيران – ليس الّا الخير .

الشيخ – ولكني اراك منقبضاً .

حيران – لقد رأيت ابي في المنام .

الشيخ – هذا خير ، فأيّ داع للانقباض ؟

حيران – لقد رأيته يقرأ القرآن ، ولم اسمع من تلاوته الّا قوله تعالى : (ومِنَ الناس من يُجادل في الله ...) ، ثم التفت مبتسماً ، وقال لي : يا حيران . ألا تقرأ القرآن ؟ وقبل ان اجيبه فتحتُ عيني . فاعتراني من هذه الرؤيا كرب عظيم ، وفهمت منها ان ابي غير راضٍ عني ، لأني اشتغل بالفلسفة ، ولا اقرأ القرآن .

الشيخ – هل نمت ، ليلة امس ، وانت تفكر فيما قاله سبينوزا ؟

حيران — اي والله . لقد كنت قلقاً مكتئباً .

الشيخ — لماذا ؟ هل رأيت في كلامه عن وحدة الوجود شيئاً معقولاً ؟

حيران — لا والله ، ولكني فارقت مولاي الشيخ ، وانا متعجب من ان تتردّى هذه العقول الكبيرة في مهاوي الضلالة ، ووسوس اليّ شيطان النفس ، ان هذا الرجل اكبر مني عقلاً ، واسلم تفكيراً ، واكثر علماً ، فكيف لا يُدرِك الحجج التي ذكرها الشيخ .

الشيخ — اذاً ، داخلك الريب في ان يكون شيخك الموزون مصيباً في حُججه .

حيران — استغفر الله . وكيف يكون ذلك وانا كنت اشارك مولاي الشيخ في نقد كلام الرجل .

الشيخ — قد تكون مرتاباً في صحة نظرك ، وفي صحة نظر شيخك ، امام ما يستولي على نفسك من الاجلال لهذا الفيلسوف الشهير . ولكنْ ما قولُك اذا حدثتُك عن فلاسفة آخرين معاصرين لسپينوزا ، واعظم منه شهرة ، ورأيت انهم ، جميعاً ، متفقون على الأيمان بوجود الله الخلاق العظيم ، من طريق البراهين العقلية القاطعة ؟

اني اعلم يا حيران ان اجلالك ، انت وكل من في سنّك من الناشئة ، لأحدِ هؤلاء الفلاسفة المشهورين ، لا ينفع فيه وثوقك بي ، ولا وثوقك بالفلاسفة من رجال الدّين ، ولا وثوقك بنفسك وعقلك ، وانما ينفع فيه اجلال مماثل لفيلسوف آخر ، يساوي الاول في المكانة والشهرة . فما قولُك اذا حدثتك عن ثلاثة متعاقبين ، كلٌّ واحدٍ منهم اعظم من سپينوزا مقاماً ، واوسع شهرة ، واصدق حديثاً ، واقطع حجة ، واوضح بياناً ، وكلّهم يؤمنون بالله ، كما يؤمن شيخك هذا العبد الفقير ، وكما يؤمن الغزالي ، وغيره من الفلاسفة وعلماء الكلام .

حيران — ذلك ما كنت ابغي ، فلا ريب في ان مولاي الشيخ ينظر بنور الله .

الشيخ — اما رؤياك يا حيران فانها حق . انّ في القرآن آيتين تبدآن

بقوله تعالى : (ومِنَ الناس مَنْ يُجادِلُ في اللهِ بغير علم) ، احداهما في قوله تعالى في سورة لقمان (ومِنَ النّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدَى ولا كِتَابٍ مُنِير) والثانية في سورة الحجّ (ومِنَ النّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ويَتّبِعُ كُلّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أنّهُ مَنْ تَوَلّاهُ فَأنّهُ يُضِلّهُ وَيَهْدِيهِ الى عَذَابِ السّعِير) . والرؤيا التي رأيتها ، انما تشير لك الى ان سپينوزا وامثاله ، هم من هؤلاء الذين يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ويتّبعون شيطان النفس الامّارة بالسوء . ومـا سؤال ابيك لك عن قراءة القرآن ، الّا حثّ على تطلب هذه الآيات ، المنطوية على الحجج الساطعة والبراهين القاطعة الدالة على الله ، من كافة طرق الاستدلال ، التي اهتدى اليها من اراد الله لهم الهدى من الفلاسفة والمتكلمين .

حيران — فرّج الله عنك يا مولاي كل ضيق وكرب ، كما فرّجت كَرْبي ، ولكن لماذا لا يبسط لي الشيخ هذه الآيات الدالة على الله ؟

الشيخ — سأبسطها لك اذا جاءَ دورها في الترتيب الذهني الذي وضعته لك ، فاصبر .

حيران — ومن هم الفلاسفة الثلاثة العظماء الذين يريد الشيخ ان يحدثني عنهم .

الشيخ — اولهم (لُوكْ)، والثاني (لايْبنزْ)، والثالث (عمانوئيل كانْط)

حيران — حقاً انني طالما سمعت بهؤلاء على لسان طـلاب الفلسفة . وماذا يقول (لوكْ) ؟

الشيخ — في الوقت الذي كان فيه سپينوزا الهولاندي اليهودي غارقاً في وحـدة الوجود بميتافيزيقيته المتناقضة ، كان (لوكْ) ، الذي وُلد وسپينوزا في سنة واحـدة ، يقف على الضفة الثانية من المانش متأبطاً دراسته في الادراك الانساني(Essai sur l'entendement humain) مستمسكاً بمنطقه العقلي السليم ، مبتعداً عن الخيالات والأوهام ، معترفاً بوجود الله ، مقراً بعجز العقل عن ادراك ما لم يخلقْ لأدراكه من اسرار الغيب .

اما في المعرفة فان (لوكْ) ينكر ، في باديء الرأي ، الافكار الفطرية

ويقول ان الافكار كلها على اختلاف انواعها تأتينا من (التجربة) . ولكن بعض القضايا تبدو لنا بديهية لأن العقل لا يكاد ينظر فيها حتى يدركها ، فنحسبها افكاراً فطرية . ولو نظرنا الى المتوحشين والأطفال لرأينا انهم لا يعرفون هذه البداهة . وهذا ما يدلنا على ان عقولنا خلقت خالية من كل فكرة كلوحة جرداء (Table rase) ولكننا نُكوّن افكارنا ومعارفنا من التجربة في الحياة . وهذه التجربة تكون خارجية بالأحساس ثم تكون باطنية بالتفكير والتأمل : فالحواس توصل للعقل مجموعة من الأحاسيس ، فيقوم العقل بحفظها وجمعها ومقارنتها ، وادراك العلاقات بينها . ومن هذا التأمل الباطني ينتهي العقل الى ادراك الأوليات البديهيات التي نحسبها افكاراً فطرية وما هي في الحقيقة الّا افكار يكوّنها العقل من التجربة .

حيران – اذا كان لوكْ ينكر الافكار الفطرية ، وهي الاوليات المركوزة في عقولنا ، فكيف ، اذاً ، نستطيع ان نعرف الحق ، وما هو الاساس الذي نبني عليه الحكم بصحة فكرة مّا ، او عدم صحتها ؟

الشيخ – هذا السؤال ، عندي ، غير جوهري . لأنه ، من حيث النتيجة ، لا فرق بين ان تكون هذه الأوليات فطريةّ مركوزة فينا ، وبين ان تكون من صنع عقولنا ، فالمهمّ اننا ، نحن البشر ، متفقون على ان في عقولنا أوليات بديهية نتخذها اساساً للبحث والتأمل والمناقشة في صحة الفكرة او عدمها ، ومتفقون على صِدْق هذه الأوليات البديهية .

على ان لوك عاد واعترف ، ضمناً ، بالافكار الفطرية وسماها (افكاراً تمثيلية) (Idées représentatives) حيث قال : ان في عقولنا نماذج لحقائق الاشياء ، وهذه النماذج هي التي تقاس عليها الفكرة ، فيُعرف خطؤها من صوابها ، وبقدر ما يكون التطابق تاماً واضحاً ، بين فكرتنا عن الشيء ، وبين النموذج القائم في عقولنا عن هذا الشيء ، تكون معرفتنا اقرب الى الصحة . ويخلص لوك من هذا الى تقسيم المعارف الى ثلاثة اقسام : معرفة (بديهية) وهي تتم بادراك العقل بداهة (اي من غير برهنة) ما بين الفكرة والنموذج من المطابقة . ومعرفة (برهانية) وهي تتم بعد البرهنة

على وجود مطابقة بين الفكرة والنموذج ، ومعرفة (غامضة) لا برهان عليها وهي معرفتنا بالعالم المادي . فنحن نعرف هذه الأشياء التي نحسها ، ولكن معرفتنا ليست من النوع البديهي ، ولا من النوع البرهاني ، لأننا لا نستطيع ان نقيم البرهان على صحة معرفتنا بحقيقة هذا الشيء المادي الذي نراه ؛ وما ندركه من هذا الشيء المادي الذي له وجود حقيقي في الخارج ، ليس هو حقيقة الشيء بذاته ، بل نحن ندرك مظاهره ، ولا نعرف كنهه وحقيقته ، ولذلك كانت معرفتنا بالعالم المادي معرفة غامضة .

حيران — أيريد لوك ان ينكر امكان معرفة الحقيقة كما فعل السوفسطائيون والشكّاك ؟

الشيخ — اراك لا تنتبه لكل كلمة ممّا اقوله وتكتبه انت بيدك . ان الرجل يقول : هنالك بديهيات ندركها مباشرة بلا اقل برهنة ، كقولنا الكل اكبر من الجزء ، وأنّ طرفَيْ النقيض يكون احدهما صدقاً والآخر كذباً ؛ وهنالك معارف ندركها من طريق البرهنة ، مثل القضايا الرياضية ، ونصل بها الى الحقيقة كل الحقيقة . اما معرفتنا بالأشياء المادّية فليست بديهية ، ولا يمكن اقامة البرهان عليها ، كما نقيمه على قضية رياضية ، بل هي معرفة سطحية غامضة . فهو لا يقول ان معرفتنا بالعالم المادي وهمية لا أثر لها من الصحة ، بل يريد ان هذا النوع من المعرفة غامض لا يبلغ حدّ المعرفة البديهية او البرهانية ، ولكنه مرجّح الصحة ، بدليل اتفاق العقول البشرية السليمة كلها على ادراكِ صور حسية واحدة ، ووصفِ الاشياء بصفات واحدة ، فلا يبقى عندنا ريب في ان الصور الذهنية تطابق الشيء في الخارج ، ولكن البرهنة على ذلك غير ممكنة ، فتكون معرفتنا لكنه الشيء المادي ، في ذاته ، غير ممكنة (باليقين) الذي نعرف به القضايا البديهية ، وما يرتكز عليها من القضايا البرهانية .

حيران — وفكرتنا عن وجود الله وعن الأمور الغيبية من اي قسم من اقسام المعرفة يعتبرها لوكْ ؟

الشيخ – هنا يتجلّى لـك ، في لوكْ ، سموّ التفكير واتّزانه عندما يفرّق بين ادراكنا لوجود الله ، وادراكنا لأمور الغيب .

انه يقول : نحن من قضية وجود الله على تمـام اليقين الذي نصل اليه اذا تأملنا في انفسنا ، وبما لنا من حواس وذكاء وعقل ، فادركنا بالبداهة ان هـذا الانسان لا يمكن ان ينشأ من العدم . فمعرفتنا بوجود الله هي معرفة (برهانية) تقوم وترتكز على اساس المعرفة (البديهية) لأن وجودنا نحن ، الذي هو داخل في قسم المعرفة البديهية ، كما قال ديكارت ، يدل على وجود الله ؛ كما ان ما فينا وفي العالم من ابداع ونظام واتقان واحكام يفتقر الى وجود خالق ازلي قادر عليم حكيم .

اما الأمور الغيبية الاخرى ، كالبحث في كنه هذا الخالق ، وكنه الروح ، وحقائق الأشياء في ذاتها ، فان لوكْ يجيب عنها ، بحكمة يجدرُ بكَ ان تحفظها مع مـا تحفظ من حِكَم العلماء الحكماء حيث يقول : (لو بحث الناس عن قواهم العقلية بحثاً جيداً ، وكشفوا عن الأفق الذي يفصل بين الاجزاء المضيئـة والاجزاء المظلمة وميزوا بين مـا يمكن فهمه ومـا لا يمكن ، لاطمئنّوا الى جهلهم في الجانب المظلم ، ورضوا به ، ولاستخدموا افـكارهم وابحاثهم في الجانب الآخر استخداماً انفع وابعث على الاطمئنان) .

حيران – مولاي الشيخ ! انني اعرفُ في بلادي حكمةً هندية بمثل هذا المعنى واللفظ .

الشيخ – حقاً انها تتفق مع كلام لوكْ لفظاً ومعنى . لقـد ذكرها (البَيْروني) في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة) وهي الحكمة القائلة : (يكفينا معرفة الموضع الذي يبلغه الشعاع . ولا نحتاج الى ما لا يبلغه ، وان عظُم في ذاته . فما لا يبلغه الشعاع لا يدركه الاحساس ، وما لا يحس به فليس بمعلوم) .

وهكذا تتلاقى يا حيران اشهر العقول السليمة وتتفق على الحق ، بلا خلاف ، مـا دامت في نطاق ما يبلغه الشعاع ، فاذا تجاوزتْه تعثّرتْ

وكَبَتْ كما تعثّر وكبا سبينوزا ...

حيران — زدني يا مولاي زدني ، وحدثني عن لايبنزْ وكانْطْ .

الشيخ — سأزيدك حتى ترضى ، ولكن الوقت لا يتسع الليلة للحديث عن كانْط ، وسأحدثك عن لايبنزْ وحده .

حيران — وهل يجاري لايبنز صاحبه لوك في آرائه السامية هذه ؟

الشيخ — انه يجاريه في شيء ، ويعارضه في شيء ، ويسمو عليه في ناحية ، ويقصّر عنه في اخرى .

حيران — كيف هذا ؟

الشيخ — انه يجاريه في ايمانه ، ويسمو عليه في عمق برهانه ، ويعارضه في (اللوحة الجرداء) ، ولكنه عندما يخالف حكمته فيتجاوز حدود ما يبلغه الشعاع ، يتعثر ويكبو ؛ فلقد كان هذا العبقري الالماني كبيراً في علمه ، عميقاً في تفكيره ، ولاسيما حين يبحث في فلسفة المعرفة والوجود والخلق والخالق ، ولكنه تعثّر حين حاول ان ينفذ في الوصف الى حقيقة الجانب المادي والجانب الروحاني ، ويفسر ما نظنه اتصالاً بين الروح والمادة .

لقد كان لايبنزْ يعتنق في اول امره رأي ديكارت في الافكار الفطرية ، ويعارض لوك في قوله ان عقولنا تكون في الأصل (لوحة جرداء) ، ولا تأتيها المعارف والأوليات العقلية الّا من التجربة . ولكنه في (اختباراته الجديدة للعقل البشري Nouveaux Essais sur l'entendement humain) يأتي برأي وسط يوفق فيه بين ديكارت ولوك توفيقاً رائعاً حيث يقول : انه لا يمكننا ابداً ان نفسر المعرفة حينما نسندها الى التجربة وحدها ، فالتجربة ليست كل شيء في المعرفة كما زعم لوكْ ، ولكن يوجد فينا حقائق ضرورية كلية (Vérités nécessaires et universelles) اسمى من التجربة ولكن تكشفها التجربة . اي ان هذه الحقائق الأولية الضرورية موجودة في عقولنا بالفطرة وبالقوة ، ولكن لا نستطيع اكتشافها الا بواسطة التجربة ، فلولا التجربة لم تتكشف لنا ، ولكن التجربة ليست هي التي تكونها . وعن هذا المعنى العميق الذي اخذ به كانط بعد ذلك ،

يعبّر لايبنز بقوله المشهور : (ليس في العقل شيء لا يأتينا من الحواس الا ان يكون العقل نفسه Il n'y a rien dans l'intelligence qui ne vienne des Sens, si ce n'est l'intelligence elle-même)

وبعد ان اكّد لايبنز وجود الافكار الفطرية اي المباديء العقلية الضرورية ، تسامى في الاستدلال ليتوصل الى حل قضية الايجاد والموجود والموجِد على اساس هذه المباديء العقلية الضرورية ، فاثبت وجود الله واتصافه سبحانه بصفات الكمال ، واثبت ان العالم مِن خلْق الله ، واثبت امكان الخلق من العدم .

حيران — كيف تَوصّل الى حل هذه العقدة التي وقفت عندها عقول كثير من الفحول ؟

الشيخ — انه توصّل الى حلّها بنفس الاستدلال الذي قال به الفارابي وابن سينا وديكارتْ ولوكْ ، ولكنه كان رائعاً في بيانه ، عظيماً في ايمانه . فساق الاستدلال سوقاً عقلياً بديعاً قوياً صارماً واضحاً لا يجد الانسان محيصاً عن التسليم به ، ما دام مستمسكاً بعقله . فاسمع يا حيران ما يقول .

حيران — كلّي اذان يا مولاي .

الشيخ — يقول لايبنزْ : ان كلّ حقيقة عقلية يقرّرها العقلُ ، اثباتاً او نفياً ، لا بدّ له ان يعتمد ، في اثباتها او نفيها ، على مبدأين عقليين ضروريين ؛ وهما (مبدأ التناقض le principe de contradiction) ، ومبدأ (العلّة الكافية le principe de raison suffisante) . وايضاح ذلك : ان كل ما نتصوّره لا بدّ ان يكون إمّا ممكناً او مستحيلاً او واجباً . وكلُّ شيء يوجب تصوُّر وقوعه تناقضاً عقلياً فهو (مستحيل) . وكل شيء لا يوجب تصوّر وقوعه تناقضاً عقلياً فهو (ممكن) . وكل شيء يوجب تصوّر عدم وجوده تناقضاً عقلياً فهو (واجب) ...

كذلك ، كل واقع نشاهده ، لا بدّ ، على اساس قانون العلّية الضروري ، ان تكون له (علّة) سببتْ وقوعه ، ولا بد ان تكون هذه العلّةُ (كافيةً) لوقوعه . والقولُ بعدم وجود (علّة كافية) لوقوعه ، يوجب تناقضاً عقلياً .

وعلى اساس هذين المبدأين : (مبدأ التناقض ومبدأ العلّة الكافية) ، يمكننا معرفة (الممكن) ، ويمكننا تعليل (الواقع) . فلكي نحكم بامكان حصول شيء ، يكفينا ان نتسائل ، (على اساس مبدأ التناقض) : هل يستلزم تصوّر حصوله ووقوعه تناقضاً عقلياً ام لا . فان استلزم تصور وقوعه تناقضاً عقلياً ، حكمنا بأنه مستحيل . وان لم يستلزم تصور وقوعه تناقضاً عقلياً حكمنا بأنه (ممكن) ، ولو كان العقل يستبعده ، او يكلّ ويعجز عن تصوّره . كذلك لكي نحكم بتوجب وجود شيء ، نتساءل : هل يوجب تصوّر عدم وجوده تناقضاً عقلياً ام لا . فان اوجب عَدَمُ تصوّر وجوده تناقضاً عقلياً ، حكمنا بانه (واجب الوجود) ، والّا فلا . وبعد هذا ننتقل الى (الواقع) المشاهد فنرى ، على اساس مبدأ العلّة الكافية ، انه لا بدّ لهذا الواقع من علّة لوقوعه ، ولا بدّ ان تكون هذه العلة (كافية) لوقوعه ، فوجود (العلة الكافية) ، اذنْ ، امر واجب عقلاً ، وانكار هذه (العلة الكافية) يوجب لنا تناقضاً عقلياً ، لأنها من نوع (الواجب) .

وعلى هذا الاساس العقلي المتين بَنَى لايبنزْ آرائه في الوجود ، والايجاد من العدم ، والموجِد ، فآمن بالله ، وآمن بخلق العالم من العدم ، وآمن بأن خالق هذا العالم الكامل هو الله المتصف بكل صفات الكمال .

ذلك انه ، بعد ان برهن على ان فكرة وجود الله هي (ممكنة) ، لانها لا توجب اي تناقض عقلي ، وبرهن على ان الخلق من العدم (ممكن) ، لأن تصوره لا يوجب اي تناقض عقلي ، وان كان العقل يكلّ عن تصوره ، انتقل الى هذا العالم (الواقع) ؛ فقال انه واقع مشاهَد ، موجود ، وليس هو الذي أوجد نفسه ، لأن القول بأنه أوجد نفسه يوجب (تناقضاً عقلياً) وطالما انه (واقع) فلا بدّ له من (علة كافية) لوجوده ، لانه بدون علة كافية لا يكون موجوداً ، والحال انه واقع وموجود ، ولا مجال لانكار وجوده . وما دام موجوداً وفيه هذا النظام والاحكام ، الى حدّ الكمال ، فلا بد ان تكون (العلّة الكافية) لوجوده لها منتهى القدرة والحكمة

وكل صفات الكمال . وهـذه العلة الكافية هي الله ، (الواجب الوجود) الذي يوجب انكارُ وجوده تناقضاً عقلياً .

حيران — هذا كلام عظيم لم اسمع بما هو اقوى منه دليلا واقطع برهاناً .

الشيخ — الّا في القرآن يا حيران . الّا في القرآن الذي حضّك ابوك على ان تقرأه .

حيران — اني لمؤمن بأن كلام الله تعالى ابلغ حجة واصدق دليلاً ، ولكني لا ادرك اسرار هذه البلاغة في هذا الباب الذي نحن فيه ، وان كنت ادرك بعضها في باب اللغة ، فلماذا لا يكشف لي مولاي عن هذه الاسرار.

الشيخ — اكثر العلماء انما يبحثون عن بلاغة القرآن من ناحية اللغة ، ولكن بلاغة القرآن العظمى ، وبيانه الساحر، واعجازه الباهر القاهر، هي في هذا الباب (باب البرهان على وجود الله وصفات كماله ، وخلـْق العالم ، والردّ على المنكرين الملحدين) اظهرُ واكبرُ واعظمُ واوفـَر . اما الكشف لك عنها ، يا حيران ، فقد وعدتك به ، وسيأتيك بيانه ، اذا آن اوانه .

حيران — اذا كان هذا هو رأي لايبنزْ في وجود الله وكماله ، وخلقه ، فاين هو التعثـّر في كلامه ؟

الشيخ — انه تعثر فقط حينما اراد ان يعلل ما حارت فيه العقول من الاتصال بين الروح والجسم ؛ فاخترع لنا تفسيراً يشْبه ، الى حد بعيد ، رأي مالبرنش في التوافق والتناسق ؛ ولكنه فصّله تفصيلاً ، بدأ به ضمن حدود الامكان العقلي ، وانتهى به الى (جبريّة) لا تتلائم مع حكمة الله وكماله ، كما انتهى صاحبه من قبْل .

فقد قال ان العالم ، بما فيه من اجسام وارواح ، يتكون من (ذرات روحية) . وكل ذرة مستقلة عن الاخرى ، تسير بمقتضى قوانين لها ، بدون ان تتصل بسواها . وكل ذرة فيهـا جانب مادي (منفعل) وجانب روحاني (فاعل) .

حيران — ولكن كيف تتفاعل هذه الذرّات اذا كانت لا تتصل ؟

الشيخ — انّ لايبنزْ ، للجواب عن ذلك ، يخترع لنا نظرية (التناسق

السابق التوطيد) (l'harmonie préétablie) فيقول ان الذرات تسير بارادة الله ، وتعمل بقدرته ، بصورة يظهر منها انها تتصل ببعضها ، وهي في الحقيقة لا تتصل ، ولكن قدرة الله تجعل كل ذرة تسير سيراً يوافق سير الذرات الاخرى .

وهكذا شأن العقل والجسد ؛ فللعقل نظامه الخاص ، وللجسد نظامه ؛ ولكنهما ، بارادة الله ، يسيران مستقلين ، بتوافق وتناسق (موطّد سابقاً) ، بحيث يستحيل ان يتخلّف عمل احدهما عن عمل الآخر . فكل خلجة عقلية يقابلها حركة في الجسد ، كأن بينهما علاقةً واتصالاً ، وهما في الحقيقة غير متصلين ولا متفاعلين ، ولكن هذا الذي يظهر لنا من التوافق هو اثر (التناسق السابق التوطيد) الذي وضعه الله فيهما .

حيران — ليست هذه النظرية مستحيلة بل هي ممكنة على اساس المبدأ الذي وضعه لايبنز بشأن (الممكن) ، لأن تصورها لا يوجب تناقضاً عقلياً ؛ ولكني اسأل ، على اساس مبدأه نفسه ، هل من تناقض عقلي في تصور اتصال خفي بين الروح والجسد ؟ واذا لم يكن تصور هذا الاتصال مما يوجب تناقضاً عقلياً ، وكان (ممكناً) ، وهو اقرب في الظاهر ، واحكم نتيجة ، واحسن مصيراً ، فما الذي دعاه ، وهو يحاول الخروج بنا من صعوبة نجدها في تصور الاتصال بين الروح والمادة ، الى ان يزجّنا في صعوبة اشد منها واسوأ نتيجة ومصيراً ؟

الشيخ — الحق ما قلت ... واذا كنا لا ندري ، ويمكن ان لا ندري الى الابد ، كيف يتم الاتصال بين الروح والجسد ، فلا يعني ذلك انه مستحيل ، ويكفي ان نقول مع لايبنز انه (ممكن) ، لان تصوره لا يوجب تناقضاً عقلياً ؛ واذا كان ممكناً فلا مانع ان نقول : انه يتمّ بقدرة الله ، بدلاً من ان نفسره ونعلّله بنظرية هي اصعب تصوراً وابعد في الظاهر ، واقرب الى (الجبريه) التي لا تتلاءم مع عدل الله وحكمته .

حيران — سمعت من [...] ان لايبنز يرى ان العالم في منتهى الكمال ، فما معنى ذلك ونحن نو[...] كثيراً من الشرور ؟

Ge... Organization of the Alexandria Library (GOAL
Bibliotheca Alexandrina

الشيخ – ان لايبنز المشهور بتفاؤله يستدل ، بما في هذا الكون (بمجموعه) من نظام واحكام وجمال ، على كمال الله ، اخذاً بمبدأ (العلة الكافية للواقع) ، ثم يستدل بكمال الله ، الذي لا ريب فيه ، على ان العالم هو افضل عالم ممكن عقلاً ان يكون . ولكن علينا ان لا ننظر الى العالم من زاوية حادث معين ، في وقت محدود ، لنركز ابصارنا على ما فيه من شر ونغمضها عما وراءه من خير ، بل علينا ، لندرك الحكمة في الكل ، ان ننظر الى العالم نظرة عامة شاملة نرى بها ان هذه الأمور التي نحسبها شراً هي امور لا بد منها للوصول الى الخير .

ويذكرني قوله هذا في الشرور – وهو قول سبقه اليه كثير من الفلاسفة والمتكلمين – بكلام للجاحظ في اعلى مراتب البلاغة والحكمة حيث يقول : (ان المصلحة ، في امر ابتداء الدنيا الى انقضاء مدتها ، امتزاج الخير بالشر ، والضار بالنافع ، والمكروه بالسار ، والضعة بالرفعة ، والكثرة بالقلة . ولو كان الشر صرفاً هلك الخلق ، أو كان الخير محضاً سقطت المحنة ، وتقطعت اسباب الفكرة . ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة . ومتى ذهب التخيير ذهب التميز ، ولم يكن للعالِم تثبُّت وتوقُّف وتعلُّم . ولم يكن علم . ولا يعرف باب التدبير ، ودفع المضرة ، ولا اجتلاب المنفعة ، ولا صبر على مكروه ، ولا شكر على محبوب ، ولا تفاضل في بيان ، ولا تنافس في درجة ، وبطلت فرحة الظفر ، وعز الغلبة ، ولم يكن على ظهرها محق يجد عزّ الحق ، ومبطل يجد ذل الباطل ، وموقن يجد بَرْد التوفيق ، وشاكٌّ يجد نقص الحيرة وكرْب الوجوم ، ولم تكن للنفوس آمال ولم تتشعبها الاطماع ... فسبحان من جعل منافعها نعمة ومضارها ترجع الى اعظم المنافع .... وجعل في الجميع تمام المصلحة وباجتماعها تمام النعمة) .

حيران – حقاً انه كلام في اعلى مراتب البلاغة والحكمة .

الشيخ – ان الجاحظ جاء الى الدنيا وذهب منها قبل لايبنز بتسعة عصور تقريباً ... أفرأيت كيف تتلاقى عقول العباقرة يا حيران ... ؟

تلاقي العباقرة

٣

قال حيران بن الاضعف : دخلت على الشيخ فوجدته متهللاً مستبشراً ، وبين يديه كتاب ، ما لمحته عيني حتى عرفت انه باللغة الاوردية ، فاخذني العجب ، وظهرت على وجهي دلائل البشر والحنين ، فرفع الشيخ بصره اليّ ، وقال لي : مالي أراك اليوم مستبشراً على غير ما كنت في الليلة السابقة ... ؟ سأسميك (أبا الاحوال) ... ام وقعت عينك على كتاب بلغة بلادك ، فهزك الشوق والحنين الى الوطن .

حيران — هذا هو الواقع يا مولاي ، ولكن ما هو هذا الكتاب ؟

الشيخ — هو لشيخي الجسر رحمه الله .

حيران — أهو من علماء الهند ؟

الشيخ — كلا بل هو من علماء الديار الشامية ؛ ولكن الكتاب مترجم الى الاوردية والى التركية .

حيران — هل جاء دور الحديث عن الجسر الذي طالما سمعتك تذكره ؟ ولكنك لم تحدثني بعد عن ثالث الثلاثة (عمانوئيل كانط) الذي انا بشوق عظيم الى الحديث عنه .

الشيخ — لم يأت دور الجسر ، ولكني أهيئ لك الحديث عنه في الليلة القادمة . اما الذي احدثك عنه الليلة فهو (هيوم) شيخ الشكاك المحدثين ، وعمانوئيل كانط شيخ الفلاسفة المتأخرين المؤمنين بالعقل وبالله خالق العقل .

حيران — مالي وللحديث عن شيخ الشكاك ، فقد سمعت عنهم الشيء الكثير ولم اجد في اقوالهم منطقاً سليماً ، ولا فلسفة صحيحة .

الشيخ — حقاً ان هيوم لا يعد ، عند نقاد الفلسفة ، فيلسوفاً ، بكل معنى الكلمة ، لانه لم يضع فلسفة ايجابية محدودة ، بل اولع بالشك ،

فأنكر كل شيء ، حتى انكر عقله وربه . ولكن اذا لم احدثك عن هيوم لم يظهر لك فضل (كانط) في دفاعه عن العقل وايمانه بالله ، ولم يظهر لك فضل هيوم ، نفسه ، على الفلسفة .

حيران – كيف ؟

الشيخ – نعم يا حيران ، فلولا شك هيوم لم يقض كانط عمره الطويل في وضع مؤلفاته الكبرى في الدفاع عن العقل .

حيران – ولكن لا ادري كيف انكر هيوم عقله ونفسه .

الشيخ – ألم ينكر السوفسطائيون الأولون والشكاك الأقدمون كل شيء ؟

حيران – صحيح . ولكن السوفسطائيين كانوا يخادعون الناس ، خداعاً . اما الشكاك الأقدمون فانتهى أمرهم الى (لاادرية) سلبية ؛ وقد جاءوا في عهد لم تكن للفلسفة فيه هذه الآفاق الواسعة ، ولا كان لها هذا النتاج الوافر الباهر ، الذي تمخضت عنه عقول العظماء الذين حدثتني عنهم ، امثال ديكارت ولوك ولايبنز ، المعاصرين لهذا الذي سميته شيخ الشكاك . فلا ادري كيف توصل هيوم الى الشك في عقله ونفسه بعد هؤلاء ؟

الشيخ – بدأ هيوم في المعرفة فتابع لوك وجاراه في انكار الأفكار الفطرية ، وزعم معه ان جميع ما لدينا من ضروب المعرفة انما يتكون من الاحساس والتجربة . وان الافكار المركبة ليست سوى مجموعة من الأفكار ، ولكننا حين لا نجد لها شبيهاً في المحسوسات ، نحسبها من مبتكرات العقل .

ولو وقف هيوم عند هذا لهان الامر ، فقد تكون الافكار الفطرية مجموعة من الافكار البسيطة . وليس بمستحيل ان تكون الاوليات العقلية مما تكونه عقولنا ؛ ولكنه يغلو في هذا غلواً سخيفاً ، حتى ينكر قانون السببية ، ويزعم ان علاقة العلة بالمعلول هي علاقة وهمية لا اساس لها الا اننا نرى حدوث ظاهرة ، يعقبه حدوث ظاهرة اخرى ، فنظن الثانية مسببة عن الاولى ، مع انه ليس بين الظاهرتين رابطة عقلية (ضرورية) توجب ان تكون الظاهرة الاولى علة للثانية . ولكن نحن تعودنا ان نرى

الحادثتين متتابعتين باطّراد ، فحسبْنا ان بين الحادثتين علاقة سببية ، فزعمنا ان الاولى علة للثانية ؛ وما فكرة السببية الّا فكرة ذاتية ليس لها وجود ، الّا في عقولنا ؛ وقوانين العلّية ليست سوى تلخيص للتجارب السابقة ، ولا تحتمل اقلّ توكيد ، فيما يتعلق بالمستقبل .

حيران — ان قول هْيوم ، بعدم وجود رابطة (ضرورية) بين الظاهرتين ، يشْبه ما ذكرتَه يا مولاي عن الغزالي عند الحديث عن ابن رشد .

الشيخ — لا يحزنني ان تكون فهمت تلخيصي لقانون السببية عند الغزالي فهماً سيئاً ، فقد شاركك في سوء الفهم كثير من العلماء الذين قرأوا (تهافت الفلاسفة) ؛ لذلك ارى ان نرجع الى ما كتبناه ونعيد النظر فيه .

قال حيران بن الاضعف — وقلّبت صفحات الدفتر الذي اخطُ فيه حديث الشيخ ، واعدْتُ عليه قراءة ما كتبته عن الغزالي فقال :

ماذا رأيت ؟

حيران — لم ارَ فرقاً بين القولين . فالغزالي قال ان ما نشاهده من الأقتران بين السبب والمسبَّب لا يجوز ان نقطع بكونه سبب الظواهر ، وهْيومْ يقول الشيء ذاته .

الشيخ — كلا يا حيران ؛ فالفرق في الحقيقة بين القولين عظيم . ولا بد لك من ايضاح جديد ، فاصغ الى ما اقول :

حيران — كلي آذان يا مولاي .

الشيخ — لا ينفعني في تيسير الفهم لك ، أن أضرب مثَل النار الذي ضربه الغزالي ، لأنك نشأت وأنت تعرف ، معرفة تشبه اليقين ، ان النار محرقة ، فلا يمكن ان تدرك معنى قول الغزالي أنه لا يوجد (ضرورة عقلية) توجب ان تكون النار محرقة . لذلك أتركُ النار جانباً واتخذ لك مثلاً آخر : هذا الزيت ، زيت الزيتون ، لو رأيتَه لاول مرة في حياتك ، واخبرك انسان ان فيه ناراً كامنة ، تستطيع اخراجها باشعاله ، فهل كنت تصدّق ؟

حيران — كنت أُصدق لو جُرّب ذلك امامي .

الشيخ — وبعد ان يُجَرَّبَ امامك، هــل تجد (ضرورة عقلية) تقضي بان يكون الزيت قابلاً للاشتعال ؟

حيران — كلا يا مولاي ؛ كما اني لا اجد ضرورة عقلية في ان اعتقد ، ان نترات الكليسرين فيهــا خاصيّة الأنفجار ، قبل ان ادرس ذلك ، وأعرفه من طريق العلم والتجربة .

الشيخ — عظيم جداً يا حيران . ان هذا المثَلَ الذي جئتني به خير من مثَلَ الزيت . والآن اطرحُ عليك سؤالاً جديداً : لو جئناك بجسم من الاجسام ، لم تعرفه في حياتــك ، ولا سمعت به ، ثم سألناك : هل من ضرورة عقلية تفرض عليك ان تعتقد (اقتضاءَ هــذا الجسم للتحيُّز) فماذا تقول ؟

حيران — اقول انني أرى ضرورة عقلية تفرض عليّ ان اعتقد اقتضاء كل جسمٍ للتحيّز .

الشيخ — لماذا ؟

حيران — لانني اجد ذلك امراً بديهياً .

الشيخ — ولماذا لا تجد امراً بديهياً اقتضاء الزيت للاشتعال ، واقتضاء نترات الكليسرين للانفجار ؟

حيران — لأنني لا أجــده بديهياً ، ولا أجد ضرورة عقلية تفرض هذه البداهة .

الشيخ — هذا هو ما أراده الغزالي يا حيران . فالغزالي لم ينكر مبدأ السببية من اصله وأساسه ، وحاشا ان ينكره ؛ ولكنّه يقول ان هــذه الظاهرة ، التي نسميهــا (سبباً) ليست مقتضية (اقتضاءً عقلياً ضرورياً) حصول ذلك الأثر الذي نسميه (مسبباً) . فالعقل لا يجد ضرورة عقلية توجب عليه الجزم بأن النار محرقة ، ولا بدّ ، للخشب ؛ ولكنه رأى ، بالتجربة ، ان ظاهرة الاحتراق عند مسّ النار للخشب ، هي ظاهرة (مطّردة) ، فاعتقــد ان النار سببٌ للاحراق . ولولا هذا (الاطّراد) الذي يراه العقل ، لما كان مفروضاً عليه (ضرورةً) ان يعتقد اقتضاء

النار للاحراق ، كما هو مفروض عليه (ضرورة) ان يعتقد اقتضاء الجسم للتحيّز . وانما يريد الغزالي ، بهذا ، ان يتوصل الى القول : طالما ان خاصية الاحراق غير مفروضٍ وجودُها (بالضرورة عقلاً) في النار ، وكان يمكن ان تكون هذه الخاصية بعكس مـا هي عليه ؛ فلا بدّ ان الذي اعطى النار ، وكلّ الأشياء ، خواصها وطبائعها ، هو الذي خلقها ، وهو الذي يستطيع سلْبها هذه الخاصية .

أما هْيوم فأنه ينكر قانون السببية من اصله وأساسه ؛ بل هو ينكر نفسه وعقله والعالم كلّـه فيقول : اذا كنا نعتقد بوجود الشيء الذي نحسُّ به ، فهذا الاعتقاد انما يكون في اللحظة التي تنقل لنا بها حواسنا اثر ذلـك الشيء ، وتُشعرنا بوجوده ؛ ولكن ليس من دليل يُحتّـم علينا الاعتقاد بوجود هـذا الشيء ، اذا غاب عن حواسنا ؛ كما انه لا دليل يرغمنا على الاعتقاد بأن الشيء الذي رأيناه اليوم ، ثم تركناه ، وعدنا لنراه في اليوم الثاني ، هو هو نفس الشيء الذي رأيناه في اليوم الاول . وكل ما في الأمر أننا رأينا شيئين ، فتوهمنا انهما شيء واحد . واذنْ ، فنحن لا نعلم عن العالم الخارجي ، الّا ما في اذهاننا من مُدركات حسية (آنيّة) ؛ فكل ما في الكون هو هذه الافكار التي ندركها ، وليس في الكون سواها ؛ وجوهر الأشياء سواء كان مادياً او روحانياً لا وجود له ... ثم يترقّـى هْيوم في الشكّ ، بـــل يتدنـّى ويُسفُّ اسفافاً شنيعاً ، حين يشك في نفسه ، وعقله ؛ فيقول : طالما أن معارفنا لا منشأ لها سوى الآثار الحسية ، ونحن لا نجد في المحسوسات شيئاً يسمّى (عقلاً أو ذاتاً) فاذاً لا وجود للعقل ، ولا للذات التي ندعي وجودها . وكل ما افهمه من قولي ان ذاتي موجودة وعقلي موجود ، هو انـــه يوجد في داخلي سلسلة احساسات ، وافكار متتابعة ، فأسمّي هـــذه المجموعة (ذاتاً عاقلةً) . فكلمة الذات والعقل اوهام في اوهام .

حيران — هذا عجيب .

الشيخ — نعم هكذا يقع هذا الرجل العاقل في تناقض عقلي فاضح ،

فيقول عن الأشياء انها ليست سوى افكارنا ، ويقول عن افكارنا ما هي الا آثار الاحساس بالأشياء ؛ فيُعَرّف الأشياءَ بانهـا عبارة عن افكار ، ويُعَرّف الأفكار بأنها عبارة عن أثر الأشياء ، ثم ينكر القسْمين معاً .

حيران — ومن الطبيعي ، بعد ان انكر هيومْ نفسه وعقله والعالم ، ان ينكر ربّه كما قال الشيخ .

الشيخ — نعم ان الالحاد هو نتيجة طبيعية لهذا الانكار المطلق الشامل لكل ما في الوجود . ولكن لو عرفتَ برهانه على عـدم وجود الله ، لازدَدْتَ يقيناً بسوء مزاجه .

حيران — ما هو دليله على عدم وجود الله .

الشيخ — انه يقول اننا لا نعلم عن العلة شيئاً سوى انها الحادثة السابقة ، التي نشاهدها قبل حدوث معلولها ، فـلا بد لنا من مشاهدة الحادثتين السابقـة واللاحقة . فوجود الكون لا يقوم دليلاً على وجود صانعه ، الّا اذا رأينا الصانع والمصنوع جميعاً .

حيران — نعوذ بالله من الضلال المبين .

الشيخ — انه اكثر من ضلال . انه عناد . ولو أراه الله ذاته ، كما يريد ، وأراه صُنعَه للعالم ، كما يطلب ، لعاد الى قوله في قانون السببية : ان هـذه ظاهرة تعقبها ظاهرة ، وليس في هـذا التعاقب ضرورة عقلية توجب ان يكون الله علةً لوجود العالم وخالقاً له ...

ولم اذكر لك هذه الآراء السخيفة الّا لأضعها ، امامك ، في ميزان المقارنة بين آراء لايبنزْ ، الذي جاء قبل هيومْ ، وآراء عمانوئيل كانْط الذي جاء بعده .

حيران طالما لاحظت ان مولاي الشيخ يُكثر من ذكر عمانوئيل كانْطْ ويقرن اسمـه باسم الغزالي حتى اصبحت بشوق عظيم الى قراءة فلسفته في الوجود .

الشيخ - اخطر شيء عليك ان تقرأ (كانْطْ) لوحدك ، من غـير رشد ، ينير لك الأسراب والسراديب ، في ذلك الطود من الكلام المركوم

المرصوص ، الذي اعترف (كانْطْ) نفسه بأنه جعله مُعقّداً ، لأنه انما كتبه للفحول من الفلاسفة . واخْطر من ذلك ان تقرأ ما كَتَبَ الناسُ عن (كانْطْ) ، لأنك ستقف حائراً بين قومٍ يعدّونه من اعظم المؤمنين ، وقومٍ يعدّونه من اعظم الكافرين .

حيران — والحق يا مولاي ؟

الشيخ — الحق الذي لا ريب فيه ان (كانْطْ) كان من المؤمنين بوجود الله ، ومن اعظم مَن خدموا هذا الأيمان ؛ ولكنه بعد ان اعدّ السلاح الذي نحارب به الشك والالحاد ، وبالغ في صقْله ، حتى جعله مرهفاً ماضياً ، عجز هو نفسه عن استعماله ...

حيران — هذا عجيب . كيف يكون مؤمناً بالله ، ويصنع السلاح للدفاع عن هذا الأيمان ، ثم يعجز عن استعماله ؟

الشيخ — ان عمانوئيل كانْطْ ، في دفاعه عن العقل ، كان اشبه الناس بسقراط ، واما في ايمانه فقد كان اشبه الناس بابن رشد ؛ ذلك ان (كانْطْ) قد روّعه ذلك الشك المطلق السخيف الذي قضى به (هْيومْ) شيخ الشكاك ، على العلم والدين والأخلاق ، كما روّع ، من قبلُ ، سقراطَ ، شكُّ السوفسطائيين ، فاراد ان يدافع عن العقل ، كما دافع سقراط ، ليبرهن مرة اخرى ، على ان المعرفة لا تكون بالأحساس وحده ، وانما تكون بالعقل الذي له قدرة خاصة على تكوين المعقولات من الأحاسيس ، ومما وراء الأحاسيس من علاقات لا تُحَسّ . وكان في دفاعه عن العقل عظيماً ، موفقاً احسن ما يكون التوفيق ، ولكنه ، بعد ان كشف عن اسس العقل ودعائمه ، وبرهن على قوته وقدرته ، واوضح قوانينه الفطرية ، واولياته البديهية المركوزة فيه ، زعم ، كما زعم ابن رشد من قبل ، ان الأدلة النظرية العقلية المركّبة ، تُرْبِكُ العقلَ وتحيّره ، فاختار لنفسه طريقة اخرى ، للبرهنة على وجود الله ، كما فعل ابن رشد ، ولكنه كان في هذا الاختيار اقلّ توفيقاً . وسألخص لك كلامه وابسطه ، بأسهل اسلوب كما عودتك . فكن شديد الأصغاء .

حيران – كلّي آذان يا مولاي .

الشيخ – ان (كانْط) طرح السؤال الآتي : هل في طبيعة العقل وتكوينه قدرة خاصة تمكّنه من الوصول الى تكوين احكام انشائية ، من ذاته ، دون اعتماد على ما تأتي به الحواس والتجربة ? وما هي حدود هذه القدرة ?

ولكي يجيب على هذا السؤال وضع (كانْط) ، بعد ان نضجت فلسفته ، كتابه (نقد العقل الخالص : Critique de la raison pure) وهو اعظم كتبه في الدفاع عن العقل .

اما جوابه الضخم الطويل العريض ، على هذا السؤال ، فانه يرتكز على اسس ، ألخصها لك بادىء ذي بدء ، لتضعها نصب عينيكَ ، فمنها يتشعب البحث ، وعنها يتفرع الكلام . انه يقول :

● ان مصادر المعرفة هي الحس والعقل . فلسنا نُكوّن معارفنا من الاحساس وحده ، ولا من العقل وحده .

● ان للعقل افكاراً فطرية مركوزة فيه ، سمّاها كانْط (قوانين العقل المنظّمة : (Les lois regulatrices de la raison) يستطيع بها العقل ، ادراك (العلاقات) القائمة بين الآثار الحسية التي تردُ اليه ، فيكوّن من الاحساسات (ادراكاً حسياً) ، ثم يكوّن من المدركات الحسية (مدركات عقلية) . ومن اهم هذه الافكار والقوانين الفطرية (فكرة الزمان والمكان وقانون السببيّة) .

● وان العقل يستطيع ، بقوة هذه (القوانين المنظّمة) ، ان يكوّن احكاماً انشائية ، من ذاته ، لا يعتمد فيها على الاحساس والتجربة .

● ولكن قدرة العقل هذه ، هي محدودة ومرتبطة بالظواهر المحسوسة ، فاذا حاول الخروج عن ميدان الظواهر ، والدخول في كُنْه الأشياء بذاتها ، وقع في الخطأ . ووظيفة الميتافيزيقيا هي ان تبين موضع هذا الخطأ في محاولة العقل الدخول فيما وراء عالم الحس ، لانه عالم مجهول .

حيران – كل هذا الذي سمعته ليس بجديد . ولكني لم افهم معنى قوله ان العقل يستطيع تكوين احكام انشائية لا يعتمد فيها على الاحساس ،

وقوله ، بعد ذلك ، ان العقل لا يستطيع تخطّي دائرة الأحساس .

الشيخ – حقاً ان (كانْط) لم يأتِ بهذه الأسس بشيء جديد بديع ، ولكنه ابدع في توطيدها والبرهنة على صحتها . اما حصره عمل العقل في دائرة الأحساس فهو صحيح لا غبار عليه وان كانت النتائج التي استنتجها من هذا الحصر غير صحيحة .

حيران – لم افهم فارجو من مولاي الايضاح .

الشيخ – يقول كانْط ان الأحاسيس ترد الى العقل ، من منافذ الحواس ، متعددةً متزاحمةً ، مختلطةً متشابكة ، فيتناولها العقل بالترتيب ، والتنسيق ، والتمييز : فيجاور بين بعضها ويفرّق ، ويقدم بعضها ويؤخّر ، ويعني ببعضها ويُهمل البعضَ الآخر ، ويُكوّن منها (ادراكاً حسياً) ، ثم يكوّن من هذه المدركات الحسية (مدركاتٍ عقلية) ، واحكاماً انشائية جديدة ، لا يعتمد فيها على الأحساس والتجربة ، فبأية قوة يفعل العقل ذلك ؟

ان الأحساس انما يحمل الى عقولنا صور الأشياء فقط . اما العلاقات القائمة بين الأشياء ، سواء في ترتيبها المكاني او ترتيبها الزماني ، او تسبُّب بعضها عن بعض ، فأنها علاقات عقلية ، لا وجود لها في صور الأشياء المحسوسة ، فمن اين يأتي العقل ، اذنْ ، بتلك الأحكام الأنشائية ، التي يُصْدرها على هذه العلاقات ؟

اننا ننظر الى رقمَيْن مختلفيْن ، فنستطيع ان نستخرج منهما نتيجةً من طريق (الجمْع) ، غير النتيجة التي نستخرجها عن طريق (الضّرب) . فلو كان هذا الادراك ناشئاً من الأحساس وحده ، لما وجب ان تختلف العملية الحسابية ابداً ، لأن بصرنا ينقل الينا صورة واحدة لا تتغير .

وكذلك الحال في ادراكنا لعلاقة السببية القائمة بين السبب والمسبّب ، والعلة والمعلول ؛ فان حواسنا انما ترينا صوراً عن ظواهر متفكّكة متتابعة ، ولا ترينا ابداً علاقة السببية ؛ فكيف نعرف ، نحن ، هذه العلاقة ، وكيف ندرك ، بداهةً ، ان لكل معلول علّة ؟

ومن هنا يتوصل كانْط الى القول : بأن العقل فيه قوانين منظّمة

فطرية ، يستطيع بها ان يدرك الأحساس ، ويحوله الى مدركات حسية ، ثم يكوّن ، من المدركات الحسية ، مدركات عقلية كلّية ، ويصدر أحكاماً انشائية جديدة ، لا يعتمد فيها على الأحساس .

ومن جملة افكار العقل وقوانينه الفطرية : فكرة الزمان وفكرة المكان ، اللتان لا يستمدُّهما العقل ، من طريق الأحساس ، لأنه لا وجود لهما في الأشياء ، ليمكن الأحساس بها . فبفكرة الزمان يضع الانسان الآثار الحسية ويرتّبها في تعاقب وتتابع ترتيباً زمانياً ، وبفكرة المكان ، يجاور العقل بين الآثار الحسية او يباعد بينها ، فيرتّبها في الذهن ترتيباً مكانياً يستطيع به ادراكها . ولولا فكرتا الزمان والمكان المركوزتان في العقل ، بطبيعته الفطرية ، ما تمكّن العقل من ادراك شيء ، وما تمكّن من استخراج العلاقات العقلية القائمة بين الأشياء ، وما تمكّن من اصدار الاحكام الانشائية فيما يتعلق بمكان الأشياء وزمانها .

ولما كانت جميع القضايا الرياضية ، انما هي علاقات ونسب تتعلق بالمكان والزمان ؛ لان الهندسة تختص بالمكان ، والحساب ، الذي هو عدد متكرر متعاقب ، يتوقف على ادراك الزمان ، فان المبادىء الرياضية ، هي اذاً ، مبادىء عقلية فطرية تابعة ومشتقة من طبيعة عقولنا ، نعرفها وندركها من غير حاجة الى تجربة . ومن هذا نعلم ، يقيناً ، ان المبادىء الرياضية صحيحة ، ويقينية ، وضرورية ، ويستحيل الشك فيها ، او اثبات خطأها ، او تصور عكسها ؛ فاننا نستطيع مثلاً ان نتصور ان لا تكون النار محرقة (كما قال الغزالي) ، ولكننا لا نستطيع ابداً ان نتصور ان الواحد ليس نصف الأثنين ، وانّ الخط المستقيم ليس اقصر الخطوط بين نقطتين ، لأن هذه المبادىء الرياضية هي ضرورية وتابعة من طبيعة عقولنا .

وكما ان العقل يستطيع تحويل الاحساسات الى مدركات حسية بقوة فكرتي الزمان والمكان ، فانه يستطيع ايضاً ، بقوة قوانينه التنظيمية الأخرى المفطورة فيه ، ان يقوم بالمقارنة والتحليل والتعليل لتلك المدركات الحسية ، ليستنتج منها ادراكات عقلية ، ويصدر عليها احكاماً انشائية

جديدة غير مستمدة من الاحساس . ومن اهم قوانين العقل المنظّمة (قانون السببية) ، الذي ندرك بـه ، ادراكاً خالصاً ضرورياً ، ان كل تغيّر لا بدّ له من سبب وعلّة ؛ وبقوة هـذا القانون العقلي الفطري الضروري نستطيع ان نعرف قوانين الطبيعة ونواميسها .

حيران – هذا كله صحيح وواضح . ولكن اذا كانت عقولنا تدرك ، بفطرتها ، المبادىء الرياضية ادراكاً ضرورياً ، وتدرك قوانين العلم بقوة قانون السببية العقلي الضروري ، فكيف قال كانْط ْ ان قوة العقـل هي محدودة ومرتبطة بالظواهر الحسية .

الشيخ – لو انتظرت قليلاً لوصلتُ بك الى جواب هذا السؤال . فاني لخصت لك ، في البدء ، رأيه عن العقل في (قُدْرته) ، والآن جاء دور كلامه عن العقل في (عجزه) .

ان كانْط ْ ، بعد ان دافع عن قدرة العقل ، ضدّ اولئك الذين اعتبروه لوحة جرداء لا شيء فيها قبل التجربة ، وضدّ اولئك الذين شكّوا فيه بل انكروا وجوده ، وبعد ان برهن ، كما رأيتَ ، على ان فيه قدرة فطرية على التنظيم والترتيب والتحليل والتعليل والاستنتاج وانشاء الأحكام الصادقة ، عاد يقول ان هذه القدرة على (الادراك العقلي الخالص) ، تنحصر ضمن نطاق (الادراك الحسي) ، اي ضمن نطاق (الظواهر) التي يدركها الحس ؛ لان العقل ، وان كان قادراً ، بقوة افكاره الفطرية ، وقوانينه المنظّمة ، على تكوين الادراك الحسي ، ثم الادراك العقلي ، الّا انـه يحتاج لتكوين هذين الادراكين الى (موادّ) ؛ وهذه المواد هي الاحاسيس ؛ وبما ان الحس لا يتناول سوى ظواهر الاشياء ، ولا ينفذ الى بواطنها غير المحسوسة ، فان ادراكنا العقلي ، لا يمكن ان ينفذ الى كُنْـه الشيء في ذاته ؛ فاذا حاولنا ان نعرف كُنْـه الشيء في ذاته ، بنفس القوانين العقلية التي ندرك بها الظواهر ، وقعنا في الخطأ . ووظيفة الميتافيزيقيا هي ان تبين موضع هذا الخطأ ، في محاولة العقـل تخطي دائرة الحس والظواهر المحسوسة ، والوصول الى الحقيقة النهائية التي وراء الحس .

حيران – وهذا الحصر للعقل في نطاق المحسوسات هو صحيح وواضح ولا غبار عليه . فكيف تكون النتائج التي استنتجها كانْط من هذا الحصر غير صحيحة ، كما قال مولاي الشيخ ؟

الشيخ – هنا بيت القصيد في حديثي لـك عن كانْط ، وهنا مفترق الطريق الذي افترق منه بعض الناس فعدّوه غير مؤمن بالله ، وهنا الثغرة في تفكير هذا الرجل العظيم .

ذلك ان كانْط اعتراه ذلك الكلال العقـلي ، الذي وصفه الغزالي ، في تصوّر البداية ، والنهاية ، واللانهاية ، في الزمان والمكان ؛ واعتراه نفس الوهم ، الذي اعترى ابن رشد ، مِن قبلُ ، حين استصعب الادلة العقليـة المركبة ، فقال ، كالغزالي : ان العقل اذا حاول ان يحكم هل العالم محدود او لانهائي ، من حيث المكان ، وقع في تناقض واشكال ، لاننا من جهة نتصور وراء كل حدٍّ شيئاً ابعد منه ، ومن جهة اخرى يتعذر علينا ان نتصور اللانهاية بذاتها . وكذلـك لو حاول العقل ، ان يتصوّر ان العالم له بدء في الزمان ، وقع في نفس الصعوبة ، لأننا نعجز عن تصوّر الازلية التي ليس لها بداية ، كما نعجز عن تصور لحظـة نسميها بدء الزمن ، لأنه لا يسعنا الّا ان نخال انه قد كان قبل تلك اللحظة شيء . وكذلك حالنا في تصوّر العقل لسلسلة العلة والمعلول ، لاننا من جهة لا نستطيـع ان نتصور سلسلة لا نهاية لها ، ومن جهة ثانية ، تكلّ عقولنا عن تصور علة اولى لا علة لها . وهذه كلها مشاكل لا يمكننا التخلص منها الا اذا ادركنا ان فكرتي الزمان والمكان ، وقانون السببية ، وكل قوانيننا العقلية المنظّمة ، انما ينحصر عملها ضمن نطاق الادراك الحسي ، اي ضمن نطاق الظواهر التي يدركها الحس ؛ فاذا حاولنا ان ندرك بها ما وراء الحس ، وقعنا في الكلال والأشكال .

حيران – ليس في هذا الحصر ، كما سبق القول ، شيء غير صحيـح ، فاين هو الخطأ في الاستنتاج ؟

الشيخ – هذا الحصر للعقل في حدود المحسوسات صحيح ، ولكن كانْط

اخطأ في الاستنتاج ، حين زعم (اننا اذا حاولنا ان نبرهن ، بالعقل النظري ، على وجود الله وقعنا في الاشكال نفسه) .

فنحن مع كانْط في قوله ان قوانين العقل المنظمة ، انما تطبق في ميدان الظواهر الحسية ، ونحن معه في ان قانون السببية الضروري ، انما يُطبق في نطاق الظواهر المحسوسة ؛ ولكن أليس العالم كله ، بأجزائه وبمجموعه ، من قسم المحسوسات يا حيران ؟

ألسنا ، بقوّة قانون السببية الضروري ، نَحكم ، كما قال كانط نفسه ، بان كل متغيّر لا بد له من سبب ، وكلّ معلول لا بد له من علة ؟

ألسنا ، اذا رأينا ظاهرة من الظواهر الجزئية ، نحكم حكماً ضرورياً ، بأنه لا بد لها من علّة ؟

فاذا كنا نحكم ، بالضرورة ، على كل ظاهرة جزئية من هذا العالم ، أنه لا بد لها من علة ، افلا تتطلب عقولنا ، بالضرورة ، ان يكون لهذا العالم المحسوس المتغير ، (بمجموعه) ، علة كافية لوجوده ؟

ان كانْطْ قال الحق ، كلّ الحق ، عندما قال ان كل محاولة يبذلها العقل للوصول الى (كنه) الحقيقة النهائية هي محاولة فاشلة . وقال الحق ، عندما اوضح ان العقول لا تستطيع ان تتعدّى ميدان الظواهر المحسوسة لتدرك كنه ما وراء عالم الحس لأنه عالم مجهول . ولكننا ، في نطاق هذا العالم المحسوس ، نجد في نفوسنا ضرورة عقلية لأدراك ان هذا (المحسوس الأعظم) ، بمجموعه ، لا بد له من علّة لوجوده . وليس بضائرنا بعد ذلك ان يتطرق الى عقولنا ذلك الوهم المُلحُّ الذي يتطلب لكل علّةٍ علةً ، وقبلَ كل زمانٍ زماناً ، وبَعْد كل مكان مكاناً . فان هذا الوهم يلازمنا ايضاً ، عند ادراك الظواهر الجزئية في حياتنا العملية والعلمية ؛ ولكننا رغم هذا الوهم ، ندرك ادراكاً ضرورياً ، ان الظاهرة الجزئية نتجت عن علّة ، ولا يخطر ببالنا ان ننكر هذه العلة ، بحجة ان وهماً عقلياً يتطلب منا تسلسل العلل الى غير نهاية ، أو بحجة عدم معرفتنا لكُنْهِ العلة .

فاذا رأينا هـذا العالم المحسوس ، ولم نتمكن من معرفة كُنْـه (علته الكافية) ، التي سببت وجوده ، أي كنه ذات الله ، الذي خلقه وأوجده ، لم يكن لنا ان ننكر وجود هـذا الخالق ، لمجرد اننا عجزنا عن معرفة كنه ذاته وصفاته ؛ واذا فعلنا نكون منكرين ومبطلين لقانون العليـة الذي يقول كانط ، وكل عاقل ، انه قانون عقلي ضروري مركوز في عقولنا .

حيران — اذاً كيف يكون كانط من المؤمنين كما وصفه مولاي الشيخ ، وبأي استدلال اخذ حتى توصل الى ايمانه بوجود الله ؟

الشيخ — ان كانط قـد استصعب الأدلة العقلية النظرية المركّبة ، كما رأيتَ ، مثلما استصعبها من قبله ابن رشد ، فاختار لنفسه دليلاً آخر يشبهه ، في جملته ، دليل (الادراك المباشر) الذي اعتمده برغسون اعظم الفلاسفة المؤمنين في القرن العشرين .

حيران — ودليل (النظام) الذي اخذ به ابن رشد وسماه دليل العناية والاختراع الم يأخذ به كانط ؟

الشيخ — كلا يا حيران . وهنا ثغرة الضعف عنـد كانط ؛ فانه ليس بمستغرب ان يجد هذا العبقري صعوبة في الأدلة العقلية المركبة ، كما وجد ابن رشد وابن طفيل من قَبْل ، وان يعدل عنها ليبحث عن دليل واضح سهل سواهـا ، ولكن المستغرب منه انه لم يعجبه حتى (دليل النظام) فاعتبره صعباً كالأدلة النظرية المركبـة واخترع دليلاً زعم انه ينبع من الوجدان لا من العقل .

حيران — كيف هذا ؟

الشيخ — ان كانط يقول ، مع لايبنز ، ان عقولنا تبيح لنا ان نعتقد ان وراء العالم الـهاً . ولكن شعورنا الاخلاقي هو الذي يحتم علينا الايمان بوجود الله .

حيران — كيف يكون آخذاً برأي لايبنز ثم ينكر الأدلة العقلية التي اعتمدها ذلك المفكر العظيم ؟

الشيخ — اتحسب يا حيران ان كانط يمكن ان يختلف مع لايبنز في

الأوليات والبديهيات التي تُحدث في العقـــل تناقضاً أو لا تُحدث ؟ ان كانط يرى ، كما يري لايبنز ، وكما يرى كل عاقل ، ان عقولنا تبيـح لنا ان نعتقد ان وراء الأشياء الـهاً ، لأن فكرة وجود الله لا تحدث تناقضاً عقلياً ، بل الذي يحدث التناقض العقلي هو نفي هــذه الفكرة . ولكن كانط بعد ان وضع فلسفته في نقد العقل الخالص ، وانتهى به البحث الى حصر عمل العقل في نطاق الظواهر التي يدركها الحس ، استعرض الأدلة العقلية المركبة التي ذكرها الفلاسفة والحكماء فرأى ان (دليل الحدوث) و (دليل الوجوب) يعتمدان على (قانون العلية) وعلى الحكم العقلي القاضي باستحالة التسلسل في عالم الصور والاحداث والممكنات الى غـير نهاية ، ورأى ان هذين الحكمين العقليين الصحيحين يزاحمها ، في التصور ، ذلك الوهم الذي يعتري العقول في تطلُّب مكان وراء كل مكان ، وزمان قبل كل زمان ، وعلة وراء كل علة ، فخرج من هذه الأشكالات العقلية الوهمية الى القول بأن هذين الدليلين يُعرّضان الايمان للشك والأرتباك ؛ ثم نظر في طريقة الاستدلال بما في العالم من دلائل القصد والتصميم والنظام والحكمة فغامتْ نفسه وغانتْ بما رأى من مظاهر الشرور الجزئية ، فاتخذها سبباً لأستضعاف (دليل النظام) من غير ان يقارن ويوازن بين هذه الجزئيات القليلة ، التي لا ندرك حكمتهـــا ، وبين ما في سائر المخلوقات من دلائل القصد والحكمة والتصميم والنظام التي لا تعد ولا تحصى ، فانتهى به الأمر الى القول بصعوبة البرهنة بالعقـــل النظري على وجود الله ، فاخترع لنا عقلاً آخر سماه (العقل العملي La raison pratique) ويعني به الضمير ، واستدل بهذا العقل العملي على وجود الله .

حيران — لم افهم .

الشيخ — يقول كانط اننا نجـد في قرارة نفوسنـــا شعوراً قوياً لا سبيل الى انكاره ، يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ويؤنبنا ويعذبنا عنـــد ارتكاب الذنوب والآثام ، فمن اين اتانا هذا الشعور ؟ انه ، في زعم كانط ، ليس آتياً من الأحساس والتجربة لأن الحواس لا تنقل لنا الّا صُور

الأشياء وليس في الأشياء شيء يسمى تأنيباً وتعذيباً للضمير ، وليس آتياً من العقل النظري لأن العقل انما ينحصر عمله في الادراك الحسي وتحويله الى ادراك عقلي ؛ فمن اين ، اذن ، يأتينا هذا الشعور القوي الواضح الذي لا سبيل الى انكاره ؟

هذا الشعور ، الذي يطلق عليه الناس اسم الضمير ، هو الذي يسميه كانط (العقل العملي) ويقول عنه انه قانوننا الاخلاقي الذي فُطرتْ عليه نفوسنا كما فُطرت عقولنا على قوانينها المنظمة التي سبق ذكرها ، وهو الذي يفرض علينا عكس ما تفرضه الادراكات العقلية الأخرى من الحذر واجتناب الخطر ، فيأمرنا بالاقدام والتهور واستهوان المخاطر والتضحية في سبيل الخير للناس .

ومن هنا يترقّى كانط في الاستدلال : فيستدل بهذا القانون الأخلاقي على حرية الارادة ، وبحرية الارادة على خلود النفوس في حياة أخرى وعلى يوم الدين ، وبيوم الدين على وجود الديّان الحكم العدل فيقول : ان قانوننا الاخلاقي يستلزم ان نكون احراراً في اختيارنا للخير والشر . ونحن نرى في هذا العالم انه من النادر ان يكافأ فاعلُ الخير على عمله بل نرى ان فعل الخير كثيراً ما يكون مجلبة للشقاء والبلاء ، فلا بد اذن ان تكون لنا حياة اخرى ننال بها جزاء ما فعلناه من الخير ؛ وهذه الحياة الأخرى توجب ان تكون النفوس خالدة لتنال جزاءَها . ولا مجال لأنكار خلود النفوس لأنه يؤدي الى انكار القانون الأخلاقي الذي قلنا انه حقيقة لا ريب فيها . لذلك يرى كانط ان خلود النفوس هو من المبادىء العقلية الأولى للعقل العملي .

ثم يترقّى في استدلاله فيقول : ما دام قد ثبت ان النفوس خالدة ، وان العدالة في المثوبة والعقوبة واجبة ، فلا بد ان نؤمن بوجود حَكَم عدل قادر خالد يتولى اقرار هذه العدالة في اليوم الآخر لأن الخلود والجزاء اللذين حكمنا بتوجبهما يستلزمان فرض وجود علة كافية مكافئة لهما ، فلا بد انّ مَنْ انشأ الخلود خالد ، ولا بد ان من يقضي بالعدل عادل ، ومن

يجازي على الخير والشر قادر . وهـــذا الخالد القادر الحكم العدل هـو الله تعالى .

هذا هو الدليل الأخلاقي الوجداني الذي اختاره كانْط لاثبات وجود الله ؛ وهو يقول عنه انه ليس برهاناً من طريق العقل النظري ، بل هو برهان مستمد من شعورنا الفطري بقانون الأخـلاق الذي يجب ان يوضع فوق العقل النظري .

حيران – انه والله لجميل وفطريّ هذا الأستدلال فمالي افهم من كلام الشيخ انه غير راضٍ عنه كل الرضى .

الشيخ – كل الأدلة التي ذكرها هؤلاء العباقرة ، على وجود الله صحيحة ومنها هذا الدليل الذي ذكره القرآن عند قوله تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) . ولكن طرق الاستدلال يا حيران منها الصعب المركب العميق ، ومنها السهل البسيط الواضح ؛ ولا بدع في ذلك فهو سبحانه (الظاهر والباطن) ، كما وصف نفسه . امـا استدلال كانْط (بالدليل الاخلاقي) فانـه ليس بالاستدلال الاقوى كما زعم ؛ فلولا ما جاء في الأديان عن البعث والجزاء، لمّا توجّبَ على العقول ان تجزم بوجود هذا اليوم الآخر جزماً ضرورياً ، لأن العقول يصعب عليها ، من نفسها ، ان تقول بالاعادة بعد الفناء ، والرجعـة بعد الموت ، الّا اذا كانت مؤمنة بوجود الله وقدرته وحكمته وعـدله . فانها اذا بلغتْ هذه المرتبة من الايمان ، حملتْها الثقة بقدرة الله ، وحكمته ، وعدله ، على القول بالحياة الأخرى ويوم الدين . فالايمان بالحياة الأخرى انما يكون بعد الايمان بوجود الله ، لا قبله . وهذا هو الترتيب المنطقي ، الذي اتّبعه القرآن في الاستدلال على البعث والحساب : فاقام الادلة على وجود الله وقدرته وحكمته وعدله ، ثم اقام القدرة دليلاً على امكان الاعادة بعد الفناء ، واقام الحكمة والعدل دليلاً على يوم الجزاء . وأما ان نعكس هـــذا الترتيب المنطقي لنعتمد على شعورنا بوخز الضمير ولذة التضحية (وهو شعور قد يكون آتياً من خوف السماء ، الذي اصبح جزء من تفكيرنا)

وتتخذ من هذا الشعور دليلاً على حرية الارادة ، وخلود الارواح ، ويوم الجزاء ، ووجود الله الحكم العدل ، فأني لا ارى يا حيران ، انه الدليل الأقوى كما زعم كانط ، بل أراه دليلاً وجدانياً يصحّ ان يُسَمى (دليلاً معضّداً) للأدلة العقلية الاخرى . وقد اخذ به شيخي الجسر ، رحمه الله ، فكاد يكون متفقاً باللفظ والمعنى مع الذي ذكره كانط حيث قال : (ان صريح العقل يقضي ، انّ من حكمة الحكيم ان يفرق بين المحسن والمسيء . وحصول هذه التفرقة ليس في هذه الدار ، لأننا نرى كثيراً من اهل الاساءة في اعظم الراحة ، وكثيراً من اهل الاحسان بالضد من ذلك ، ولا بد ان ينتصف الحكم العدل الرحيم لعبيده المظلومين ، من عبيده الظالمين ، وهذا الانتصاف لم يحصل في هذه الدار ، لاننا نرى المظلوم فيها قد يبقى مُهاناً في غاية الذل والقهر ، مسلوب المال ، مفضوح العرض ، مهدور الدم . والظالم يبقى في غاية العزة والقدرة ، فلا بد من دار اخرى يظهر فيها هذا العدل وهذا الانصاف .) اهـ

واذا كنا يا حيران نرضى من السذج ، الذين لا يحسنون ، بل لا يستطيعون ، تركيب الأدلة او ادراكها ، ان يأخذوا بهذه (الأدلة المعضّدة) فاننا لا نرضى من العلماء والفلاسفة الذين ينشرون آراءهم على الناس ان يُضَعّفوا الأدلة العقلية القوية الاصيلة ، ويكتفوا بهذا الايمان الوجداني الذي يفتح للناس باب التصديق بالاسرار والعقائد المستحيلة عقلاً ، لان هذا يصادم في الصميم دين الاسلام الذي يأبى وينكر كل عقيدة تحدث تناقضاً في العقل .

وبعدُ فبأي شيء استخرج كانط دليله الوجداني هذا ، يا حيران ، ان لم يكن استخرجه بالعقل النظري الذي يقصيه هو عن نطاق الاستدلال على وجود الله ؟

واذا كان هذا العقل النظري قد صلح ان يكون وسيلة للاستنتاج الذي سلك طريقه كانط حين استدل بالضمير على القانون الاخلاقي ، وبالقانون الاخلاقي على حرية الارادة ، والخلود والجزاء العادل والحكم العدل القادر

سبحانه ، فلماذا لا يصلح هذا العقل النظري ، الذي سلك هذه الطريقة من الاستدلال والاستنتاج ، ان يكون اداة صالحة للاستنتاج ، نفسه ، من مقدمات اخرى ؟

اكرر عليك ، ان من جملة قوى العقل وقوانينه الفطرية ، التي اثبتها (كانط) ، قوة التعليل التي ندرك بها روابط العلة بالمعلول . واول ما يُمليه العقل النظري الخالص ، بحكم قانون العلـّية هذا ، هو البحث ، عند مشاهدة الاثر ، عن المؤثر ، والمصنوع عن الصانع . ولا يقدح في هذا التعليل ، الذي نستدل به على المؤثـّر بالأثر ، ان الكلال يتطرق الى العقل ، في تركيب الدليل ؛ فالعقل قد يكلُّ ، حقاً ، كما قال (كانط) ، وكما قال الغزالي وابن طفيل ، عند تصور شيء لا نهاية له ، وزمن لا زمن قبله ، وسلسلة لا آخر لها ، وعلة لا علة لها . ولكن كلال العقل ، عن تصور هذه الامور في نهاياتها البعيدة ، لا يُبطل سلسلة الاستدلال من بدايتها ؛ فنحن نرى (الاثر المعلول) فيتطلب عقلنا بالبداهة (المؤثرَ والعلةَ) بقوة قانون العلية الضروري ، الذي حكم (كانط) بان عقولنا مفطورة عليه .

وقد يكون (كانط) ، كما سبق البيان ، على حق في قوله ان العقل النظري ينحصر عمله في نطاق عالم الحس والشهادة ، ولا يتجاوزها الى ما وراء الحس من عالم الغيب ، ولكنه نسي ، وهو يؤكد لنا وجود قانون العلـّية ، ان هذا القانون ، كما يتناول الظواهر الجزئية في الكون ، فيطلب لكل معلول علة ، ولكل مسبب سبباً ، يتناول ، من باب اولى ، مجموع الكون ، كَكُلّ ، فيتطلب ، بالبداهة نفسها ، علة وسبباً لوجوده . ونحن اذا قلنا ، ان العقل النظري قادر على ممارسة قانون العلية وتطبيقه على العالم كَكُلٍّ ، لا نقول خُلفاً ، ولا نكون معارضين (لكانط) في قوله ان عمل العقل النظري محصور في عالم الحس ؛ لان عالم الحس يشمل المحسوسات الجزئية ، والمحسوس العام الاعظم وهو العالم ، فاذا بحث العقل عن علة هذا المحسوس الاعظم ، بجملته ، لا يكون متجاوزاً حدّه الذي وضعه له (كانط) ؛ ولكن (كانط) ، باخراجه المحسوس الاعظم ، وهو العالم ،

عن نطاق قانون العلية ، هو الذي قال خُلْفاً ؛ فالعالم بجملته محسوس ، والعقل ، في نطاق قدرته ، يستطيع ، بـــل هو مضطر ، بالبداهة كما قال لايبنز ان يتطلب له علة ، كما يتطلب علة لكل شيء جزئي محسوس .

حيران — هذا في غاية الوضوح . احسن الله اليك يا مولاي .

الشيخ — وعلى كل حال ، فان (كانـط) من اخلص المؤمنين بوجود الله ، وقد بَنى ايمانه على دليلٍ ، اذا لم يكن هو الدليلَ الاقوى كما زعم ، فانه من الدلائل التي سمّيتُها (الدلائل المعضّدة) ، لانها تعضّد الأدلة الاصلية وتساندها ، وتقوّي الايمان في القلوب ، وتشرح الصدور .

حيران — وايمان برغسون كيف لا يعجب الشيخ وهو يعدّه من اعظم الفلاسفة المؤمنين بالله ؟

الشيخ — انني لم اقل ابداً ان ايمان برغسون لا يعجبني ، ولكني قلت ان الاقتصارَ على هذا الدليل دليلِ (الأدراك المباشر) وتركَ الأدلة العقلية الاخرى لا يعجبني . وسوف ترى ان برغسون لم يقتصر ابداً على دليل الادراك المباشر، ولم يُقْصِ العقل النظري عن نطاق الاستدلال على الله ، كما فعل كانـط ؛ بـل كان في اعماق استدلاله مستنداً الى العقل النظري ومعتمداً على اقوى واعظم واوضح برهانٍ عقلي يُثْبت وجود الله ؛ وأنه انما استخرج ذلك الادراك المباشر، الذي قال به ، من ذلك البرهان العقلي الأعظم الأوضح ؛ فكان بهـذا اصدق فلاسفة القرن العشرين في الغرب ، واقواهم ، واجرأهم على انكار المذهب الماديّ وابطاله .

حيران — كيف ذلك ؟

الشيخ — ان ايمان برغسون بوجـود الله يعتمد في صميمه على نظرتين عميقتين الأولى في قوله : ان ادراك حقيقة الوجود انما يكون بالنظر اليه والى حركته (كَـكُـلٍّ مترابط الأجزاء) والثانية في قوله : ان دلائل القصد والتصميم في الخلق تجعل فكرة التكوين بطريق المصادفـة في حكم المستحيل عقلاً .

حيران — ارجو ان لا يضن علي مولاي بالأيضاح .

الشيخ – لن اضنّ عليك بشيء، يا حيران، لأريك كيف يتلاقى العباقرة على الحق الذي ذكره القرآن في كل طرق الاستدلال على وجود الله سبحانه.

ان برغسون يسخر من المذهب المادي الذي يقول أن ما في العالم من (حياة وفكر) عبارة عن اعراض لتفاعل (المادة والقوة)، ويسخر من قول الماديين ان العقل هو الدماغ وان لا شيء سواه، فيقول لهم: كلا. ليس العقل هو الدماغ المادي الذي تحويه الجمجمة فحسب، بل العقل شيء والدماغ شيء آخر: العقل قوة والدماغ مادة. واذا كنا نرى ان الادراك العقلي يعتمد على الدماغ ويتأثر بسلامته وقوته ومرضه وضعفه، فما ذلك الّا لأن الدماغ وعاء للعقل، وسَنَدٌ له، وآلة يسري في مجاريها، فاذا تعطلت الآلة اختل سير القوة واضطرب، كالماء يجري في الساقية ويخضع في سيره لتعاريجها، ولكن خضوعه هذا لا يعني ان الماء هو المجرى والمجرى هو الماء.

وامّا ما يعتري عقولنا من الميل الى تفسير كل شيء من طريق المادة فله سببان اساسيان: الأول ان جزءً من عقولنا نشأ ليمارس ادراك الأجسام المادية فاكتسب من هذا المحيط المادي كثيراً من تصوراته وقوانينه. والثاني، وهو الأهمّ، اننا لم نعرف حتى اليوم كيف ننظر الى حقائق الأشياء ولم نعرف ابداً كيف نحييها لنراها. ذلك لأننا نُجَزّئ الحقيقة لنستطيع ادراكها؛ أي ان عقولنا تتلقى الصورة الكونية مجزأة بدون ان تلاحظ وتدرك الترابط الذي بينها في حركتها المستمرة (كَكُلّ)؛ مع ان الحقيقة لا تُدرك الا بهذه النظرة الشاملة التي نستطيع بها ان نحيي الحقيقة الكلية لنراها.

ولا يجوز ان يقال ان الصور الحسية هي اجزاء الكل واجزاء الحقيقة فادراكها ادراك للحقيقة الحية؛ لأن ادراك الاجزاء مقطعةً شيء، وادراكها في حركتها وتواصلها وترابطها شيء آخر. وما مَثَل ذلك الا مثل الشريط في الصور المتحركة، نرى الصور فيه، عند سكونه، مجزأة لا حياة فيها، فاذا تحرك دبّت الحركة في الصور كلها، وظهرت حقيقة الحياة في مجموع

الصور (كَكُلٍّ) ندركُ منه معنى الرواية . كذلك لا يجوز ابداً ان يقال ان ادراك اجزاء الشيء يستلزم ادراك الشيء كلّه ، على حقيقته، من غير ربط تلك الاجزاء . واصدق دليل على ذلك ، الخط المستقيم والخط المنحني : فاننا اذا نظرنا اليها وجدنا ان كلاً منهما يتكون من نقاط ، هي هي بذاتها لا تتغير في الخطّين ، ولكننا لا نستطيع ان نقول ان المستقيم والمنحني شيء واحد ، بحجة ان اجزاءهما واحدة . وكذلك الحقيقة الحية للوجود والحياة التي فيه ، لا نستطيع ادراكها بمجرد ادراك اجزائها، بل لا بد من رؤية الترابط والتواصل بينها ، ورؤية الحركة تسري فيها باستمرار واتصال ؛ وهذا ما تغفل عنه عقولنا ، ولكنّنا ندركه بالالهام المباشر الذي يسميه برغسون (L'intuition) ويعني به البصيرة والالهام اللذين نشعر بهما ونراهما في نفوسنا ، من غير ان نعتمد فيهما على العقل النظري .

حيران – انني لم افهم المراد بهذا الادراك المباشر الذي ليس له علاقة بالعقل.

الشيخ – حق لك ان لا تفهم ، اذا ظننتَ ان برغسون يقول ان هذا الادراك ليس له أية علاقة بالعقل . ولكن برغسون لم يقل هذا ، وانما اراد اننا نشعر بالادراك المباشر ، الذي يشبه الالهام من غير ان نعتمد فيه على العقل النظري ، الذي يعنى بتركيب الأدلة ؛ واننا لكي نبلغ هذا الادراك المباشر ينبغي ان نتجنّب التفكير في حقائق الأشياء، من طريق الأدلة العقلية المركبة ، وان نحْيي الحقيقة لنراها .

حيران – ولكن بأي شيء نحييها لنراها ؟

الشيخ – اننا انما نحييها بالعقل . ولكن برغسون اراد ان لا يكون هذا الاحياء من طريق تركيب الأدلة النظرية ، التي يكلّ العقل في بعض عِقابها ، بل بالنظرة الشاملة . فانه لما رأى العقل النظري عاجزاً عن ادراك الحقيقة ، وهو ينظر اليها مجزأة ، القى عليها النظرة الشاملة ، فحصل له ، من هذا النظر الشامل الى الكلّ المترابط المتواصل المتحرك الحيّ ، ذلك الشعور الذي سماه ادراكاً مباشراً أو الهاماً ، وكان في كل هذا

معتمداً ، في الحقيقة ، على العقل النظري ، وإنْ لم يرهقه في تركيب الأدلة .

وهذه ، لعمري يا حيران ، هي النظرة الشاملة التي ارادها ابن رشد ، واشار اليها القرآن بقوله : (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ) ودلّ على جزئياتها بألف آية .

حيران — كيف يكون برغسون معتمداً على مثل النظرة التي نظرها ابن رشد ، وابن رشد انما يعتمد دليل النظام والعناية والاختراع ؟

الشيخ — ان برغسون نظر نفس النظرة ، واخذ بنفس دليل القصد والتصميم والحكمة والنظام والعناية والاختراع ، الذي قال به ابن رشد ، ولكنه كان في نظرته اسمى ذروة ، واوسع افقاً ، فرأى الكون كله من الذرّة الى المجرّة ينبض كالجسد الواحد ، بحياة واحدة ، يتجلّى فيها ترابط الاجزاء وتواصلها وتعاونها وتساندها ، تجلياً باهراً ، يخلق في نفوسنا ذلك الالهام او الادراك المباشر لوجود الله الخلاق العظيم الحكيم .

حيران — ارى مولاي يجلّ برغسون اكثر من اجلاله لابن رشد .

الشيخ — لست اجلّه اكثر منه ، فكلاهما من اعظم الفلاسفة المؤمنين بوجود الله وكلاهما له فضل عليّ في ادراك بعض اسرار القرآن ، بعد فضل شيخي الجسر رحمه الله .

حيران — وكيف كان ذلك يا مولاي .

الشيخ — اول من امرني بفهم القرآن ، على ضوء العلم والفلسفة ، هو شيخي الجسر رحمه الله . ثم عرفت بعض السر في هذه الهداية ، عندما قرأت ابن رشد ، وطريقةَ استدلاله على الله بدليل (العناية والاختراع) . ولكن ادراكي لآيات القرآن بقي سطحياً ، يقف عند ظاهر الآيات الصريحة ، ولم انفذ به الى بواطن ما في الاشارات من اسرار . فلما قرأت برغسون ، وقفتُ عند كلامه عن (نظام الزوجية) في النبات والحيوان ، فانبثق في تفكيري نور من الفهم لاسرار القرآن لم اكن اعرفه من قبل . فأني ما كنت افهم وجه الحكمة في تكرار القرآن لذكر (الزوجين) ، بل كنت اعجب لهذا التكرار ، وانا اظن ان الله انما اراد به مجرّد المنّ علينا ،

فلا اجد وجـه المنّة في خلق الوسيلة لبقاء الحياة التي اراد الله سبحانه بقائها على الارض . فلما قرأت استدلال برغسون ، على وجــود القصد والتصميم في الخلق ، (بنظام الزوجية) الشامل ، ادركتُ ان كل ما ذَكر الله تعالى في القرآن من الآيات الدالة على وجوده ، وقدرتـه ، وحكمته ، انما اراد بها ، اكثر من المنّة ، التنبيهَ الى ما في هذه المخلوقات من دلائل القصد والتصميم والحكمة ؛ ولما تتبعت فهم الآيات على هذا الاساس ، في ضوء العلم الحديث ، ادركتُ مـا لم اكن ادرك من اسرار الاعجاز، التي سأحدثك عنها ، اذا آن الأوان ، يا حيران .

حيران — وماذا يقول برغسون في نظام الزوجية ؟

الشيخ — ان برغسون عندمـا ردّ على اصحاب المذهب المادي الذين يقولون بتكوّن الخلائق بطريق المصادفة والانتخاب الطبيعي ، وسخِر منهم ، وبرهن على فساد مذهبهم ، اتى على ذكر نظام الزوجية فقال ما خلاصته :

كيف تستطيع عقولنا ان تصدق انه بطريق المصادفة والتطور والانتخاب الطبيعي قد تكوّنت حاسة الابصار عند جميع الحيوانات ؟ انه من المستحيل ان تكون العيْن ، بتركيبها العجيب الغريب المعقّد ، قد نشأت من المادة مباشرة ، ومن اول امرها ، على هذه الصورة الكاملة . واذا اخذنا بمذهب التطور ، وقلنا مع القائلين ان حاسة الابصار عند جميع الحيوانات تكونت وبلغت هذا الكمال بعد سلسلة من التطورات الحادثة بسبب ناموس الانتخاب الطبيعي ، وتأثير البيئة والظروف والاحوال التي تكتنف الحيوان ، فهل نستطيع ان نقنع عقلاً سليماً بأن الادوار والظروف والاحوال التي مرّت بها عَيْنُ الانسان ، تطابق تمـام المطابقة الادوارَ والظروف والاحوال والمؤثرات ، التي مرّتْ بها عيون جميع الحيوانات ؟

ان الانتخاب الطبيعي مبنيّ على المصادفة ، لان القائلين به ، يزعمون ان الحيّ يقع تحت تأثيرات مختلفة ؛ ولكن ما يتفق لهذا الحي من المؤثرات ، لا يمكن ان يتفق ، بذاته ، لكل الاحياء ، بـل لا بد من اختلاف في العوامل المؤثرة ، ولا بــد ، في النتيجة ، من اختلاف في تكوين حاسة

الابصار. فكيف يُعقَل ان يتمّ، بالمصادفة، تطور حاسة الابصار وتكوّنها في جميع الحيوانات على صورة واحدة...؟

ومن هنا ينتقل برغسون الى (نظام الزوجين) فيزيد في تهكّمه على الماديّين حيث يقول: واذا سلّمنا جَدَلاً بان هذه المصادفة السحرية العجيبة جائزة الوقوع في تكوين حاسة ابصار واحدة في جميع الحيوانات، وسهّلنا على انفسنا سبيل القناعة بقولنا ان الحيوانات ترجع، على كل حال، الى نوع واحد، فماذا نقول في النبات، وهو نوع آخر، يسير في طريق مختلف كل الاختلاف عن طريق الحيوان، اذا نحن رأيناهما متفقين في طريقة واحدة من طرق الحياة...؟ اننا نرى ان النبات والحيوان يتّبعان طريقاً واحدة في (عملية التناسل). فكيف اتفق ان اخترع الحيوان الذكورة والانوثة، وَوُفّقَ النباتُ الى الطريقة نفسها، وبالمصادفة نفسها...؟ كلا انه يستحيل ان يكون هذا الاساس الواهي، الذي يسمونه الانتخاب الطبيعي، اساساً لهذا الاتفاق. ولا بد ان يكون في جميع اجزاء الوجود، مهما تنوعت انواعه، واختلفت اجناسه، قوة متشابهة هي (الحياة). وهذه الحياة هي التي تبدع وتغيّر وتبدّل. والتطور يتم بقوة هذه الحياة، لا بقوة المؤثرات الخارجية. وخالق هذه الحياة هو الله تعالى.

حيران — حقاً ان برغسون من اعظم الفلاسفة المؤمنين بالله. وحقاً انه، كما قال مولاي، يتخذ من عقله، وحده، وسيلة للتفكير، ويصل به الى ذلك الشعور الوجداني، الذي سماه الادراك المباشر، وما هو بمباشر بل هو نتيجة تفكير عقلي باطن عميق، شعر به كانْط نفسه، وسماه الدليل الاخلاقي. وكلنا نشعر بهذا الايمان الوجداني، نفس الشعور، ولا ندري سببه.

الشيخ — وانا اشعر به نفس الشعور، ولكني سميته دليلاً معضّداً، لأنه ليس بالدليل الاقوى، الذي يجوز ان نبني عليه الايمان، لأنه قد يرجع بك، وبامثالك من الناشئة، عند المناقشة، الى نكسة في الايمان. اما الادلة العقلية القاطعة فلا سبيل الى دحضها وابطالها او استضعافها،

مهما اعترانا ، عند تركيبها ، من الكلال، ولاسيا دليل القصد والتصميم والنظام الذي ذكره برغسون آنفاً .

حيران — وما هي الدلائل المعضّدة الاخرى يا مولاي ؟

الشيخ — هي كثيرة . واعظمها معجزات الرسل .

حيران — أيرى مولاي ان المعجزات من الادلة المعضدة ولا يراها من الادلة القاطعة ؟

الشيخ — المعجزات التي فيها خرق للنواميس ، ادلة قوية ، ولكنها ليست اقوى من ادلة النظر العقلي الخالص التي تنتهي الى الحكم الضروري القاطع بوجود الله . ولكن البشر كانوا بمجموعهم ، في عهود الانسانية القديمة ، عاجزين عن الاستدلال بالنظر العقلي الخالص ، فاقتضت الحكمة ، عند دعوتهم للايمان بالله ، ان يخاطبوا بدليل المعجزة ، وهي خرق الناموس ، على يد الرسول الانسان ، خرقاً يدل على الله ، لأنه في العادة فوق قدرة البشر . ولكن لما ترقّت الانسانية في مدارج التفكير العقلي ، واصبحت متهيأة للاستدلال بالنظر العقلي الخالص ، وتقدّم العلمُ ، حتى نفذ لكثير من اسرار النواميس الطبيعية ، وصار بالامكان ان يختلط ، عند بعض الناس ، امرُ المعجزة المحضة ، بما يشبهها في الظاهر ، من التصرف العلمي في المادة على وجه يحسبه غير العالم الثّبْت خرقاً للناموس ، قضت حكمة الله بتفضيل الاستدلال بالادلة العقلية القاطعة ، على الاستدلال بالمعجزة ؛ وهذا ما سلكه الوحي في القرآن واعتمده اكثر من المعجزات ، كما سيأتيك بيانه اذا آن اوانه .

بين دارون والجسر

دخلت على الشيخ في موعدنا ، فرأيت في يده كتاباً ، وفي عينيه اثر الدموع . ولما سألته عن سبب بكائه ، قال :

لا شيء يا حيران ، كنت اطالع في كتاب شيخي الجِسْر رحمه الله فاستيقظت بي الذكريات .

حيران — وما علاقة كتاب الجسر بالذكريات ؟

الشيخ — انها ذكريات قديمة من ايام الشباب يا حيران .

حيران — اذنْ سيحدثني مولاي الليلة عن الجسر . اني والله بشوق عظيم الى الحديث عن هذا الرجل الذي يُكثر مولاي من ذكره .

الشيخ — لن احدثك الآن عن الجسر ، ولكني سأحدثك عن رجل آخر انت بشوق الى الحديث عنه اكثر من شوقك الى الحديث عن الجسر .

حيران — ومن هو هذا الرجل يا مولاي ؟

الشيخ — انه دارْونْ صاحب نظرية النشوء والارتقاء .

حيران — ما هو الداعي لتقديم الحديث عنه ، أتراه يأتي في الترتيب التاريخي قبل الجسر ؟

الشيخ — كلا بل هو معاصر للجسر ، ولكن الحديث عن الجسر ، انما يحْلو ويُجدي ، اذا سبقه الحديث عن دارْونْ .

حيران — انني عظيم الشوق الى سماع الحديث عن هذا الفيلسوف الكبير الذي طالما شغلتْ فلسفته عقولنا نحن الناشئة واوقفتْنا على شفير الألحاد .

الشيخ — ان دارْونْ ليس بفيلسوف ، ولا له فلسفة كما تظن ، بل هو عالم طبيعي كبير ، دفع (مذهب التحوّل) دفعة جريئة قوية الى الامام ،

عندما نشر في سنة ١٨٥٩ كتابه (اصل الانواع بطريق الانتخاب الطبيعي) ، فاصبح صاحب مذهب خاص، في التحول والنشوء والارتقاء ، أُطْلق عليه مذهب (الدارْونيَّة) . امـا الفيلسوف ، الذي اتخذ من مذهب التحول والنشوء والارتقاء اساساً لوضع فلسفـــة شاملة ، فهو هرْبرتْ سْبنْسرْ صاحب مذهب (التطوّر) .

واما قولك ان آراء دارْونْ وغيره شغلت بالكم ، انتم الناشئة ، واوقفتكم على شفير الالحاد ، فانا اعرّف به وبسرّه . ان هواة الفلسفة من شباب هذا الجيل ، الذين تفتحت عيونهم على العلم ، لم تشغل بالهم فلسفةٌ بقدر ما شغلتهم الآراء الجديدة في اصل الانواع والنشوء والارتقاء ، التي قامت عليها الدنيا وقعدت ، بغير حق ، من قِبَل العلماء ورجال اللاهوت جميعـاً في اوروبا واميركا . وسوف ترى ان تلك الحملة القاسية ، انما نشأتْ من عدم معرفة حقيقة آراء دارْونْ ، او من توهم تَعارضها مـع الايمان بوجود الله ، تعارضاً اساسياً قاطعاً . وسوف تعلم انـه ، لا آراءُ دارْونْ في اصل الانواع وقوانين النشوء والارتقاء ، ولا فلسفـةُ التطوّر التي وضعها سْبنْسرْ ، تنافي وجود الله ، خالق المادة بعناصرها ، وقوانينها في تحوُّلها وتطورها . لذلك ساحاول بقدر ما يمكن من التلخيص ان اوضح لك مذهب دارْونْ على حقيقته .

حيران — كلّي آذان يا مولاي .

الشيخ — ان الآثار الحيوانية المتحجرة ، التي عُثر عليها في طبقات الارض ، قد اكّدت ان الانسان (حادث) على الارض بعد أنْ لم يكن ، واكدت وجود حيوانات ونباتات منقرضة . وقد علل العلماء هذا الانقراض ، بالنكبات التي اصابت الارض من الزلزال والطوفان . وقالوا انه على اثر انقراض الاحياء في كل نكبة ، كانت تخلق حياة جديدة ، ثم تصيب الدور الجديد نكبة اخرى يعقبها خلق جديد . وهذا ما يُسمى مذهب (تعاقب الخَلْق) الذي ايده كثيرون ، منهم العالم الافرنسي (كوفْيه) والعالم السويسراني (اغاسيز) .

ولكن بعض علماء الجيولوجيا لم يقتنعوا بان انقراض الدّوْر كان يتم بتأثير النكبات ، لانها لم تكن عامة شاملة ، بل كانت في بعض جوانب الارض ، ففسروا هذا الاختلاف الموجود بين آثار الاحياء المتحجرة بنظرية (النشوء البطيء) ، وقالوا ان هذا النشوء يُحدث على كرّ الدهور انواعاً جديدة .

وهكذا افترق العلماء فئتين في تفسير خلق الاحياء : فئة تقول بان الخالق العظيم خلق في الماضي ، ويخلق بعد كل انقراض ، احياءً جديدة وانواعاً مستقلة ، وفئة تقول ان ظهور الاحياء تم بفعل الطبيعة تدريجياً على طريق النشوء البطيء وتحوُّل الانواع وظهور انواع جديدة . وكان من اشهر القائلين بهذا الرأي الاخير العالم الافرنسي (لامارْكْ) ، الذي زعم ان انواع الاحياء ليست اصيلة في الخلق والتكوين ، بل يشتق بعضها من بعض ، بطريق التحول والارتقاء التدريجي الذي يحصل بعدة اسباب : منها استعمال الاعضاء او اهمالها ، ونوع المعيشة ، وحكم الوراثة ، وضرورات الحياة : فالافاعي مثلاً لم تصبح ملساء عديمة اليدين الّا لانها تَسَرَّبُ في المسالك والجحور الضيقة ، والطيور المائية لم تكتسب شكل ارجلها الّا لاحتياجها للسباحة ، واللّقْلَقُ ما اصبح اعْنقاً الّا لاحتياجه لأخذ طعامه من الاعماق ، والزرافة ما صارت عنقاء الّا لكثرة تناولها القوت من قُمم الاشجار ....

ولكن هذا المذهب ظلّ ضعيفاً لا يقوى على الوقوف امام مذهب (تعاقب الخلق) ، الى ان جاء (دارْونْ) فدفع مذهب التحول هذا دفعة قوية الى الامام ، عندما وضع في سنة ١٨٥٩ كتابه الشهير في اصل الانواع بطريق الانتخاب الطبيعي ، ثم اصدر من بعده في سنة ١٨٧١ كتابه في (تسلسل الأنسان) .

حيران — وما هو مذهب دارْونْ .

الشيخ — ان خلاصة مذهب دارْونْ في النشوء والارتقاء : أن الاحياء خاضعة لأربعة نواميس : ناموس (تنازع البقاء) ، وناموس (التباينات بين

الافراد) ، وناموس (التباينات بالأرث) ، وناموس (الانتخاب الطبيعي) للفرد الحيّ الذي تتحقق فيه الافضلية على سواه بحكم النواميس الثلاثة الاولى .

اما (تنازع البقاء) فمعناه : ان الاحياء في تنازع دائم مع الطبيعة ، ومع بعضها . وفي هذا التنازع انما يتم الفوز للفرد الذي تؤهله صفاته للغلبة والبقاء . وهذه الصفات كثيرة ، ومختلفة بالنسبة للحيوانات والنباتات . فقد تكون الصفة المؤهلة للفوز والغلبة صفةَ القوة او الشجاعة او كبر الجثة او صغَرها او السرعة او الجمال او الذكاء ، او الحيلة في دفع الشر وتدبير القوت ، او الصبر على الجوع والعطش ، او الجَلَد على تحمل المؤثرات ، او غير ذلك . فاذا تم الفوز للافراد الذين لهم شيء من هذه الصفات ، وانخذل الافراد الذين ليس لهم ما يؤهلهم للغلبة ، كُتبَ البقاء للصالحين للحياة ، وحقّ الفناء على غير الصالحين . وهذا هو معنى (تنازع البقاء) . واما ناموس التباينات بين الافراد ، فمعناه ان الاجسام الحية ميّالة للتباين ، ببعض صفاتها ، عن الاصل الذي نشأت منه . ولذلك لا يتم التشابه كلّ التشابه بين الآباء والابناء ، ولا بين الاصول والفروع ، حتى النباتات ، التي يُخَيل الينا ان اجزاءَها تامة التشابه هي ، في الحقيقة ، متباينة ، فلا تجد ورقة تشبه اختها تمام الشبه . ولما كان هذا التباين جزئياً ، ولا يتناول الامور الجوهرية ، فانه يخفى على غير المحققين ، ولكنْ بمرور الدهور الطويلة يظهر التباين ، ويتكون النوع الجديد .

اما ناموس الوراثة فهو المتمم لناموس التباينات ، لأن التباينات التي سبق ذكرها تنتقل بالوراثة من الاصول الى الفروع ، وتكون في اول الامر جزئية وعرضية ، ثم تصبح ، بعد مرور الازمنة الطويلة ، جوهريةً وتظهر في الانواع .

اما ناموس الانتخاب الطبيعي الذي يرتكز عليه المذهب كلّه في النتيجة ، فخلاصته : ان ناموس الوراثة ، كما ينقل التباينات ، ينقل ايضاً جميع الصفات التي يحملها الاصل الى الفرع ، ماديةً كانت او معنوية ،

اصلية او مكتسبة ، وهذه الصفات، منها النافع كالقوة والصحة والذكاء ، ومنها الضارّ كالامراض والعاهات والشذوذ . اما هذه الضارة فتنتهي الى احد امرين : امّا ان تتلاشى ، بتغلب النافعة عليها ، وامّا ان تتغلب ، فتؤدي الى ملاشاة صاحبها بذاته او بنسله . واما النافعة فهي التي تجعل صاحبها ممتازاً وفائزاً في معركة تنازع البقاء .

ثم تتوارث الفروعُ هـــذه الصفات النافعةَ ، جيلاً بعد جيل . وبعد مرور الوف من الاجيال ، يبلغ الامتياز حدّاً يجعل من الفرد الممتاز نوعاً جديداً . وهـــذا هو ناموس الانتخاب الطبيعي الذي يراه دارون سبباً لتكوين الانواع الحية الموجودة اليوم على سطح الارض .

حيران — وماذا قال خصوم دارون في الرد عليه ؟

الشيخ — خصوم دارْونْ كثيرون ، منهم العلماء الذين لم يناقشوا آراء دارْونْ على الصعيد الديني ابداً ، بل ناقشوها ونقدوها على الصعيد العلمي المحض ، ومنهم رجـــال الدين الذين شنوا عليه حملة شعواء باسم الدّين . اما الردود العلمية فهي كثيرة ، اهمها : ان الحيوانات البحرية الدّنيا هي باقية ، حتى اليوم ، على الحالة كانت عليهـــا في ابتداء العالم ، ولم نجـــد انها تأثرت بناموس الارتقاء . وان طوائف الاحياء الكبرى ، الدّنيا منها والعليا ، وُجدَتْ منهـــا آثار في اسفل طبقات الارض ؛ فلو كان ناموس الارتقاء اكيداً لوجب ان يكون الاعلى منها ، كذوات الفقرات ، في اعلى الطبقات . واننا نجد كثيراً من الاجناس والطوائف قد كانت في العصور القديمة الاولى اكمل منها اليوم ، ونجد في الطبقات بعض حيوانات دنيئة فوق حيوانات عالية جداً .

حيران — اذن يريد دارْونْ ان يقول ان جميع الاحياء نشأت من اصل واحد ، تكوّن بخلق الطبيعة ، وبالتولّد الذاتي ، لا بخلق الله .

الشيخ — هذا من جملة ما اشيع عن دارْونْ جَهْلاً او بهتاناً . والحقيقة ، التي لا ريب فيها ، ان دارْونْ مؤمن بوجود الله . اما اصل الانواع فانه يبدو متردداً في تحديده ، لأنه ، مع ميله الى رد الانواع الحية كلهـــا الى

اصل واحد ، يصرّح بانها ترجع الى اربعة اصول او خمسة مخلوقة خلقاً من زمان طويل ،كل زوج منها اصل . ولا يتردد دارْونْ ابداً في الاعتراف بان الله هو الخالق لاصل الانواع ، سواء اكانت اصولاً عديـــدة او اصلاً واحداً ، لان عقله لم يتسع لتصديق رأي القائلين بان اصل الانواع تولـّد (تولـّداً ذاتياً) بنفسه وبفعل الطبيعة .

حيران – كيف اذاً سمعنا هذا الرأي عنه وعن اشياعه ؟

الشيخ – نعم ان هنالك اشياعاً آخرين ملحدين من اصحاب المذهب المادي ، لم يرضوا بقول دارْونْ ان الحياة نُفخت في الاصل بقدرة الخالق العظيم ، فاتهموه بانه يمالىء رجال الدين ، ويترضّاهم ؛ واخذوا يخترعون تفسيراً لنشأة الحياة الاولى من المادة الميتة ؛ فزعم بعضهم ان اصل الحياة كرّية بسيطة ذات خلية واحدة ، وزعم آخرون ان الحياة عبارة عن كتل زلالية حية صغيرة هي ادنى من ذات الخلية الواحدة وابسط ، لذلك سموها (مونيرا Monère) اي الوحدة البسيطة في اليونانية ، وزعموا انها تتكون من الجماد (بالتولـّد الذاتي) . ومن اشهر القائلين بذلـــك العالم البيولوجي الالماني (ارنستْ هيكل) .

حيران – وماذا يقول هيكل ؟

الشيخ – يقول هيكل ان الكون مؤلف من المادة ، والمادة مؤلفة من الذرات . ومن هذه المادة ظهر كل مـــا في الكون من احياء وغير احياء . وحركة العالم هي حركة تطور دائم ، يبتديء من ابسط الذرات ، وينتهي الى ارقى الكائنات . فهذه الكائنات كلها ، حيّها وجمادها ، تتألف من عناصر واحدة ، لا فرق في ذلك بين حيّ وغير حيّ ، لان عناصر المواد العضوية موجودة بذاتها في المواد غير العضوية . وان بالامكان تحضير بعض مركبات عضوية بطريقة صناعية .

وعلى هـذا الاساس يقول هيكل ان ابسط انواع الحيوان نشأت من مادة (غير حيّة) بطريق (التولـّد الذاتي) .

حيران – كيف تنشأ الحياة من الجماد ؟

الشيخ – يُقدّر هيكل، تقديراً، ان اصل الحياة نشأ من توازن نسبي بين مقادير خاصة من العناصر المادية . ولكن هذا التوازن دقيق جداً ، الى حدّ انه قد يكون نقص جزء واحد ، او زيادة جزء واحد من احد العناصر ، سبباً في نشوء الحياة ، او تعطُّل نشوءها . هـذا ما يُقدّره هيكل تقديراً . ولكنه يقف هو وغيره من الماديين ، عاجزاً عن معرفة سر هـذه النشأة للحياة الاولى من الجماد . حتى ان احدهم (بُخْنَر) ، الذي هو من اشد المؤيدين لمذهب النشوء ، ومن اكثر الماديين غلوّاً ، ومن الذين اتهموا دارْونْ بانه كان مُصانعاً لرجال الدين ، قـد وقف ، امام خلق الحياة من الجمـاد ، حائراً حيث يقول ، بانصاف العلماء وتجردهم : (ان البتّ في امر التولد الذاتي للكريّة الاولى التي نشأ عنها الاصل الاول امرٌ غير متيسر ، لان الاحوال المناسبة لتولد الكريات الاولى ، تولداً ذاتياً غير معروفة . والكرية ذاتها ، على بساطتها ، ذات بناء وتركيب يمتنع معه صدورها من الجماد مباشرة . بل ان ظهورها من الجماد ليُعَدّ ، في نظر العلم ، معجزة ليست اقـل بعداً عن العقل من ظهور الاحياء العليا من الجماد رأساً) .

حيران – هذا عظيم ولكن سمعتُ فيما سمعت ان دارْونْ يقول ان اصل الانسان قرد ارتقى فصار انساناً ، فكيف يتلاءم هـذا مع ما اتهم به من المصانعة لرجال الدين ؟

الشيخ – وهذا ايضاً لم يقله دارْونْ وان كان مذهبه في اصل الانواع يحتمل هذا القول . ولكن بعض غلاة الماديين اتخذوا من مذهب دارْونْ وكلامه عن الاعضاء الاثرية وسيلة لنفي الغاية والحكمة في الخلق فانكروا (الخلق الدفعي المباشر) الذي ذكرته الكتب المنزلة ، وزعموا ان الانسان اصله من القرود ، واستدلوا بالشبه العظيم بـين القرد والانسان ، في اكثر الاعضاء ، وبعض الطبائع كالحيض ، وقالوا ان لكثير من الحيوانات كل احساسات الروح كالفرح والحزن والحقد والمودة ، ولهـا شيء من قوة التفكير والمقارنة ، واستنتجوا من ذلك ان لها عقولاً وعواطف كالانسان ،

مع الفارق في درجات الرقيّ . ولكن هؤلاء القائلين بنشوء الانسان من القرد تحيروا في كيفية انتقال القرد من الحيوانية الى الانسانية ، نقلته الاخيرة ، فقال بعضهم انها حصلت فجأة ، وقال آخرون انها حصلت بالتدريج ، لأن النقلة الفجائية بعيدة جداً لما بين القرد والانسان ، في العقل، من الفرق العظيم ، وبحثوا عن الحلقة المفقودة في طبقات الارض فلم يجدوا لها اثراً ، ولم يتمكنوا حتى اليوم ، من البتّ في تلك النقلة برأي قاطع او راجح ، فظلت النشأة الاصلية موضع شك عظيم .

حيران — وما هي فلسفة التطور التي وضعها سبنسر ، وما الفرق بين التحول والتطور ؟

الشيخ — ان الفرق بين التحول والتطور ، في اصطلاح العلم والفلسفة ، يكاد يكون ضئيلاً مثلما هو ضئيل في اللغة . فمذهب التحول Transformisme هو المذهب البيولوجي القائل بان الانواع الحيوانية والنباتية تتحول فتولّد انواعاً جديدة . ومذهب التطور L'évolutionisme هو المذهب البيولوجي الذي يقول ، ايضاً ، بحصول التحول الارتقائي في الانواع الحية . فالمذهب الدارويني هو في الحقيقة مذهب (تحولي تطوري ارتقائي) . ولكن داروِن قال بالتطور كمذهب بيولوجي ، ولم يجعل منه فلسفة شاملة للوجود ؛ اما سبنسر فقد جعل من التطور فلسفة شاملة للوجود ، بكل ما فيه من ماديات ومعنويات فعُدّ واضعاً (للفلسفة التطوريّة) .

وخلاصة هذه الفلسفة ، (التي هي في الحقيقة وصف جميل لبعض الواقع المشاهد من صور الوجود ، اكثر مما هي تعليل لنشأة هذا الواقع الموجود) : انّ كل ما في الكون ، من الاشياء المادية والعضوية والعقلية والاجتماعية والاخلاقية ، ناتج من تجمع الاجزاء المتجانسة تجمعاً يَحدّ من حركتها ، ويقيدها ويشتت قوتها ، فيؤدي بها الى التباين في الصور والتنوع ، ثم الى التنافر والانحلال والموت ، ثم الى التجمع كرة اخرى وهكذا ...

فمن تَجَمُّعِ الذرات المادية تتكون الحجارة والجبال، ومن تجمع قطرات الماء تتكون البحار ، ومن تجمع الافراد تتكون الأُسَر ، ومن الأُسر تنشأ

القبائل ، ومن القبائل ، تتكون الدولة ؛ ومن العادات تتكون الاخلاق والنظم والاديان ، ومن تعدّد الآلهة نشأ التوحيد ، ومن تجمع الاحاسيس تتكون الافكار والمعارف الجزئية ، ومن المعارف الجزئية يتكون العلم ، ومن تجمع العلوم تتكون الفلسفة ....

اما تطور الاحياء فانه يسير ، كما قال دارْونْ ، وسواه ، على اساس التوفيق والملائمة بين الكائن الحيّ والبيئة التي يعيش فيها ، والضروراتِ التي تكتنفه ، والحاجاتِ التي تساعده على الحياة والبقاء . وبحكم هذه الضرورات والحاجات تكونت اعضاء الحيوانات وحواسها ، حتى العقل وما فيه من الافكار التي نسميها فطرية ، قد نشأت من هذا التطور . فاصل الغرائز انعكاسات متراكمة ، وعادات مستحكمة . ومن الغرائز تكوّن العقل . وما صُوَر الفكر الفطرية كقانون العليّة ، وصيغ الزمان والمكان ، الّا طرائق غريزية للتفكير ، كسَبَها الجنس ، فاصبحتْ على كرّ الزمان راسخة فيه رسوخ الفطرة .

حيران — اذكر اني قرأت مقالاً عن فيلسوف الماني يدعى شَوبنهَوْر يقول بمثل هذا عن تكون الأعضاء بسبب حاجة الحيوان الى الحياة والغذاء والبقاء .

الشيخ — نعم ان شوبنهور عبّر عن هذه الحاجات والضرورات (بالارادة) ، وتوسّع في معنى هذه الارادة حتى جعلها الحقيقية النهائية لكل شيء ، فزعم ان العالم باسره ليس الا عبارة عن مجموعة ارادات في حالة فاعلية مستمرة ، وان هذه الارادة هي قوة حيوية تشكّل كل شيء ، وتكوّنه وتوجّهه وتسيّره بمقتضى احتياجاتها ، ونحن لا نرى من الاشياء الجزئية الا ظواهر هذه الارادة المتجسّدة .

حيران — هل يعني شوبنهور بالارادة ما فَطر الله عليه الاحياء من فطر وغرائز ، وما في الكون الطبيعي كله من قوانين ونظم ، أم يعني بالارادة المتجسدة ان ارادة الله جسدت هذا الكون وجعلت فيه ارادات تسيّره وتطوّره ؟ والّا فما معنى هذه الارادة ومن الذي اوجدها ...؟

الشيخ – انني افهم من كلام شوبنهور ، على غموضه ، انه يريد ان ينفي المادّية الآلية ، ويقرر وجود قوة فعالة وراء المادة ، هي (الحياة) . ولكنه رأى هذه القوة تفعل في غير الاحياء ايضاً ، فعبر عنها (بالارادة)... وعلى كل حال ، يا حيران ، ليس في مذهب التحول والتطور من طريق النواميس ، سواء سميناها (حياة) أو (ارادة) ما ينافي الاعتقاد بوجود الله .

حيران – كيف ذلك ؟

الشيخ – ستجد هذا مبسطاً في كلام الجسر .

حيران – كل هذا الذي ذكره سبنسر عن فلسفة التطور ، لم يكشف لنا عن سر هذا النظام الذي يسير عليه التطور ، ولا ذكر لنا العلة الاولى لوجود هذا الكون بذراته واجزائه وعناصره وخواصه وقوانينه ، المؤدية الى ذلك التجمع والتفرق .

الشيخ – ان سبنسر جعل فلسفته قاصرة على وصف هذا التطور في صور الحياة ، وحاول ان يجعله شاملاً لصور الوجود كلها . واما ما وراء ذلك من حقيقة الكون وعلّته فان سبنسر يرى ان العقل عاجز عن الخوض فيه ، لأنه أُعِدّ لفهم ظواهر الاشياء ، واكتسب وجوده من ممارسة هذه الظواهر . وكل بحث نظري عقلي ، فيما وراء هذه الظواهر ، لا بد للعقل ان يتعثر فيه ويرتبك ويحتار لأن القول بان هذا العالم وجد بذاته ولم ينشأ عن علة ، وليس له بداية ، هو قول لا يقبله العقل الذي يتطلب لكل معلول علة . ولكن هذا العقل كما يتطلّب ان يكون لهذا العالم علة اولى كانت سبباً لوجوده ، فانه يكلُّ ويعجز عن تصوُّر علة أوّلى لا علة لها .

حيران – هذا نفس ما قاله عمانوئيل كانط في عجز العقل ، ولكن هل جاراه ايضاً في ايمانه ؟

الشيخ – نعم ان سبنسر جارى (كانط) في كلامه عن عجز العقل وارتباكه وتعثره ، وآمن مثله ، في النتيجة ، ايماناً وجدانياً فقال : ان هنالك حقائق تشعر نفوسنا ، شعوراً باطنياً قوياً ، بوجودها ، ولا نستطيع

ادراكها بعقولنا ، ومن اهم هذه الحقائق الايمان بوجود الله ...

حيران — لقد فهمت من الشيخ ان دارون كان مؤمناً بوجود الله ، فما هي اسباب الحملة الشعواء التي قال مولاي انها اثيرت عليه ، ولِمَ لمْ تُشَن على سبنسر وهو الذي قال بمذهب التطور ، نفسَ الشيء ، الذي قال به دارون ؟

الشيخ — لم تَقمْ الحملة على سبنسر لانه لم يأت بجديد ، في نظرية خلق الانواع ، غير الذي ذكره دارون ، وكانت الحملة ضد دارون ، قد استنفدت قوتها ، يوم نَشَر سبنسر فلسفة التطور ، فكان من الطبيعي ان لا تثير آراؤه ضجة جديدة في هذا الموضوع ، كما اثارت آراء دارون في الخلق التدريجي التطوري ، الذي رأى رجال الدين فيه خطراً على الايمان ، وتكذيباً لما ذكرته الكتب المنزلة عن خلق الانسان الاول .

ولقد كانت الحملة على دارون قاسية وهوجاء الى الحدّ الذي خرج به اعاظم رجال اللاهوت في العالم ، وكثيرٌ من رجال العلم والسياسة والصحافة ، عن ادب النقاش العلمي الى السبّ والشتم والتهكم والاذى والتكفير . ويكفيك ان تعلم من اخبار هذه الحملة الهوجاء ، التي استمرت في ضراوتها الى نهاية القرن التاسع عشر ، مثلاً : ان اسقف اوكسفورد ، وهو من اكبر العلماء ، اعلن ، في خطبة القاها امام مجمع تقدم العلوم البريطاني ، (ان دارون ارتكب اشنع جريمة حينما حاول ان يحدّد مجدَ الله في فعل الخلق) . وان الكاردينال (مانِّنْغ) قال (ان مذهب دارون هو فلسفة وحشية تؤدي عقلاً الى انكار الألـه) . وان الدكتور (به رّي) كبير اساقفة ملبورن وضع كتاباً حمل فيه على دارون واتهمه بانه يزرع في نفوس الناس بذرة الكفر وانكار الكتب السماوية . وان المونسنيور (سه غورْ) في فرنسا قال عن مذهب دارون (انه من المذاهب المرذولة التي لا يؤيدها الا احط النزعات واسفل المشاعر ، فابوها الكفر وامها القذارة ...) ؛ وفي المانيا اعلن بعض العلماء ان مذهب دارون يناقض كل فكرة موجودة في الكتب المقدسة . واعلن (لوتاردت) استاذ اللاهوت في لايبزيغ (انّ

فكرة النشوء تناقض الحكمة الالهية مناقضة تامة ، وان فكرة الخلق ملك للدين لا للعلم الطبيعي وان كل الهيكل الاعلى للدين ، انما يقوم على مذهب الخلق) . ودعا احد علماء اللاهوت في سويسرا الى القيام بحرب صليبية ضد هذا المذهب الخاطيء المفسد ... ، وقالت مجلة جامعة دبلن (ان داروت يبحث كيف يخلع الله عن عرشه) ، ووصف العلامة الدكتور قسطنطين جمس في كتابه (الداروينزم او الانسان القردي) ، الذي نشر في باريس سنة ١٨٧٧ ، مذهبَ داروت بانه (اسطورة واضحوكة) . وتهكم الوزير غلادستون نفسه على المذهب في احدى خطبه . وقال الدكتور هدج من جامعة برنستون (انه يجب منع نشر امثال هذه المذاهب التي تنافي الكتب المقدسة) ، وقال الدكتور دوفيلد من الجامعة نفسها : (ان التوفيق بين مذهب النشوء وبين التنزيل غير ممكن ، وان من يؤمن به ، ولو ثبت علمياً ، يكون كافراً بالله) . وقال الدكتور (لي) (انه لا يمكن باي اسلوب من اساليب التفسير ان نؤوّل لغة الكتاب المقدس بتوسّع يحتمل القول بهذا المذهب ، ونعت داروت واتباعه بانهم مبشرو البلاليع القذرة ...) ، وفي الكلية الاميركية في بيروت طُرد الاساتذة الذين ظهر انهم يقولون بمذهب داروت .

يقول حيران بن الاضعف : وهنا سكت الشيخ الموزون ، واطرق طويلاً وانا صامت انظر اليه وانتظر تتمة كلامه ، ثم رفع رأسه وهو يبتسم ابتسامة فيها كل معاني الفخر والاعتزاز ، وعاد يقول :

الشيخ — وفي صميم هذه المعركة الهائلة ، يا حيران ، وُجدَ ، في العالم كلّه عالم ديني واحد ، تجاسر على ان يؤلف كتاباً يقول فيه ان مذهب داروت ، عند ثبوته ، لا يتعارض مع احكام القرآن ولا مع الايمان بوجود الله الخالق العظيم .

حيران — ومن هو هذا العالم يا مولاي ؟

الشيخ — هو الشيخ حسين الجسر مؤلف (الرسالة الحميدية) الذي سأحدثك عنه في ليلة اخرى ، فان الحديث عنه يطول ؛ انه شيخي وبه

هُديت الى الحق ، فلا اكتفي ، من الكلام عنه ، بالقليل .

حيران – اننا لا نزال يا مولاي في اول الليل ، فارجوك ان لا تقطع عني سلسلة الحديث .

الشيخ – انني انا العجوز لا ابالي ، يا حيران ، بالسهر ، ولا اكاد انام من الليل الا قليلاً ، ولكني اخاف عليك انت ...

حيران – ان شوقي الى الحديث يجعلني اكثر من مولاي صبراً على السهر ...

الشيخ – انّ الجسر يا بني اشبه العلماء بالامام الغزالي ، واوجهُ الشبهَ بينهما كثيرة ، اهمّها : ان الجسر كان ، كالغزالي ، عالماً متكلماً من اكبر علماء الدين في عصره ، وكان مثله واسع الاطلاع على حقائق العلوم الكونية ، عظيم التبحُّر في الفلسفة الميتافيزيقية . وكان غرض كل منهما ، من الخوض في مباحث الفلسفة ، اثبات وجود الله . وكما ان الغزالي كان يؤمن بحقائق العلم التي تقوم عليها البراهين الصحيحة ، ويستنكر القول بمنافاتها للدين ، ويُنحى باشد اللائمة على من ينكرونها وهم يحسبون انهم بهذا ينصرون الدين ، ويقول عنهم انهم اضرّ على الدين من اعدائه ، فان الجسر ، ايضاً ، يشدد النكير على علماء الدين الذين ينكرون حقائق العلم القاطعة ، ويقول عنهم انهم عَقبة في سبيل الايمان ، لجهلهم بقواعد الدين واصوله ، وبطرق التوفيق بين نصوصه الحكيمة والادلة العقلية القاطعة ، وانهم بهذا اضرّ على الدين من الدّ اعدائه .

وقد اتفقا في ان كلاّ منهما وضع كتاباً خاصاً للردّ على الفلاسفة ، في النواحي التي وجد انها تخالف الدين حقاً . فالغزالي وضع كتابه (تهافُت الفلاسفة) ، الذي حدثتك عنه ، والجسر وضع كتابه (الرسالة الحميديّة) . ولكن الفرْق بين الرجلين هو في امرين : الاول ان الغزالي قصَر كلامه في (التهافت) على رد بعض اقوال الفلاسفة الالـهيين ، كما علمتَ ، ولم يتناول رأي الماديين الطبيعيين المنكرين لوجود الله . اما الجسر فانه وجد ، ان المذهب المادي قد اخذ ، بعد خموده وخموله

ينتعش على ايدي بعض الماديين من علماء القرن التاسع عشر ، فاختار ان يجعل اكثر كلامه مع هؤلاء الماديين . والامر الثاني : ان الجسر تعرّض لآراء جديدة ، ظهرت في عصره ، واهمها مذهب النشوء والارتقاء ، الذي جرّ الاخذ به ، بعض العلماء الطبيعيين ، الى انكار الخالق ، والقول بان الحياة انما نشأت من اجماد بالتولد الذاتي ؛ وهـذه آراء مادية لم تكن موجودة ، بمثل هذا التوجيه والتفصيل ، في عهد الغزالي ، ولا كان لها اشياع واتباع بقدر ما اصبح لها اليوم ، فرأى الجسر ان يتولى مناقشة هذه الآراء ، على ضوء الدين الحق ، والعلم الصحيح .

وقد بدأ الجسر كلامه مع الماديين في اثبات حدوث العالم واثبات وجود الله وصفاته المتوجبة له عقلاً ، ثم تناول شبهات الماديين ، التي تَحُول دون اعتقادهم بوجود الله ، وخلْق العالم من العدم ، وبوجود نظام وحكمة في الخلق ، ففنّدها وابطلها ؛ ثم تناول فلسفة النشوء والارتقاء ، فتكلم عنها بكلام مسهب ، زيّنه بالكثير من آيات السمو والانصاف . وكان في كل آرائه شديد الاعتصام بالدين ، حريصاً على التوفيق بين المنقول والمعقول ، عليماً بطُرق هذا التوفيق ، بعيداً عن الجمود والتعصب الاعمى ، صادقَ اليقين بان دين الاسلام لا يمكن ابداً ان يتنافى ، او يتعارض مع احكام العقل السليم .

حيران — هل يختلف كلام الجسر في قضية حدوث العالم وقِدمه عن كلام الغزالي وغيره ؟

الشيخ — انه في الجوهر لا يختلف ، ولكن لما كان الجسر يردّ على الطبيعيين الدهريين المنكرين لوجود الله اصلاً (خلافاً للغزالي الذي كان ردّه على الالـهيين القائلين بقدم العالم دون انكار وجود الله) ، فان كلام الجسر يختلف عن كلام الغزالي في بعض النواحي ، من جهة الاسلوب في مناقشة ادلة الماديين .

وترى الجسر ينهج نهج الغزالي نفسه ، فيقرر اولاً مذهب الفلاسفة الماديين على لسانهم ويشرحه ، ثم يبدأ في الرد عليهم ؛ فيقول ما خلاصته :

(ان الذي قرّ عليه الامر، الآن عندكم ، أن اصل العالم امران : المادة وقوتها اي حركتها ، وانّهما قديمتان متلازمتان من الازل ، وليس لهذه الحركة سبب الّا نفسها ، وان المخلوقات كلها تكونت من المادة بواسطة حركتها ، وحدثت ، بعد ان لم تكن ، حدوث المعلول عن علته ، بمقتضى الضرورة . وليس للمادة وحركتها ارادة وقصد في تكوين شيء منها . وتقولون انه ثبت لديكم حدوث الحيوانات والنباتات ، بعد ان لم تكن ، باكتشاف طبقات الارض التي ظهر لكم منها ان آخر طبقة وصلتم اليها خالية من الاحياء وآثارها ، وانه مرَّ على الارض زمن كانت فيه خالية من الاجسام الحيّة ، وانه بتجمّع اجزاء المادة ، بواسطة حركتها ، تكوّنت العناصر الاصلية ، وبتمازجها ، على نِسب مخصوصة ، تكونت الاجسام الحية . وان اول شيء تكوّن من الاجسام الحية ، مادة زلالية لها قوة التغذي والانقسام والتولد وهي (البروتوبلاسما) ، ومن تولدها حدثت ابسط النباتات والحيوانات ، وان هذه الاحياء اخذتْ في التكاثر والتنوع بتأثير النواميس الاربعة التي ذكرتموها في مذهب النشوء والارتقاء ، حتى وصلتْ ، بعد كَرّ الملايين من السنين ، الى ما وصلت اليه اليوم ، وان الانسان ليس الّا حيواناً من جملة هذه الحيوانات ، ترقّى بقوة ناموس (الانتخاب الطبيعي) ، وانه قد يكون مشتقاً من القردْ ، وان عقله لا يختلف عن عقول بقية الحيوانات ، الّا بكونه اعلى منها في سلّم الرقي والتطور .

وبعد ان يلخّص الجسر المذهب المادي الطبيعي ، يأخذ في الرد على الماديين الطبيعيين فيقول لهم :

(انني ، بعد التأمل الصادق في مذهبكم هذا ، وجدتُ ان اساسه ، هو اعتقادكم بقدم المادة ؛ فلما اعتقدتم قدمها لم تؤمنوا بوجود الله احدثها . ولما وجدتم تنوعات المادة ، وثبت عندكم ان هذه التنوعات حادثة ، ولم تسلّم عقولكم بحدوثها عن نفس المادة فقط ، احتجتْم الى اثبات حركة اجزائها الفردة ، وبنيتم على المادة والحركة تكوُّن التنوّعات . ولو انكم اعتقدتم بحدوث المادة لالجأكم الامر الى الاعتقاد بوجود الله احدثها ،

واحدة فيها من التنوعات ، ولم تتجشموا القول بان تلك التنوعات نشأت عن المادة وحركتها ، بوجه الضرورة ، بدون قصد ولا ادراك ولا تدبير .

فالذي اراه ان اول ما يجب عليّ ، هو ان اقيم لكم البرهان على ابطال قِدَم المادة وعلى اثبات حدوثها :

والمتأمل المحقق في مذهبكم يرى فيه ثلاث قضايا ، لا يمكن اجتماع ثبوتها معاً ، لان القول بثبوت بعضها يؤدي ، حتماً ، الى نفي ثبوت البعض الآخر. فالقضية الاولى : انكم تقولون بقدم المادة وقدم حركتها ، وانهما متلازمتان من الازل لا تنفكان عن بعضها . والقضية الثانية : انكم قلتم (بحدوث) الانواع الحية بعد ان انكشف لكم من علم طبقات الارض ان انواع الحيوانات والنباتات قد حدثت في الارض بعد ان لم تكن ، وانّ الانسان احدثها عهداً . والقضية الثالثة : انكم قلتم ان جميع التنوعات حدثت بواسطة حركة اجزاء المادة ، تلك الحركة الملازمة لها من الازل على وجه الضرورة ، ولم يكن للمادة ولا لحركتها اختيار في ذلك ولا ارادة . ومعنى ذلك عندكم ان التنوعات حدثت عن المادة وحركتها حدوث المعلول عن علته . هذه هي القضايا الثلاث التي تثبتونها ، وانا اقول لكم في جواب ذلك :

ان كل عقل سليم يحكم حكماً قاطعاً ، لا ريب فيه ، بأن الشيء لا يتخلّف عن علته المستلزمة له البتّة . فان كانت علته حادثة ، كان هو حادثاً عقبها بدون تأخير ، وان كانت قديمة كان هو قديماً ، والّا لزم وجود العلة بدون المعلول ، وهو محال عقلاً . فقولكم بقدم المادة وقدم حركتها ، اللتين هما علة التنوعات الكونية ، يلزم منه قدم هذه التنوعات . وانتم لا تقولون بقدمها .

فانتم في هذا ، اذنْ ، بين ثلاثة امور : امّا ان تقولوا بقدم تلك التنوعات المعلولة ، تبعاً لقدم علتها ، خلافاً لما ثبت لكم باكتشافاتكم ، وامّا ان تقولوا ان المادة وحركتها فاعلتان (بالاختيار والأرادة) فخصصتا

زماناً معيناً لحدوث التنوعات ، وهــذا ما تنكرونه اشد الانكار ، واماً ان تقولوا (بحدوث) المادة وحركتها ، وهو المطلوب ...

ثم يوجه الجسر الرد توجيهاً آخر فيقول : لا يخفى ان المادة لا يُعقل ان تخلو من صورة تقوم بها ، ولذلك قلتم انها لم تكن قط بـلا صورة ، لان المادة وحركتها ، اللتين عنهما تنشأ الصورة ، قديمتان متلازمتان . ولكن العقل السليم يقطع بان كل صورة تقوم في المادة هي حادثـة لانها تزول وتتغير ، ولو كانت ابسطَ صورة ، بدليل ان تلك الصورة البسيطة قد تغيرت وانعدمت ، وخلفتها صور التنوعات الحيّة التي اثبتم انّ وجودها في طبقات الارض حادثٌ .

ولا يخفى ، عقلاً ، ان كل ما يطرأ عليه العدم يستحيل عليه القِدَم . فما دامت الصورة (اللازمة) للمادة حادثة ، فلا يمكن ان تكون المادة قديمة ، لاننا اذا رجعنا لابسط صورة كانت للمادة ، نجد ان هذه الصورة حادثة ايضاً ، بدليل قبولها العدم . فَقَبْلَ حدوثها ماذا كان حال المادة ؟ إمّا ان يقال انها كانت بدون صورة ، وهـذا ما نفيتموه لانه محال عقلاً ، فالمادة لم تكن ابداً بدون صورة ، كما قررتموه والذين قبلكم من الفلاسفة ؛ وإمّا ان تقولوا ان المادة حدثت مع الصورة ، فتكون حادثة لا قديمة . وبعبارة اخرى نقول : ان المادةَ ، بحسب قولكم وبحكم العقل السليم ، ملزومةٌ للصورة ، والصورةُ لازمةٌ للمادة لا تنفكّ عنها ، فلو كانت المادة (الملزومة) قديمةً ، لكانت الصورة (اللازمة) قديمة ، لعدم جواز انفكاك اللازم عن الملزوم عقلاً ، لكن هذه الصورة ليست بقديمة ، بدليل قبولها العدمَ ، فالمادة اذنْ ليست بقديمة .

وبعد ان برهن الجسر ، على حدوث العالم بمادته وصوره ، بهذه البراهين ، التي ليس للعقل محيص عنها ، والتي اعتنقها اكابر العلماء والفلاسفة ؛ يقول للماديين :

ان الحادث لا بد له من امر يحدثه ، ويترجح به وجوده على عدمه ؛ والّا لزم الترجّح بـلا مرجح ، وهو من المحالات البديهية . واذا ثبت ان

المادة حادثة ، فلا بد من شيء حدثت عنه ، وترجّح به وجودها على عدمها ؛ وهذا الشيء لا بد ان يكون (موجوداً) ، لأن المعدوم لا يوجد عنه شيء ، وهذا الموجود هو الله تعالى .

ولا بد عقلاً ان يكون هذا الموجود (قديماً) ، لانه لو كان حادثاً ، لاحتاج الى محدِث ، فيلزم امّا الدّوْر وامّا التسلسل ، وكل من الدّور والتسلسل محال عقلاً .

ثم ان ذلك الموجود القديم ، الذي احدث المادة ، إمّا ان يكون حدوثها عنه بطريق العلّية والضرورة ، بدون ارادة واختيار ، وإما ان يكون حدوثها عنه بالارادة والاختيار . وغير جائز ، عقلاً ، ان يكون حدوثها بطريق العلّية والضرورة ، لأنه لو كان كذلك ، (وهو قديم) ، للزم ان تكون المادة وتنوعاتها قديمة ، وقد ثبت حدوثها وحدوث تنوعاتها . فلم يبق الا انها حدثت بارادته واختياره ، وتخصيصه لها الوقت الذي وُجدتْ فيه ، فثبت بهذا ان ذلك الموجود القديم مريد مختار .

ثم ان الارادة تَصلح لترجيح الوجود على العدم وتخصيص زمانه . واما نفس الوجود فلا يتم بالارادة وحدها ، بل لا بد له من القدرة والعلم . ولا ريب في ان هذا الالـه العظيم الذي اوجد تلك المادة ، وجعلها قابلة للتطوّر والتحول من صورة الى صورة ، هو قادر اكمل القدرة ، عالم اتم العلم ، سواء اكان هو الذي نوّع تنوعات المادة وطوّرها ، او انّه اوجد المادة الصالحة ، لتلك التنوعات والتطورات ، بموجب النواميس التي وضعها فيها ، وبحركة اجزائها ، كما يقول الماديون . فكِلا الامرين يدل دلالة قاطعة على كمال قدرته وعلمه ؛ لان الذي يوجد شيئاً بسيطاً ، ثم يقلّبه الى انواع لا تُعدّ ولا تحصى ، او الذي يوجد شيئاً بسيطاً قابلاً ، بمقتضى نواميس اقامها فيه ، ان يؤول بانقلابه الى انواع تفوق الحصر والحدّ ، وتدهش العقل اتقاناً واحكاماً ، لا يَشك عاقل بوجوب علمه وقدرته ، فثبت بهذا ان ذلك الالـه الموجود القديم المريد المختار ، قادرٌ عليم .

وبعد ان يستوفي الجسر بسط الادلة والبراهين على صفــات الكمال لله تعالى ، يلتفت الى اولئك الذين لا يؤمنون الّا بمــا يقع عليه الحس والمشاهدة ، ولا يقيمون وزناً للاستدلال من طريق النظر العقلي الخالص ، فيقول لهم :

انكم لما لم تهتدوا الى العلم بوجود الله الذي اوجــد المادة ، اعتقدتم قدمها ، ثم رأيتم تنوعاتها ، فاحتجتم الى موجب نشأت عنه هذه التنوعات ، لان العقل لا يقنع بكونها حدثت عن المادة لمجردها بدون سبب صالح لاحداثها ، فقلتم : ان اجزاء المادة الفردة المختلفـة الاشكال هي متحركة حركة ازلية ، وبسبب تلك الحركة اخذتْ تتجمع ، على كيفيات واوضاع شتّـى ، فانتجت تلك التنوعات ؛ مع انكم باعترافكم ، لم تعلموا حتى اليوم حقيقة المادة . وما قولكم ، في التجمع على سبيل المصادفة ، الّا من باب التخمين والتقدير والاستدلال ؛ وهكذا عدلتم عن قاعدتكم التي طالما تمسّكتم بها ، وهي انكم لا تُسلـّمون الا بالذي يؤديكم اليه الاحساس والمشاهدة ، والتجأتم الى الاستدلال بالدليل النظري العقلي ، بدون احساس ولا مشاهدة . وما دمتم رجعتم الى الاستدلال من طريق النظر العقلي الخالص ، اسألكم : هــل الاهْون على العقل السليم ان يُصَدّق ان كل ما في العالم من نظـام وابــداع واحكام هو اثر من آثار اجتماع المادة العمياء ، ام الاهْون على العقل والاقرب اليه ان يكون ذلك قدْ تمّ بخلق الله قادر مريد عليم حكيم ...؟

ومن هنا يتجه الجسر الى الاستدلال بدليل النظام والاتقان والاحكام ، بعد ان يشير الى ما في الاشياء من خواص وطبائع ، جُعلتْ فيها بتخصيص قادر عليم حكيم ، لولاه ما كان لها ان تخص بها نفسَها بنفسها ، لانه لا ضرورة عقلية تقتضي ان يكون للشيء تلك الخاصية التي فيه دون سواها او عكسها (وهو التخصيص الذي ذكره الغزالي واوضحتُه لــك عند الكلام عن هيومْ شيخ الشكـّاك) فيلفتُ الجسْر الانظار الى كثير مما في هذا العالم من آيات الابداع والاحكام . ثم يلتفت الى الانسان فيرى في خلقه

وتكوينه من آيات الاحكام والاتقان اموراً لا تُعَد ولا تحصى ، فيختار منها (حاسّة البَصَر) فيقول : (واذا نظرنا الى الحواس الخمس وخصوصاً حاسة البصر ، وجدنا اموراً تدهش العقول وتحيّر الالباب : فقد وُضِعَتْ العين في تجويف . وهي مؤلفة من ثلاث طبقات ، وثلاث رطوبات ، مع ما يلزم لهـــا من الرباطات والاوردة والشرايين والاغشية والعضلات . فالطبقات أولاها (الصّلبة) وهي غشاء لدْن متين ظليل ، لا ينفذ منه النور ، ولا يُرى مـــا وراءه ، يحيط بباقي الطبقات وجميع الرطوبات لوقايتها وحفظها ؛ الّا ان في مقدّمـه قطعةً شفافة ، محدّبة من الخارج مقعّرة من الداخل ، تسمى (القَرْنية) . وثانية الطبقات هي (المَشيميّة) وهي ناعمة سوداء اللون متوسطة بين الصلبة والشَبَكيّة . وثالثهـا هي (الشبكيّة) وهي مكونـــة من انساط العصبة البصرية ، التي تنشأ من الدماغ وتدخل العينَ من مؤخرها . اما الرطوبات فأُولاها (المائية) وهي سائل صاف شفاف موضوع في غرفة وراء القرنية ؛ ويحدّ هذه الغرفـة من ورائها حجاب مثقوب الوسط يسمى (القزحية) لونها اسود او ازرق او اشْهل او غير ذلك ، ويسمى الثقب الذي في وسطهـــا (البؤبؤ) . وثانيةُ الرطوبات هي (البلّورية) وهي جسم لدْن املس شفاف كالعدسة المحدّبة من وجهيها ، وهي اكثف في الوسط منها في الجوانب ، وموضوعة وراء (القزحية) . وثالثة الرطوبات هي (الزجاجية) وهي جسم شفاف، لزج كبياض البيض ، يشغل ما بقي من الخلاء وراء البلّورية حتى تصل الى الشبكية .

ولما كان العامل برسم صور المرئيات في العين هو النور الواقـــع على المرئيات والمنعكس عنها ، وكان للنور نواميس وقوانين خاصة معلومـة ، في انعكاسه وامتصاصه ونفوذه وتجمّعه وانتشاره ، يتعذّر معهـا الابصار ما لم تؤلّف العين وُتجهّز على وجه يتلائم مع تلك النواميس ، فقد قضت حكمة الخلّاق العلـــيم ، ان تؤلّف العينُ من تلك الطبقات والرطوبات المختلفة . وايضاح ذلك : انه اذا وقع النور على المرئيات انعكس عنها ،

ودخلت خطوطـــه العينَ ، ورسمت على الشبكية صور المرئيات ، وهي تؤدّيها الى الدماغ ؛ ولكن النور بانعكاسه عن المرئي تكون خطوطـــه مستقيمةً ، ولو بقيت سائرة بدون تجمّع لوصلت الى الشبكية منتشرة متباعدة ، فترسم الصورة غـير واضحة ، فدبرت الحكمة الالهية انه في اول ما يدخل النورُ العينَ ، يلاقي القرنية ، وينفذ منها ؛ وهي ، لتحدّب وجهها ، وتقعُّر وجهها الداخل ، تجْمع خطوطه بعض الجمْع . ثم ينفـــذ النور من الرطوبة المائية ، وهي لكثافتها تزيد في جمع خطوطه . ولكن لما كانت الشبكية التي تُرَسم عليها الصورةُ مقعرةً ، فلو وصلت اليهـــا جميع الخطوط التي تمر في المائية على هذا المقدار من التجمّع لرسمت الصورة على وسطها وجانبيها ، فتكون حينئـذ مشوشة ، ولا سيما اذا كان النور قوياً ، فدبّر الخلاق الحكيم ذلك ، ووضع غشاء القزحية خلف الرطوبـة المائية ، وجعله مثقوباً من وسطه ، وجعـل توسيعه وتضييقه تحت ارادة الناظر ، ليُدْخِل ما يحتاج اليه من النور ، فيوسّعه اذا كان النور قليلاً ، ويضيّقه اذا كان قوياً . ثم صبغ اطراف القزحية بلون يمنع نفوذ النور ، ويخفّضه بالامتصاص ، حتى لا تنفذ الخطوط الواقعة على اطراف القزحية حول البؤبؤ وتصل الى اطراف الشبكية فتشوش الصورة . ثم بعد ذلك تنفـذ خطوطُ النور الرطوبةَ البلورية ، التي هي محدبة الوجهين ، فيزداد تجمّعها ، ولا سيما في الوسط ، لأن وسط البلورية اكثف من اطرافهـــا . وجعل الحكيم الخبير تلك البلورية تحت ارادة الناظر ايضاً يزيد في تحدّبها أو ينقصه ، لأن خطوط النور يزداد تجمعها كلما زاد تحدب الجسم النافذة منه ، ويَنْقص كلما قلّ تحدّبه . ثم تنفذ الخطوط في الرطوبة الزجاجية فتزداد تجمّعاً ، حتى يكون التجمع كافياً لرسم الصورة رسماً واضحاً . هذا في داخل العين واما في خارجها فان الخالق جعل العين داخل الحِجاج محفوظة ، من كل جانب ، الا الجهة التي يدخلها النور ، وجعل الطبقة الاولى منها ، وهي الصلبة ، مع القرنية ، لدْنة حتى تقوى على المصادمـة بعض القوة ، وسترها بالاجفان لوقايتها ، وانبت على اطراف الاجفان شَعراً ملوناً ثخيناً لدْنا منتصباً ، مع ميلِ الأعلى منـه الى فوق والأسفلِ الى

تحت . اما تلوين الشعر فليتشرّب بعض النور الوارد على العين . واما ثخنه وانتصابه فلمقاومة الاجسام الصغيرة الواردة على العين كالتراب والغبار ، واما مَيْله فليسهّلَ افتراق الهدْبين عند فتح الاجفان ، فلو كانا متوازيين او متقابلين لتشابكا وتلاصقا برطوبة العين ، ولوقفا في طريق النور ، وانتقلت صورتها الى الشبكية فشوشت صور المرئيات . ثم لما كان الغبار لا يندفع كله عن العين ، لا بالحِجاج ولا بالاجفان والاهداب ، وهو مضر بالقرنية معطل لشفافيتها ، جعل الخالق الحكيم افرازَ الدمع دواءً لجلائه ، وجعل الاجفان دائمة الحركة بالانطباق والانفتاح ، حتى لا يتعطل الابصار ويتشوش ، فيَغسل الدمعُ الغبارَ الذي يقع على المقلة . والاجفانُ ، بحركتها ، تصقلها وتزيح الدمع المخلوط بالغبار عنها . وهذا الدمع الذي صار بالغبار قذراً لا بد من خروجه عن المقلة ، فلم يتركه الخلاق الحكيم يجري من الاجفان على الخدين ، بل دبّر امر جريانه الى (المُوق) ، ثم جعل هنالك ثقباً صغيراً دقيقاً نافذاً الى داخل الانف ، يسمى القناة الدمعية ... فهل يُعقل ان يكون كلُّ هذا الابداع والاتقان والاحكام في العين اثراً من آثار حركة اجزاء المادة العمياء ؟

وبعد ان ينتهي الجسر من الكلام عن العين ويشير الى غرائب الحكمة والاتقان في بقية الحواس والاعضاء ، يقول : ان العلماء ، الذين يطّلعون على تفاصيل هذه المباحث وتظهر لهم اسرارها ودقائقها وحِكَمها ، هم الجديرون بان يكونوا من اقوى الناس ايماناً بوجود الالـه الخالق الحكيم المدّبر العليم ؛ بل لو قيل انهم جديرون بذلك اكثر من بعض علماء الكلام ، الذين يقيمون الادلة الاجمالية ، لكان حقّاً .

حيران – لقد ذكر مولاي الشيخ ان الجسر ردّ على شُبَه الماديين ، فما هي هذه الشُبَه ، وما هو رده عليها ؟

الشيخ – يقول الجسر للماديين : اني رأيت لكم شبهات ثلاثا تحول دون اعتقادكم بوجود الله تعالى ، وبأنه خالق الكون من العدم . الاولى : عجز العقول عن تصور كُنْه هذا الالـه العظيم الذي ليس كمثله شيء . والثانية :

قولكم: ان عقولنا لا يمكن ان تتصور حصول شيء من لا شيء ، اي خلق المادة من العدم . والثالثة : قولكم : انـــه لو كان نظام الكائنات بقصد وحكمة لكانت علامات القصد والحكمة تامة في كل شيء ، ونحن نرى في العالم اشياء لا تنطبق على القصد والحكمة بـــل تكون اشد انطباقاً على الضرورة .

اما الشبهة الاولى فالجواب عليها : انكم اذا نظرتم الى منزلتكم في العلم وجدتم انكم ، وانتم اعاظم العلماء ، لا تزالون على شاطيء بحر عظيم لا تُعرف نهايته ولا يُسبر غوره . وطالما اعترف اكابركم بالعجز والتقصير في معرفـة كثيرٍ منْ اسرار الكون وحقيقة المادة التي بين ايديكم ، ترونها باعينكم ، وتذوقونها بالسنتكم وتشمّونهـــا بانوفكم ، وتصرّفونها في طرق الحياة والعيش ، وانتم حتى اليوم لم تعرفوا حقيقتها وكُنْهها . كما انكم لا تزالون عاجزين ومقرّين بالعجز عن معرفـة (حقيقة الحياة) وحقيقة العقل والادراك وغاية ما اوصلكم اليه التفكير انكم قلتم انهـا ظاهرة من ظواهر تفاعل اجزاء المادة . فاذا كان هـذا شأنكم ، وانتم العلماء ، في معرفة اقرب الاشياء اليكم والصقهـــا وامسّها بكم ، فهل تطمعون ان تصلوا بعقولكم الى معرفة حقيقة الله تعالى ...؟ وهل يرجو الانسان الذي لا يعرف المادة التي يلمسها ويأكلها ويشربها ويشمّها ، ان يعرف كنه ذات الله تعالى ...؟ وهل يرجو الانسان الذي لا يعرف كيف يعرف ، ولا يُدرك كيف يدرك ، ولا يَعقل كيف يعقل ، ان يُدرك حقيقة الله تعالى ...؟ انكم لا تزالون حتى اليوم عاجزين عن معرفة الطريقة التي يتم بها الادراك ، والوسيلة التي يتم بهـــا الاتصال بين المادة والعقل ، والكيفية التي يتلقى بها العقل الروحاني الاحساس بالشيء المادي فيدركه ، فهل تطمعون ان تعرفوا كنه ذات الله تعالى ...؟ ويحملكم على انكاره قصور العقول عن تصوره على الصورة التي تعودتم ادراك الاجسام المادية بها ...؟

ثم يقول الجسر للماديين ، نفس ما قال الفيلسوف الالماني لايْبنزْ :

(واذا كانت عقولكم لا تتمكن من تصوُّر هـذا الالـه ، فلا يلزم من ذلك عـدمُ وجوده ، اذ انّ كثيراً من الحقائق لم تتمكنوا من تصوّرها حق التصور ، وتكون في الحقيقة موجودة ، ويقوم الدليـــل العقلي على وجودها . والجزم منكم بأنه لا يمكن وجود شيء متصف بتلك الصفات بريء من الجسمية والمادية قـد نشأ معكم من (قياس التمثيل) بما اطلعتم عليه من الاشياء ، وهذا القياس ليس دليلاً قاطعاً ، بل هو دليل خـادع يخدع العقول حتى يجعلها تحكم على الشيء بأحكام غيره ، مع الفارق بينه وبين ذلك الغير . فعدم اقتداركم على تصور حقيقة الله ، لا يفيد استحالة وجوده ؛ وقياسكم اياه على ما شاهدتموه في العالم المادي ، هو قيـــاس مغلوط لوجود فارق بينهما . ويكفي العقول ان تستدل على وجود الله وصفاته بآثاره . وكل ما في العالم من وجود ونظام واتقان واحكام دلائل قاطعة على وجوده وعلى علمه وقدرته وحكمته .)

واما الشبهة الثانية : وهي كلال العقول عن تصور خلق العالم من العدم ، فيقول الجسر في جوابها : ان عدم تصور حقيقة الامر لا يكون دليلاً على عدمه في نفسه ، وما منشأ هذا العجز عن تصور ايجاد شيء من لا شيء الا (قياس التمثيل) ؛ لأنكم لم تشاهدوا شيئاً خُلق من لا شيء . ولكن عدم مشاهدة حدوث شيء من لا شيء ، لا يلزم منه ان ذلك محال . وقياسُ التمثيل ليس قطعيّ الدلالة ، بل كثيراً ما يوقع في الغلط . ولا تُقاس قدرة الله تعالى على قدرة البشر ، لأن الفرق بين القدرتين عظيم ، ونحن نقر بالعجز عن ادراك كيفية خلقـــه سبحانه للعالم من لا شيء ، ولكن العجز عن تصور حقيقة الشيء الذي قام الدليل العقلي على وجوده لا ينافي الاعتقاد بوجوده .

واما الشبهة الثالثة : وهي قولكم انكم ترون في الكون اشياء لا تنطبق على القصد والحكمة ، بل هي اشد انطباقاً على الضرورة ، فالجواب عليها : اننا نشاهد من اسرار الله في مصنوعاته الحِكَمَ الباهرة ، ولم تزل تظهر لنا يوماً بعد يوم حكمةٌ بعد اخرى ، مما كان خافياً علينا دهوراً

طويلة ؛ فاذا شاهدنا شيئاً لم تظهر لنا فيه حكمة ، لمْ نعتقد انه وُجد عبثاً ؛ بل نقول ان الالـه حكيم ، والدليـل على كونه حكيماً ما شاهدناه من آثار حكمته ، وما لا نزال نطلع عليه ، يوماً بعد يوم ، من دلائل هذه الحكمة التي بقي بعضها خافياً عنا ازماناً طويلة ثم ظهر لنا ؛ فلا بد اذاً ان يكون هذا الشيء ، الذي لم تظهر لنا حكمته ، مبنياً على حكمة خفيت عنا ، وقد تظهر لنا في يوم من الايام ، كما ظهر سواهـا . واذا تأملتم في قصور العقل البشري وعجزه عن ادراك كثير من الامور المادية المشاهدة لنا ، وقارنتم بين هـذا العجز وبين قدرة الله العظمى وحكمته ، لم تستغربوا اختفاء حكمة بعض الاشياء عن عقولنا ، ورأيتم ان الأوْلى قياس القليل النادر ، مما لم تظهر حكمته ، على الكثير المستفيض الذي لا يُعَدّ ولا يُحصى من شواهد حِكَم الله الظاهرة في مخلوقاته ، لا ان تتخذوا من هذا القليل النادر، الذي خفيت حكمته ، دليلاً على انكار وجود الله الخالق .

ويضرب الجسر لذلك مثلاً رائعاً ،فيقول : وانتم اذا نظرتم الى الحيوانات الصغيرة وجدتم ان لها من الادراك ما يكفيها لتأمين معيشتها ؛ ولكن هل تنتظرون منها ان تدرك حقيقة الانسان ، وتتصور تفاصيل اعضائـه ووظائفها ، وكيفية سمعه وابصاره وشمه وذوقه ولمسه وتغذيه وعملَ الدورة الدموية في جسده ، وكيفية تفكيره ، واسرار اعماله ومصنوعاته وتآليفه ومخترعاته ومبتكراته ، او ان تعلم كيف اخترعها وأوجدها ولماذا صنعها ...؟

والانسان اقل من تلك الحيوانات الصغيرة علماً وقدرة بالنسبة الى علم الله وقدرته وحكمته ، بل ان الفرق بين العلمين والقدرتين والحكمتين اعظم بكثير؛ فعلينا اذا نازعتنا نفوسنا وطلبتْ منا التعرض لمعرفة حقيقة ذلك الالـه العظيم وكنه ذاته المقدسة ، ومعرفة كيفية خلق العالم ، ولماذا خلَقه ، وما الحكمة في كل شيء نشاهده ، ان نعترف بعجز عقولنـا البشرية . ويكفينا لمعرفته ، والاقرار بوجوده وقدرته وحكمته ، ما دلتنا عليه آثاره ، وما شاهدناه من انوار الحكمة في اكثر تلك الآثار ، لا انْ

فتتخذَ من خفاء حكمه القليل النادر سبباً مبرراً لإنكار وجوده ونسبةِ ما لا يُعَدّ ولا يُحصى من آثار الحكمة والاتقان الى عمل الضرورة العمياء .

حيران — ان رد الجسر على الشبه الثلاث ينطبق تمام الانطباق على ما قاله لايبْنز عن امكان الخلق من العدم ؛ وتطلّبِ العقل للعلة الكافية ، وعن آثار الحكمة في العالم ؛ فحدثني بالله يا مولاي عن رأي الجسر في مذهب النشوء والارتقاء .

الشيخ — انني اعلم انك بشوق عظيم الى سماع رأي الجسر في هــذا المذهب ، ولاسيا بعد ان حدثتك عن تلك الحملة الشعواء التي اثيرت على مذهب دارْون . نعم يا حيران ، في خلال تلك الحملة ، وفي صميم تلك المعركة وُجد في العالم كله عالم ديني واحد ، تجاسر ان يؤلف كتاباً يقول فيه : (ان مذهب دارْون ، عنــد ثبوته لا يتناقض مع فكرة وجود الله الخالق الحق لكل شيء) . واذا قيل لك انه وجد في اوروبا ، في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر ، من رجال اللاهوت ، منَ تجاسر على محاولة التقريب بين مذهب دارون والكتب المقدسة ، فاعلم انه ، عنــد المقارنة التاريخية الصحيحة ، يظهر لك ان الجسر ، الذي وضــع كتابه ونشره سنة ١٨٨٨ ، كان السابق لهم جميعاً في هذا الباب .

حيران — وكيف امكنه التوفيق بين مذهب داروِنْ ونصوص القرآن ؟

الشيخ — ان الجسر لا يرى ان مذهب النشوء والارتقاء ، وما جــاء فيه عن اصل انواع الانسان والحياة والعقل ، ينطوي على امور بعيدة عن الحقيقة ، أو متعارضةٍ مع احكام الدين تعارضاً قطعياً كما يحسب البعض . لأن الجسر يرى ان الأمر المهم الضروري هو ان نعتقد بأن الله تعالى هو الخالق للعالم ، ولما فيه من انواع ؛ وبعد هذا الاعتقاد لا فرق بين القول (بمذهب الخلق) او القول (بمذهب النشوء والارتقاء) من مادة اصليــة خلقَها الله تعالى ، ثم كوّن منها الانواع وفرّعها بطريق النشوء والارتقاء ، وفق نواميس وضعها الله في هذا الكون .

ولكن الجسر يرى ان مذهب النشوء والارتقاء هذا ، لا يزال مذهباً

مختلفاً في صحته ، ولم تقم عليه الدلائل القاطعة ، التي من شأنها ان تحملنا على تأويل ظاهر النصوص المنزلة ، وانـه متى قامت الدلائل القاطعة على صحة هـذا المذهب جاز القول به ، ووجب تأويل النصوص والتوفيق بينها وبين ما قام عليه الدليل القاطع .

ويمهد الجسر لهذا الرأي السامي ، بمقدّمتين هامتين ، يبسط فيهما رأيه في حـكم التعارض بين النصوص الدينية ، وقضايا العلم اليقينية ، ووجه التوفيق بينهما . وبعـد التمهيد بهاتين المقدمتين ، يتناول مذهب النشوء والارتقاء فيبسط رأيه فيه بكلام مسهب ، سألخصه لـك لترى ان الدّين الحق ، لا يضيق عن قبول حقائق العلم ، ولا يتعارض معهـا ، ولا يجمد امامها ، كما يظن الجامدون والجاهلون .

ففي المقدمة الاولى يقول الجسر : ان النصوص التي يُعتَمَد عليهـا في الاعتقاد والاعمال والاحكام ، في الشريعة الاسلامية ، تنقسم الى قسمين : (متواتر ومشهور) ؛ فالمتواتر ما ثبت قطعياً وروده ، لِمَا توفر فيه من الاسباب الموجبة للعلم اليقيني . والمشهور مـا ثبت وروده ثبوتاً قريباً من القطعي ؛ لِمَا توفر فيه من الاسباب الموجبة لطمأنينة القلب ، وهي فوق الظن ودون اليقين . ثم ان كلاً من المتواتر والمشهور إمّا ان يدل على معنى لا يَحتمل الدلالة على سواه ، فلا يقبل الصرف والتأويـل الى معنى آخر ، وهو ما نسمّيه (متعيّن المعنى) وهذا القسم لا يوجد منه في الشريعة المحمدية ما يناقض الدليلَ العقلي القاطع مطلقاً . وإمّا ان يـدل كلٌّ من المتواتر والمشهور على معنى ظاهر متبادر منه ، ويكون محتمل الدلالة على معنى آخر ، وان كان بعيداً ، وهو ما نسميه (ظاهر المعْنى) . وهذا القسم قد يوجد منه في الشريعة المحمدية ، مـا يناقض معناه الظاهرُ الدليلَ العقلي القاطع . ثم انّ حـكم النص (المتعيّن المعنى) انه ان كان متواتراً او مشهوراً يجب التصديق بمعناه المُعَيّن ، ولا يجوز تأويله وصرفـه الى معنى آخر ؛ اذّ هو لا يحتمل التأويل ولا يناقض شيء منه الدليل العقلي القاطع حتى يحتاج لتأويله . واما حكم النص (الظاهر المعْنى) فهو انه ، ان

كان متواتراً او مشهوراً ، يجب التصديق بمعناه المتبادر ، ولا يجوز تأويله الّا اذا قام دليل عقلي قاطع يدل على مـــا يناقض معناه المتبادر منه . فحينئذ يُؤوّل ويُصْرف الى معنى غير معناه المتبادر ، بحيث يصح التوفيق بينه وبين ما دل عليه الدليل العقلي القاطع . وانما جاز حينئذ تأويـــل النص (الظاهر المعنى) لان الجمودَ على اعتقاد المعنى المتبادر منه ، ورفضَ ما يدل عليه الدليل العقلي القاطع ، يقتضي هـــدم الاصل وهو (العقل) الذي ثبتت به رسالة الرسول المتكلم بتلـــك النصوص الشرعية ، اذْ لولا العقل ، لمـــا وصلنا الى الاستدلال على صدق دعواه الرسالة ، فاذا هُدِمَ الاصلُ هُدِمَ الفرع لا محالة . فرفضُ الدلائل العقلية رجوعٌ على الدلائل النقلية بالنقض . وهكذا الحكم في كل نص (ظاهر المعنى) ناقضه الدليلُ العقلي القاطع .

واما اذا كان الدليل الذي قام على مـــا يناقض ظاهر المعنى دليلاً (غيرَ قطعي) فـــلا يسوغ تأويل النص وصرفه الى معنى آخر . ومن المعلوم ان الدليل القاطع هو الذي يدل على مدلوله دلالة يقينيّة لا تحتمل النقيض . واما الدليل العقلي الظني غير القاطع ، فهو الذي يدل على مدلوله دلالة راجحة تحتمل النقيض ، ولو احتمالاً بعيداً ؛ فبهذا الاحتمال ينزل عن درجة اليقين ، ولا يجوز عنده تأويل المعنى الظاهر البتّة .

هذه هي المقدمة الاولى ، اما المقدمة الثانية فيقول الجسر فيها : ان الشريعة المحمدية ، بل وسائر الشرائع المنزلة ، انما يُقصد منها بيان ما يرشد الخلق الى معرفة الله تعالى ، واعتقاد وجوده ، واتصافه بصفات الكمال ، والى كيفية عبادته ، والى الاحكام التي تُوصل العباد الى انتظام المعاش وحسن المعاد . واما تعريفهم بمباحث العلوم الكونية ، من كيفية خلق العالم ، والنواميس القائمة فيه ، وغير ذلك ، فانه ليس من مقاصد الشرائع ؛ بل تلك معارف يتوصلون اليها بعقولهم ؛ والشرائع لا تلتفت اليها ، اولاً وبالذات ، ولا تعني بتفاصيلهـــا ، وتكتفي بذكر شيء مجْمل من امرها ، على قدر ما يكون له دخـــل في مقاصدها الاصلية ؛ فتذكر مثلاً خلق

السماوات والارض وابرازهما من العدم ، وخلق انواع المخلوقات ، وكيفية تدبير الاكوان ، وما فيها من النظام ، على سبيل الأجمال ، ليكون ذكر ذلك دليلاً عقلياً للناس على وجود الله خالق قادر عليم حكيم .

وبعد هاتين المقدمتين يشرع الجسر في بيان رأيه في مذهب النشوء والارتقاء فيقول :

ان الذي ورد في الشريعة المحمدية من النصوص المتواترة او المشهورة بشأن خلق الاكوان ، وتنوع الانواع ، انما هي نصوص لم يبيّن فيها تفاصيل الخلق وكيفياته ؛ فقد ورد ان الله تعالى خلق السموات والارض وما بينهما في ستة ايام . وورد انه تعالى استوى الى السماء وهي (دُخَان) فسواهن سبع سماوات . وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الايام الستة فاكثرهم قال انها كأيامنا ، وقال بعضهم انها ايام من ايام الآخرة التي ورد عنها ان يومها كألف سنة من سنيّنا . وقال بعضهم اليومُ من تلك الايام الستة يطلق على خمسين الف سنة . وورد ايضاً في النصوص ان السماوات والارض كانتا رتْقاً ففتقهما الله تعالى ؛ ففسر بعض المفسرين ذلك بان السموات والارض كانتا شيئاً واحداً ، ملتزقاً احداهما بالاخرى ، ففصل الله تعالى بينهما ، وفسره بعضهم بتفسير آخر . وقد فهم البعض من نصوص الشريعة ان الارض خلقت قبل السماوات ولكنها غير مدحوّة اي مبسوطة صالحة للسكنى . ثم استوى الله تعالى الى السماء ، وهي (دخان) ، خلقه الله تعالى قبل ذلك ، فسواها سبع سماوات ، ثم دحا الارض ؛ ومن قال بهذا تأوّل النص الذي ظاهره يخالفه . وفهم بعضهم ان السماوات خلقت قبل الارض وتأوّل ما ظاهره يخالفه . اما تفصيل خلق السموات والارض وكيفيات تكوينها او تكوين الشمس والكواكب والارض ، من السديم كما يقول الماديون ، او على طريقة اخرى ، فلم تنص الشريعة المحمّدية على شيء منه ، ولم يردْ في نصوصها ما يثبته او ينفيه .

واذا نظرنا الى التفاصيل التي تذكرونها ، ايها الماديون ، في خلق السموات والارض ، بعين الأنصاف ، ظهر انها فروض وتخمينات ؛ فيجوز ان يكون

الله تعالى كوّنها على تلك الطريقة التي تقولون بها ، ويجوز ان يكون الحال بخلاف ذلك ؛ ولكن اذا ثبتت تلك الفروض ، بالدلائل القاطعة التي لا تحتمل النقيض ولا مجال للعقل في رفضها ، فأن المسلمين يقولون بها ، مع اعتقادهم ان الله تعالى هو الذي اوجد الشمس وكوّنها ، وفصل منها الكواكب والارض على الكيفية التي تذكرونها . والنواميسُ التي قلتم بها تكون عندهم اسباباً عادية لا تأثير لها في نفسها ، والمؤثّر الحقيقي هو الله تعالى .

ومن الواضح ان لا شيء من النصوص المتقدمة ينافي القول بهذا التكوين الذي تقولون به ؛ ويمكن عند ثبوت ما ذكرتم بالادلة العقلية القاطعة ان يقال : ان الله تعالى خلق اولاً مادة العالم شيئاً واحداً وقد سماه (دُخاناً) ، وهو السديم المنتشر في الخلاء ، ثم فتق السموات والارض ، اي ميز مادة السماء عن المادة التي يريد ان يُكوّن منها الشمس والكواكب والارض ، ثم كوّن الشمس وفصل عنها الكواكب والارض ؛ لكن الارض كانت بعد فصلها غير مدحوّة ؛ ثم قصد سبحانه الى السماءِ وهي دخان ، وهو السديم ، فسواها سبع سموات ، ثم دحا الارض بعد ذلك ؛ وكل ذلك اجراه الله تعالى على نواميس مخصوصة ، وهي اسباب عادية ، وفي ازمنة طويلة ، هي التي سماها ستة ايام ... وفي هذا التقرير يكون ما ذكره الماديون في تكوّن الشمس والكواكب والارض منطبقاً على ما ورد في نصوص الشريعة المحمدية ، ولكننا لا نلتزم القول بهذا الرأي ما لم تَقُمْ عندنا الادلة القاطعة عليه . وما دامت الادلة ظنيةً لم نكن مضطرين الى الاخذ بها ، واكتفينا بالقول انه رأي محتمل الصحة . وما دام المدار في اعتقاد المسلمين في شأن عوالم الاكوان ان يعلموا ، علماً جازماً ، انها حادثة ، فلا بد لها من محدث هو الله تعالى الذي اوجدها من العدم ونوّعها الى انواعها التي نشاهدها ، فلا فرق عندهم بين ان يعتقدوا ان الله تعالى اوجد انواع هذه العوالم بطريق (الخلْق) اي انه اوجد كل نوع منها ابتداء ، مستقلاً عن غيره ، ليس مشتقاً من سواه (سواء اوْجَدَه دفعةً واحدة

او بتكوين متمهّل) ، وبيّن ان يعتقدوا ان الله تعالى اوجد انواع هـذه العوالم بطريق (النشوء) ، اي انـه اوجد المادة البسيطة ثم رقّاها الى عناصر ، ثم الى معادن ، ثم الى ابسط جسم حيّ (البروتو بلاسما) ، ثم الى ادنى النبات او الحيوان ، ثم فرّعَ من ذلـك بقية الانواع ، واشتقّ بعضها من بعض ، واختار ابقاء البعض وابادة البعض ، واجرى جميع ذلك على نواميس ، وضعها في المادة ، يتسبب عنها ذلك الارتقاء والتنوع ، الى ان بلغتْ تلـك العوالم انواعَها التي هي عليهـا الآن . فكلٌ من هذين الاعتقادين ، اي اعتقاد طريق (الخلْق) واعتقاد طريق (النشوء) لا ينافي الاعتقاد بوجود الله تعالى وانه الخالق لهذه العوالم في كل حال .

ثم يقول الجسر : وخلاصة النصوص المعتمدة في الاعتقـاد التي وردت في الشريعة المحمدية في شأن خلـق عوالم الارض هي : ان الله تعالى جعل من الماء كل شيء حيٍّ ، وانه خلق كل دابّة من ماء ، وانه خلق من الانعام ازواجاً ، وانه خلق الازواج كلها ، وانه خلق الزوجين الذكر والانثى ، وانه جعل في الارض من كل الثمرات زوجين اثنين . فهذه النصوص يحتمل ان تفسّر بحد ذاتها على (مذهب الخلق) او (مذهب النشوء) ، والنصّان الاوّلان منهـا يوافقان قول الماديين الحديث بان المادة الحيوية من الماء . وامـا بقية النصوص فالمعنى الظاهر منهـا يدل على (طريق الخلق) . ولكن مـع ذلك كلّه لم يرد نصٌ يفيد ان كلّ نوع اوْجَدَه الله تعالى قد اوجده دفعةً واحدة او بتمهّل ، الّا مـا ورد في بعض النصوص الاحادية في حديث الامام مسلم (ان الله تعالى خلق الشجر في يوم كذا من الايام الستة ، ثم خلق الحيوانات) ؛ ولكن هذا النص لا يفيد الّا انّ الحيوان تأخر عن الشجر في الخلق ، وهو لا يفيد ان كل نوع منهما كان ايجاده (دفْعيّاً) او بتمهّل .

فبناءً على مـا تقدم من تلك النصوص ، وبحسب القاعدة المتقدمة من ان الواجب في الشريعة المحمدية ان يعتقد اتباعُها المعاني المتعيّنة او المعاني الظاهرة من نصوصها المتواترة او المشهورة ، ما لم يعارض (المعاني الظاهرةَ)

دليلٌ عقلي قاطع ، نعتقدُ ان الله خلق كل نوع مستقلاً ابتداءً ، ولم يخلقها بطريق (النشوء) ، وان كان الله قادراً على كلتا الصورتين . واما انّ كل نوع خلـقه دفعة واحدة ، او بتمهّل وترقٍّ ، بسبب نواميس وضعها الله ، فهذا سبيله عندنا (التوقّف) ، اذ لم يأت في الشريعة مـا يفيد القطع بأحد الامرين . ولا يسوغ لنا ان نَعْدل عن اعتقاد الظاهر الى خلافـه من امر النشوء ، واشتقاق بعض الانواع من بعض ، ما دام لم يقم دليل قاطع يضطرنا الى تأويل تلك النصوص . ومتى قامت الادلة العقلية القاطعة على صحة مذهب النشوء واصل الانواع ، كان علينا ان نؤوّل ظاهر تلك النصوص ونوفّق بينها وبين مـا قام عليه الدليل القاطع .

حيران — الحمد لله ثم الحمد لله . والله لقد اثلجت صدري يا مولاي بهذه البيانات الرائعة ، التي تدل على ان احكام الدين ، لا يمكن ان تصادم حقائق العلم التي يقوم عليها الدليل القاطع ؛ فارجو ان تتم فضلك بذكر رأي الجسر في خلق الانسان ، فهل يرى الجسر ان مـا قاله اصحاب النشوء عن تكوين الانسان ، ممكن التوفيق مـع ما ورد من النصوص في القرآن ؟

الشيخ — يقول الجسر للقائلين بان الانسان حيوان من جملة الحيوانات ، حادث بطريق النشوء والارتقاء ، وللقائلين ، بَعْدهم ، بأن الانسانَ والقردَ من اصل واحد :

لقد ورد في نصوص الشريعة المحمدية التي عليها مدار الاعتقاد في خلق الانسان : ان الله بدأ خلقـه من طين ، ومن حمأٍ مسْنون ، ومن صَلصَال كالفخّار ؛ وورد انه خلقه من ماء . وقد قال بعض المفسرين ان التراب والماء اصلان للانسان ؛ اي انه خُلق منهما ، فتارة تذكر النصوص هذا ، وتارة تذكر ذلك . وورد ان الله خلق الانسان بيديه ، وورد انه خلق البشر من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء . فهذه النصوص تفيد ظواهرُها ان الله خلق الانسان نوعاً مستقلاً ، لا بطريق النشوء والاشتقاق من نوع آخر ، وان كان كلا الامرين من الجائز العقـلي

الداخل تحت قدرة الله . نعم ليس في تلك النصوص صراحة بان الله خلق الانسان الاوّل من تراب (دفعةً واحدة) او بتكوين متمهّل على انفراده ؛ فسبيل هذا عندنا التوقف وعدم الجزم باحد الامرين ، وان كان قد يظهر من بعض النصوص الاحادية ان تكوّن الانسان الاول وهو (آدم) كان بتمهّل ، ومرتْ عليه مدة من الزمان ؛ ولكن ظواهر النصوص التي عليها مدار الاعتقاد تدل على الخلق المستقل . ولا يجوز تأويل هذه النصوص ، وصرفها عن معناها الظاهر ، الّا اذا قام الدليل العقلي القاطع على مذهب النشوء ؛ وعندما تقوم الدلائل العقلية القاطعة على وجود الانسان بطريق النشوء ، يمكن تأويل هذه النصوص ، والتوفيق بينها وبين ما قام عليه الدليل القاطع ، ولا ينافي ذلك اعتقادَ المسلمين في شيء ، ما دام الاصل عندهم ان الله تعالى هو خالق الانسان في كل حال .

هكذا يبرهن الجسر على ان دين الاسلام لا يتصادم ، ولا يمكن ان يتصادم مع العلم ، اذا تأيد هذا العلم بالدليل العقلي القاطع . ويصرح بانه لا فرق ، في نظر الدين ، بين ان يكون ايجاد الله للعالم بطريق (الخلق الدفعيّ) او (الخلق المتمهّل) . او بطريق النشوء والارتقاء ؛ فالخلق ، على كل حال ، تمّ بارادة الله وقدرته وحكمته ، وليس احد المذهبين بأدلّ على الله من الآخر .

هذا ما يقوله الجسر ياحيران في مذهب النشوء والارتقاء ، وانت ترى انه لم ينكره ولم يقل باستحالته ، ولم يسدّ على العلم الباب ، باسم الدين ، بل تركه مفتوحاً ، عندما اكّد القول مراراً ان مذهب النشوء والارتقاء ، عند ثبوته ثبوتاً قطعياً ، لا يناقض الدينَ في شيء ، ويمكن الاخذ به ، وتأويل النصوص الدالة بظواهرها على مذهب الخلق .

والى هذا السموّ في التفكير اشار المستشرق (تشارلس آدمزْ) في كتابه (الاسلام والتجديد) بقوله : (بينما كان المؤلف السنّي فيما مضى من الزمان لا يعبأ بالآراء العلمية ، وكان يرى ان يقاومها بحدّ السيف ، فان الشيخ حسين الجسر لم ير هذا الرأي . وانما ذهب الى انه قد انقضى الوقت الذي يستطيع

فيه المسلمون ان يُغفلوا ما يوجّه الى عقيدتهم ، فاخذ يدلّل على ان الانسانية الحقّة ، والخلق القويم ، والعقل السليم تتجلّى ، بأسمى مظاهرها ، في عقائد الاسلام واحكامه ، وانبرى للرد على ما اثاره علماء الغرب من شبهات كثيرة تقوم على اساس فلسفي او مادّي ؛ بل انه ليتعرّض لمذهب دارْونْ ويرى ان هذا المذهب ، على تقدير صحته ، ليس من شأنه ان يتعارض مع القرآن)

حيران — من هم علماء السنّة الذين كانوا يرون ان تُقاوم الآراء العلمية بحد السيف ؟

الشيخ — انا لا اعرف احداً من علماء السنّة كان يرى مقاومة الآراء العلمية بحد السيف ، ولكن الذي اعرفه ان الغزالي ، مثلاً ، الذي جاء قبل (برونو وغاليله وكِپْلرْ) بسبعمائة سنة يقول في كتابه تهافت الفلاسفة ، عندما حمل على علماء الدين المنكرين للحقائق العلمية ، كالكسوف والخسوف وغيرها ، ما نصه بالحرف الواحد : (ومَنْ ظن ان المناظرة ، في ابطال هذا ، من الدين ، فقد جنَى على الدين وضعّفَ امره ؛ فان هذه الامور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها رِيبْة ؛ فمن يطلع عليها ويتحقّق ادلّتها ، اذا قيل له ان هذا على خلاف الشرع لم يسترب فيه ، وانما يستريب في الشرع . وضررُ الشرع ممّن ينصره لا بطريقه ، اكثر من ضرره ممّن يطعن فيه ؛ وهو كما قيل « عدوّ عاقل خير من صديق جاهل »)

هذا ما قاله الغزالي ، ولم يلاق من اجله مقاومة بحدّ السيف ولا بجرّ النار ، بل كان موضع التعظيم والتقديس كما تعلم حتى لقّبوه بحجة الاسلام .

حيران — رحم الله الجسر فقد كان ، والله ، عظيماً في علمه ، وعقله ، وايمانه ، وفهمه لجوهر الدين ، وسمو نظره في التوفيق بين العلم والايمان . ولكن ما دام الجسر يرى ان مذهب النشوء والارتقاء ، عند ثبوته بالادلة القاطعة ، لا يتعارض مع القرآن ، وانه عند هذا الثبوت القاطع لا يقدح في الايمان انْ نعتقد بان الله اوجد المادة البسيطة ، ثم رقّاها وطوّرها وفق نواميس وضعها فيها ، حتى نشأت منها الحياة في الخليّة الاولى ، فانّي

اسأل مولاي الشيخ لماذا اذنْ وصف بالالحاد اولئك الذين قالوا بنشأة الخليّة الحيّة الاولى من الجماد ؟

الشيخ — انتبه يا حيران ، وراجع ما قلناه عنهم ، تجدْ انك نسيت كلمة واحدة شوّشتْ عليك فهمك لكلام الجسر ولكلامي . انني لم اصفهم بالالحاد لانهم قدّروا وظنوا ان الخليّة الحيّة الاولى نشأت من الجماد ؛ فهذا امر ممكن وغير مستحيل ، ولكني وصفتهم بالالحاد لانهم زعموا ان الخلية الاولى نشأت من الجماد (بالتولّد الذاتي) .

حيران — وما الفرق بين القولين ؟

الشيخ — الفرق عظيم يا حيران . فانهم يريدون (بالتولّد الذاتي) ان الخلية الحية الاولى نشأت من الجماد مصادفةً عند حصول توازن نسْبي بين مقادير مخصوصة من العناصر المادية ، لا بقدرة الله . والجسر يقول ان نشأة الحياة من الجماد امر ممكن ، وقد تكون الحياة ظاهرة من ظواهر المادة حدثت من الحركة ومن توازن نسبي بين مقادير مخصوصة من العناصر ، ولكن كل ذلك حصل بخلق الله لا بالمصادفة العمياء ؛ فتأمل الفرق بين القولين . اي ان الجسر يقول ان الله هو خالق مادة الكون الاصلية من العدم ، وهو خالق عناصرها المختلفة ، وهو واهب العناصر طبائعَها ، وهو معطي الذرّات حركتها ، وهو العليم بسرّ التوازن النسْبيّ الذي يمكن ان تنشأ به الحياة ، وهو الذي كوّن ذلك التناسب ، وسبّب عنه الحياة ، كعادته سبحانه ، في انتاج المسبَّبات عن الاسباب . اما الماديون الملحدون فينكرون وجود الخالق اصلاً ، وينكرون وجود الارادة في الخلق ، ويزعمون ان العناصر تآلفت وتمازجت على طريقة المصادفة فاحدثت الحياة ؛ فاعرف هذا الفرق يا حيران واجعله نصب عينيك ، فانه يكفيك ان تُنكر (الخلق بالمصادفة) لِتَجِدَ نفسَكَ في احضان الايمان مهما فرضْتَ بعد ذلك من الفروض في الخلق والتكوين .

حيران — كيف ذلك يا مولاي ، زدني ايضاحاً .

الشيخ — سأعود الى البحث في بُطلان الخلق بالمصادفة وابسطه لك

بسطاً وافياً اذا آن الآوان .

حيران – وماذا يقول الجسر عن العقل والروح ؟

الشيخ – اما العقل فيقول الجسر فيه انه من المغيبات التي لا سبيل الى ايضاح حقيقتها ، وان الشرع لم يأت بايضاح لها . وعلى كل حال فلا يَبعد ان يكون صحيحاً قول الماديين ان العقل ظاهرة من ظواهر تفاعل اجزاء المادة ؛ ولكننا نقول انه تفاعل حصل بخلق الله تعالى ، لا بمحض حركة المادة العمياء لذاتها . وكذلك قولهم ان عقل الانسان لا يخالف عقول الحيوانات الّا بالكمّ ولا يخالفها في الذات والحقيقة ، فانه لا يصادم نصوص الشريعة المحمدية في الاعتقاد ، اذْ لم يرد فيها ما ينافي ذلك أو يؤيده ، بل غاية ما ورد ان الانسان خُصّ بالعقل عن سائر الحيوانات ، وبه كُلّف بالشرائع دونها ، واما كونه مغايراً لادراكها أم لا ، فلم يرد فيه نص ؛ فلا مانع ان يكون ادراكُ الحيوانات ، وعقلُ الانسان ، هما من مقولة واحدة ، ولكنه قد زاد حتى بلغ في الانسان درجة ممتازة عن سائر عقول الحيوانات .

اما الروح فيقول الجسر انها موجودة . ولكنه يعترف بعجز العقل عن ادراك حقيقتها .

وهذا التوقف من الجسر عن الخوض في حقائق الحياة والروح والعقل ، التي عجز عن ادراكها كل الفلاسفة ، برهانٌ على سموّ تفكيره ، كما ان عدم الانكار على القائلين ان الحياة ظاهرة من ظواهر تفاعل المادة بقدرة خالقها ، دليلٌ على سِعة عقله ، وبُعده عن الجمود وسموّ نظره في فهم حقيقة الدين .

حيران – فهمت من كلام الجسر انه يعتقد بتأثير الاسباب الطبيعية ، فما هو رأيه في قانون السببيّة الذي تكلم عنه الفلاسفة ؟

الشيخ – لا يخرج رأي الجسر في الاسباب والمسبّبات عما ذكره الغزالي وعما أوضحته لك عند الكلام عن هيوم شيخ الشكّاك ، وفي ذلك يقول ، ان الله تعالى وان يكن ربط المسبّبات بالاسباب ، فهو الخالق للأثنتين :

فاننا لو نظرنا الى تلك الاشياء التي تنشأ عنها الآثار، وتأملنا في حقيقتها، لوجدنا انها ليست (مقتضية) لتلك الآثار ، اذ لا شيء فيها يُلزم العقلَ بأنها (مقتضية) لها . فالحرارة مثلا تذيب الثلج والبرودة تجمّد الماء ؛ ولكن اذا نظرنا الى حقيقتهما لم يظهر للعقل وجه (اقتضاء) هذين الاثرين كما يظهر وجه (اقتضاء) الجسم (للتحيّز) ، ووجه اقتضاء عدم حلول الجسمين في حيّز واحد . فاقتضاء الجسم للتحيّز وعدم حلول الجسمين في حيّز واحد ، هما امران يرى العقل ضرورة تقتضي الاعتقاد بهما . واما كون الحرارة تذيب الثلج والبرودة تجمد الماء ، فلا يجد العقل ضرورة تقتضي بأن يكون اثر الحرارة الاذابة واثر البرودة التجميد ؛ اذ يقال ، عقلا ، لمَ لمْ يكن الحال بالعكس ؟ فان قيل ان الحرارة سبب الاذابة لأنها تُضعف قوة الملاصقة بين ذرّات الجسم ، قلنا ولمَ لمْ يكن الامر بالعكس ؟ فلا بدّ اخيراً من القول ، أن اختصاص كل من الحرارة والبرودة بما خُص به كان بتخصيص مخصّص اراد ان يكون الامر كذلك ؛ وهذا المخصص ، الذي جعل في كل شيء خاصية وطبعاً ، هو الله الفاعل المختار .

حيران — هذا يكاد يكون نفس ما قاله ابن رشد .

الشيخ — نعم ، وانت ترى ان الجسر لا ينكر الاسباب والمسبّبات ، والخواص والطبائع والنواميس ، كما لم ينكرها احد من علماء المسلمين وفلاسفتهم . وكيف السبيل الى انكارها ، يا حيران ؟ والاشياء ما كانت متمايزة الا بخواصها وطبائعها ، فاذا عدم الشيء خواصه وصفاته المميزة لم يعدْ هو هو ، بل عاد شيئاً آخر . وما دام العقل لا يرى ضرورة عقلية تقتضي ان يكون للشيء خاصيته بذاته من ذاته ، فلا مجال لهذا العقل ان يرتاب في ان الله ، خالقَ الاشياء ، هو الذي منحها خواصها وطبائعها ، وانه قادر على سلبها . ولو كانت الشرائع السماوية تنكر الاسباب والمسبّبات لبطل التكليف ، ولقعد الانسان عن السعي ، ولفُتح للناس باب العذر في ترك الاوامر واجتناب النواهي ؛ وهذا ابطال للشرع ، بل افساد للعقل ، وتعطيل للإيمان الذي لا يكون الّا بالعقل ؛ فمن ظن ان دين الاسلام يقول بذلك

فقد دلّ على جهله وقلّة عقله ...

حيران – على ذكر النواميس وخرقها بالمعجزات اسأل مولاي الشيخ هل يمكن تفسير المعجزة على اساس النواميس الطبيعية كما يقول بعض العلماء ؟

الشيخ – ان الامور الغيبية التي ذكرها القرآن ، وذكرتها الكتب السماوية نوعان : منها امور نظنها خارقة للنواميس لأن سرّها غائب عنا خفيّ علينا ، وقد يصل العلم يوماً لكشف النواميس التي وقعت تلك الامور على اساسها ، ومنها امور خارقة للنواميس حقاً ، وقد اجراها الله سبحانه ، وذكرها في الكتب المنزلة ، ليبيّن لنا قدرته على خرق النواميس التي اوجدها في الكون ؛ وهذه الخوارق هي التي يصح ان تُسمى (معجزات) ، ويجب على المؤمن ان يصدّق بها ، ويعتقد بأنها امور خارقة للنواميس ، وانه ليس بالامكان ان يتوصل العلم يوماً الى كشف ناموس طبيعي يفسر وقوعها . بل ارى انه لا ينبغي لنا ان نحاول تفسيرها على اساس النواميس الطبيعية ، لأنها لو لم تكن خرقاً للناموس لم تُسمّ معجزةً ؛ واذا قلنا انها حصلت على اساس ناموس طبيعي ابطلنا الحكمة من ذكرها . فالله تعالى ، انما اجرى تلك المعجزة ، ليدلّنا على انه هو وحده الخالق للناموس ، القادر على خرقه ؛ فاذا كان باستطاعة الانسان ان يأتي بمثل تلك المعجزة ، بقوة ناموس طبيعي يكتشفه ، لا تكون معجزة ، ولا يكون لذكر الله لها في باب المعجزات حكمةٌ ولا معنى .

لذلك اقول ان علماء الدين ، الذين حاولوا تفسير المعجزات الواردة في الكتب السماوية ، على اساس نواميس طبيعية علمية ، كانوا على خطأ . ولا ينفعهم قولهم : اننا نريد تقريب المعجزات من العقول ، كي نفوز بايمان رجال العلم ؛ لأن هذا التقريب ، فضلاً عن كونه يستحيل علمياً في بعض المعجزات ، فانه ، بذاته ، مَسْخٌ لمعنى المعجزة ، وعكسٌ لحكمتها ، وحكمة ذكرها كما علمتَ .

وهذا يا حيران خطأ وقع فيه ، باخلاص ، كثير من علمائنا وعلماء النصارى ، ولا ازال اذكر ان بعض علمائنا حاول ان يفسر ما ورد في

سورة الفيل ، عن الطير التي ترمي اصحاب الفيل بحجارة من سجّيل ، بأنها ميكروبات الجدري ، اصابت اصحاب الفيل فابادتهم . وحاول ان يفسر (الاسراء) ، وفلق البحر لموسى ، وخلق عيسى ، على اساس النواميس الطبيعية . ونحن وان كنا لا نستبعد ان يكون المقصود بالطير الابابيل جراثيم الجدري ، لأن سورة الفيل لم يُقصد بها ذكر معجزة خارقة للناموس ، بل هي وصف لما اصاب الأحباش من الهلاك بأمر الله ، فأننا لا نجيز تفسير كل الآيات التي فيها ذكر المعجزات ، تفسيراً طبيعياً علمياً ، لأننا نُفقِد المعجزةَ بهذا التفسير معناها ، وسرّها ، وقيمتها كما سبق القول ، ونقف بالشخص ، الذي نريد ان نُرضي عقلَه ، عند معجزات يستحيل تفسيرها من طريق العلم ، فنجعله في ريب ، ونرجع به القهقرى ، الى الانكار والشك ، من حيث لا ندري : فاذا استطعنا مثلاً تفسير الطير الأبابيل بميكروب الجدري ، فماذا نفسر عصا موسى التي انقلبت حيّة تسعى ؟ وان فسرناها بالتنويم والاستهواء ، فماذا نفسر انفلاق البحر لموسى بضربة عصاه ؟ وان فسّرناه بالمدّ والجزر ، كما زعم بعضهم ، فماذا نفسر خلق عيسى من غير أب ؟ وان اخذنا بتفسير بعض السخفاء لهذا الحَمْل بأنه من طريق (التلقيح الذاتي) الذي يمكن حصوله ، على زعمهم ، عند بعض الخناثى ، فماذا نفسر تكلّم عيسى في المهد .....؟

احسبك ، يا حيران ، قد ادركت معنى قولي ان محاولة تفسير المعجزات على اساس النواميس الطبيعية ، هي محاولة فاشلة بذاتها وغايتها ، ومفسدةٌ لمعنى المعجزة ، ومؤدّية لزيادة تشكيك الناس . فالأصل هو الايمان بالله خالقِ الكون ، وخالق الطبائع والنواميس ، وبأنه سبحانه ، وهو خالقها ، قادر على خرقها ؛ وفي هذا سرُّ المعجزة . ومن رسخ ايمانه بالله هان عليه ان يؤمن بكل معجزة . اما اولئك الذين يزعمون ان المعجزة فوق العقل ، فانهم لا يفرّقون بين المستحيل (عادةً) والمستحيل (عقلاً) . وخرقُ النواميس ليس من المستحيلات العقلية ؛ وما دمنا نؤمن ان الله هو خالق الناموس ، فأهون شيء علينا ، ان نؤمن بأنه قادر على خرقه .

يقول حيران بن الاضعف : وهنا توقف الشيخ عن الكلام بغتة وهو يتمتم : فاتتنا الصلاة ، احسب ان الشمس قد طلعت او كادت . فنهضنا ، وبعد الصلاة ودعت الشيخ ، فعاد الى غرفته واغلق بابها وهو يقول لي : الى اللقاء في الليلة القادمة يا حيران ،انها ليلة الامتحان ...

ليلة الامتحان

يقول حيران بن الاضعف : ودعت الشيخ الموزون ليلة امس عَجِلاً ، فلم اسأله عن معنى قوله (ليلة الامتحـان) ، ثم اويت الى فراشي ، وانا منشرح الصدر بما سمعته من كلام الجسر رحمه الله ، ثم استسلمت الى نوم عميق ، لم انهض منـه الا قبيل الظهر ؛ فقمت وانا افكر في معنى (ليلة الامتحان) ؛ فقلّبت المعنى على وجوه مختلفـة ، وخطرتْ على بالي امور كثيرة ، وترجّح عندي ان الشيخ انما يشير الى شيء ورد ذكره في غضون الليالي السابقة ، فاخذت اراجع ما املاه عليّ ، لعلّي اجـد كلمة تشير الى شيء يسمى (ليلة الامتحان) ؛ وآخر مـا خطر ببالي ان الشيخ ربما كان مراده ان يمتحنني في كل ما ألقاه اليّ ، فبادرت الى دفتر الامالي ، اراجع فيه مـا كتبته من كلام الشيخ ، ونسيت أكلي وشربي ، فلم اترك المطالعة حتى سمعت اذان المغرب ؛ ولما قُضيتْ الصلاةُ الاخيرة ، ودخلت على الشيخ ، نظر اليّ طويلاً وقال وهو يضحك :

الشيخ — مالي أراك خائر القوى ، أخائف انت من الامتحان ؟

حيران — ومن الذي لا يخاف من الامتحان يا مولاي ؟ ولكنّ ما بي ليس من الخوف وحده ، بل هو من الخوف والتعب والجوع .

الشيخ — الجوع ... ؟

حيران — نعم انه الجوع يا مولاي ، فاني حتى الساعة لم اذق طعاماً.

الشيخ — كيف ذلك ؟ أليس عندك ما تأكل ، أم انت مريض ؟

حيران — لا هذا ولا ذاك ، ولكن سمعتك تقول : غداً ليلة الامتحان ، فخطر ببالي انك تريد امتحاني في كل ما القيته اليّ ، فتملّكني الوجَل من ساعة الخجل ، فعكفتُ على المراجعة ولم اجد متسعاً للأكل ، فاجتمع عليّ الخوف والتعب والجوع .

الشيخ – لقد حزَرتَ، وكنت حذِراً. انني حقاً اريد ان امتحنك، ولكنْ اتحسبني سامتحنك كما يمتحن جهالُ المعلمين طلابَ العلم ؟ ان هذه المباحث العليا ليست من نوع المحفوظات ليُسأل الطالب عنها كما يُسأل عن قصيدة، بل هي حِوارٌ عقليّ خالص، يجب للامتحان فيه، ان يُعطَى الطالب كتابه، ويُسمح له بمراجعته، عند الجواب على كل سؤال، ومناقشة كل موضوع؛ ومِن هذا الحوار والمناقشة يستطيع الاستاذ ان يتلمَّس سير التفكير في ذهن الطالب، والنتيجة التي استقر عليها رأيه. فضعْ دفترك بين يديك يا حيران، ولا تخَفْ. ولكن قبل ان نبدأ خذ قليلاً من اللبن ولا تُكثرْ، فان الذهن يتبلَّد من فرط الجوع، كما يتبلَّد من فرط الشِّبع.

يقول حيران بن الاضعف : فقمت الى مأواي وشربت قليلاً من اللبن، وعدت الى حضرة الشيخ، واخذت دفتر الأمالي وقلت للشيخ : انني بين يديك يا مولاي.

الشيخ – يا حيران ! تقول انك راجعت جميع الأمالي، التي امليتها عليك ؟

حيران – نعم يا مولاي لقد راجعتها، ولكن مراجعة العجْلان الوجِل.

الشيخ – لا بأس لا بأس، انها الآن بين يديك. فما غاب عن بالك عُدْ اليه، واقْرأْه على مهل.

حيران – شكراً يا مولاي شكراً.

الشيخ – سؤال واحد يا حيران. هل ادركت ما هو الغرض الذي كنت ارمي اليه، في كل ما قرّرته لك، وما هي الغاية العظمى التي اريد ان اصل بك اليها ؟

حيران – نعم ادركت يا مولاي ان الغرض الذي كنت ترمي اليه، هو ان تُثبتَ لي، ان نتاج الفلسفة الصحيح، الذي انتهى اليه اكابر الفلاسفة، وتلاقوا عليه، لا يتنافى ابداً مع الدين الحق، في اثبات وجود الله، بل يؤيد هذا الاثباتَ بالنظر العقلي الخالص، الذي تتلاقى فيه عقول الاكابر، من رجال الدّين، مع عقول الاكابر من الفلاسفة، على

ادلّة واحدة ؛ لتتخذَ من فرط اجلالي لهؤلاء الفلاسفة ، وسيلة لأيصالي الى الايمان بالله من طريق الادلة والبراهين ، التي اعتمدوها بالنظر العقلي الخالص ، البعيد عن كل ميل مع الدين ، بعد ان رأيتَ انني منصرف عن هذه الادلة والبراهين نفسها اذا سمعتُها من افواه رجال الدين ؛ ولتريني ان الدين الحق لا يتصادم ولا يتنافى مع حقائق العلم ، التي قام على صحتها البرهان العقلي القاطع ، لأن الدين الحقّ يجعل للعقل الكلمة الفاصلة العليا ، في معرفة الحقّ ؛ وهذه هي الغاية العظمى التي اردت ان تصل بي اليها .

الشيخ — وهل بلغت بك هذه الغاية يا حيران ؟

حيران — نعم يا مولاي .

الشيخ — بكلام ايّ الفلاسفة كنتَ اشد إعجاباً ، وبأيّ طُرُق الاستدلال كنت اشد اقتناعاً ؟

حيران — بكلام الجميع يا مولاي : فقد استهواني ما في كلام الكثرة الاكابر ، من صفاء التفكير ، وصدق الحجة ، ونفّرني ما في كلام القلّة الاصاغر ، من غموض ، وضعف ، وركاكة ؛ سواء في ذلك الذين أسَفّوا في السفسطة ، او غَلَوْا في التشكيك ؛ ودلني تلاقي عقول الفحول ، من كل الملل والنحل ، على ان الحق واحد ، وان تعددتْ طرق الدليل عليه ؛ واوقفتني المقارنة والموازنة ، بين اقوال الفريقين ، عند مشارف الفرقان ، واوصلني هديك الكريم ، يا مولاي ، والحمد لله ، الى اعتاب الايمان .

الشيخ — أهو ايمان الأيحاء ، ام ايمان الدليل ؟

حيران — أيريد مولاي ايماني بما أوحيَ الي الرسل ؟ اني والله لم اكن يوماً غير مؤمن بالله وكتبه ورسله .

الشيخ — اعرف اعرف . هذا ايمان الوجدان ، وايمان الفطرة ، وايمان الارث عن البيت الذي تحدّرت منه ، بل ارث الاجيال ؛ وما اصفاه ايماناً وما احلاه ، اذا لم يعكّره التفلسف الأبْتَر ، ولم تُمَرِّرْهُ الحظوظ العواثر .

حيران — اذاً ، ماذا يريد الشيخ بايمان الايحاء ؟

الشيخ – اسألك هل ايمانك الذي وصلت اليه اليوم ، بعد سماع كلام الفلاسفة ، هو ايمان الايحاء النفساني المنبعث من ذلـــك الأجلال ، الذي كنت تُكنّه لعظماء الفلاسفة ، من قَبْل ان تستبطن اقوالهم ، وتعرف ايمانهم ، ام هو ايمان الدليل والبرهان الذي اصبحت تدركه وتَعْقله بنفسك ... ؟

حيران – انه ايمان الثقة والاجلال ، وايمان الدليل والبرهان معاً . فقد اتيح لي ، بما رأيته من التلاقي على الحق ، في امر الايمان بوجود الله ، بين اكابر الفلاسفة ، واكابر علماء الدين ، وبمـــا عرفته في كلام الجسر ، من وجوب تحكيمِ العقـل ، في التوفيق بين العلم والدين ، والمعقول والمنقول ، عند قيام الدليل العقلي القاطع ، انْ ارجع الى علماء الدين ، بتلك الثقـة التي كان ينازعني عليها فرط اجلالي للفلسفة والعلم ، ويصرفني عنها ، احياناً ، جمود بعض العلماء ، الذين وصفهم الغزالي والجسر بأنهم اضرُّ على الدين من اعدائه . واتيح لي ان اتتبّع طرق الاستدلال على وجود الله كلهـــا ، فرأيتها ، على اختلافها في الصعوبة والسهولة ، مؤديةً الى الايمان بالله .

الشيخ – اريد ان اسمع تقرير الدليل من فمك ، لارى اين تقع هـــذه الصعوبة عندك ؛ فاجعلْني التلميذَ الحيران ، وكن انت الشيخ الموزون .

حيران – في (دليل الحدوث) الذي اخذ به اكثر الفلاسفة والعلماء ، ارى تفكيري يسير في الاستدلال سيراً مطّرداً ، في طريق واضح الحجّة ، تتداعى به الادلة وتتساند ، ويأخذ بعضها برقاب بعض ، وتذهب صعداً في مراحل البداهة العقلية . فيقول لي عقلي :

العالم مركب بمجموعه واجزائه ، وكل مركب حادثٌ بداهةً . والعالم ، بما فيـــه ، متغير تغيراً مستمراً من صورة الى صورة ؛ وكلُّ متغيّر من صورة الى صورة ، لا يمكن ان تكون له صورة اصلية ازلية قديمة ، لانها لو كانت كذلك ، لما جاز ان يطرأ عليها التغيّر .

والقول بتسلسل الصوّر الى غير نهاية ، غير صحيح ، لان التسلسل مستحيل عقلاً .

فلا بدّ ، اذاً ، ان نقف عند حدٍّ ، ونقول ان هذا المتغيّر لم تكن له في اول امره صورة .

واذا لم تكن له صورة ، لا يكون له وجود ، لان الصورة تشمل الشكل والحجم والوزن واللون والطعم والرائحة ، ومتى فَقَدَ الشيء هذه الصور كلها ، فَقَدَ وجودَه .

فالعالم المتغير ، اذاً ، لم يكن موجوداً ، ثم وُجد .

فالعالم ، اذاً ، حادث .

والعقل ، بقوة قانون العلّية البديهي ، يحكم بداهة بان كل حادث لا بد له من سبب يحْدثه .

وهذا السبب المحدِث ، لا يجوز ان يكون حادثاً ، لانه يفتقر الى سبب محدِث .

ولا يجوز القول بتسلسل الأسباب الى غير نهاية ، لان التسلسل ممتنع عقلاً .

فلا بد ان يكون المحدِث الصانع للعالم قديماً ، وهو الله تعالى ، الذي خلق العالم واحدثه بعد العدم المطلق .

الشيخ — مرحى يا حيران مرحى .

حيران — وفي دليل الوجوب الذي قال به الفارابي وابن سينا وديكارتْ ولوكْ ولايبْنزْ وغيرهم اقول :

العقل يحكم ، بداهة ، بان معنى الوجود ، يتردّد بين ثلاثة احوال : (الامكان ، والاستحالة ، والوجوب) ؛ فكل شيء امّا ان يكون ممكن الوجود ، واما ان يكون مستحيل الوجود ، واما ان يكون واجب الوجود .

والعقل يحكم ، بان هذا العالم من نوع (الممكن) .

والممكن لا بد له من مرجح ، يرجّح وجوده على عدمه ، ويخرجه من الامكان الى الوجود الفعلي .

وهذا الموجِد ، لا يجوز ان يكون ممكن الوجود ، لانه يصبح مفتقراً الى موجِد ، ويؤدّي الامر الى التسلسل ، وهو مستحيل عقلاً .

فلا بدّ ، اذاً ، ان يكون هذا الموجِد (واجبَ الوجود) .

وهذا الموجِد الواجبُ الوجود لا يجوز ان يكون من ذات الممكن ، لانه لو كان من ذاته لاصبح الممكن واجب الوجود ، وهذا تناقض مستحيل عقلاً ، لانه يجمع بين طرفي النقيض وهما (الامكان والوجوب) ، ولانه ايضاً يؤدي الى الدّور ، فيجعل السببَ علّة للمسبَّب ، ويجعل المسبَّب علّة للسبَب ، والدورُ مستحيل عقلا . فهذا العالم الممكن ، اذنْ ، مفتقر الى موجِد قائم بذاته ، واجبِ الوجود بذاته ؛ وهذا الموجد الواجب الوجود هو الله تعالى .

وعلى تعبير ديكارت القريب التناول : انني موجود فمن اوجدني ومن خلقني ؟ انني لم اخلق نفسي ، فلا بد لي من خالق ؛ وهذا الخالق لا بدّ ان يكون واجب الوجود وهو الله بارىء كل شيء .

وعلى تعبير باسكال : انه كان يمكن ان لا اكون لو كانت امّي ماتتْ قبل ان اولَد حياً ، فلستُ اذنْ كائناً واجب الوجود ، فلا بد من كائن واجب الوجود يعتمد عليه وجودي وهو الله .

الشيخ – وعلى تعبير القرآن : (امْ خُلِقوا مِنْ غَيْرِ شَيء امْ هُمُ الخَالِقُون ؟) .

حيران – وفي دليل (العلّة الكافية) على اساس (مبدأ التناقض) ، الذي انتبه اليه لايبنزْ :

العقل يحكم ان كل ما نتصوره لا بد ان يكون : امّا ممكناً ، وامّا مستحيلاً ، وامّا واجباً . وهذا العالم الواقع من نوع (الممكن) .

وكل واقع من نوع الممكن ، لا بد له من (علة كافية) لوقوعه ووجوده .

وهذا العالم الموجود ليس هو الذي اوجد نفسه ، لان القول بانه اوجد نفسه يوجب تناقضاً عقلياً كما سبق القول .

فلا بد لهذا العالم الواقع الممكن ، اذاً ، من علة كافية لوجوده ، لانه بدون علة كافية لا يكون موجوداً ، والحال انه واقع وموجود .

ولا بد ان تكون (العلة الكافية) لوجوده ، لها منتهى العلم والقدرة والحكمة وكلّ صفات الكمال ، لانها لو لم تكن كاملة الصفات لم تكن

(كافية) . وهذه العلة الكافية هي الله .

هذه كلها يا مولاي بديهيات عقلية يأخذ بعضها برقاب بعض . ولَـٰكنّ هذه البديهيات يزاحمها في الذهن ، عنـد آخر مراحل التفكير ، ارتباكٌ وكلالٌ عند تصور النهاية التي ليس وراءها اي شيء ، واللانهاية التي لا تقف عند حدّ ، والازلية التي ليس لهـا بداية ، والزمن الذي ليس قبله زمن ، والمكان الذي ليس ورائه اي شيء ، والعدم المطلق . ولكن كل هـذا الكلال لا يزعجني ولا يؤذيني ، بقَدَر مـا يزعجني ويؤذيني كلالُ عقلي وعجزه عن تصور الخلْق من العدم .

الشيخ — انـك معذور ، يا حيران ، فيما تشعر به من كلال العقل عن تصور هـذه الامور كلها ، فانك لست اعظم عقلاً من الغزالي وابن طفيل وابن رشد وكانْط وسبنْسر ، الذين اعترفوا بوقوع العقـل ، احياناً ، في هذا الكلال . ولكنك لست معذوراً ابداً في ان تقف امام هذا الكلال في تصور الخلق من العدم ، جامداً مشدوهاً ، عاجزاً عن ان تبرهن لنفسك ، بالادلة العقلية القاطعة ، على ان هذا الكلال وهم من الاوهام ... أليست كثيرة هي الأوهام التي تعتري عقولنا ، ثم ندحضها ونكذبها بالبرهان العقلي القاطع ؟ أصْغِ إليّ يا حيران .

حيران — كلّـي آذان يا مولاي .

الشيخ — هذا العالم الواقع المشاهد ، هـل هو من قسم (الممكن) أم من قسم (الواجب) ؟

حيران — لا ريب في انه من قسم الممكن ، لاننا نستطيع تصور عدم وجود العالم .

الشيخ — أهو الذي اوجد نفسه ؟

حيران — كلا لأن هذا التصور يوجب تناقضاً عقلياً ، لأنـه يصبح (واجب الوجود) والحال انه (ممكن) .

الشيخ — لا بد له اذاً من (علة كافية) لوقوعه ووجوده .

حيران — هذا بديهي .

الشيخ – العالم ، اذاً ، قبل ان تحدثه العلة الكافية ، لم يكن موجوداً .

حيران – لا ريب في ذلك .

الشيخ – لا بد ، اذاً ، من تصور العدم سابقاً لحدوث العالم .

حيران – لا ريب في ذلك .

الشيخ – هل تصور ايجاده بعد العدم ، يوجب تناقضاً عقلياً ؟ تأمل يا حيران .

حيران – كلا . بل ان التناقض العقلي ، انما يكون اذا تصورنا عدم سبق العدم لوجود العالم .

الشيخ – الايجاد من العدم ، اذاً ، غير مستحيل عقلاً وان كنا نجده مستحيلاً عادةً ونستبعده ونعجز عن تصوره ، كما قال لايبنتز .

حيران – حقاً انه غير مستحيل عقلاً ... ولكني ، يا مولاي ، لا ازال اعجز عن تصوره ، على الرغم من اني ، من طريق البرهان العقلي القاطع ، اصبحتُ ، واللهِ ، على يقين ، من انه غير مستحيل عقلاً . بل المستحيل عدم سبق العدم لوجود هذا العالم (الممكن) . فكيف اصنع بهذا العجز ؟

الشيخ – وما قيمة هذا العجز امام البرهان القاطع ؟ وانا مثلك يكلّ عقلي عن تصور الخلق من العدم ، ولكني على يقين بأن هذا الكلال هو وهم سخيف مضحك ، يدلّ الجمود امامه على خبل في العقل .

حيران – كيف ؟

الشيخ – ألا تؤمن بالحقائق الرياضية وتجد اليقين في نتائجها الصحيحة ؟

حيران – كيف لا ؟

الشيخ – ألست تعرف كثيراً من الحقائق الرياضية ، التي تستند الى اوليات بديهية عقلية ، تكون في اول الامر خافية عليك ، ولا تظهر لك الا بالتأمل والاستنتاج والبرهنة ؟

حيران – هذا صحيح ، ولكني بعد التأمل والبرهنة استطيع تصورها .

الشيخ – ما قولك اذا ذكرت لك قضايا حسابية بسيطة جداً ، يقوم عليها البرهان العقلي القاطع ، ومع ذلك يكلّ عقلك عن تصورها ، حتى بعد الحساب ؟

حيران — مثلاً ؟

الشيخ — انتبه يا حيران . ان عقولنا ، في مجال الاعداد الكبيرة ، تكلّ عن تصور حقائقَ واضحةٍ ، لا تحتاج الا لتأمل قليلٍ ، وحسابٍ بسيط من نوع الجَمْع ، ويكون كلاهما غريباً جداً ، حتى تمارى في النتيجة ، ولو اخبرها بها اصدق الناس واعلمهم ، وتبقى عاجزة عن (تصوّر) النتيجة ، ولو توصلتْ اليها بنفسها . ألا تعرف (أحْجية الورقة المقطّعة) ؟

حيران — كلا يا مولاي .

الشيخ — لو اعطيتَ ورقة رقيقة بالغة الرقة ، سمكُها جزء من /١٠٠/ جزء من الميليمتر ، وطُلب منك ان تقطعها نصفين ، ثم تقطع النصفين ثانيةً ليصبحا اربعة ، ثم تقطع الاربعة لتصبح ثمانية ، وهكذا الى ان تكرر القطع والتضعيف (٤٨) مرة . ثم سُئلتَ ، قبل ان تبدأ في القطع وقبل ان تحسُب ، كم تتوقع ان تصبح سماكة هذه الاوراق الرقيقة بعد قطعها (٤٨) مرة ؟ لم تقل ، مهما بالغت في التقدير ، ان سمكها يزيد على متر واحد او مترين او ثلاثة . فاذا قيل لك ان سمكها سوف يزيد على عشرة كيلو مترات لم تصدق ... واما اذا قيل لك انك اذا كررت القطع الى المرة الثامنة والاربعين ، ثم جعلت الاوراق المقطعة ركاماً مرصوصاً صاعداً في السماء فانه يلمس ، او يكاد يلمس ، القمرَ ، الذي يبعد عن الارض ٣٨٤ الف كيلو متر ، نفرتَ ، وحسبتَ القائل يسخر منك ... وبعد ان تتحقق ذلك بالحساب البسيط ، لو اردت تصوّره ، تجد عقلك كليلاً عاجزاً عن تصوره ... خذ قلمك يا حيران واحسُب .

يقول حيران بن الاضعف : واخذت قلمي وبدأت في الحساب والجمع . وقضيت فيه اكثر من ساعة ، والشيخ يضحك ... ولما انتهيت تحقق عندي ، بالحساب البسيط ، ان الاوراق المقطعة ، اذا رُكمَتْ تكاد ، فعلاً ، ان تصل الى القمر ، فقلت للشيخ :

حيران — حقاً يا مولاي ان سمكها يقرب من / ٣٨٤ / الف كيلو متر ... وحقاً انها تكاد تلامس القمر ... والله ان هذا لغريب عجيب ...

الشيخ — والآن اسألك : هل تستطيع (تَصَوُّرَ) هذه النتيجة ، بعد ان صنعتَها بيدك ، ام لا تزال تشعر بكلال عقلي عن تصورها ؟

حيران — والله اني لا ازال اشعر بكلال عقلي عن تصورها ...

الشيخ — هل ادركتَ وصدّقتَ الآن يا حيران ، ان عقولنا تكلّ احياناً عن تصور حقائق كثيرة ، يقوم البرهان العقلي على صحتها .

حيران — نعم صدّقتُ ، ولكن كيف ذلك ؟

الشيخ — ذلك لأن عقولنا خُلقت عاجزة عن تصور كثير من الاشياء ، ولكنها تستطيع ان تحكم بوجودها من طريق (البرهان العقلي القاطع) . (فالتصوّر) يا حيران غير (التعقّل) . فقد تستطيع تعقّل شيء ولا تستطيع ان تتصوره . لان التعقّل يعتمد على بديهيات اولية يأخذ العقل في ترتيبها وتركيبها ، واستنباط بعضها من بعض ، وبناءِ بعضِها على بعض ، فيصلُ الى حكم عقلي قاطع قد لا يستطيع تصوّره . هل فهمتَ الآن ؟

حيران — نعم فهمت .

الشيخ — والعلم الحديث ، اليوم ، يُقرُّ هذه الحقيقة ، التي ذكرتها لك عن الفرق بين امكان تصور الشيء وامكان تعقّله . فلا يبالي بعجز العقل عن التصور ، ويعتمد على التعقّل وحده ، لان الحقائق العلمية اصبحت ، في مجالاتها ، وكمياتها ، واعدادها ، فوق (التصور) . ولكنهم يحسُبونها ويعرفونها ويحكمون عليها من طريق التعقّل .

خذ لك مثلاً امواج النور . أتحسب ان العلماء ، الذين حسبوا ان الامواج التي تُحدث اللون البنفسجي تكون بسرعة / ٦٠ / الف موجة في البوصة ، يستطيعون تصوّر هذه السرعة لو اغمضوا عيونهم وارهقوا خيالهم ؟ كلا ، لأن هذا العدد الهائل ، في هذه المساحة الضئيلة ، يعجز العقل عن (تصوره) ، ولكن لا يعجز عن (تعقله) ايْ عن الحكم بصحته من طريق العقل .

وقد تصل الاعداد ، في الابحاث الذرية الحديثة ، الى مرتبة هائلة يكون عجز العقل عن تصورها اظهر لك ، يا حيران . خذ مثلاً : ان

العلماء يحسُبون لك ان سرعة ذبذبات الصوت قد تصل الى (نصف مليون) ذبذبة في الثانية . وهذا ثابت عندهم ثبوتاً عقلياً علمياً قاطعاً لا ريب فيه . ولكن أتراهم يستطيعون تصور حصول هذا العدد الهائل من الذبذبات ضمن ثانية .. ؟ ، جرب انت . هل تستطيع ان تتصور ، مهما اجهدت خيالك ، حصول الف ذبذبـــة في الثانية ، فضلاً عن مئة الف ، فضلاً عن نصف مليون ذبذبة في الثانية ؟ ولكن هذا الشيء الذي تعجز انت والعلماء عن (تصوره) هو امر واقع لا ريب فيه . فبأي شيء عرفوه ؟ أنهم عرفوه ، من طريق التعقل ، بالحساب .

هل فهمت الآن يا حيران كيف ان التصور غير التعقل ، وان العبرة لقدرة العقل على التعقل ولا عبرة لعجزه عن التصور ؟

حيران — نعم فهمت ، وفهمت بجلاء ووضوح .

الشيخ — هــل فهمت الآن معنى قول العلماء والفلاسفة ان الخلْـق من العدم ممكن تعقـّله ، ولو كان العقل يستبعده او يكلّ او يعجز عن تصوره ؟

حيران — حقـّاً (ان الفلسفة بحر على خلاف البحور ، يجــد راكبه الخطر والزيغ في سواحله وشطآنه ، والأمان والأيمان في لججه واعماقه) ، كما يقول مولاي . وحقـّاً انها ، كما يقول (باكون) : القليل منها يبعد عن الله اما الكثير منها فيردّ الى الله .

الشيخ — والآن جاء دور القرآن يا حيران . ناولني هذا المصحف من الخزانة . واذهب الى فراشك . فان لديّ عملاً آخر ، اقدمه الى ربـّي ، بغير الفلسفة ...

كَلِمَاتُ رَبِّي

يقول حيران بن الاضعف : خرجتُ من غرفـة الشيخ ، بعد ان ناولته المصحف ، واويت الى فراشي ، فلم اجد الى النوم سبيلاً ، لأني ما تعوّدت ان انام في هذه الساعة . ولم اجد الى المطالعة سبيلاً لأن المصباح لا يزال عند الشيخ . فاخذت أتناوم . وبعد لأي اغفيت أغفاءة خفيفة صحَوتُ منها على صوت سُعال الشيخ ... فرأيت انه لا يزال ساهراً ... ثم استغرقت في النوم الى ان صحوت على الخادمِ العجوز يقرع الباب ، ولما نهضت من فراشي ، لأفتح له ، وجـدت المصباح في غرفة الشيخ لا يزال منيراً ... ولما أذّن المؤذّن بصلاة الصبح ، وخرج الشيخ الى وضوئـه سألته عن سهره فقال : انني لم انته من التلاوة الا الساعة ...

قلت : ان السهر يا مولاي يضنيك .

قال : كل هذا من اجْلك يا حيران .

قلت : من اجلي انا ؟

فتبسم ومرّ الى وضوئه ثم صلينا الصبح ، وانفتل بعـد الصلاة الى غرفته وهو يقول : لن اخرجَ اليوم الى الغياض .. انني بحاجة الى النوم ...

وقضيت نهاري كله بين الغياض اراجع ما املاه عليّ الشيخ ليلة امس ... واعيد الجمع والحساب في (احْجية الورقة المقطّعة) ... فوجدتها يقينية . فآمنت بأن عقولنا تكل ، احياناً ، عن تصور حقائق كثيرة يقوم البرهان العقلي على صحتها .. وعرفت انه لا يجوز لنا ان نجْمُد امام هذا الكلال العقلي ، بل علينا ان نأخذ بالبرهان القاطع الذي قام لدينا ، ونؤمن بان ذلك الكلال وهم ، والوهمُ لا يُقاوِم البرهانَ . وتذكّرت ما قاله الغزالي في هذا الباب ، فراجعته وادركت ، الآن ، معنى قوله : (انه لم يجد لنفسه

علاجاً من الشك واوهامه إلّا (بالدليل) . والدليل لا يكون إلّا من تركيب الأوليات والضروريات التي لا يصل العقل الى اليقين إلّا بها) .

ثم قلت ، يا ويلَ نفسي . كيف كنت ادركُ كلّ هذا ، وكيف كنت أتعلم اطّراح الوهم عند قيام البرهان القاطع ، لو لم يُقيّض الله لي هذا الرجل المرشد الصبور ؟

ثم قلت يا ويل الناس من هذه الشكوك ، التي لا يخلص منها احدٌ ، كما قال الشيخ ، أتراهم يستطيعون ان يتوفّروا على مثل هذه الدراسة الطويلة ... ؟ ان الله لا يُكلّف نفساً إلّا وُسعها ... فكيف يدفعون هذه الشكوك عن ايمانهم ..؟

ولما كان المساء دخلت على الشيخ ، فرأيته يكتب ، في دفتر كبير ، بعض آيات القرآن . فالقيت السلام واهويت على يديه اقبلهما ، فتبسم وقال :

الشيخ — مالك تقبّل يديّ بلا داعٍ ... أأراك تُودّعني ...؟ أتحسب انك انتهيت من الدرس ، فاردتَ ان ترجع الى بلدك ؟ كلا يا حيران فشوطك ، في الدرس ، لا يزال بعيد المدى .

حيران — لم يخطر ببالي ان افارقك يا مولاي . ولو ذهبت لزيارة ابي لعدتُ اليك ؛ فقد انقطعتُ عن العلم في جامعة (بشاوَرْ) ، ولا أجدُ والله خيراً منك لوصْل ما انقطع . وانما قبّلت يديك لأنني أحبّ ان اناجيك بنجوى ثقيلة ، فاردتُ ان اقدّم بين يديْ نجواي صَدَقَةً ...

الشيخ — قل ما تريد ، فلا اجد منك شيئاً ثقيلاً .

حيران — لقد فكرت ملياً فيما كشفتَه لي ليلة امس من الحق ، فكيف بالله يا مولاي كنتُ ادركُ كل هذا ، وكيف كنتُ أتعلم اطّراح الوهم عند قيام البرهان العقلي القاطع ، لو لم يُقيّض الله لي هادياً مرشداً مخلصاً ، صبوراً ، واسع الصدر مثلك يا مولاي الكريم ؟

الشيخ — الهداة المرشدون كُثُر يا حيران ، وعنهم أخذْنا . وليس على طالب الهدى إلّا ان يُنْعم النظر ، ويطيل التأمل ، ويسأل اهل الذكر...

حيران — وهل يتاح لكل الناس ، ان يتركوا مشاغل الحياة ، واسباب

الرزق ، ليتفرغوا للنظر العميق ، والبحث الطويـل ، والاستدلال المرهق العسير ، وهل يكلف الله نفساً إلّا وُسْعَها ؟

الشيخ – هــذا حق يا حيران . وهذا الذي كنت اريد ان اصل بك اليه ، وادلّـك عليه ، وانصحك به ، بعد ان بلغتُ ما اردتـه من ارشادك الى صحة البراهين النظرية المركّبة وصدْقها ؛ بل انصح به كل انسان من الذين لا يُتاح لهم ان يتفرغوا للنظر والبحث والتأمل ... ألم ترأنـّي قضيت الليل كله اقرأ القرآن من اجلك .

حيران – بماذا تنصحني يا مولاي .

الشيخ – انني انصحك ، وانصح نفسي ، بل كلّ انسان بما نَصَح به ابن رشد : وهو ان نلجأ ، في اثبات وجود الله ، الى البراهين البديهية ، السهلة ، البسيطة ، الواضحة ، التي يدركها العقل ، بدون ان يحتاج الى الغوص في لجج الاستدلال والجدل ، ومن غير ان يعتريه ارتباك ، او كلال ، او عجز ، او وهم ؛ وهي البراهين التي اكثر من ذكرها القرآن ، واعتمد عليها اكثر ممّا اعتمد على البراهين العقلية المركبة الأخرى ؛ لأنه يستوي في ادراكها الجاهل الساذج والعالم الفيلسوف . امّا الساذج ، فيدركها اجمالاً لبساطتها ووضوحها وبداهتها ، واما العالِم فيدركها تفصيلاً ، ويعلم ان هذه البداهة في أدلة القرآن تعتمد على شواهدَ كثيرة ، تؤلّـف ، بمجموعها، حُكماً عقلياً يكون انكاره بمثابة الأنكار لقضية رياضيّة صحيحة .

حيران – هــذا والله عجيب وعظيم . فقد سبق لمولاي الشيخ ان نوّه بما في القرآن من اعجاز ، في باب التدليل على وجــود الله وخلق العالم ، وسبق لي ان لاحظت عند التلاوة بعضَ هذه الأدلة ، ولكني لم اكن اظن انها تؤلف بمجموعها حكماً عقلياً ، يُعَدُّ انكاره بمثابة الانكار لقضية رياضية صحيحة .

الشيخ -- كم مرة قرأت القرآن يا حيران ؟

حيران – اظن انني قرأته اكثر من عشر مرات .

الشيخ -- ألا تذكر قول ابيك لك في الرؤيا « ألا تقرأ القرآن ؟ » .

حيران – اذكره ولا انساه .

الشيخ – هل خطر على بالك ان تُنْعم النظر في قوله تعالى (إنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ) ، لتدركَ انه ، سبحانه ، حصر الخشية في العلماء ، وانه اراد بهم العالمين باسرار الوجود واسرار الخلق ، كما قال ابن رشد والجسْر ؟

حيران – لقد سألت عن هذا فقيل لي ان المقصود بالآية (علماء الدّين) .

الشيخ – وهل المفروض في علماء الدين ان يكون علمهم قاصراً على المعنى الاصطلاحي (للفقه) ، الذي يراد به استنباط احكام العبادات والمعاملات ، وان لا يكونوا مطّلعين على اسرار الوجود والخلق ، من طريق العلم والفلسفة ؟ كلا يا حيران ، فالفقه هو (الفهم) لكل شيء ، ولكل ما في الدّين من اسرار وحِكَم واحكام ؛ واول ما يجب ان نفهمه هو كلام الله . واول شيء يجب ان نفهمه من كلام الله هو الآيات الدالة على وجود الله ، وعلى انه الخالق العليم القادر المريد البارئ المصور الحكيم . وهذه الآيات لا تُفسَّر ، على الوجه الاكمل ، الّا اذا اطّلعْنا على ما في الكون من اسرار الخلق ، والنظام والاحكام ، والاتقان . فعلماء الدين هم اولى الناس بالاطلاع على اسرار العلم ، ولا يَصْدُق عليهم (الحَصْر) الوارد في قوله تعالى (انَّما يخشى اللهَ مِن عِبَادِهِ العلماءُ) ، – والمراد به الخشية الكاملة – الّا اذا كانوا عارفين ، من العلوم الكونية ، كلّ ما يتعلق باسرار الوجود والخلق ، التي دلّنا عليها القرآن وذكر لنا بعضها ؛ لأن هذه الآية لم تَرِدْ في سياق الكلام عن امر يتعلق بالعبادات او المعاملات او الأخلاق ، بل وردتْ في سياق الدلالة على قدرة الله وحكمته في انزال المطر ، وخلق النباتات ، والحيوانات على اختلاف انواعها وألوانها ، حيث يقول الله تعالت قدرته : (ألم تَرَ أنَّ اللهَ أنْزَلَ مِنَ السَّماء مَاءً فاخْرجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً ألْوانُهَا وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ ألوانُهـا وغرابيبُ سُودٌ ، ومِنَ النَّاسِ والدَّوابِّ والانْعامِ مُخْتَلِفٌ ألْوانُهُ كذلِكَ ، انَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عبادِهِ العُلَمَاءُ) .

حيران – لا ريب في ان المراد بالآية هم العلماء المطلعون على اسرار الخلق ونواميسه .

الشيخ – فالفهم الكامل ، لما جاء في القرآن من البراهين الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، يفتقر الى ثلاثة امور : جمْع هذه الآيات كلها في صعيد واحد ، حتى تكون في متناول البَصَر والبصيرة عند المقارنة ، فلا يتشتّت الفكر للبحث عنها في خِضمّ القرآن . ورغبة صادقة في درس هذه الآيات على ضوء العلم والفلسفة ، لاستنباط ما فيها من البراهين ، وما فيها من الردود على المنكرين . وانطلاق من قيود التعصب الأعمى لأيّ رأي ديني او فلسفي .

حيران – انني سمعت من بعض العلماء ، ان القرآن لم يترك شيئاً من العلوم الّا وأشار اليه .

الشيخ – كلا يا حيران كلا . وهؤلاء الذين يقولون ذلك ليسوا بعلماء ولا عقلاء ولا اذكياء ؛ فالقرآن ليس بدائرة معارف علميّة . ولا من مقاصده ارشاد الناس ، الى العلوم الكونية ، من باب التعليم . ولكنّ ما ورد فيه من الآيات ، التي تشير الى حقائق كونية كشفها العلم ، انما ورد بقصد التنبيه الى ما في خلق العالم من آثار الأرادة ، والقدرة ، والعلم ، والحكمة ، والاتقان ، والاتزان ، الدالّة على وجود الله ، النافية للتّكوين بالمصادفة ؛ ولم يُقصد به تقرير العلوم الكونية ؛ لأن القرآن خطاب للبشَر بلغة البشَر ؛ والله أحكمُ من ان يخاطب الناس بامور لا يعرفون اسماءها ، فضلاً عن اسرارها ؛ ولكنه اشار الى دلائل وجوده ، وقدرته ، وارادته ، وعلمه ، وحكمته ، ببيان عجيب يفهمه ، على ظاهره ، البدويُّ الساذج في القرن السابع ، ويفهم اسراره رجل العلم في القرن العشرين . وفي هذا يتجلّى اعجاز القرآن ، لا في بلاغته وحدها ، كما سبق القول . فاعجاز البلاغة والفصاحة انما يدركه العرب ؛ والقرآن خطاب للناس كافّة . والى هذا الضرب من الأعجاز اشار العليم الحكيم بقوله : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقّ) . وقد اراهم ،

سبحانه ، بعد عصور وعصور ، آياته في آفاق السموات والأرض ، وفي أنفسهم ، كما وعدهم ، فتبين لهم انه الحق ، وألّفوا في ذلك المطوّلات ، في بلاد الغرب . ولكننا ، نحن المسلمين ، الذين كان لنا السبْق والفضْل في كشف كثير من تلك الآيات ، من طريق العلم ، قصّرنا في ارائة اولئك العلماء ، ان هذا القرآن قدّم هذا الوعدَ ، واشار الى الكثير من دلائل وجود الله ، ووحدانيته وقدرته ، وحكمته ، منذ الفٍ واربعمائة سنة ...

وخلاصة القول ، يا حيران ، ان آيات القرآن تكاد تكون مقسمة بين : دعوةٍ الى الله ، وارشادٍ الى دلائل وجوده ، ووحدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، وارادته ، وعنايته ، ورحمته ، وجميعِ صفات كماله — ووعدٍ ووعيدٍ للترغيب في طاعته والتحذير من معصيته — وتوكيدٍ ليوم البعث والدّين — وأحكامٍ في العبادات والمعاملات — وحكمةٍ عمليةٍ في الحياة — وحضٍّ على مكارم الاخلاق — وقَصَص يَمُتّ بسبب الى هذه الاقسام الستّة . ولكنّ اهمّ هذه الأقسام ، وأعظمَها عند الله ، هو القسْم الاول ؛ لأن الأيمان بالله هو الأصل وهو الأساس لكل ما عداه . ولذلك ترى ، وانتَ تتصفّح القرآن ، ان الآيات الدالة على الله ، لا تكاد تخلو منها سورة من السُّوَر ، بل يتكرر ذكرها ، احياناً ، في السورة الواحدة .

يقول حيران بن الاضعف : وهنا ناولني الشيخ الدفتر الذي كان يكتب فيه الآيات وقال :

الشيخ — هذا هو الدفتر الذي جمعت لك بـه ، على ترتيب النزول ، اكثر آيات القرآن التي اراد بها الله تعالى اقامة البراهين على وجوده ، وعلى انه هو الخالق ، البارىء ، المصور ، العليم ، القادر ، الحكيم ، واكثر فيها سبحانه من الأشارة الى اسرار قدرته وحكمته الدالة على القصد والنظام والأحكام والأتقان والتقدير والأتـزان ، في خلق السموات والارض ، والشمس ، والقمر ، والكواكب ، والنجوم ، والليل ، والنهار ، والرياح ، والأمطار ، والجبال ، والانهار ، والبحار ، والنبات ، والحيوان ، والانسان ، والاسماع ، والأبصار ، والافئدة ، وما ينطوي عليه هذا الخلق من قوانين

ونواميس . فتعال يا حيران نقرأ هذه الآيات ونستعرضها جملةً واحدةً ، ثم ندرسها على ضوء ما كشفه العلم من اسرار الوجود والخلق .

حيران – لماذا اختـــار مولاي ايراد الآيات على ترتيب النزول ، ولم يوردها على ترتيب السور ؟

الشيخ – لانّي اردت لك ان تتصور نفسكَ من اهل العصر الذي نزل به القرآن ، لترى كيف توالى الوحْي ، وتتابع الهدى ، في خطاب الناس بهذه البراهين الدالة على الله ، فان ذلك يجعل تلاوة هذه الآيات ابلـــغ اثراً في نفسك ، وايسر في تفهم اسلوب الهَدى الكريم ، الذي اتّبعه القرآن .

يقول حيران : ثم دفع اليّ الشيخ ذلك الدفتر وقال : اقرأ وأَسمِعْني . فقرأت الآيات الآتية :

❁ إقْـرَأْ بِاسْمِ رَبِّـكَ ٱلَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . إِقْرَ وَرَبُّكَ ٱلأَكْرَمُ . ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .
« سورة العَلَق »

❁ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلأَعْلَى . أَلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . وَٱلَّذِي أَخْرَجَ المَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى . « سورة الأعلى »

❁ قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ . اللهُ ٱلصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ . « سورة الاخلاص »

❁ قُتِلَ ٱلإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ . « سورة عَبَس »

❁ فَلْيَنْظُرِ ٱلإِنْسَانُ الى طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبّاً . ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلأَرْضَ شَقّاً . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً . وَعِنَباً وَقَضْباً . وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ❁ وَحَدَائِقَ غُلْباً . وَفَاكِهَةً وَأَبّاً . « سورة عبس »

❁ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا . وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ❁ وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَٱلسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَٱلأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ❁ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . « سورة الشمس »

❁ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ في احْسَنِ تَقْوِيمٍ . « سورة التين »

❁ أَيَحْسَبُ ٱلإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَٱلأُنْثَى . « سورة القيامة »

❁ وَٱلْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً . فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً . وَٱلنَّاشِرَاتِ نَشْراً . فَٱلفَارِقَاتِ فَرْقاً . فَٱلْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً . عُذْراً أَوْ نُذْراً . « سورة المرسلات »

❁ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . الى قَدَرٍ مَعْلُومٍ . فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَادِرُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلأَرْضَ كِفَاتاً . أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً . وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . « سورة المرسلات »

❁ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ . وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ . وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ . رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ . «سورة ق»

❁ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ . «سورة البلد»

❁ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ . « سورة القمر »

❁ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . « سورة الأعراف »

❁ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . «سورة الاعراف»

❁ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ . « سورة الاعراف»

❁ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا . « سورة الاعراف »

❁ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . « سورة الاعراف »

❁ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ . وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .
« سورة يس »

❁ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . « سورة يس »

❁ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ

لَكُمْ مِنَ ٱلشَّجَرِ ٱلأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ . أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ . « سورة يس »

❁ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرا . « سورة الفرقان »

❁ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً . ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً . وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِبَاساً وَٱلنَّومَ سُبَاتاً وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً . وَهُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً . لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ❁ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً . « سورة الفرقان »

❁ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً . وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً . « سورة الفرقان »

❁ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً . وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً . « سورة الفرقان »

❁ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلأَرْضِ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ .
« سورة فاطر »

❁ وَٱللهُ ٱلَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ ٱلنُّشُورُ . « سورة فاطر »

❁ وَٱللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيرٌ . وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ ٱللهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ) . « سورة فاطر »

❁ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَابِّ وَٱلأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ . « سورة فاطر »

❁ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً . «سورة فاطر»

❁ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً .
«سورة مريم»

❁ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ الأُولَى . قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى . ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ازْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى . كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي ٱلنُّهَى . «سورة طه»

❁ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ . أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ . «سورة الواقعة»

❁ أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَاءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنْزِلُونَ . لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ . أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنْشِئُونَ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ . فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ .
❁ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ .
«سورة الواقعة»

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . «سورة الشعراء»

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّنْ جَعَلَ ٱلأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . «سورة النمل»

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . «سورة النمل»

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ . «سورة النمل»

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ «سورة القصص»

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ

ٱللَّيْـــلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ . «سورة القصص»

* وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ
ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَـــدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً . «سورة الاسراء»

* رَبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ
كَانَ بِكُمْ رَحِيماً . «سورة الاسراء»

* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ
ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً . «سورة الاسراء»

* وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ
مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً . «سورة الاسراء»

* هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَـــاءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ
لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ
ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . إِنَّ فِي ٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ . «سورة يونس»

* قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْـــعَ

وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ . «سورة يونس»

* قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ . «سورة يونس»

* هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . «سورة يونس»

* قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ . «سورة يونس»

* وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ . «سورة هود»

* وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . «سورة يوسف»

❁ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ . وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ . وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ . وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَارِثُونَ « سورة الحِجْر »

❁ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . « سورة الحِجْر »

❁ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَمواتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ « سورة الحِجْر »

❁ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَمواتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ . هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ . « سورة الانعام »

❁ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ « سورة الانعام »

❁ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَمواتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَال لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَومِ ٱلضَّالِّينَ . فَلَمَّا

رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . «سورة الانعام»

* إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَى يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱللَّيْلَ سَكَناً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ . وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ٱنظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .
«سورة الانعام»

* ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ . «سورة الانعام»

* وَهُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَٱلنَّخْلَ

وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ . وَمِنَ ٱلْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . «سورة الانعام»

* فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ . «سورة الصافات»

* خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . هَذَا خَلْقُ ٱللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ ٱلظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . «سورة لقمان»

* أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ . «سورة لقمان»

* وَلَوْ أَنَّ مَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . «سورة لقمان»

* أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ

وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ ٱللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ٱلْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَةِ ٱللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . « سورة لقمان »

❁ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . « سورة سبأ »

❁ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱللَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱللَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ . خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ ٱللهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ . « سورة الزُّمَر »

❁ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الأَلْبَابِ . « سورة الزُّمَر »

❁ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَهُ مَقَالِيدُ

ٱلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ
قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ . « سورة الزُّمَر »

❁ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا
يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ . « سورة المؤمن اوغافر »

❁ ٱللهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ
ٱللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ .
ذَٰلِكُمُ ٱللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ .
كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ . اللهُ ٱلَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ
مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ ٱللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . «سورة المؤمن»

❁ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ
يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . هُوَ ٱلَّذِي
يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . «سورة المؤمن»

❁ ٱللهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ .
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ ٱللهِ تُنْكِرُونَ . «سورة المؤمن»

* وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .
«سورة فصّلت»

* سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . «سورة فصّلت»

* فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . «سورة الشورى»

* وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ...
«سورة الشورى»

* وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ . إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . «سورة الشورى»

* وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ . وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . «سورة الزخرف»

﴿ إنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ . « سورة الجاثية »

﴿ اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .
« سورة الجاثية »

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ اثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ انْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . « سورة الاحقاف »

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ .
« سورة الذاريات »

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ . وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .
« سورة الذاريات »

❁ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . « سورة الغاشية »

❁ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً . « سورة الكهف »

❁ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً . « سورة الكهف »

❁ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ . خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَٱلْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ . وَٱلْخَيْلَ وَالبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . «سورة النحل»

❁ هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ ٱلزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ

فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَأَلْقَى فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَعَلَامَاتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ . أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . وَٱللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ . « سورة النحل »

* إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . « سورة النحل »

* وَٱللهُ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ . وَمِنْ ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .
« سورة النحل »

❋ وَٱللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَٱللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ ٱلْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ . وَٱللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ... « سورة النحل »

❋ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً . أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً . وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجاً . وَٱللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتاً . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً . وَٱللهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطاً . لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً .
« سورة نوح »

❋ أَفِي ٱللهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ... « سورة ابراهيم »

❋ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . « سورة ابراهيم »

❁ أللهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ . « سورة ابراهيم »

❁ أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِيْنَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُوْنَ . وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيْدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيْهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُوْنَ . وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُوْنَ . وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُوْنَ .
« سورة الانبياء »

❁ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِيْنٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِيْنٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِيْنَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُوْنَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تُبْعَثُوْنَ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَافِلِيْنَ . وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُوْنَ . فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيْلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيْهَا فَوَاكِهُ كَثِيْرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَشَجَرَةً

تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ . وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ . «سورة المؤمنون»

* وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَافُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

«سورة المؤمنون»

* ٱلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ .

« سورة السجدة »

* أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَاءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ . « سورة السجدة »

* أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ . « سورة لطّور »

* تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ .

ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ . « سورة المُلْك »

* هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ ذَلُولاً ... « سورة المُلْك »

* أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَنُ ... « سورة المُلْك »

* قُلْ هُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلأَبْصَارَ وَٱلأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ . « سورة المُلْك »

* قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ . « سورة المُلْك »

* فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . « سورة الحاقّة »

* فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَارِقِ وَٱلْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ . « سورة المعارج »

* أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلأَرْضَ مِهَاداً . وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً . وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً . وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً . وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاساً . وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً . وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً . وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً . لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً . « سورة النبأ »

* أأنتم أشدُّ خلقاً أمِ السَّماءُ بناها . رفع سمكها فسوّاها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرضَ بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبالَ أرساها . « سورة النازعات »

* يا أيها الإنسانُ ما غرّك بربّك الكريم . الَّذي خلقك فسوّاك فعدلك . في أيِّ صورةٍ ما شاء ركّبك . « سورة الانفطار »

* أَوَ لم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق اللهُ السَّماواتِ والأرضَ وما بينهما إلّا بالحقِّ وأجلٍ مسمّى ... « سورة الرُّوم »

* فسبحانَ اللهِ حينَ تمسونَ وحينَ تصبحونَ . ولهُ الحمدُ في السَّماواتِ والأرضِ وعشيًّا وحينَ تظهرونَ . يخرجُ الحيَّ مِنَ الميّتِ ويخرجُ الميّتَ مِنَ الحيِّ ويحيي الأرضَ بعدَ موتِها وكذلكَ تخرجونَ . ومِنْ آياتِهِ أنْ خلقكمْ مِنْ ترابٍ ثمَّ إذا أنتمْ بشرٌ تنتشرونَ . ومِنْ آياتِهِ أنْ خلقَ لكمْ مِنْ أنفسكمْ أزواجاً لِتسكنوا إليها وجعلَ بينكمْ مودّةً ورحمةً إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يتفكّرونَ . ومِنْ آياتِهِ خلقُ السَّماواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتِكمْ وألوانِكمْ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِلعالمينَ . ومِنْ آياتِهِ منامُكمْ باللّيلِ والنّهارِ وابتغاؤكُمْ مِنْ فضلِهِ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يسمعونَ . ومِنْ آياتِهِ يريكُمُ البرقَ خوفاً وطمعاً وينزّلُ

مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . « سورة الروم »

* وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .
« سورة الروم »

* أَللهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّماءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِيْنَ . فَٱنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ ٱللهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمُوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ . «سورة الروم»

* وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي ٱللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللهِ ... « سورة العنكبوت »

* قُلْ سِيْرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللهُ يُنْشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ . « سورة العنكبوت »

* مَثَلُ ٱلَّذِيْنَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنْكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

إِنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ . «سورة العنكبوت»

* وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ . « سورة العنكبوت »

* وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . « سورة العنكبوت »

* يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشاً وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . « سورة البقرة »

* كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . « سورة البقرة »

* بَدِيعُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . « سورة البقرة »

* إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . «سورة البقرة»

* وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . «سورة البقرة»

* يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ...«سورة البقرة» .

* هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلأَلْبَابِ . «سورة آل عمران»

* شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . «سورة آل عمران»

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . «سورة آل عمران»

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ . ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ... «سورة آل عمران»

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ... «سورة النساء»

﴿ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ ... «سورة الحديد»

﴿ إِعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . «سورة الحديد»

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ

يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

« سورة الرعد »

* هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ...

« سورة الرعد »

* قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَى وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَاتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ . « سورة الرعد »

* ٱلرَّحْمَنُ . عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ . خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ . ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ . « سورة الرحمن »

* هَلْ أَتَى عَلَى ٱلْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً . إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً .

« سورة الانسان »

❁ . قَدْ جَعَلَ ٱللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً . « سورة الطلاق »

❁ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ . يُقَلِّبُ ٱللهُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي ٱلْأَبْصَارِ . وَٱللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ ٱللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . « سورة النور »

❁ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَاءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ ٱلْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . « سورة الحج »

❁ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ

بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ . « سورة الحج »

❁ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . « سورة الحج »

❁ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ ٱلْبَاطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَهُوَ ٱلَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ . « سورة الحج »

❁ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ . مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . « سورة الحج »

* خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ . « سورة التغابن »

يقول حيران بن الأضعف : ولما انتهيت من قراءة هـذه الآيات قلت للشيخ الموزون : جزاك الله عني خيراً يا مولاي . فقـــد ، والله ، قرأتُ الساعة آيات لا أتذكر انها مرّت عليَّ في كل مـا اتيح لي ، في عمري ، من التلاوات ؛ ومـا اظن ذلك إلّا من ترْك التأمل والتدبّر ، في التلاوة المعتادة للتبرك .

الشيخ .- لا يكفي ان تقرأ هذه الآيات مرة او مرتين ، ولكن يجب ان تصنّفها اصنافاً ليجتمع امام عينيك ، في كل شيء مِنْ خَلْق الله ، الآياتُ المشيرة اليه . وقد يكون بعضها شاملاً لعدة اشياء ، فلا بأس من تكرار ذكرها .

قُمْ الآن فانقلها الى دفتر الأمالي ، وعُدْ اليّ غداً ، لاتمّ لك الكلام.

قبل ألف سنة

من القرن السابع عشر

يقول حيران بن الاضعف : قضيت الليل كله في نقـل آيات القرآن الى دفـــتر الأمالي . وقبـُيل الفجر غلبني النوم فلم اصحُ الّا على صوت المؤذن العجوز وهو يقول لي : صار العصر يا بُنيّ . ما هذا النوم الطويل... فنهضت من فراشي مشدوهاً ، مشتت الفكر . وسألته : كيف ؟ من فتح لك الباب ، ولماذا لم توقظني لصلاة الفجر ؟

قال : فتح لي مولانا الشيخ . وهو الذي امرني بتركك نائماً . وبعد ان صلينا الفجر ارسلني الى سمرقند ، لأحضر له هذه الكتب كلها . وهناك عند بائع الكتب رأيت شيخاً مسكيناً يسأل عن مولانا الشيخ الموزون ، فارشَدَه بائعُ الكتب إليّ ، فسألني عن الشيخ ، وزعم انه رفيق له وصديق حميم ؛ وعبثاً حاولت صرفه ، وافهامه ان الشيخ في عزلة عن الناس ، فانه ما زال يلحُّ ويلحِف حتى احزنني واضْجرني ، فاتيت بـه ودللْته على محل الشيخ في البساتين ، ورجعت بالكتب لاسلّمك اياها .

قلت لصديقي العجوز يا أبا محمد ، ولكن هذه الكتبُ افرنجية ، وانا لا أحْسِنُ اللغات الافرنجية .

وفوجئت من الباب بصوت الشيخ الموزون يقول لي : أنـــك سوف تُحْسِنُها . انـه لنقص عظيم ، وعجز قبيح ، فيك ، وانت من رجال الدين ، الذين يلقى على عاتقهم عبء الأرشاد ، ان تكون جاهلاً لغة العلم في هذا العصر ...

حيران — انني اعرف لغتي ، واعرف التركية واعرف العربية . أليس في هذه اللغات كتب علم .

الشيخ — أتعرف في لغاتك هـــذه سلسلة كهذه ؟ ثم ما هذه المكابرة

يا حيران . ألست تعلم ان ما في لغاتنا هذه من كتب العلم ، على قلته ، معرب عن اللغات الاجنبية ؟ أليس الاولى ان تكون لنا القدرة على تناول العلم الحديث من منابعه الاصلية ، لنتابع سيره الخاطف ؟ ألا ترى ان ما يعربه علماؤنا ، من كتب العلم ، ليس من الوفرة ، ولا من السرعة ، بحيث يجاري سير العلم في بلاد الناس ؟ وهذه السلاسل من الكتب الصغيرة التي اريد بها تبسيط العلم ، وتيسيره للناس كافة ، هل عرفتَ عالماً من علمائنا استطاع ان يضع مثلها ؟ ذلك لأنه ما من عالم يستطيع ذلك وحده . اما في الغرب ، فيتعاون العلماء عليها ، كلٌّ في ما يحسنه ويتقنه ، وتنفق دور النشر الكبرى ، على هذا المجهود أموالاً طائلة للعلماء وللمطابع ؛ ولكنها تجني من بيعها للناس اموالاً طوائل . ذلك لأن نسبة القراء عندهم عظيمة ... أما نحن هنا في الشرق ، ولاسيما الشرق المسلم ... فالكتاب العلمي لا يأتي لمؤلفه بنفقة طبعه .

حيران — لماذا يا مولاي .

الشيخ — لقلة عدد القراء المشترين ، ولهذا اصبح الواجب ملقىً على الحكومات ، فهي وحدها التي تستطيع ان تقوم بتعريب ونشر هذه السلاسل العلمية المبسّطة ، وتيسيرها للناس بأرخص الأثمان ، لتعين على رفع مستوى الثقافة ... وعلى كل حال فان هذا لا يغني الأمة عن تعلم اللغات الغربية . واما انت يا رجل الدين ، فانّ تعلّم احدى لغات الغرب الكبرى فرض في عنقك ، ان كنت تريد ان تكون مرشداً وداعياً الى الله .

حيران — سأتعلمها باذن الله يا مولاي .

الشيخ — والآن هيّا الى عملنا . هل نقلت الآيات الى دفتر الأمالي ؟ لقد رأيتك تكتب الليل كله .

حيران — نعم يا مولاي . ما زلت ساهراً حتى أتـْمَمْتـُها .

الشيخ — انك يا حيران ، اذا تدبرت هذه الايات ، وانعمت النظر فيها ، على ضوء العلوم الطبيعية ، التي يجب ان تكون واسع الاطلاع عليها ، وعلى ضوء الفلسفة ، رأيت بجلاء ، ان القرآن قد تناول فيها كلّ طرق الاستدلال ،

التي سلكها علماء الدين والفلاسفة ، وتلاقوا فيها على الحق :

فذكرَ الادلة النظرية المركبة كدليل (الحدوث) ، ودليل (الوجوب) ، ودليل (العلّة الكافية) التي تقوم على بداهة (قانون العلّية) ، ثم اعتمد اكثر ما اعتمد على دليل (النظام) الذي يرتكز على ذكر ما في خلق الله من ابداع ، واختراع ، وتصميم ، وتنظيم ، واحكام ، واتقان ، وتقدير ، وتحديد ، وترتيب ، واتزان ، فاكثرَ من ذكر شواهده وكرّرها ، واكّدها في مواطن كثيرة . لانه الدليل الذي يدركه العقل ، ويرضاه بيسر وسهولة ، بدون ان يحتاج الى غوص في لجج الاستدلال ، ومن غير ان يعتريه وهم او عجز او كلال ؛ ويستوي في ادراكه ، مبدئياً ، البدوي الساذج ، والعالم الفيلسوف ؛ لأن علّام الغيوب سبحانه ، علم ان الذين يطيقون الإنكباب على التعمق في الأدلة العقلية الفلسفية المركبة العويصة ، التي مرت بك ، هم القلة من العلماء ؛ فقضت حكمته بأن يخاطب الناس كافةً بالدليل الأيسر ، الأسهل ، الأوضح ، الذي يزداد ، على مر الأيام ، وضوحاً كلما تقدم العلم وانكشفتْ للعلماء اسرار النواميس الدالة على النظام ؛ ليَصْدق وعدُه تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الافَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) ، وقد صدق وعده الحق ، فأراهم بعد عصور وعصور من آياته في (الافاق) ، وفي تكوين (الأنسان) ما ألّفوا فيه المطولات ، حتى تحقق فيهم قوله سبحانه (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) .

حيران — هل يتكرم مولاي الشيخ بدلالتي الى الايات التي برهن بها الله على وجوده بالأدلة العقلية المركبة كدليل الحدوث والوجوب والعلة الكافية ، فانني لم أتبيّنْها اثناء التلاوة .

الشيخ — انك لم تتبيّنْها لأنها أُلقِيَتْ باوجز عبارة وألطف اشارة ، كي لا يدركها إلّا اربابها ، كما قلت لك في حديثي عن ابن رشد . تأمل يا حيران في الايات الاتية :

— امْ خُلقوا مِنْ غير شَيْءٍ امْ هُمُ الخَالِقُون ؟

– أوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَموات والارْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيء ؟
– أفلا يذكرُ الانسَانُ انّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ولَمْ يَكُ شَيْئاً ؟
– هلْ أتَى عَلَى الإنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهرِ لَمْ يَكُنْ شيئاً مَذْكوراً ؟
– ومِنْ آياتِه خَلْقُ السَمَواتِ والأرضِ وما بَثّ فيهِما مِن دابّة .
– وفي خلْقِكم ومَا يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لقوْمٍ يوقِنُون .
– أفَمَنْ يَخلُقُ كمَنْ لا يخلق أفَلا تذكّرون ؟
– ورَبُّكَ يَخلُقُ ما يَشَاءُ ويَختار .
– ما خَلَقْنا السَمَواتِ والأرْضَ إلّا بالحَقّ وأجَلٍ مُسَمّىً .
– إنّ الّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخلُقُوا ذُباباً وَلَوْ اجْتَمعُوا لَه .
– ومِنَ النّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في اللهِ بِغيْرِ عِلمٍ وَلا هُدَىً وَلا كِتَابٍ مُنِير .
– مَثَلُ الّذينَ اتّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أوْلِياءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتّخَذَتْ بَيْتاً وإنّ اوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَو كانوا يَعْلَمُون . إنّ اللهَ يَعْلَمُ ما يَدْعونَ مِنْ دُونِه مِنْ شَيءٍ وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم . وتِلْكَ الأمثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ وما يَعْقِلُها إلّا العَالِمون .

تأمل في هذه الآيات يا حيران ، وطبّقها على ما مرّ معك من الاقوال التي ذكرها الحكماء والفلاسفة مثل : ديكارتْ ، وباسكالْ ، وليبْنِزْ ، (فضلاً عن ابن سينا والغزالي وغيرهم من علماء الكلام) عن :

دليلِ الحدوث
ودليلِ الوجوب
وبداهةِ قانون العلّية
ودليلِ (العلّة الكافية)

واثباتِ صفة الأرادة ، ونفيِ الخلق بالضرورة
وبداهةِ كون العالم الحادث قد خُلِقَ في زمن معين واجـل مُسَمّى .

فانك اذا فعلتَ ، وراجعتَ ما قالوه ، ادركت سرّ الاعجاز في هذا القرآن ، الذي نزل على الرجل الأمّي ، في البيئة الاميّة ، قبـل اربعة عشر قرناً ، من اليوم الذي نحنُ فيه ، وقبل ألف سنة من عصر ديكارتْ وباسكالْ وليْبنزْ ؛ وعرفتَ ان الفهم الكامل لكل ما تنطوي عليه هذه الآيات والأمثال ، لا يتيسر الا للعالمين .

انه يقول ، كما قال الفلاسفة والمتكلمون مِن بَعْدِهِ : (العَالَم حادثٌ) .

ولكنه يَعْدِلُ عن اسلوبهم في اثبات الحدوث بدليل تغيّر الصُوَر ؛ لأن العليم الحكيم قـد علم ان سيْرِ الذهن ، في تصور سلسلة (الصّوَر) المتغيرة ، عَبْر الادهـار الطويلة البعيدة ، يبدو عسيراً ، فيما يتعلق بالمادة الصمّاء التي لا نعرف ماذا كانت في اوّلها ، ولكنّه يبدو سهلاً ، بـل سيكون مشاهداً ، فيما يتعلق بتكَوُّن (الحياة) على الأرض ، ولاسيما في جنس (الحيوان) عامةّ ، وفي نوع (الانسان) بوجـه اخصّ . وها انه قد ظهر وثبت ، لدى العلماء ان دهاراً طويلة مرّت قبل ظهور الحيوان والانسان على الأرض .

لذلك يُكثر القرآن من ذكر الدوابّ والانسان ، ليُذَكّر هـذا الانسانَ ، المقصودَ بالهداية ، بأنه (اتى عَلَيْهِ حينٌ من الدهر لم يكنْ فيه شيئاً مذكوراً) ، ويَستنتجُ من هـذا ، استنتاجاً بديهياً سهلاً ، انه (حادث) ، ليَخْرجَ من هذه البداهة الاولى الى نتيجة بديهية ثانية : وهي ان المادة التي حدث منها هذا (الانسان) لا بدّ ان تكون حادثة ، لانها قَبِلتْ (التغيّر) ؛ والقديم لا يتغيّر ...

وبعد ان يقرر القرآن امر حدوث الانسان ، والمادة ، والعالم ، على هذا الوجه السهل الواضح ، يسير في طريق الاستدلال العقلي ، على اساس (قانون العلّية) الذي تُمْليه بداهـة العقول ؛ فيتسائل عن علّةِ هذا العالم الحادثِ ، وسببـه .

ويَعْرِض ، باسلوب رائـــع من البيان الموجز الجزْل ، كلَّ الفروض المستحيلة التي يذكرها الجاحدون الملحدون ، المجادلون في الله بغير علم ولا هُدَى ، حين يقولون :

- انّ العالم حدث عن غير علّة .
- او انّه حدث من نفسه .
- او انّ اللهَ والعالم شيء واحد .
- او انّ مادة العالم قديمة كَقِدَم الله .
- او انّ الخلق حصل بالضرورة من غير ارادة .

فيقول لهم :

- (هَــلْ أتَى عَلى الإنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكوراً ...؟)
- (اولاَ يَذْكُر الانسانُ انّا خلقناه من قبلُ ولم يكُ شيئاً ؟) .
- (امْ خُلِقوا من غير شيءٍ امْ هُمُ الخالقون ؟) .
- (أفَمَنْ يَخلُق كمَنْ لا يَخلُق أفلا تَذَكّرون ؟) .
- (وربك يخلق ما يشاء ويختار) .
- (ما خلقنا السماواتِ والأرضَ الّا بالحق واجلٍ مسمّى) .

فانظرْ كيف ينبّه ، بهذا البيان الرائع ، عقولَ الناس الى استحالة تلك الفروض التي يزعمها الملحدون ، استحالة بديهية .

وانظر كيف يدفع العقول ، الى تطلّب العلة الكافية ، والبحث عنها ، والحكمِ بتوجب وجودها ، وتوجب اتصافها بالصفات الكاملة (الكافية) لأحداث هذا العالم وخلقه .

وانظر كيف ينبهها للتفريق والتمييز ، بين الله والعالم (المعلول) ، بالماهية والذات والصفات ، لاستحالة ان يكون (المعلول) هو نفس (العلة) ، او جزء منها .

ثم انظر كيف يشير ، في الآيات الأخرى ، الى بطلان القول بخلق الله للعالم (بالضرورة) لتوجّب اتصافه سبحانه (بالارادة) ، التي بها

وحدها اختار تحديد (الأجل) الذي اراد احداث العالم فيه ... ولان الخلق بالضرورة يؤدي الى القول بقِدَم العالم والأنسان .

(هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ؟) بلى . وهذا ما اثبته العلم بشأن الانسان والحيوان خاصةً ، والحياة عامة .

اذن ، هو حادث ، ومخلوق ، وممكن الوجود ، لا واجب الوجود .

وكل شيء في ملكوت السموات والأرض هو حادث ، لأنه (شيء) ولأنه مركّب ولأنه (متغيّر) ، ولأنه (ممكن الوجود) ، ولأنه ليس (واجب الوجود) ... ، فهل خلق من غير شيء ؟ وحدث من غير (علة كافية) ؟ هذا مستحيل ، كما يقول ليبنز ْ وغيره من الحكماء ، وقد سبقهم القرآن بألف سنة فقال : (ام خُلقوا من غير شيء ؟)

أهو خلق نفسه ... ؟ وهذا مستحيل أيضاً ، كما يقول ديكارتْ وباسكالْ وغيرهم ، ولقد سبقهم القرآن فقال : (امْ هُمُ الخالقون ؟) .

هل المخلوق والخالق شيء واحد ... ؟ وهذا مستحيل ايضاً ، لأنه يؤلف تناقضاً عقلياً ، كما يقول لايبنزْ وغيره ، لاستحالة ان يكون المعلول هو نفس العلة ، (أفَمَنْ يَخلُقُ كَمَنْ لا يَخلُقُ ؟) .

هل خَلق الله العالم بالضرورة من غير ارادة ..؟ وهذا مستحيل ايضاً ... لأنه يعطل صفة الكمال المتوجبة لله عقلا ، فالذي لا يريد ولا يختار لا يكون إلـهاً . ولأن القول بالخلق بالضرورة بلا ارادة ، يجعل الانسان قديماً . وقد ثبت انه (حادث) ... (وَرَبُّكَ يَخلُقُ ما يَشَاءُ ويَختارُ).

هل العالم ازلي مثل خالقه كما زعم البعض ...؟ وهذا مستحيل ايضاً . لأنه لم يخلَق بالضرورة بل بالارادة الازلية التي حددت وسمّت وقت خلقه . ولو كان خلقه بالضرورة لكان قديماً ؛ وهو (حادث) ...، (ما خَلَقنا السموات والأرْضَ الّا بالحَقّ وأجَلٍ مُسَمّى ..) .

هذا هو القول الحق الذي لا ريب فيه ، وكل ما سواه ، هو قول واهٍ واهنْ مثل (بيت العنكبوت) الذي هو في الظاهر منسّق ، مرتّب ، مزوّق ، تنسجه العنكبوت من جوفها ، لتصطاد به صغار الحشرات ، كما

ينسج المجادلون في الله بغير علم ولا هدى، ظنونهم الواهية، من بطونهم، ليصطادوا بها ضعاف العقول...

وهكـذا، يا حيران، يتناول القرآن الذي نزل على الانسان الأمّي، في الجزيرة الأمّية، جميع الحجج العقلية البالغـة، والبراهين الساطعة الدامغة، التي قضى العلماء والحكماء اعمارهم حتى توصلوا اليها وتلاقوا عليها، (بهدى القرآن، او بهدى الله الذي انار عقولهم)، فيقررها بابلغ عبارة، واوجز اشارة، والطف تنبيه، واصدق تشبيه، تقريراً معجزاً، يُبرز فيه، من تلك الحجج والبراهين، ما يملح لادراك الجاهل، ويُخفي منها تحت الأعماق، للأجيال، ما لا يستطيع الغوصَ عليه الّا العالمون...

حيران — الّا العالمون... الّا العالمون... (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الّا العالمون).

الشيخ — الحمد لله يا حيران. فلقد جزتَ الامتحان، وبدأتَ تدرك كيف يتفقُ العقلُ والعلم والقرآن...

حَظّ المصادَفَة

يقول حيران بن الاضعف : ـــ يومي كله في مراجعة آيات القرآن ، ومقارنتها بما دونه ابن سينا والغزالي في القرن الثاني والثالث ، وبما ذكره (ديكارت) و (باسكال) و (ليبنز) في القرن السابع عشر ، فاخذتني هزّة من الفرح والعجب من تلاقي هـذه العقول مع القرآن ، على طريقة واحدة في الاستدلال . ولما حلّ وقت الدرس دخلت على الشيخ ، فوجدت امامه (إبَراً) يشتغل في تلوينها بخطوط ، ولما القيت السلام تبسم وقال :

الشيخ – مالك يا حيران . احسبت شيخك قـد انقلب من استاذ الى خياط او مشعوذ ؟

حيران – معاذ الله يا مولاي .

الشيخ – نعم هذه إبَر : اخيط بها البرهان ، وافقأ بها دمّل الأوهام ، واخِزُ بها الغافلَ الوسنان . واردّ بها سحر المشعوذين ... ولي فيهـا مآرب اخرى ، سوف تعرفها يا حيران ...

حيران – وهل يخاط البرهان يا مولاي .

الشيخ – نعم ان البرهان يفصّل تفصيلاً ، على قياس عقل المخاطَب ، كما يفصّل الخياط الثوب على قياس الجسد ، ثم يخاط بالأوليات والبديهيات لتتماسك اجزاؤه . اما أُمِرنا بان نخاطب الناس على قدر عقولهم ؟

حيران – هذا اسلوب جديد في البرهنة .

الشيخ – ما هو بالاسلوب الجديد ، فقد ذكره بعض العلماء ليبرهنوا على استبعاد (فكرة المصادفة) ، ولكني صغته لك بشكل احجية جديدة .

حيران – وما هي الاحجية الجديدة يا مولاي ؟

الشيخ – انها احجية تنتهي الى دليل رياضي ينفي فكرة (المصادفة) ،

التي قال بها الماديون عن خلق العالم وما فيه من تنوعات .

حيران – احجية تنتهي الى دليل رياضي !؟

الشيخ – ألا تزال تستخف بالاحاجي العقلية ... ألا تذكر احجية الورقة المقطّعة ... أما كشفَتْ لك عن الفرق بين التصور والتعقل ؟ دعنا نبدأ . اكتب في دفترك هذا السؤال :

اذا سألك سائل عن هــــذه الاشياء المشاهَدة في هذا العالم ، كيف تكوّنتْ وتركّبتْ وصُنعتْ ، فما هي الفروض التي يمكن ان تتصورها وتفرضها ؟

حيران – لم افهم المراد بهذا السؤال ، بعد ذلك الامتحان الذي جزناه . انها خلقت بقدرة الله .

الشيخ – دع ايمانك جانباً ، وافرض انك رجعت الى الشك الذي كان يحوك في صدرك يوم جئتني اول مرة .

حيران – أيريــــد الشيخ ان يكرر الامتحان في اثبات حدوث العالم ونفي قدمه ؟

الشيخ – لا لا . انني لا اسألك عن هذا . دع عنــك المادة الاصلية الهيولانية كيف خُلقتْ . ودع البحث فيما اذا كانت حادثة او قديمة ، فانني انما اسألك الآن ، كما سأل القرآن ، عما في ملكوت السموات والأرض من اشياء (مركبة ومتنوعة) ، كيف يُفرض ان تكون خُلقت وتكوّنت بهذا التنوع ؟

هذه الصور والأشكال من التنوعات المركبة ، ولاسيما الحيّة منهـــا كالنباتات والحيوانات والانسان خاصة ، لا العقل يقول انها قديمـة ، لانه يستحيل ، وهي مركبة ومتغيرة ، ان تكون قديمة ، ولا العلم يقول انها قديمة ، لأنه اكتشف في طبقات الأرض انها حادثة . ومعنى كونها حادثةً انها مركبة ومصنوعة بعد ان لم تكن ، فكيف يُفرض ان تكون صُنعت وتكوّنت ؟

هنالك ثلاثة فروض لا رابع لها ابداً :

الاول – ان تكون من صنع الله .

الثاني – ان تكون من صنع ذرات المادة واجزائها وعناصرها عن ارادة وقصد وغاية ، اي ان عناصر المادة الأصلية فكّرت ودبّرت واتفقت على صنع تنوعات هذا العالم بهذه الاشكال والصور التي نراها .

الثالث – ان تكون هذه التنوّعات قد تكوّنت (بطريق المصادفة) اي ان الذرات تلاقت وتجمعت على نسب واوضاع مخصوصة بطريق المصادفة فكوّنت العناصر الأصيلة ، ثم تلاقت (العناصر) وتجمعت وتمازجت (بالمصادفة) على نسب صالحة (بالمصادفة) وفي مدد كافية (بالمصادفة) واجواء ملائمة (بالمصادفة) فتكونت هذه التنوعات وخُلقت الحياة من هذه المصادفات .

حيران – حقاً انه لا يوجد فرض رابع يمكن تصوره .

الشيخ – اما الفرض الأول فيقول به المؤمنون بالله ، سواء كان ايمانهم من هداية دينية او من هداية عقلية .

واما الفرض الثالث فيقول به بعض الماديين .

واما الفرض الثاني فلا يقول به احد مطلقاً ، لا المؤمنون ولا الماديون ، بل ان هؤلاء الماديين انكرون انكاراً قاطعاً ان يكون لعناصر المادة ارادة وقصد وغاية .

اذاً ، قد اصبحنا امام فرضين لا ثالث لهما : فامّا ان تكون تنوعات العالم من خلق الله وصنعه ، واما ان تكون نتيجة (للمصادفة) .

مالي ارى في عينيك ، يا حيران ، ظلالَ افكار تروح وتغدو في كهف عقلك ... هل في هذا الذي اقوله ، الآن ، منفذ لأقل شك او ريبة ؟

حيران – كلا يا مولاي . كلا والله . فكل الذي قلته واضح ، ولكنْ هل المصادفة امر مستحيل عقلاً ام هي امر في حدود الامكان ؟

الشيخ – تستطيع ان تجيب بالنفي وبالايجاب في آن واحد . فالمصادفة تكون احياناً ممكنة ، وتكون احياناً في حكم المستحيلة عقلاً . فعليك ، اذاً ، ان تبدل صيغة السؤال ، وتقول ما هي قيمة المصادفة في ميزان العقل السليم ؟

حيران – ما هي قيمة المصادفة في ميزان العقل السليم ؟

الشيخ – الآن جاء دور الابَر . خذ هذا اللوح ، واغرز فيه ابرة ، وضع في ثقبها ابرة ثانية اخرى وقل لي يا حيران ، اذا رأى انسان عاقل هاتين الابرتين ، وسأل كيف أدخلت الثانيـــة في ثقب الاولى ، فاخبره انسان ، معروف بالصدق ، ان الذي ادخلها رجل ماهر قذف بها ، من بُعد عشرة امتار ، فاستطاع ان يدخلها في شق الابرة الاولى . ثم اخبره انسان آخر ، معروف بالصدق ايضاً ، ان الذي القاها صبيّ صغير وُلد من بطن امه اعمى ، فوقعتْ في الشق (بطريق المصادفة) فايّ الخبرين يصدّق ؟

حيران – انـه ولا ريب يميل الى تصديق الخبر الأول ، ولكنه امام صدق المخبرين يرى ان المصادفة ممكنة ، فلا يجزم بترجيح احد الخبرين على الاخر .

الشيخ – ولكن اذا رأى هذا الرجل ابرة ثالثة مغروزة في شق الثانية ايضاً ، فهل يبقى عدم الترجيح على حاله ؟

حيران – كلا بل يتقوّى ترجيح (القصد) على (المصادفة) ، ولكنه على كل حال يبقى ترجيحاً ضعيفاً .

الشيخ – ولكن اذا رأى الرجل ان هنالك عشر ابر ، كل واحدة منها مغروزة في ثقب الأخرى التي تليها ، فهل يبقى ترجيح فكرة القصد على ضعفه ؟

حيران – كلا . بل يتقوى عنده ترجيح (القصد) حتى تكاد فكرة المصادفة ان تتلاشى .

الشيخ – ولكن لو جاءه انسان ، من اولئك يَصدق فيهم قول القرآن (وكان الانسان اكثرَ شيءٍ جَدَلاً) ، واخـذ يجادله في معنى الاستحالة العقلية والاستحالة العادية ، ويبرهن له على ان المصادفة ليست مستحيلة ، لا عقلاً ولا عادةً ، ولكنها تكون احياناً مستبعدة ، فان صاحبنا العاقل لا بد له ان يذعن .

حيران – ان العقل يذعن ، ولكن القلب يميل الى ترجيح (القصد) .

الشيخ – ولكن اذا ترقّينا في تعقيد الاحجية ، وقلنا ان الآبَر العشر مرقمة بخطوط لكل واحدة منها رقم ، من الواحد الى العشرة ، وقيل لنا ، في الخبر ، ان الصبيّ الاعمى أعْطِي كيساً فيه هذه الابر العشر مخلوطة مشوشة ، وانه كان يضع يده في الكيس ويستخرج الابر تباعاً على ترتيب ارقامها (بطريق المصادفة) ، ويلقيها فتقــع الاولى في شق المغروزة في اللوح ، وتقع الثانية في الاولى ، والثالثة في الثانية ، والرابعة في الثالثة ، وهكذا حتى اتم ادخال الابر العشر بعضها في بعض ، على ترتيب ارقامها ، وأن ذلك قد حصل بطريق المصادفة . وجاء ذلك الانسان المجادل يحاول ان يبرهن على ان امكان المصادفة لم يزل موجوداً وغير مستحيل عقلاً ، فماذا يكون موقف صاحبنا العاقل ، مع هذا المجادل ؟

حيران – لا ريب في انــه لا يصدقه ، لأن المصادفة بهذا التتابــع والتعاقب بعيدة جداً جداً وان لم تكن مستحيلة .

الشيخ – بل انها ، في مجال الاعداد الكبرى ، تصبح مستحيلة بداهةً يا حيران .

حيران – اعتقد ان هذه البداهة تأتينا مما جربناه في الحياة من ندرة تكرر المصادفات وتعاقبها .

الشيخ – كلا ، ولكن هذه البداهة تعتمد في اعماق العقل الباطن على قانون عقلي رياضي لا يمكن الخروج عنه .

حيران – ما هو هذا القانون يا مولاي ؟

الشيخ – انــه قانون المصادفة الذي يقول : (ان حظ المصادفة ، من الاعتبار ، يزداد وينقص ، بنسبة معكوسة مع عــدد الامكانيات المتكافئة المتزاحمة) .

فكلما قلّ عــدد الاشياء المتزاحمة ، ازداد حظ المصادفة من النجاح ، وكلما كثر عددها قلّ حظ المصادفة . فاذا كان التزاحم بين شيئين اثنين متكافئين ، يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد اثنين) ، واذا كان التزاحم بين عشرة يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد عشرة) ، لأن

كل واحد له فرصة للنجاح مماثلة لفرصة الآخر، بدون اقل تفاضل طبعاً.

والى هنا يكون الحظ في النجاح قريباً من المتزاحمين، حتى لو كانوا مئة او ألفاً؛ ولكن متى تضخمت النسبة العددية تضخماً هائلاً، يصبح حظ المصادفة في حكم العدم، بل المستحيل. ذلك لأنه اذا اتفق للصبي الاعمى ان سحب اول مرة الرقم (١)، قلنا ان حظ المصادفة للرقم (١) تغلّب على الأعداد الأخرى المتزاحمة معه بنسبة (واحد ضد عشرة)، واما اذا اتفق له ان سحب العددين (١ و٢) بالتتابع، قلنا ان حظ المصادفة للعدد الثاني هو بنسبة (واحد ضد مئة)، لأن كلاً من العشرة يزاحم (للرتبة الثانية) ضد عشرة، فيصبح التزاحم بين مئة. واذا اتفق انْ سحب الصبي الأعمى الابر الثلاث (١ و٢ و٣) على التوالي، قلنا ان حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد الف) لأن كلاً من العشرة يزاحم ضد مئة، وهكذا. فاذا افترضنا ان الصبي سحب الابر العشر على ترتيب ارقامها، فان حظ المصادفة يصبح بنسبة (واحد ضد عشرة مليارات).

حيران — واحد ضد عشرة مليارات!

الشيخ — هذه احجية حسابية بسيطة، مثل احجية الورقة الرقيقة التي تقطع (٤٨) مرة فيصل سمكها الى القمر. جرّبها واضربْ كل مرة حاصل الضرب بعشرة.

يقول حيران بن الاضعف: واخذت في الحساب، فتبين لي في النهاية صدق كلام الشيخ، فقلت له:

حيران — حقاً يا مولاي ان حظ المصادفة يصبح بنسبة واحد ضد عشرة مليارات ولكني، على وجود هذه النسبة البعيدة التفاوت، لا ازال اتصور ان المصادفة في سحب هذه الابر العشر، على ترتيب ارقامها، ممكنة وغير مستحيلة.

الشيخ — سأنقلك الى ترتيب آخر في شكل آخر واعدادٍ اكثر: لو فرض انك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرقة في صناديقها، فجاءت هزة ارضية قوية قلبت صناديق الحروف على بعضها وبعثرتها

وخلطتها . ثم جاءك منضد الحروف يخبرك انــه قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعاني ، فهل كنت تصدق ؟

حيران — نعم اصدق .

الشيخ — ولكن لو قال لــك ان الكلمات العشر تؤلف جملة كاملة مفيدة ، فهل كنت تصدق ؟

حيران — استبعد ذلك جداً كما استبعدته في مثال الابر العشر ، ولكن لا اراه مستحيلاً .

الشيخ — ولكن لو اخبرك ان حروف المطبعة بكاملهـا كوّنت ، عند اختلاطها ، بالمصادفة ، كتاباً كاملاً من (٥٠٠) صفحة ينطوي على قصيدة واحدة تؤلّف بمجموعها وحــدة كاملة مترابطة متلائمة منسجمة بالفاظها واوزانها وقوافيها ومعانيها ومغازيها ، فهل كنت تصدق ذلك يا حيران ؟

حيران — ابداً لا اصدقه يا مولاي .

الشيخ — ولماذا لا تصدقه يا حيران ؟

حيران — لأني هنا اجد الاستحالة بديهية حقاً .

الشيخ — ولماذا يا حيران ؟

حيران — لا ادري يا مولاي ، ولكني عندما اتصور ان الابَر العشر أُلقيتْ على ترتيب ارقامها بالمصادفة ، لا اجــد وجه الاستحالة واضحاً وبديهياً كما اجده في مثال الكتاب .

الشيخ - أتدري ما هو السبب في ذلك يا حيران ؟

حيران — كلا يا مولاي .

الشيخ — السبب يرتكز على قانون المصادفة نفسه : فالتزاحم بين الابر المرقمة يجري بين عشر ابر على عشرة ترتيبات ، فيجعل حظ المصادفة بنسبة واحد الى عشرة مليارات . وهــذه النسبة ، على تفاوتها الكبير ، ليست من العِظَم بحيث تُحْدث لــك في عقلك تلك البداهة في ادراك الاستحالة . ولكن التزاحم بين حروف الكتاب يجري بين (٥٠٠) الف حرف على تكوين (١٢٥) الف كلمة تقريباً ، باشكال وترتيبات لا تعدّ

ولا تحصى ابداً . وهذا ما يجعل حظ المصادفة بنسبة واحـد ضد عدد هائل جداً جداً لو قلتَ عنه انه مليارُ مليارِ مليارِ مليارِ لكان قليلاً ... ويكفيك ، لكي تدرك ضخامة العدد ، ان تعلم ان الابر لو كانت (١٢) ابرة لأصبح حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد الف مليار) ، ولو كانت (٢١) ابرة ، لأصبح حظ المصادفة بنسبة (واحـد ضد الفِ مليارِ مليارٍ) . فتصوّر يا حيران ماذا تكون النسبة اذا كان التزاحم يجري بين (٥٠٠) الف كلمة باشكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى ...؟

يقول حيران بن الأضعف : وهنا سكت الشيخ الموزون واغمض عينيه واستسلم الى سكون عميق ، كأنه يتيح لي ان اغمض عينيّ لأفكر ... وبعد فترة من الصمت قال :

الشيخ — هـذا في كتاب المطبعة وكلماتِه المحدودة المعدودة يا حيران ، فما قولك في كتاب الله الأعظم وكلماته التي يقول عنهـا جلت قدرته (قُلْ لوْ كان البحرُ مـداداً لكلمات ربي لنَفِدَ البحر قبل ان تَنْفَدَ كلماتُ ربي ولو جئنا بمثله مَدَداً) ، ويقول (ولو انّ ما في الأرضِ مِنْ شجرةٍ اقلامٌ والبحرُ يمدّه من بَعده سبعة ابحر ما نَفَدَتْ كلماتُ الله) ...؟

حيران — هل يعني مولاي بكتاب الله القرآن وما فيه من كلمات ؟

الشيخ — ارجو ان يكون فهمك للقرآن اسمى من هذا واعمق يا حيران . فكلمات القرآن التي بين دفتي المصحف محدودة معدودة ، فلا يُعقل ان تحتاج كتابتها الى مداد ينفد بـه ماء البحار ، ولا الى اقلام تنفد بها اشجار الأرض .

حيران — هذا والله ، ما كنت اقوله في نفسي .

الشيخ — كلا يا حيران . وانما عنيت بكتاب الله ، هنا ، العالم كله ، وعنيت بكلمات الله ، كما اراد الله ، كلّ ما في ملكوت السموات والأرض (من شيء) محسوسٍ من عالم الخلق ، او معقولٍ من عالم الأمر ...

وكيف تنفَد كلمات ربي يا حيران وكلّ ذرة من مياه البحار واشجار الأرض هي من كلمات ربي ؟ بل كل ما في الكون من ذرات وعناصر ،

ونظم وقوانين ونواميس ، ونِسَب وروابط وعلائق ، واقدار واحجام واوزان ، ومُدَد واوقات وازمان ، وصور واشكال وألوان ، وحركات وسكنات واوضاع ، واجناس واصناف وانواع ، كلها من كلمات ربي ...

حيران – صدق الله العظيم .

الشيخ – والآن وصلنا الى صميم الموضوع ... فتعال نتصور ونخمن عددَ ما في عالم الخلق (من شيء) في ملكوت السموات والأرض ، من الذرّة الى المجرّة ، وعددَ ما يربط بينها ، في عالم الأمر ، من روابط وعلائق على اختلاف النواميس ، والاقدار ، والمُدد ، والأشكال ، والحركات ، والأوضاع ... ثم تعال ندرس على ضوء (العلم والقرآن) بعض ما في هذا العالم من تقدير ، واتزان ، وتنظيم ، وترتيب ، وأحكام ، واتقان ، لنعرف ما هو حظ المصادفة في تكوينه ...؟

من جملة الآيات التي مرّت معك ، قوله تعالى :

– (انّا كُلَّ شَيءٍ خلقناه بِقَدَر)

– (وخلَق كل شيء فقدّره تقديراً)

– (وكل شيء عنده بمقدار

– (والأرضَ مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل شيء موزون)

– (وانْ مِنْ شيء الّا عندنا خزائنه وما ننزّله الّا بقَدَر معلوم)

– (وانزلنا من السماء ماء بقَدَر)

– (صُنْعَ الله الذي اتقن كل شيء)

– (الذي احسنَ كلَّ شيء خلقَه)

– (ولقد خلقنا الانسان في احسن تقويم)

– (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت)

– (قلْ انظروا ماذا في السموات والأرض)

– (وكأيّنْ من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون)

– (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفُسهم حتى يتبين لهم انه الحق ...)

هذا يا حيران بعض كلام الله الذي نزل على عبده ورسوله محمد النبي

الأمي ، سليل القبيلة الأمية ، وربيب البيئة الأمية ، منذ اربعة عشر قرناً ؟
فتعال ننظر ، كما امرنا الله ، بعض ما في السموات والأرض ، على ضوء العلم ، لنرى هل في خلقه ذلك التقدير والاتزان والاتقان والاحسان والتقويم التي ذكرها الله في القرآن ، ليبرهن على الخلق المقصود ضد المصادفة .

ولنرى كم هو عدد الأشياء المتزاحمة (من ذرات ، وعناصر ، واشكال ، ومقاييس ، واوزان ، وخواص ، وطبائع ، ونواميس ، واوضاع ، وظروف ، ومدد ، وازمان ، واجواء) لتكوين هذا العالم ، ثم نتساءل :

هل يُعقل ان يكون قد كُتبَ الفوز لهذا الترتيب الشامل ، الكامل ، الدقيق ، المقدّر ، المتزن ، المتقن ، الجميـــل ، بمجرد المصادفة ، ضد عدد هائل من الممكنات الأخرى المتزاحمة ؟

ماذا يقول العلم عما في هذا العالم من تقدير وترتيب واتزان واتقان واحسان ، وعما فيه من قوانين ونواميس ؟

انا لا استطيع ، يا حيران ، ان اقول لك كلّ ما يقوله العلم ، لانني لا اعرف كل ما يقوله العلم . ولكنْ انت تعرف شيئاً ، وانا اعرف شيئاً ، وسنكتفي واياك بذكر ما نعرفه او بعض ما نعرفه ، في نطاق ما اشار اليه القرآن من آيات صنعَ الله الباهرة . فالى الغد يا حيران .

في الآفاق

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ
حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ

(سورة فُصِّلَتْ)

المطويّات بيمينه

١

الشيخ – والآن يا حيران بأي آيات الله في مخلوقاته نبدأ ؟

حيران – الخيار لك يا مولاي ، فمخلوقات الله في السماء والارض اكثر من ان تحصى ، فهل الى ذكرها كلها من سبيل ؟

الشيخ – ليس الخيار لي ولكني سأتّبع نهج القرآن الكريم ، واختار ما اختاره فيه العليم الحكيم . فالقرآن يحض على النظرة الشاملة الكاملة حين يقول (أوَ لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء) ويقسّم هذه النظرة الشاملة الكاملة حين يقول (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) ويختار من آياته ، في الآفاق وفي انفسنا ، اشياء يخصها بالذكر ؛ فمن الخير لنا ان نتبع نفس التقسيم والترتيب ، ولكن لا سبيل لنا ، كما قلتَ يا حيران ، لتفصيل الكلام عن كل شيء من آيات الله ، فلا بد ان نحصر الكلام في نطاق ما خصه القرآن بالذكر ، لنتخذ منه ، كما اراد لنا العليم الحكيم ، منطلقة للنظرة الشاملة الكاملة .

حيران – اذاً نبدأ بآيات الله في الآفاق .

الشيخ – نعم في الآفاق .

حيران – ونبدأ بالسماء .

الشيخ – نعم نبدأ بالسماء يا حيران لنرى ، على ضوء القرآن والعلم ما هو حظ المصادفة في هذا الخلق العظيم .

يقول الخلاق العظيم في كتابه الكريم :

– (والسماءَ بنيناها بأيْدٍ وانّا لموسعون) .

– (أوَ لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء)

– (افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج).
– (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها) .
– (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون) .
– (الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) .
– (أأنتم اشد خلقاً ام السماء بناها رفع سمكها فسواها) .
– (انّ الله يمسك السموات والارض أن تزولا) .
– (تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً) .
– (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) .
– (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) .

فتعال يا حيران ننظر ، كما امرنا الله ، وعلى ضوء العلم ، الى ما في هذه السماء من شيء مخلوق بلا تفاوت ؛ وبنيان مشيد بلا عمد ، وسقف محفوظ بلا فطور ، وسمك مرفوع بلا فروج ، والى ما هي عليه هذه السماء من سعة تستحق ان يقول عنها خالقها بكل جبروت الالوهية : (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) ، والى ما في بنائها من نجوم لا تعد ولا تحصى ، وما لهذه النجوم من (مواقع) تستحق ان تكون محلاً للقسم العظيم يقسمه الخلاق العظيم .

بماذا احدثك عن سعة السماء يا حيران ..؟ ان السعة التي عرفها العلم اليوم عن السماء لم تكن تخطر على قلب بشر في العصر الذي نزل به القرآن .

انت تعلم ان الضوء يقطع في الثانية ١٨٦ الف ميل (أو ٣٠٠ الف كيلو متر) أي انه يقطع في الدقيقة (١١ مليون و١٦٠ الف ميل) ، وفي السنة الواحدة من سنينا يقطع (ستة ملايين مليون ميل أو ستة الاف مليار ميل تقريباً) . وهذه المسافة هي التي اصطلحوا على تسميتها

(السنة الضوئية) ليعبّروا بها عن ابعاد السماء الهائلة ؛ فمتى قيل لنا ان نجماً يبعد عنا سنة ضوئية فهمنا انه يبعد عنا ستة ملايين مليون ميل .

فالقمر ، يا حيران ، وهو اقرب الاجرام السماوية الى الأرض ، يصل نوره الينا في اقل من ثانيتين لأن بعده عن الأرض ٢٤٠ الف ميل تقريباً . اما الشمس فيصل نورها الينا في نحو ٨ دقائق لأن بعدها عن الارض ٩٣ مليون ميل تقريباً . فهل تدري يا حيران كم يبعد عنا اقرب نجم الينا بعد الشمس ؟

حيران — اذكر اني تعلمت في المدرسة ان نور الشمس يصل الينا في ٨ دقائق ولا اذكر ما قيل لنا عن القمر والنجوم .

الشيخ — ان اقرب نجم الى الارض يبعد عنها اربع سنوات ضوئية تقريباً ، ومعنى ذلك انه يبعد عنا ٢٣ مليون مليون ميل تقريباً .

حيران — هذا شيء هائل .

الشيخ — هذا شيء تافه يا حيران ، فوراء ذلك (النسر الطائر) الذي يبعد عنا ١٤ سنة ضوئية ، و (النسر الواقع) الذي يبعد عنا ٣٠ سنة ضوئية ، و (السماك الرامح) الذي يبعد عنا ٥٠ سنة ضوئية اي (٢٩٤ مليون مليون ميل) تقريباً .

حيران — حقاً ان ذاك شيء تافه ، فهذا هو الهائل .

الشيخ — وهذا ايضاً تافه يا حيران ، فوراء ذلك نجوم تبعد عنا الف سنة ضوئية ، ووراء مجرتنا هذه سدم منها سديم (المرأة المسلسلة) الذي يبعد عنا مليون سنة ضوئية ، ووراءه من السدم ما هو ابعد في تقدير العلماء . فهل يكفيك هذا يا حيران لتدرك معنى ذلك التوكيد المضاعف الذي عبّر به الخلاق العظيم عن سعة السماء بقوله (والسماءَ بنيناها بأيْدٍ وإنّا لموسعون) .

حيران — سبحان الخلاق العظيم ... سبحانه .

الشيخ — هذا في سعة السماء ، اما عدد النجوم فماذا احدثك عنه ... ؟ انهم في الماضي كانوا يعدون النجوم بالألوف ، ثم صاروا يعدونها بالملايين ،

ثم وصلوا الى مليارين . امـا اليوم فانهم يقدّرون عدد النجوم في المجرة التي نحن من عالمها بثلاثين ملياراً .

حيران – ثلاثون ملياراً في مجرتنا وحدها ؟

الشيخ – نعم ثلاثون ملياراً في مجرتنا هـذه التي تسمى عندنا (دَرْب التبّان) وتسمى عند الافرنج (الدرب اللّبنية) . وهذه المجرة ، التي يقع نظامنا الشمسي كله في طرفها ، يوجد وراءها عالم السدم ومن جملته سديم المرأة المسلسلة ، بل عوالم السدم التي رأوا منها حتى اليوم بآلات التصوير (٥٠٠) الف سديم ثم قالوا لو تقدمت هـــذه الآلات وازدادت اتقاناً لرأينا اكثر من مليون سديم .

حيران – يا للهول . سبحان الخلاق العظيم .

الشيخ – وعن مواقع النجوم بماذا احدثـك يا حيران ... ؟ لقد رأى العلماء ان لهذه النجوم مواقع لا تتبدل ولا تتغير ، فظنوها ثابتة ، وسموها (الثوابت) ، ومنها شمسنا . وما هي بثوابت ، كما حقق العلماء في هذا العصر ، بل كلها تدور وتجري ، لمستقرٍّ لها ، في مجريين مختلفين ، متداخل احدهما في الآخر ، كأنها فوجان من النحل مختلطان . ولكن هذا الجرْي يتم ويستمر في مواقـــع ومدارات لا تتبدّل ولا تتغير بنسبة بعضها الى بعض على كر الدهور بذلك النظام العجيب الذي كان محل القسَم العظيم .

حيران – والشمس تجري معها ايضاً ؟

الشيخ – كيف لا والشمس نجم من جملة نجوم هذه المجرة . انها تجري مثلها ومعها ايضاً ساحبةً وراءها موكبها من السيارات ومن جملتها الارض .

حيران – فرّج الله عنك يا مولاي كما فرجت عني . فقد كان العلم يؤكد ان النجوم ثوابت ، وان الشمس ثابتة ، وكنت أجادل مشايخي في معنى قوله تعالى (والشمسُ تجري لمستقرٍّ لهـا ذلك تقدير العزيز العليم) وقوله تعالى (وكلٌّ في فلكٍ يسبحون) .

الشيخ – ألم تتعلم يا حيران ، من كل ما قررته لك ، ان حقائق العلم لا يمكن ان تتنافى مع حقائق الدين الحق . ان النجوم كلها تدور وتجري

والشمس معها تدور وتجري . انهم عرفوا ، من قبل ، انها تدور على محورها مرة في مدة ٢٦ يوماً ، ولكنهم كانوا يحسبونها ثابتة لا تتنقل ولا تجري ؛ اما اليوم فقد ثبت لهم ، ثبوتاً لا ريب فيه ، انها تجري ، وان النظام الشمسي كلّه يجري في السماء كما تجري كل النجوم في مجرتنا وفيما وراءها جرياً عجيباً لمستقرّ لها كما قال القرآن .

ومن مواقع النجوم عرف العلم ان لها اقداراً ثابتة مقدّرة بحسب نورها وعددها : عدّوا منها في الماضي البعيد ستة اقدار ووقفوا ؛ ثم ما زال العلم يكشف الجديد حتى وصلوا الى القدر العشرين ، ثم الى القدر الحادي واالعشرين . والعجيب في هذه الاقدار انها تسير مترقية او متدنية بحسب عدد النجوم تارة ، وبحسب قوة نورها اخرى ، في نسب مدهشة تطّرد في عدد النجوم فتزداد تباعاً من قدر الى قدر ، فيكون عدد نجوم القدر الاول ١٤ نجماً ثم لا يزال يزداد حتى يبلغ في القدر العشرين ٧٦ مليون نجم ، ويبلغ في القدر الحادي والعشرين ملياري نجم . اما في قوة النور فالعجيب ان قوة النور في تلك الاقدار تزداد باطراد من القدر الاول الى القدر العاشر ، فكلما زاد عدد نجوم القدر زادت قوة نور نجومه ؛ واما بعد القدر العاشر فتنعكس الآية وتأخذ قوة النور في التضاؤل .

وترى مثل هذا التناسب بين الابعاد في عالم الشمس . فانت تعلم ان في المجموعة الشمسية ثمانية كواكب غير منيرة تدور حول الشمس : اصغرها عطارد ثم المريخ ثم الزهرة ، فالارض فاورانوس فنبتون فزحل فالمشتري ، ثم بلوتو الذي كشفوه منذ ثلاثين سنة (وهو كوكب شاذ في صغر حجمه وفي بعده عن الشمس فلا يصلح ان يكون سبباً قاطعاً لابطال النسبة العجيبة التي سأذكرها لك عن بعد الكواكب من الشمس) .

هذا في ترتيب احجامها ، واما بعدها عن الشمس فالكواكب تأتي على ترتيب آخر : فاقربها عطارد الذي يبلغ متوسط بعده عن الشمس ٣٦ مليون ميل ، ثم الزهرة ومتوسط بعدها ٦٧ مليوناً ، فالارض ومتوسط

بعدها ٩٣ مليوناً ، فالمريخ وبعده ١٤٢ مليونا ، فالمشتري وبعده ٤٨٤ مليوناً ، فزحل وبعده ٨٨٧ مليوناً فاورانوس وبعده ١٧٨٢ مليوناً ، ونبتون ومتوسط بعده عن الشمس ٢٧٩٢ مليوناً من الأميال .

وما ذكرتُ لك هذه الاحجام والابعاد لأعرفك بشيء انت تعرفه ، او تستطيع ان تعثر عليه في ابسط كتب الفلك ، وانما ذكرتها لأعرفك بما تنطوي عليه هذه الابعاد من نِسب مقدّرة تدهش العقول : فقد كشف العلماء ان ابعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطردة تسير وفق (٩) منازل : اولها (الصفر) ثم تليه ثمانية اعداد تبدأ بالعدد (٣) ثم تتدرج متضاعفة هكذا : (٣—٦—١٢—٢٤—٤٨—٩٦—١٩٢—٣٨٤) . فاذا اضيف الى كل واحد منها العدد (٤) ثم ضُرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل ، ظهر مقدار بعد السيارة ، التي في منزلة العدد ، عن الشمس . اي انه باضافة (٤) الى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا : (٤—٧—١٠—١٦—٢٨—٥٢—١٠٠—١٩٦—٣٨٨) . فاذا اخذنا اعداد المنازل هذه وضربنا كل عدد منها بتسعة ملايين يظهر لنا بعد السيارة التي هي في منزلة ذلك العدد عن الشمس . فعطارد مثلاً يبلغ متوسط بعده عن الشمس (٣٦) مليون ميل كما سبق القول . وبما ان منزلته في البعد هي الاولى فيكون رقمها (٤) . فاذا ضربنا ٤ × ٩ ملايين يكون حاصل الضرب (٣٦) مليون ميل . وهكذا تسير النسبة في بعد كل سيار عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة .

ولكنهم حاروا كيف تكون المنازل التي اكتشفوها في تفاوت الابعاد تسع منازل في حين ان الكواكب المعروفة ثمانية . فقد وجدوا ان منزلة العدد (٢٨) ليس فيها كوكب ، بل يأتي ، بعد المريخ صاحبِ العدد (١٦) ، كوكبُ المشتري الذي هو صاحب العدد (٥٢) . فما هو السر في هذا الفراغ ؟ امّا ان تكون النسبة التي اكتشفوها غير مطّردة ، واما ان يكون هنالك كوكب غير منظور في مرتبة العدد (٢٨) على بعد ٢٥٢ مليون ميل عن الشمس ، اي بين المريخ والمشتري .

ومن عجائب النظام الباهر انهم وجدوا اخيراً في هـذا الفراغ الشيء الذي قدّروا انه لا بد من وجوده . ولكنهم لم يجدوه كوكباً كبيراً بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها في الفراغ المذكور الذي بين المريخ والمشتري ، اي في نفس المنزلة التي حسبوها من قبل فارغة .

فهل هذا التناسب في مواقع النجوم واقدارها ، ومواقع الكواكب وابعادها ، كله اثر من آثار المصادفة العمياء يا حيران ؟

حيران — زدني يا مولاي من هذه العجائب زدني .

الشيخ — ماذا ازيدك ، خذ لك كتاباً من كتب الفلك واقرأه تزدد ايماناً وخشوعاً يا حيران . بماذا احدثك ؟ أأحدثك عن احجام النجوم والشموس التي تبهر العقول ؟ أأحدثك عن الاضواء التي تبهر الابصار ...؟ وما قولي تبهر الابصار كأني احدثك عن شمسنا .

حيران — اذاً هنالك نجوم ابهر نوراً من شمسنا واكبر .

الشيخ — وما هي شمسنا هذه يا حيران في نورها وحجمها بالنسبة للنجوم الكبرى ؟ ان نور شمسنا يبلغ بتقدير العلماء (ثلاثة آلاف مليون مليون مليون مليون شمعة) ؛ ولكن ما قولك اذا عرفتَ ان نور النجم المسمّى (الشّعري اليمانية) اقوى من نور شمسنا بـ ٢٦ مرة ... وان هنالك ، في النجوم البعيدة ، شموساً نورها اقوى من نور شمسنا بمئة مرة ...

حيران — يا للهول !

الشيخ — وما قولك اذا عرفت ان العلم اكتشف اليوم ان هنالك نجوماً نورها اقوى من نور شمسنا بـ ٥٠٠ الف مرة ...؟

حيران — يا للهول الهائل !

الشيخ — الهول الهائل في احجام النجوم الكبرى واوزانها يا حيران .

فحجم ارضنا هو اكثر من مليون مليون كيلومتر مكعب . والشمس في حجمها اكبر من ارضنا (بمليون و٣٠٠ الف مرة) . لأن متوسط قطر الأرض هو (١٢٧٥٦) كيلو متراً في حين ان متوسط قطر الشمس هو (مليون و٣٩٠ الف) كيلو متر . فتكون نسبة قطر الأرض الى قطر

الشمس كنسبة (واحد الى ١٠٩) . ومن المعلوم ان احجـــام الكرات تتناسب وكعوب اقطارها . فيكون حجم الشمس (١٠٩ مكعبة) اي (مليون و٣٠٠ الف مرة) اكثر من حجم الارض .

وارضنا هذه وزنها (خمسة آلاف مليون مليون مليون) طنّ . اما الشمس فلا استطيع ان اقول لك كم وزنها ، ولكن اقول لك ان كتلة الشمس (masse) اي وزنها اكبر من كتلة الأرض بمقدار (٣٣٢ الف) مرة . فاضرب وزن الارض بـ (٣٣٢ الف مرة) وانظر هـل تستطيع ان تقرأ حاصل الضرب ؟

والآن بعـد ان عرفت حجم الشمس وقطرها ووزنها بالنسبة الى الأرض فأني مخبرك ان قطر النجم المسمى (منكب الجوزاء) هو اطول بـ ٤٦٠ مرة من قطر الشمس فيكون حجمه اذاً اعظم من حجم الشمس (بمئة مليون مرة) تقريباً .

حيران – يا للهول الهائل !

الشيخ – وهذا ايضاً ضئيل وتافه بالنسبة الى حجم (سديم المرأة المسلسلة) الذي يضرب العلماء مثلاً ، ليعرفوك بالفرق العظيم بين حجمـــه وحجم الشمس ، فيقولون لك : (هذه الهباءة من الغبار التي تراها في شعاع الشمس النازل من الكوّة الى ارض غرفتكَ كم هو حجمها ووزنها تلك الهباءة ، بالقياس الى حجم الأرض ؟ هكذا حجم شمسنا ووزنها بالقياس الى سديم المرأة المسلسلة . وحقّ لهم ان يضربوا هذا المثل ، فأن كتلة سديم المرأة المسلسلة اي وزنه يفوق قدر كتلة الشمس بنحو (الف مليون مرة) . اما حجمه ، يا حيران ، فاعظم بكثير ... فلكي تعرف مـا هو حجم سديم المرأة المسلسلة بالنسبة الى حجم الشمس يجب ان تعرف مقـــدار قطره بالنسبة لقطر الشمس الذي سبق معك ان طوله مليون و٣٩٠ الف كيلومتر . فهل تدري كم هو طول قطر سديم المرأة المسلسلة ؟ انه يبلغ نحو ٣٠ الف سنة نورية ... اي ان حجم هذا السديم يبلغ قـدر حجم الشمس (مليون مليون مليون مليون مليون مرة (او الف مليار مليار مليار مرة .)

حيران – يا للهول الهائل ... سبحان الله العظيم ... كيف تقف هذه الاحجام والاوزان الهائلة في الفضاء بهذا التوازن العجيب ؟

الشيخ – يجيبك القرآن عن هذا فيقول لك (اللهُ الذي رفع السموات بغير عَمَدٍ ترونها) ويقول لك (ان الله يُمْسِكُ السموات والأرضَ أنْ تزولا) . اما العلم فيقول ان هذا الامساك يحصل بقوة الجاذبية ، التي شاهد العلماء آثارها ، واحصوا اطوارها ، ومسّوا سطوحها ولم يسبروا اغوارها ، وعرفوا قوانينها ونواميسها ولم يعرفوا ، بعدُ ، اسرارها ...

ولعمري انه الحق ما قالوا . فالجاذبية حق ، وقوانينها المحسوبة المتّزنة المتناسبة المُحكمة الدقيقة حق . ولكن هل يكون القانون الدقيق المحكم أثراً من آثار المصادفة العمياء يا حيران ... ؟

(وما قَدَروا اللهَ حقّ قَدْره والأرضُ جميعاً قبضتُه يوم القيامة والسمواتُ مطوياتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) .

أُمُّنَا الحَوَاء
٢

الشيخ — والآن ، دعنا ننزل الى الأرض يا حيران ، لنرى على ضوء القرآن والعلم مـا في خلقها وتكوينها من آيات النظام والاحكام والاتزان والاتقان والحكمة والنعمة ، ثم نتساءل عن حظ المصادفة العمياء الهوجاء في تكوين هذا الخلق العجيب العظيم .

يقول الله تعالى :

— (الله الذي خلق السموات والأرض وانزل من السماء ماءً فاخرج به من الثمرات رزقاً لـكم)

— (الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون)

— (الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وانزل من السماء ماءً فاخرجنا به ازواجاً من نبات شتّى)

— (الله الذي جعل لكم الأرض قراراً)

— (والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل شيء موزون)

— (والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيهـا من كل زوج بهيج)

— (والارض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شيء خلقنـا زوجين لعلكم تذكرون)

— (ألم نجعل الأرض كِفاتاً . أحياءً وامواتاً . وجعلنا فيهـا رواسي شامخات واسقيناكم ماء فراتاً)

— (أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها انهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً . أإلهٌ مع الله بل اكثرهم لا يعلمون)

— (او لم يروا ان السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون)

– (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب)
– (ان في السموات والأرض لآيات للمؤمنين)
الى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها خلق الأرض وجعلها صالحة للحياة .

فتعال ننظر ، كما امرنا الله ، وعلى ضوء العلم ، كيف ولماذا كانت الأرض هي السيارة الوحيدة التي اتيح لها ان تكون صالحة للحياة ، بما خصها الله به من كثافة ، وجاذبية ، وحركة ، وهواء ، وماء ، وغير ذلك من اسباب الحياة ، وهل كان ذلك اثراً من آثار المصادفة ام هو اثر من آثار القصد والعناية والتنظيم والأحكام ؟

نحن امام سبع سيارات كبار اخرى ، منها ما هو اقرب الى الشمس من ارضنا ومنها ما هو ابعد ، ومنها ما هو اكبر من ارضنا ومنها ما هو اصغر ، ومنها ما هو اسرع من ارضنا دوراناً حول الشمس وحول محوره ومنها ما هو ابطأ ؛ وكلّها ، بحسب تقدير العلم الذي ارجّح ان يكون صحيحاً ، منفتقة عن السماء ، كما يقول القرآن ، او منفصلة عن الشمس ، كما يقول العلم ، والمعنى واحد . فلماذا كانت ارضنا وحدها صالحة للحياة دون السيارات الأخرى ؟

فعطارد يدور ، كالأرض ، حول نفسه وحول الشمس ، ولكنه يتم دورته حول نفسه في مدة ٨٨ يوماً وهي المدة التي يدور بها حول الشمس . اي انه كالقمر مع الأرض ، احَد وجهيه موجه دائماً نحو الشمس ، فنصفه شمس ونصفه زمهرير ... وكثافته تقارب نصف كثافة الأرض فالجاذبية فيه قليلة . وليس فيه هواء ، فهو لهذه الأسباب لا يصلح للحياة .

والزهرة التي قيل ان مدة دورانها على نفسها هي مدة دورانها حول الشمس وهي ٢٢٥ يوماً تتجه باحد وجهيها نحو الشمس دائماً مثل القمر ، ووجهها المتجه للشمس حرارته ٩٠ درجة والوجه الثاني ٢٠ درجة تحت الصفر ، وليس فيها هواء ولا ماء بل فيها بخار سميك ، فمن البديهي انها لا تصلح للحياة .

والمريخ الذي توهم بعض الباحثين ان فيه احياء ، يدور حول نفسه

كل ٢٤ ساعة مرة مثل الأرض ، ولكن دورته حول الشمس تتم في مدة ٦٨٧ يوماً – وبعده عن الشمس ١٤٢ مليون ميل – وحرارته في النهار بضع درجات فوق الصفر ولكنها في الليل تنزل الى ٧٠ درجة تحت الصفر ، وسطحه برّ لا بحر فيه ، ولا ماء فيه على الرأي الأرجح ، وهواؤه مؤلف من غاز اثقل من الاوكسجين ، وجاذبيته ثلث جاذبية الأرض فلا تكفي لحفظ الاوكسجين في هوائه ، فهو لهذه الأسباب لا يصلح للحياة ابداً وهذا هو رأي المحققين من العلماء .

والمشتري يتم دورته حول الشمس في ١٢ سنة ، ويدور على محوره مرة في كل عشر ساعات ، وبعده عن الشمس ٤٨٤ مليون ميل ، ودرجة الحرارة فيه ١٣٠ درجة تحت الصفر ... وكثافته ربع كثافة الأرض ، ويرجحون انه كرة من الغاز والمواد الذائبة ، فمن البديهي انه لا يصلح للحياة .

وزحل يتم دورته حول الشمس في ٢٩ سنة ونصف سنة تقريباً ، ودورته على محوره في عشر ساعات ، وبعده عن الشمس ٨٨٧ مليون ميل ، فيصل اليه من حرارة الشمس جزء من ٩٠ جزء مما يصل الى الأرض ، وكثافته اقل من ربع كثافة الأرض ، ويظهر للعلماء ان مادة سطحه مائعة متحركة ، فمن البديهي انه لا يصلح للحياة .

اما اورانوس ونبتون وبلوتو ، فعدم صلاحها للحياة اظهر لأسباب كثيرة ولاسيما ان الاول يتم دورته حول الشمس في ٤٨ سنة و٧ ايام ، ويدور على محوره في عشر ساعات ، وبعده عن الشمس ١٧٨٢ مليون ميل . والثاني يتم دورته حول الشمس في ١٦٩ سنة تقريباً ، ويدور على محوره في عشر ساعات ، وبعده عن الشمس ٢٧٩٢ مليون ميل . وبلوتو يتم دورته حول الشمس في ٢٤٧ سنة وبعده عنها ٣٦٧٠ مليون ميل ... فما رأيك يا حيران في الحياة على سيار الشتاء فيه ٤٢ او ٨٤ او ١٢٣ سنة ، والصيف فيه كذلك ، ونهاره خمس ساعات وليله خمس ساعات ... ؟

فارضنا التي منّ علينا الله في آيات كثيرة بخلقها ، وذكّرنا بما في هذا الخلق من دلائل القصد والحكمة والنظام ، هي السيار الوحيد الذي جعله الله صالحاً للحياة :

فقربها من الشمس معتدل . والحرارة التي تصل اليها معتدلة . وكثافتها تفوق كثافة كل السيارات ، حتى الشمس . وجاذبيتها معتدلة . ودورتها اليومية معتدلة وكافية لاحداث نهار وليل معتدلين صالحين للسعي والراحة ، ودورتها السنوية معقولة وكافية لاحداث فصول معتدلة صالحة لارواء الزروع وانضاجها . وهي تمتاز بالماء والهواء الصالحين للحياة

فهل كان اجتماع كل هذه الأسباب الصالحة للحياة أثراً من آثار المصادفة يا حيران ؟

حيران – سبحان الخلاق العظيم ... لكن مولاي الشيخ اشار الى سبع مزايا جعلت الأرض صالحة للحياة . والقرآن اقتصر على ذكر الحكمة في خلق الأرض وصلاحها للحياة اجمالاً ، ولم يذكر القرب والحرارة والكثافة والجاذبية والدورتين .

الشيخ – ان المزايا التي ذكّرتك بها يا حيران انما هي المزايا الرئيسية ، وسوف اذكّرك بما ينطوي تحتها من مزايا وخواص . اما المزايا السبع فقد ذكرها القرآن بكلام يفهم العالم بواطنه ، ويفهم الجاهل ظواهره . فالقرب المعتدل والحرارة المعتدلة مشار اليهما ، ضمناً ، بما هي عليه الارض من صلاح للحياة والزرع .

والكثافة والجاذبية مشار اليهما ، بوضوح ، بقوله تعالى (الله الذي جعل لكم الأرض (قراراً)) ، فلولا الجاذبية ما كان لنا ولا لشيء على الأرض قرار ابداً . والدورة اليومية مشار اليها بوضوح بذكر الليل والنهار ، وبذكر (مرور الجبال مرّ السحاب) ، وبذكر الظلّ وقبضه بغياب الشمس . والدورة السنوية مشار اليها بوضوح بذكر الامطار . فهل تريد من العليم الحكيم ان يفصّل ناموس الكثافة والجاذبية ، ويشرح الدورة السنوية ، وشكل المدار ، وميل الأرض ، في عصر لم يكن للانسانية به علم بهذه الأمور ، وفي خطاب قوم لم يسمعوا بها فضلاً عن ان يدركوا معانيها ؟

وهذه الاشارات الى ذكر الدورة اليومية ، وحصول الليل والنهار

بسببها ، كثيرة في القرآن ، ولاسيما الآيات الآتية :

(ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) .

(ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون) .

(ألم تر ان الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) .

(يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل) .

(يُغشي الليلَ النهارَ يطلبه حثيثاً) .

(وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ؟)

(ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهنّ) .

(وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء)

(ألم تر الى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً . ثم قبضناه الينا قبضاً يسيراً . وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً) .

(والشمس وضحاها . والقمر اذا تلاها . والنهار اذا جلّاها . والليل اذا يغشاها) .

(ألم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

(وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) .

(وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفَةً لمن اراد ان يذّكّر او اراد شكوراً) .

(هو الذي جعلَ لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون) .

الى غير ذلك من الآيات التي منّ الله بها على عباده بذكر الليل والنهار واختلافهما ، فتعال ننظر كما امرنا الله ، وعلى ضوء العلم ، ما في خلق الليل والنهار من نظام وحكمة ، وما هو حظ المصادفة في هذا الخلق والتنظيم ؟

انت تعلم يا حيران ان حجم الأرض اصغر من الشمس بمليون و٣٠٠ الف مرة . وان كتلتها اي وزنها اقل من الشمس بـ (٣٣٢) الف مرة تقريباً . وانها اكثف السيارات جميعاً بل اكثف من الشمس لأن كثافة الشمس هي ربع كثافة الأرض . فالثقل النوعي لكل جسم في الشمس اخف من الثقل النوعي للجسم نفسه وهو على الأرض . وان بعدها عن الشمس (٩٣) مليون ميل . وان دورتها اليومية تتم في ٢٤ ساعة . وان دورتها السنوية ، حول الشمس ، تتم في مدة ٣٦٥ يوماً ونحو ربع يوم . وان شكل مدارها حول الشمس اهليلجي . وان سرعة دورانها حول نفسها (١٠٠٠) ميل في الساعة . وان سرعة دورانها حول الشمس بمعدل (١٨) ميل في الثانية اي نحو ٦٥ الف ميل في الساعة . وان وضعها على مدارها مائل بزاوية قدرها ٢٣ درجة .

ويقول العلم لو كان حجم الأرض اكبر مما هو او اصغر ، او كان ثقلها وكثافتها اقل او اكثر لاختل امر الحياة او تغير او تشوه ، لأن حجمها متناسب مع سرعتها ، ومع دورتها ، وثقلها متناسب مع قوة جذبها ، فلو زاد الحجم او نقص لتغيرت السرعة والمدة ، ولو قل جذبها لأفلت الأوكسجين منها . ولولا الدورة اليومية لما كان لنا ليل ونهار دائبان ثابتان .

ولو زادت سرعة دورانها حول نفسها عن الف ميل في الساعة او قلّت ، كما هو الحال في بقية السيارات فكانت مثلاً (١٠٠) ميل في الساعة ، لأصبح طول النهار (١٢٠) ساعة ، واحترقت زروعنا في لهيب النار وذوت في زمهرير الليل ، ولاختل ميزان العمل في النهار والراحة والنوم في الليل .

لكن هذه السرعة ثابتة لم يطرأ عليها تبديل في ثانية واحدة منذ ملايين السنين .

ولولا الجاذبية التي تربطنا بالارض ، لطرنا عن ظهرها ، وانتثرنا انتثاراً ، نحن وبيوتنا .

ولولا التعادل العجيب بين الجاذبية ، التي تلصقنا بالارض ، وقوة (البعد عن المركز) (Force centrifuge) التي تطردنا عن سطحها ، لطرنا وطارت بيوتنا ، وزحلت بحارنا من وسط الأرض الى القطبين ...

فهل يكون هذا الصنع العظيم ، والاتقان العجيب ، والاتزان الدقيق أثراً من آثار المصادفة ؟

حيران — سبحان الله العظيم .

الشيخ — ولو تأملت ، يا حيران ، في الآيات التي ورد فيها ذكر (التكوير وايلاج الليل في النهار والنهار في الليل ، وطلب كل منهما للآخر حثيثاً ، ومرور الجبال مر السحاب) ، لرأيت فيها البيان الصريح ، منذ اربعة عشر قرناً ، لكروية الأرض وحركتها اليومية اللتين يتم بهما اختلاف الليل والنهار .

فان التكوير لا يكتمل معناه إلّا مع كروية الأرض وحركتها اليومية . اذ لا يكون معنى التكوير واضحاً ، لو نحن تصورنا الأرض مبسوطة تطلع الشمس عليها وتغيب عنها ، كما كان رأي الاقدمين . لأن قوله تعالى (يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل) ، وقوله تعالى (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) ، وقوله تعالى (يغشي الليلَ النهارَ يطلبه حثيثاً) ، يتجلى فيها كلها معنى التلاحق ، وان تكوير كل منهما على الآخر يجري في آن واحد ، فكلما لفّ الليل على النهار في جزء من الأرض ، لفّ مثله النهار على الليل في الجزء الذي يليه ، ولا يتصوّر هذا المعنى مع تصوّر الأرض مبسوطة ساكنة ، لأن الشمس اذا طلعت عليها انارتها ، من اولها الى آخرها ، دفعة واحدة ، واذا غابت عنها اظلمت دفعة واحدة .

اما (مرور الجبال مرّ السحاب) فانه نص صريح في دورة الأرض اليومية على محورها ، فتأمل يا حيران .

حيران — زدني يا مولاي ، زدني .

الشيخ — اما الدورة السنوية العجيبة وما ينشأ عنها من اختلاف الفصول الاربعة فمشار اليها ، عند الذين يعلمون ويعقلون ، بتكرار ذكر المطر في آيات كثيرة سيأتيك ذكرها ، فلولا هذه الدورة السنوية ما كانت الفصول ولا الامطار ولا الحياة .

فتعال ننظر يا حيران ، على ضوء العلم ، مـا وراء انزال الامطار من نظام وترتيب ، فيما يتعلق بشكل الارض ودورتها ووضعها ، لنرى ما هو حظ المصادفة في خلق هذا النظام وتكوينه ؟

يقول العلم ان سرعة الأرض في دورتها حول الشمس ، وهي ١٨ ميلاً في الثانية ، لو زادت او نقصت ثانية واحدة في كل سنة بل في كل مئة سنة ، لاختل هذا النظام . لأن الدورة ، بمرور الملايين من السنين ، ستطول كثيراً او تقصر كثيراً ، فيختل نظام الفصول الاربعة على الارض باختلال مددها المحكمة ، ويختل نظام المطر العجيب .

ولو كان الفَلَك ، الذي تدور به الارض حول الشمس ، اطول مـما هو او اقصر ، كما هو الحال في بقية السيارات ، لوقـع الاختلال في مدة الفصول ونزول الامطار .

ولو ان شكل الفَلَك ، الذي تدور فيه الارض حول الشمس ، لم يكن اهليلجياً ، لاختل نظام الفصول الاربعة .

ولو ان الارض لم تكن (حنواء) ، اي لو ان وضـع الارض على مدارها غير مائل بزاوية قدرها ٢٣ درجة ، لاختل نظام الفصول الاربعة المتنقلة على الارض ، ولاصبح وسط الارض صحراء تحترق في صيف دائم ، واصبح شمالها وجنوبها مدفونين تحت ركام من الثلج .

ولو ان درجة هذا الميل زادت عما هي عليه ، لأصبحت المنطقتان المعتدلتان ، كالقطبين ، امّا في ليـل طويل وشتاء طويل ، او في نهار طويل وصيف طويل . فهذه الدرجة من الميل هي الدرجة المحكمة اللازمة لهذا التنظيم العجيب .

وباجتماع هـذه الاسباب كلها ، من السرعة ، الى المسافة ، الى المدة ، الى شكل الارض ، وشكل المدار ، الى الميل ، الى غير ذلك مما سبق ذكره تحصل الفصول الاربعة ، ويتم الاعتدالان ، ويحصل التبخر في مياه الارض ، وتحمل الرياح الأبخرة على متن الغبار الذي تثيره ، وتسوقهـا الى الاجواء الباردة ليتم تكاثفها ، وتتكون حبات المطر ، ويجلجل الرعـد ، ويومض البرق ، وتسقط الامطار التي تحيي الارض بعد موتها ...

أفكل هذا النظام والترتيب والاحكام أثر من آثار المصادفة يا حيران .

حيران ـ سبحان الله العظيم ... حقاً ان امنا الارض حَدْباء حنواء ... فسبحان من (حناها) لنا لتحنو علينا ، وسبحان من (أحْدَبَهَا) لتحدَب علينا وعلى كل حيّ .

أَخُونَا الصَّغِير

٣

الشيخ — وهذا القمر ، اخونا الصغير ، الحلو الظريف الغرير ، الذي ما زلنا نقاربه ، حتى كدنا نناكبه ، ثم اخذنا نقلقه ، وبالصواريخ نرشقه ... هذا القمر يا حيران ماذا عرف الانسان ذو النفس الطُلَعة من اسراره ، واختلاف اطواره ، في منازله واقداره ، وظلماته وانواره ...؟

يقول القرآن عن القمر :

— (ألم تر كيف خلق الله سبع سموات طِباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) .

— (تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً) .

— (ومِن آياته الليلُ والنهار والشمسُ والقمرُ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن) .

— (وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمّى) .

— (وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين) .

— (والشمس وضحاها . والقمرِ اذا تلاها . والنهارِ اذا جلّاها . والليلِ اذا يغشاها) .

— (فالقُ الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حُسباناً ذلك تقدير العزيز العليم) .

— (والشمس والقمر بحسْبان) .

— (والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) .

— (وهو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازلَ لتعلموا عَددَ السنين والحسابَ ما خلق الله ذلك إلّا بالحق يفصّل الآيات لقوم يعلمون) .

هذا بعض ما يقوله القرآن عن القمر ، وقد جاء اولئك الذين يعلمون ، فكشفوا عما وراء هذه الاشارات من اسرار فعرفوا : ان هذا القمر جرم غير منير بذاته ولكن يستمد نوره بالانعكاس من الشمس المضيئة بذاتها ، ليعكسه بدوره الى الارض كما صرح القرآن . وعرفوا انه تابع للارض ، يسايرها ويدور معهـا ومثلها من الغرب الى الشرق . وان له دورتين ، دورة حول نفسه ودورة حول الارض . ولكن حكمة الله سبحانه قضت ان يتم الدورتين في وقت واحد ، وان يبقى متجهاً باحـد وجهيه الى الارض فلا نرى وجهه الثاني ابداً . ذلك ان الارض تتم دورتها حول نفسها في يوم كامل وتتم دورتها حول الشمس في سنة كاملة تدور فيها على نفسها ٣٦٥ دورة . اما القمر فيتم دورته حول نفسه وحول الارض معاً في مدة شهر قمري واحد اي انه في المدة التي يدور بها حول الارض لا يدور على نفسه الا مرة واحـدة يتجه بها دائماً بوجه واحـد نحو امه الارض لا يوليها ظهره ابداً .

وعرفوا من بدائع صنع الخلاق الحكيم ، ان القمر في دورته الشهرية هذه يقطع كل يوم ١٣ درجة ، ويتأخر كل يوم ٤٩ دقيقة نحو الشرق ليكشف لنا عن جانبه المنير كشفاً متدرجاً يبدأ به هلالاً ثم بدراً ثم يرجـع كالعرجون القديم حتى يختفي ويطلـع بعد ٢٩ يوماً و ٨ ساعات هلالاً جديداً نعرف به عدد السنين والحساب .

وعرفوا ايضاً ان القمر اقرب اجرام السماء الى الارض فلا يبعد عنها سوى ٢٤٠ الف ميل تقريباً ، وان كتلته هي جزء من ٨٠ جزء من كتلة الارض .

وعرفوا ان للكواكب الاخرى اقماراً منها الصغير الصغير الذي لا يزيد قطره على بضعة اميال ، ومنها الكبير الكبير الذي يبلغ قطره ٣٢٠٠ ميل ، ومنهـا السريع السريع الذي يتم دورته حول كوكبه في ست ساعات ، ومنها البطيء البطيء الذي لا يتم دورته الا في سنتين . وعرفوا انه ما من قمر يتم دورته في شهر واحـد الا قمر هذه الارض التي جعل

الله سنتها بفصولها الاربعة اثني عشر شهراً ...

عرفوا كل هذه الاسرار التي اشار اليها القرآن وادركوا ما في هـذا النظام والاحكام من حكمة ونعمة فقالوا :

لو لم يكن القمر يدور حول نفسه وحول الارض في آن واحد ، ولو لم يكن يقطع في دورته كل يوم ١٣ درجة ويتأخر نحو ٤٩ دقيقة لما كان يتنقل في منازله المختلفة لنرى وجرهه المتغيرة ، ولما كان يتم الدورة في شهر واحد ليستأنف شهراً جديداً نعرف به عدد الشهور والسنين والحساب .

ولو كانت المسافة بين القمر والارض اقل مما هي او اكثر ، او كان حجمه اكبر مما هو او اصغر ، او كانت دورته اطول او اقصر لاختل هذا النظام كله ، بل ربما زال القمر كله ، لانه لو قرب من الارض لزاد جذبه فاصبح المد على الارض طاغيا يغمر اليابسة كلها ، وان تزايد هذا القرب جذبته الارض فوقع عليها . ولو بعد عن الارض لتعطل عمل المد والجزر بقلة الجذب ، وان زاد البعد جذب القمرَ كوكب آخر اليه وحرمنا من نعمه . ولو كبر حجمه لزادت قوة جذبـه ، ولو صغر لقلّت . ولو كانت دورته مثل دورة بقية التوابع الاقمار قصيرة قصيرة في ساعات ، او طويلة طويلة في سنين لاختل هذا النظام الذي جعل الله لنا به القمر حسباناً ، وعاد شهرنا القمري اسبوعاً او سنتين ...

فهل كل هذا النظام والاحكام الذي خص الله به القمر في حركاتـه المحسوبة ودوراته المكتوبة ، ومنازله المقدّرة واقداره المسخرة ، وانواره المكتسبة واطواره المرتقبة ، أثر من آثار المصادفة العمياء يا حيران ... ؟

حيران – سبحان الخلاق العظيم . والله ان هذا كله لا يجتمع بالمصادفة . ولكني فهمت من كلام الشيخ انـه يوشك ان يكون كالساخر من عمل العلماء الساعين للوصول الى القمر .

الشيخ – كيف فهمت هذا ؟ وكيف تظن بي اني اسخر من العلم والعلماء وانا ادلك على الله بما قاله العلم والعلماء ؟ ولكني اذا كنت ساخراً فانما انا ساخر من اولئك الذين تأخذهم كبرياء العلم ، من غير العلماء ، فيظنون

ان ارسال صاروخ الى القمر او انسان الى الفلـك ضربٌ من مشاركة الله في كبريائه وجبروته ، والتصرف في ملكوتـه ... وهم لو عقلوا لادركوا ان الكبرياء لذلك الذي خلق الانسان فسوّاه ، وبنور العقـل هداه ، وخلق هذا القمر الذي يشدّون اليه الرحال ، ويعقدون على بلوغه الآمال ، ومتى شاء سبحانه شقّه ونثره ، ومع النجوم بعثره ، وطمس أثره .

يومئذٍ يعلم هذا الانسان قدْره وقدَره .

الانبيق الأعظم

٤

الشيخ – وهذا الإنبيق الاعظم ، يا حيران ، الذي نصبه واضعه ورفعه رافعه بين السماء والارض ، فسطّح بحاره ، واوقد ناره ، وطيّر بخاره ، واثقل سحابه ، وأسال قطاره ، وجعل الجبال قراره ، وفتق منها انهاره ، فجدّد بها مداره ، من الذي احكم اسراره ...؟

لقد حدثتك عند ذكر دورة الارض السنوية ، عن الامطار ، وذكرت لك بعض اسرارها . فاسمع الآن ماذا يقول القرآن عن عملية المطر التي تتكون بهذا الإنبيق العظيم :

– (أفرأيتم الماءَ الذي تَشربون . أأنتم انزلتموه مِنَ المُزْنِ امْ نحنُ المنزلون) .

– (اللهُ الذي خلق السموات والارض وانزل من السماء ماءً فاخرج به من الثمرات رزقاً لكم) .

– (اللهُ الذي يُرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسُطه في السماء كيف يشاء ويجعله كِسَفاً فترى الوَدْقَ يخرج من خِلاله) .

– (والله الذي ارسل الرياح فتثير سحاباً فسُقناه الى بلد ميّتٍ فاحيينا به الارض بعد موتها) .

– (هو الذي انزل من السماء ماء فأَحْيا بـه الارض بعد موتها إنّ في ذلك لآيةً لقوم يسمعون) .

– (وهو الذي انزل من السماء ماء فاخرجْنا به نباتَ كلّ شيء) .

– (وهو الذي يرسل الرياح بُشْراً بين يديْ رحمته حتّى اذا أقلّتْ سحاباً ثِقالاً سُقناه لبلدٍ ميّتٍ فانزلنا به الماء ...) .

– (وهو الذي يرسل الرياح بُشْراً بين يدي رحمته وانزلْنا من السماء

ماء طهوراً . لنُحْييَ بـه بلدة ميْتاً ونُسْقيه مما خلقنا انعاماً وأَناسيَّ كثيراً . ولقد صرّفناه بينهم ليذّكّروا فأبَى اكثرُ الناس إلّا كُفُوراً) .

- (ونزّلنا من السماء ماء مباركاً) .
- (وانزلنا من السماء ماء بقـدر) .
- (وانزلنا من المُعْصِرات ماءً ثجّاجاً . لنخرج به حبّاً ونباتاً . وجناتٍ الفافاً) .
- (ألم تر ان الله انزل من السماء ماء فأخرجْنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها) .
- (ألم تر ان الله انزل من السماء ماء فسَلَكَه ينابيعَ في الارض) .
- (ألم تر ان الله يُزْجي سحاباً ثم يؤلّف بينه ثم يجعلُه رُكاماً فترى الوَدْقَ يخرج مِن خِلاله) .
- (او لم يروا إنّا نسوق الماء الى الارض الجُرُزِ فنُخْرِجُ به زرعاً تأكل منه انعامهم وانفسهم أفلا يبصرون) .

تأمل يا حيران في هـذه الآيات وفي التي مرّت قبلها ، وأنْعم النظر على ضوء العلم في عملية المطر ، التي اعتدنا ان نراهـا عادية بسيطة ، نمرّ بها مُعرضين عما فيها من نظام عجيب واحكام غريب ؟

أليست مدهشة يا حيران هذه (القطـّارة الإنبيق) السماوية التي خلقها الله ، ورتبها وجعلها ، بفضل ذلك التنظيم ، الذي ذكرناه ، وبسرّ نواميس الحرارة ، والتبخر ، والتكاثف ، والتميـّع ، تسير سيراً دورياً مطـّرداً ، في حلقة من التحوّل المتواصل المتجدد ، الذي يسقي به بعضه بعضاً ، ويستعير بعضه من بعض ، ويعود كرّته في كل عام ، فيردّ العارية ويؤدي الامانة ، بلا تأخير في مدّة ولا تخلف عن وعدة ، ولا نقص في قطرة ، ولا زيادة في ذرة ؟

وما كانت هـــذه الاعجوبة الكبرى ، اعجوبة المطر ، تتمّ ابداً بهذا التنظيم الدوري لولا اجتماع كل هـذه الاسباب من الحركة والمدار والوضع والمدى واتساع سطوح البحار ، وحرارة الشمس والتبخر والتكاثف والتميـّع

والتجمع والتحبُّب والتثاقل والريح والبرق . فهل يعقل ، يا حيران ، ان تجتمع كل هـذه الاسباب والنواميس والقوانين دفعة واحدة بطريق المصادفة العمياء ؟

حيران – اعوذ بالله ... ويل للمكابرين .

الشيخ – وهذا البحر العجيب ، يا حيران ، الذي يؤلف بعضَ اجزاء الإنبيق ، بماذا احدثك عن اسراره ، التي منّ الله علينا بذكرها في كثير من الآيات تنبيهاً لنا الى عظيم قدرته ؟

يقول القرآن :

– (الله الذي سخّر لكم البحرَ لتجري الفُلْكُ فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرونْ) .

– (ربكم الذي يُزْجي لكم الفُلْكَ في البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيماً) .

– (ألمْ ترَ ان الفلْكَ تجري في البحر بنعمة اللهِ) .

– (وآيةٌ لهم أنّا حَمَلنا ذريتَهم في الفُلْك المَشْحون) .

– (ومن آياته الجوارِ في البحر كالأعلام) .

– (والفُلْكِ التي تجري في البحر بما ينفع الناس ...) .

– (وما يستوي البَحْران هذا عذْب سائغ شرابُه وهـذا مِلْح أُجَاجٌ ومِنْ كُلٍّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حِلْيةً تَلْبَسونها وترى الفُلْكَ مواخِرَ فيه لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) .

هذه الآيات ، يا حيران ، فيها اكثر من نعمة واكثر من حكمة : فيها حكمة خلق البحر بذاته وعلى الوضع الذي هو فيه . وحكمة كونه مالحاً ، مع ان غيره من مياه البحيرات والانهار جعل عذباً . ونعمة امتلائه بالاسماك ، التي هي من اعظم الاغذية للانسان ، بل من اعظم مخازن الطعام واغناها ، وابقاها على الدهر ، وحكمة كونه يحمل الفلك ، ونعمة سير الناس فوقه لابتغاء فضل الله من طريق التجارة .

حيران — لقد فهمت نعمة خلق الاسماك ، ونعمة سير الناس في البحر للتجارة ، ولكني لم افهم حكمة خلق البحر بذاته ، ولا نعمة كونه يحمل الفلك .

الشيخ — نعم ان خلق البحر بذاته ، على الوضع الذي هو فيه ، ينطوي على اكبر نعمة واعظم حكمة .

فلولا هذا السطح العظيم من الماء الذي يغمر ثلثي الكرة ، مفرقاً بين القارات ، لما تمت عملية التبخر ، ولما تمت عملية المطر الدورية ، التي هي قوام الحياة على الارض . ولو جعل ماؤه عذباً لدبّ اليه الفساد ، بما فيه من الحيوانات ، وبما يصب فيه من سوقط اليابسة . ولو جعل في ناحية منعزلة من الكرة ، غير مفرّق بين القارات ، لتعطلت دورة الماء العجيبة في صعوده من البحر ، بالتبخر ، وعودته الى البحر من طريق الانهار ، وعادت اليابسة مستنقعاً لمياه الانهار ، فتأمل يا حيران ...

اما ذكر الفلك وجريانها في البحر ، بنعمة الله ، فانما اراد به القرآن الاشارة الخفية الحكيمة الى سر هذا الناموس العجيب المعروف (بقانون ارشيمِدْ) ، الذي تُبنى على اساسه الفلك ، وتسبح الاسماك . فهل كان هذا الناموس ، المحكم المتزن الدقيق ، الذي يجعل كل جسم غاطس في الماء يتلقى ، من الاسفل الى الاعلى ، دفعاً عمودياً قائماً مساوياً لوزن الماء المعادل لحجمه ، فاذا فاق وزنُ الجسم وزنَ الماء غرق ، وان نقص عنه طفا ... هذا الناموس الذي بسرّه تسبح الاسماك ، ويستطيع الانسان ، ان يبني سفناً كالاعلام ضخامة واتساعاً وشهوقاً ووزناً ، ويجعلها ، لو شاء ، من حديد ، ويحمّلها ، في جوفها ، ما ينوء من الاثقال ، ويَضْمن ، بالحساب الدقيق ، ان يلقيها في البحر فلا تغرق ... هذا الناموس هل كان أثراً من آثار المصادفة يا حيران ...

حيران — حقاً لقد كنا في غفلة عما وراء ذكر الفُلك وحملها في البحر من اشارة الى هذا الناموس .

الشيخ — وهكذا ترى ، يا حيران ، ان الله ، سبحانه ، خلق الخلائق ،

والنواميس ، وجعلها بقدرته وحكمته تتلاقى ويُفضي بعضهـا الى بعض ، ويؤازر بعضها بعضاً في تسيير آلة هذا الكون العظيم : فجعل الماء أصلاً لحياة النبات والحيوان . وجعل المطر الدوري وسيلة لسقي الارض في وقت حاجتها . وجعل البحر معيناً دائماً للمطر . وجعل التبخر والتكاثف وسيلتين لتكوينه ورفعه وانزاله . وجعل هذا البحر نفسه مخزناً للطعام ، وطريقاً للتجارة ، وحاملاً للفلك ، التي تجري بمـا ينفع الناس ، على اساس قانون يتحكم في الماء والهواء ، على السواء ، فيرفـع السفن العظام الثقيلة ، كما يرفع الابخرة الخفيفة . فهل يُعقل ان يكون اجتماع كل هـذه الاسباب والنواميس وترابطها أثراً من آثار المصادفة يا حيران ؟

حيران — هذا والله مستحيل يا مولاي .

الشيخ — وهذه الجبال يا حيران ، التي اتى القرآن على ذكرها في عدة آيات ، مـا هو حظ المصادفة في تكوينها وارسائها ورفع سمكهـا وشق مغاورها ؟

يقول القرآن :

— (واللهُ جعلَ لكم مما خَلَقَ ظِلالاً وجعل لكم من الجبال اكْناناً) .

— (وهو الذي مدَّ الارضَ وجَعل فيها رواسِيَ وانهاراً) .

— (ألمْ نَجعَل الأرض كِفَاتاً . أحْيَاءً وأمواتاً . وجعلنا فيها رواسِيَ واسقيناكم ماءً فُراتاً) .

— (والقَى في الارض رواسي ان تَميد بكم وانهاراً وسُبُلاً لعلكم تهتدون) .

— (والأرضَ مدَدْناها والقينا فيها رواسِيَ وانبتنا فيها من كلِّ شيءٍ موزون) .

هذا بعض ما قاله القرآن عن الجبال ، وفيه الصراحة ، وفيه الاشارة : انها اوتاد تمسك المهاد ، وانها اكنان ، وانها حواجز للرياح ، ومعاقد للثلوج في اعاليهـا ، ومراشح للمياه في اواسطها ، ومخازن في اكنانها ومغاورها وكهوفها ، ومنافذ للينابيع والانهار في اسافلها . امـا العلم فيقول ايضاً

لولا الجبال ما كانت الينابيع الدائمة ، والانهار الدائبة ، التي تسقي اراضينا ، طيلة ايام السنة ، ثم تصب في البحر ، لترد اليه العارية . فلو كانت الأرض كلها (مهاداً) منخفضة ، او مبسوطة ، لسقط المطر والثلج والبرد عليها ، وتفرق فيها مبدّداً مشتّتاً ، او تجمع في المطمئنّ من الارض ، لا سبيل له الى ان يجري فيها ينابيع وانهاراً ، تصب في البحر ؛ فيختل بهذا الركود سقي الارض ، بل ربما اختلت عملية المطر من اساسها لولا هذه الجبال ...

حيران — والله ما كان يخطر ببالي ان تكون للجبال كل هذه الفوائد .

الشيخ — وانا والله كنت اعجب من امتنان الله سبحانه على عباده بذكر الجبال . ثم كشف لي ان القرآن لا يكاد يذكر الجبال الا ويذكر معها الماء او الانهار او النبات ، فادركت انه لولا خلق هذه الجبال العالية ، التي جعلت مسافح للامطار ، ومعاقد ومراشح للثلوج التي تذوب بالتدريج ، ومخازن عالية مرتفعة للمياه ، ومنافذ للانهار تنحدر منها الى السهول ، لتعطلت ، كما يقول العلم ، عملية سقي الارض ، وردّ مياه الامطار الى البحر ، بل تعطلت عملية المطر من اساسها ، فهل كان كل هذا التنظيم أثراً من آثار المصادفة يا حيران ؟

حيران — سبحان الخلاق العظيم .

الشيخ — ودع عنك هذا الترتيب العجيب الذي يتم به تيسير المطر ، واسئل نفسك يا حيران ، عن هذا الماء الذي قال القرآن فيه (وجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) ، وقال العلم انه اصل الحياة لكل حيّ على الارض ، ما هو حظ المصادفة في تركيبه من عنصريه وجعله اصلاً للحياة ؟

هذا الماء الذي هو اصل الحياة مؤلف ، كما تعلم ، من (الاوكسجين والهيدروجين) ، ولكن الاول لا يتحد بالثاني في درجة حرارة عالية ولا في درجة حرارة واطية ، فكيف اتفق ، على هذه الارض دون سواها من الكواكب ، ان اصبحت الحرارة ملائمة لاتحاد هذين العنصرين وتكوين هذا الماء الذي هو اصل الحياة ؟

قد تقول ان الاتحاد يمكن ان يقع بالمصادفة . ولكنك سوف ترى ، اذا حدثتك عن العناصر ، ان اتحادها لا يتم الا على اساس قانون دوري ثابت من جملة احكامه ان عدد الالكترونات في سطح الذرة لا يكون اكثر من ثمانية وان العنصر المضيف لا يستقبل العنصر الضيف ولا يتّحد معه الا اذا كان عدد الكترونات الضيف مساوياً لعدد الاسرة الفارغة عند المضيف . فهل كان هذا القانون من عمل المصادفة ؟ وهل كان من عمل المصادفة ايضاً ان عنصر الاوكسجين يستطيع اضافة عنصر الهيدروجين والأتحاد معه ليتكون لنا هذا الماء الذي تقوم بـه حياة كل حي على الأرض ...؟

هدايا الجيران

٥

الشيخ – وهذا الهواء الذي به نَحْيَي ونعيش نحن ، وكل الاحياء على الارض من حيوان ونبات ، ما هو حظ المصادفة في تكوينه ، وتوفيره ، وتيسيره للحياة ، من مصنع لا يتوقف سيره ، ولا ينضب خيره ، مـــا دامت الحياة على الارض ؟

حيران – لقـد حدثتني يا مولاي عن الانبيق الاعظم (مصنع الماء) العجيب ، ولكني ما كنت احسب ان للهواء مصنعاً ، بل الذي اعلمه ان الهواء شيء موجود موفور ميسور يحيط بالارض ، فما معنى ان له (مصنعاً) لا يتوقف سيره ولا ينضب خيره ...؟

الشيخ – تعلم يا حيران ان الهواء مؤلف من الاوكسجين بنسبة (٢١) بالماية ، ومن النتروجين بنسبة (٧٨) ومن بعض الغازات الاخرى . والاوكسجين عنصر طيار سريع الافلات فمن شأنه ان يفلت او تمتصه الارض ، فلماذا لم يفلت كله كما افلت من كواكب اخرى ، ولماذا لم تمتصه الارض كله . وكيف اتفق ان بقي منه في الهواء ٢١ بالماية لا اكثر ولا اقـل ، وهي النسبة اللازمة لحياة كل حيّ ، فلو زادت لاحترقت زروعنا وغاباتنا عند اقل شرارة في الجو ، ولو نقصت لاختنقنا . فهل كان تحديد هذه النسبة أثراً من آثار المصادفة يا حيران ...؟

اما مصنع الهواء فالسر في تكوينه وتنظيمه ادق واعظم والحكمة في انتاجه اعجب واحكم :

ذلك ان اجسامنا تفتقر الى توليد حرارة دائمة ، والحرارة تفتقر الى وقود ، والوقود هو الاوكسجين الذي نتنفّسه فيدخل من طريق الرئتين ويحرق طعامنا . ولكن كمية الاوكسجين في الهواء محدودة ، ولا بدّ لها

على كر الدهور ، ان تنفد ، لان الاوكسجين الذي نأخذه يتحد ، بالاحتراق ، مع الكربون الذي في طعامنا ، فيتكون من هذا الاحتراق (ثاني اوكسيد الكربون) وهو سم قاتل لنا نلفظه بالزّفير الى الهواء . فلا بدّ ، اذا استمر الحال على هذا المنوال ، ان ينفد ما في الهواء من الاوكسجين ، فما العمل ؟

من حكمة الخلق ان النبات قد جُعل مفتقراً في حياته وغذائه وتكوين ثماره الى الكربون ، وانه لا يستطيع تناوله من الطبيعة مباشرة ، بل قُضيَ عليه ان يتناوله من طريق (ثاني اوكسيد الكربون) . ولكنّ كمية ثاني اوكسيد الكربون لا بدّ ان تنفد فما العمل ؟

هنا تجلّت حكمة الخلاق العظيم باعجوبة (المُقايَضَة) بيننا وبين النبات : فثاني اوكسيد الكربون ، كما علمتَ ، سمٌّ قاتل وغذاء كامل في آن واحد . هو سُم للحيوان وغذاء للنبات . وهو ينتج من اتحاد الكربون مع الاوكسجين ، على اثر كل احتراق . فنحن عندما نتنفس الاوكسجين ، ونحرق طعامنا ، ثم نلفظ ثاني اوكسيد الكربون ، لا ندري ، ونحن نتخلص بالزفير من هذا السم القاتل ، اننا نرسله (هديّة) منا الى عالم النبات الذي يتخذ منه غذاءَه ويحفظ به حياتَه ويُنتج به ثمارَه ؛ فانّ اوراقه تأخذ هذا السم القاتل ، وبتفاعل كيماوي سحري عجيب مدهش ، يحصل بين المادة الخضراء التي فيها وبين ضوء الشمس ، تحلّه الى عنصرين (الكربون والاوكسجين) . اما الكربون فيأخذه النبات ويذيبه بالماء الممتص من جذوره ليصنع منه لنا (هَدايا) الشكر من ازهارٍ واثمار ، واما الاوكسجين فيلفظه ليردّ لنا ، بالمثل ، نَسَمَة الحياة ...

وهكذا اوجدت قدرة الخلاق ، بهذا التنظيم العجيب ، (مَصْنعاً) دائماً لتقديم الاوكسجين لنا والكربون للنبات ، ولولا هذه المقايضة المدهشة لتعطلت الحياة على الارض ...

فهل كان كل هذا أثراً من آثار المصادفة العمياء يا حيران ...؟

حيران — سبحان الخلاق العظيم ، حقاً انه لمصنع مدهش يكاد يكون

اعجب واحكم من مصنع المطر .

الشيخ – وهل كان من قبيل المصادفة ، يا حيران ، ان يقول القرآن للناس ، قبل ثلاثة عشر قرناً من الدهر :

(وَهُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً ...) .

حيران – لم افهم يا مولاي .

الشيخ – لم تفهم لانك لم تتأمل في الآية . يقول الله : (فاخرجنا به، اي بالماء ، نبات كل شيء) ، ثم يقول (فاخرجنا منه ، (اي من النبات) ، خَضِراً) ، ثم يقول (نُخرج منه حَبّاً) ، فلمن يعود هذا الضمير في قوله (نخرج منه حَبّاً) ؟ أيعود للماء ، ام للنبات ، ام للخَضِر ؟

حيران – ظاهر انه يعود (للخَضِر) ، ولكن ما معنى ان يخرج الله الحَبّ من الخَضِر ؟

الشيخ – هنا سر الاعجاز في الآية يا حيران ؛ بل هنا الاشارة للسر الذي لا يزال عند العلماء سراً الى اليوم .

لقد عرف العلم ، كما قلتُ لك ، ان بناء النبات وغذاءه من (الكربون) ، وان النبات يأخذ هذا الكربون من ثاني اوكسيد الكربون ، ذلك السم القاتل ، وعرف العلم ان النبات يَحلّ ثاني اوكسيد الكربون الى عنصرين (الكربون والاوكسجين) ، فيأخذ الكربون ويذيبه بالماء الممتص من جذوره واغصانه ، ويصنع منه كيانَه وثماره كلها ، ولكن كيف يحلّ النباتُ (ثاني اوكسيد الكربون) الى عنصريه ؟

هنا الاعجوبة . لقد وجد العلماء ان هذا (الحَلّ) يحصل نتيجة لتفاعل كيماوي عجيب بين المادة الخضراء التي في خلايا الاوراق المسماة الكلوروفيل (Chlorophylle) وبين ضوء الشمس . وهذه الكلمة اليونانية مؤلفة من (Khlôros) ومعناها الأخضر، و (Phullon) ومعناها الورقة .

ولكن كيف يحصل هذا التفاعل الكيماوي العجيب بين ضوء الشمس والمادة (الخضراء) ؟ هذا سرٌ لم يزل العلم يعدّه اعجوبة من اعاجيب الخلق .

وكلّ ما عرفه العلماء انه لولا المادة (الخضراء) هــذه لما حصل تفاعل ، ولمـــا امكن (حلّ) ثاني اوكسيد الكربون الى عنصري (الكربون والاوكسجين) ، ولما امكن للنبات ان يأخذ غذاءه ، وهو الكربون ، ويصنع منه ثماره

فهل كان تكوين هذا المصنع للهواء ، وخلق هـــذه المادة الخضراء ، وتحويل السم بها الى غذاء ، وتنظيم ذلك التهادي الدوري بين الجيران ، بهذا الاحكام والاتقان ، أثراً من آثار المصادفة يا حيران ...؟

الفندق الكبير
٦

الشيخ – وهذا الفندق ، الذي بناه لنا صاحبه وركّزه ، وحماه وحرّزه ، ونجّده وطرّزه ، وبكل الخيرات والنعم جهّزه ، مـا هو حظ المصادفة فيه يا حيران ؟

حيران – ايّ فندق هذا يا مولاي ؟

الشيخ – فندق هـذه الارض ، الذي ننزل به في سفرنا من المهد الى اللحد ...، هذا الفندق الذي نجد فيه المأوى ، والدفء ، والنار ، والنور ، ومطعماً تقدم لنـا فيه انواع المآكل والمشارب ، من اللحوم والالبان والخضار والفواكه ، حتى الحلوى ، واصنافُ الملابس التي تقينا قرّ الشتاء وحر الصيف . ألست تلاحظ ما فيه من تصميم وعناية واتقان ، يا حيران ؟

انظر الى حجارته الصغيرة الصغيرة ، التي يتكون منها هذا الفندق العجيب ... هذه المادة التي فتّتوها وحلّلوا ، والى ذراتها وصلوا ، والى نواتها دخلوا ، والى فلقها توصلوا ، وعلى طاقتها حصلوا ، فخرّبوا واحرقوا واهلكوا وقتلوا ، أتراهم عرفوا حقيقتها ام جهلوا ...؟

وهل دلهم ما رأوا فيها ، من التركيب الغريب ، والتنظيم العجيب ، والتنسيق الساحر والتصميم الباهر ، على انها أثر من آثار المصادفة العمياء ؟

كلا ثم كلا يا حيران . فرجـل العلم كان ، في عصر مضى ، ينظر الى ظاهر المادة ، ولا ينفـذ الى احشائها واجوافها ، ويرى (العناصر) في تعددها ، فلا يدرك سر تنافرها وائتلافها ، ويبصر النور بالوانــه فلا يدري سر تنوعها واختلافها ... اما اليوم فقد نفـذ الى الصميم ، فرأى الله عنده ...

فلو سأل سائل علماء العصور البعيدة من اي شيء تتكون مادة هذا

الكون لأجابوه انهـــا تتكون من ذرات العناصر الاربعة (التراب والماء والنار والهواء) . ثم تقدم العلم فعرفوا ان هذه العناصر الاربعة تتكون هي نفسها من عناصر وعناصر ، وان هذه العناصر الكثيرة تتكون من اجزاء صغيرة لا ترى ولا تتجزأ . ثم قفز العلم قفزته الكبرى في القرن الماضي فعرف ان تلك الاجزاء الصغيرة التي كان يحسبها لا تتجزأ ، لانها اصغر شيء يمكن تصوره ، مؤلفة من اجزاء اصغر منها بكثير هي الذرات (atomes) التي تبلغ من الصغر ، يا حيران ، ان قطر الواحدة منها يقدر بخمسين مليون جزء من (البوصة) ووزنها يتراوح على اختـلاف العناصر بين جزئين تقريباً و٣٩٥ جزء من (ملون مليار مليار جزء) من الغرام .

حيران – يا للعجب !

الشيخ – وهـذا الحجم يراه العلماء عظيماً بالنسبة لحجم الالكترونات والپروتونات التي تتألف منها الذرة ، ولكي يقرّبوا لنا تصور الفارق ضربوا مثلاً (كما فعلوا بين الهباءة والارض وسديم المرأة المسلسلة ان كنتَ تذكر) فقالوا ان الفرق بين حجم الذرة كلهـا وبين حجم الالكترون الذي فيها هو كالفرق بين ذرة الغبار وهذه الغرفة التي نحن فيها يا حيران ...

حيران – يا للعجب العُجاب . أيكون لهذه الذرة وهي بذلك الصغر جوف واجزاء ؟

الشيخ – نعم يا حيران انهم عرفوا ان للذرة غلافاً تدور فيه نواة او نويات كثيرة . امـا الغلاف فهو مؤلف من الكترون (électron) واحد او الكترونات كثيرة بحسب العناصر ، واما النواة فتؤلف من پروتون (Proton) واحد او پروتونات كثيرة ومن نوترون (Neutron) واحـد او نوترونات كثيرة ، إلّا في الهيدروجين فلا نوترون فيه .

حيران – ما هي هذه الالكترونات والپروتونات والنوترونات ؟

الشيخ – الالكترون عبارة عن وحدة كهربائية سالبة ، والپروتون عبارة عن وحدة كهربائية موجبة ، والنوترون عبارة عن وحدة كهربائية محايدة (neutre) لا سالبة ولا موجبة .

حيران – اذاً ، اصبحت المادة والعالم كله ونحن معه عبارة عن وحدات او شحنات كهربائية ؟

الشيخ – هذا هو الواقع يا حيران ، فالمادة التي يتآلف منها العالم ونحن معه عبارة عن طاقات كهربائية متجمدة بشكل ذرات وعناصر . وقد جاء العالم انشتين بنظرية النسبية يقول للعالم (ان المادة والقوة شيء واحد) ثم صدق رأيه عندما امكن فلق الذرة وتحويل مادتها الى قوة .

حيران – اذا كانت المادة والقوة شيئاً واحداً ، وقد امكن ان تتحول المادة الى قوة ، كما ثبت عملياً بفلق الذرة ، فلا مانع من ان يثبت يوماً امكان تحويل القوة الى مادة .

الشيخ – ليس هذا ببعيد . ألست ترى نفسك بهذا اقرب الى الايمان بامكان خلق مادة العالم من العدم . (إنَّ القوَّةَ لِلهِ جَمِيعاً) يا حيران ... (إنَّ اللهَ قويٌ عَزِيزٌ) يا حيران ...

حيران – ما حدثني مولاي قبل اليوم عن فلسفة النسبية .

الشيخ – ليست النسبية فلسفة ولكنها نظرية علمية محضاً ، وسأحدثك عنها اذا شئت ، امّا الآن فدعني اتم لك وصف الذرات لأريك ما فيها من نظام واحكام ، فارشادك الى وجود النظام هو همّي وبغيتي .

حيران – الامر لك يا مولاي .

الشيخ – من عجائب النظام والتنسيق ان عدد الالكترونات في مدار الذرة الخارجي (الذي سميناه غلافها) يكون بعدد البروتونات التي في نواتها ، فاذا كان في نواتها بروتون واحد كان في المدار الكترون واحـــد كما في الهيدروجين . واذا كان في النواة پروتونان كان في المدار الكترونان وهكذا يتدرج العدد واحداً واحداً من اخف العناصر الى اثقلها وزناً ذرياً وهو الاورانيوم . وبهذا التعادل العجيب بين الالكترونات السالبة والپروتونات الموجبة تتعادل كهربائية الذرة ، امـا النوترونات (المحايدة) فان عددها في نواة الذرة قل او كثر لا يتعادل مع عدد الالكترونات لانها محايدة ، فتأمل يا حيران بهذا التنسيق العجيب .

واعجب من هذا يا حيران واعظم هو ذلك القانون الدّوْري الذي يتحكم في ترتيب الالكترونات في مدار الذرة بل مداراتها ، ويتحكم بالتالي في تأليف العناصر المختلفة وتركيبها ، تبعاً لترتيب الالكترونات وعددها . ذلك انهم وجدوا ان مواقع الالكترونات في غلاف الذرة تنتظم في ترتيب (ثُمانيّ) فاذا بلغ عــدد الالكترونات في مدار الذرة السطحي الثمانية اكتفت حمولة هذا السطح بل امتلأت اِسرّته الثمانية فلم يعــد يتسع لالكترون آخر ، فاذا كان للعنصر ٩ الكترونات اتخــذ التاسع مركزاً له في مـــدار ثان من غلاف الذرة ، وهكذا حتى تمتلئ الأسرّة الثمانية في المدار الثاني ثم في الثالث فالرابع الى النهاية ثمانيةً ثمانيةً .

واعجب من هذا ان اتحاد العناصر ببعضها يتمشى على اساس هـــذا الترتيب الثُماني في السطح تمشياً فيه الكثير من (ادب الضيافة) . ذلك ان اتحاد العناصر انما يحصل بين الكتروناتها ، فاذا كان عدد الكترونات العنصر المضيف في سطح الغلاف اقل من ثمانية أي كان عنده اِسرّة فارغة فانه يستطيع بكل رحابة صدر ان يستقبل ويضيّف في هذه الاِسرّة الفارغة عنصراً آخراً ، بشرط ان تكون عدد الكترونات العنصر الضَيْف بقدر عدد الأسرّة الفارغة عنــد العنصر المضيف . فالعنصر الذي في طبقته الخارجية ثمانية الكترونات لا يستطيع ان يستقبل احــداً في ضيافته ، وهو معذور ، اما الذي في طبقته الخارجية سبعة كهارب فانه يستطيع الاتحاد بعنصر آخر في طبقته الكترون واحد ، والذي في طبقته الخارجية ستة الكترونات يتحد مع الذي في طبقته الكترونان ، وهكذا .

ولما كان اختلاف العناصر الاصيلة في الكون انما هو باختلاف عـــدد الكتروناتها كما سبق البيان ، ومتى عرف (الوزن الذري) لأي عنصر عرفت خواصه كلها ، فقد استطاع العالم الروسي (منديلف) ان يصنّف العناصر بحسب وزنها الذري ، فوضع لها جدولاً في سلّم صاعد متدرج ؛ ولكنه فوجيء بمثل (الفراغ) الذي فوجيء به علماء الفلك بين المريخ والمشترى كما تذكر يا حيران ، فوجد ان درجات السلّم الدوْري للعناصر تطّرد

بتتابع لا فراغ فيه الّا في ثلاثة عناصر ؛ فاما ان يكون هذا (القانون الدوْري)غير مطرد وغير صحيح ، واما ان يكون صحيحاً ومطرداً فلا بد حينئذ من وجود هـــذه العناصر الثلاثة المفقودة في نفس تلك الدرجات الفارغة .

ومن العجيب ان مندليف الذي كان مؤمناً بصحة قانونه الدوْري اخذ يؤكد ان هذه العناصر الثلاثة المفقودة لا بد من وجودها على الارض ، بل انه استطاع على اساس وزنها الذرّي الذي يأتي في الدرجات الفارغة ان يحدد كل الخواص الكيماوية التي لها كأنه يراها . ومن المدهش حقاً يا حيران ان مندليف اسعده الحظ ان يرى قبل موتـــه في سنة ١٩٠٧ صدق نبوءته العلمية ، فقد اكتشف العلماء العناصر المفقودة ، وكان لكل واحد منها نفس الوزن الذري وكل الخواص الكيماوية التي تنبأ بها مندليف . فهل يُعقل يا حيران ان يكون هذا النظام العجيب والترتيب الغريب في الذرّة وفي المجرّة على حدٍّ سواء أثراً من آثار المصادفة العمياء ...؟

حيران — لقد صدق الشيخ حين قال ان العالِم قد نفذ اليوم من المادة الى الصميم فرأى الله عنده .

الشيخ — وهذا النور يا حيران ، الذي اتى القرآن على ذكره في آيات كثيرة ، ما هو حظ المصادفة في خلقه وتكوينه وتنظيم نواميسه وقوانينه . وتنويع ألوانه وتصريفه في الابصار ؟

يقول القرآن :

— (الحمد لله الذي خلق السماواتِ والارضَ وجعل الظُّلُماتِ والنّور) .

— (وما يستوي الأعمى والبصيرُ ولا الظلماتُ ولا النورُ ولا الظلّ ولا الحَرورُ) .

— (قُلْ أرأيتُمْ انْ جَعَلَ اللهُ عليكم الليلَ سَرْمداً الى يوم القيامة ، مَنْ الَـهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بضياءٍ أفَلا تسمعون) .

— (فلا أُقْسِمُ بما تُبصِرونَ وما لا تبصرون) .

فما هو هذا الضوء الذي نرى به الاشياء ، ومـا هو هذا الذي اقسم

الله باننا نبصره ولا نبصره ، وهو ، جلّت قدرته ، لا يُقسم في القرآن إلّا باعظم آياته من المخلوقات ؟

ان الاشعة التي تصل الى ارضنا من الشمس ومن كل كوكب مضيء تأتي عبر الفضاء او عبر (الأثير) ، كما كانوا يقولون ، مهتزةً باهتزازات مختلفة في عددها ، اي في امواج مختلفة في اطوالها ؛ ولكن ابصارنا لا تستطيع ان ترى من هذه الامواج الا جزءً قليلاً جداً ، وهي الامواج التي تحدث ألوان الطيف الشمسي السبعة . اما الامواج الاخرى الكثيرة التي تأتي في السلّم تحت الاحمر ، وفوق البنفسجي ، فلا تراها ابصارنا ، لانها خُلقت عاجزةً عن رؤيتها ، بل قلْ ان هذه الامواج ما خلقتْ لتُرى وتُبصَر .

واختلاف الامواج في اطوالها ، هو الذي يفرّق بينها في ألوانها وتأثيراتها : فاطول الامواج التي يقدّر طولها بالاميال ، ولا تقصر عن ست موجات في البوصة ، هي الامواج التي تؤثر في اللاسلكي . فاذا قصُرت الامواج عن ذلك اصبحتْ تحدث الحرارة ، فنسميها (امواج الحرارة المظلمة) لاننا لا نراها ما دام طولها لا يزيد عن جزء من ثلاثين الف جزء من البوصة . فاذا تجاوزتْ هذا الحدّ بسرعتها تصبح قادرة على التأثير في ابصارنا ، فنسميها (امواج الضوء) وهي التي تحدث ألوان الطيف الشمسي السبعة . ويختلف لون هذه الامواج المرئية باختلاف سرعتها ، فعندما تكون سرعتها في البوصة الواحدة (٣٤) الف موجة ، تحدث الضوء الاحمر ، فاذا قصُرت عن ذلك تحدث البرتقالي ، ثم الاصفر ، ثم الاخضر ، ثم الازرق ، ثم النيلي . فاذا زاد قصرها كثيراً ، واصبحت الامواج متقاربة بحيث تشغل (٦٠) الف موجة منها بوصةً واحدة ، فانها تحدث الضوء البنفسجي . فاذا ازداد قصرها عن ذلك تصبح (غير منظورة) وتحدث الضوء المسمّى (فوق البنفسجي) الذي يظهر لنا تأثيره في المواد الكيماوية .

ووراء ذلك سلالم كثيرة ، فان العالم المنظور ليس الا شيئاً ضئيلاً بالنسبة الى العالم غير المنظور . فالامواج الاثيرية المعروفة حتى الآن تنتظم

في اكثر من (٢٧) سلماً ، المنظور منها سلم واحـد ، والسلالم الاخرى غير منظورة .

فهل فهمت يا حيران معنى قوله تعالى : (فلا أُقسِمُ بما تُبصِرونَ وما لا تُبصِرون) ؟ وهل يعقل يا حيران ان يكون هـذا الترتيب والتحديد والتنظيم أثراً من آثار المصادفة ؟

حيران – سبحان الخلاق العظيم ، ولكني ارى مولاي ينكر وجود الاثير الذي كان العلماء مجمعين على القول بوجوده .

الشيخ – ما احد من العلماء الذين قالوا بوجود الاثير ، يعلم ما هو الاثير ، ولكنهم فرضوا وجوده فرضاً ، لانهم وجدوا انفسهم امـام امور زعموا انه لا يمكن تعليلها إلّا بفرض وجود الاثير ، وقاسوا الضوء على الصوت فقالوا انه لا بد من وجود وسيط يتخلل الاشياء ، ويعمل على نقل التأثير من جسم الى جسم . فانه عندما ينطلق مدفع ، مثلاً ، من مسافة بعيدة ، ويصل صوته الينا ، نتسائل ، ما الذي انتقل من المدفع الى آذاننا ؟ فلا نجد شيئاً قد انتقل ، ولكننا نجد الوسيط الذي يتخلل بيننا وبين المدفع ، وهو الهواء ، قد اهتزّ بانطلاق المدفع ، فوصلت اهتزازاته الى اسماعنا . ولكن هذا الهواء الذي صَلُح ان يكون وسيطاً لنقـل الصوت ، ليس بوسيط صالح لنقل النور . فاننا اذا كنا ننظر الى نور مصباح كهربائي يشعُّ من مسافة بعيدة في ريحٍ طيبة ، ثم هبّت زوبعة هوجاء لم نجد ان الزوبعة تحدث في النور اضطراباً او تغييراً ، كما تحدث كثيراً من الاضطراب والتغيير في صوت المدفع . واذا اخلينا كرة زجاجية من الهواء ، وتركنا فيها بعد التخلية ، جرساً ومصباحاً كهربائيين ، ثم اطلقنا تياراً كهربائياً على الجرس لم نسمع له صوتاً ابداً ، واما لو اطلقنا تياراً كهربائياً على المصباح رأيناه قد انار حالاً ، فندرك بهذا ، ان الهواء ليس هو الوسيط الذي ينقل الضوء ، هذا الوسيط هو الذي اطلق عليه العلماء اسم (الاثير) بدون ان يعرفوا حقيقته . ولكن التجارب العلمية اثبتت عـدم وجود الاثير . والقياس بين الصوت والضوء قياس مع الفارق . فالصوت هو في

حقيقته صدمٌ للهواء وهزّه هزات مختلفة تصل الى آذاننا ، فلولا وجود الهواء لم يكن صوت ؛ اما الضوء فانه امواج الاشعة تسير في الفضاء بلا حاجة الى وسيط .

وسواء كان الاثير شيئاً موجوداً ، او امراً مفروضاً ، فان الذي يهمني في حديثي ، يا حيران ، ان اكشف لك دائماً عن ناحية الحكمة والنظام في الخلق ، فهل تنبهتَ الى ما جعل الله من فرق ، في الانتقال الينا ، بين الصوت والنور ؟ وهل تصورتَ ماذا يكون حال اسماعنا لو ان الصوت كان ينقل الينا كالنور ، من الشمس والكواكب واجرام السماء ؟ او عُكس الامر فاصبح النور ينقل الينا بواسطة الهواء ؟ اذنْ لاختلّ السمع واختل الابصار ... فهل كان كل هذا التمييز والتنظيم والاحكام أثراً من آثار المصادفة يا حيران ؟

حيران — زدني يا مولاي زدني .

الشيخ — وهذه النار يا حيران ...

حيران — ولكن مولاي لم يحدثني عن (النسبيّة) كما وعدني .

الشيخ — اراك تلح في السؤال عن النسبية كأنها تقلق بالك .

حيران — كيف لا تقلق بالي وهي تقلب الاوليات العقلية والبديهيات رأساً على عقب حين تنكر ان الخط المستقيم هو اقصر الخطوط بين نقطتين ، وتدعي ان الابعاد ليست ثلاثة بل اربعة احدها الزمن ، الى غير ذلك من الغرائب .

الشيخ — من اين عرفتَ هذا ؟

حيران — قرأته في الصحف السيارة وسمعته من كثير من الناس .

الشيخ — لا تأخذ يا حيران حقائق العلم عن صحف الاخبار ، ولا تتلقفها من افواه غير العلماء ، ولا تدعْ عقلك يتخاذل في مجال الاوليات والبديهيات ولو خذّلك عنها علماءُ الارض قاطبةً ، ولا تُصدقْ ان عظيماً كأنشتْين يتناقض مع عقله فينكر البديهيات .

ان انشتْين لم يقلب التفكير ولكن صحح بعض جوانبه ، ولم ينكر البديهيات العقلية ولكن نبهنا الى ان نُدخل في فهمها وادراكها حسابَ

المكان والزمان والحركة إللواتي يقع فيهن الشيء المُدْرَك . فالنسبية حينما تقول ان الخط المستقيم ليس اقصر الخطوط بين نقطتين تُدخل في حسابها تحدّب الارض التي نتصور عليها الخطّ المستقيم مستقيماً ، وما هو كذلك بل هو يتحدّب وينحني مع سطح الارض ، فلا سبيل الى ان نتصور ان اقصر الخطوط بين النيويورك وباريس مثلاً هو المستقيم ما دمنا نقيسه على سطح الارض المحدب ، ولكن اذا قسنا المسافة في باطن الكرة بين النقطة التي تقع فوقها النيويورك والنقطة التي تقع فوقها باريس فان البداهة التي تحكم بان المستقيم هو اقصر الخطوط بين نقطتين تبقى سليمة على حالها . وحينما تقول النسبية ان الابعاد ليست ثلاثة بل اربعة احدها (الزمن) فانما تقرر ذلك بالنسبة الى الجسم المتحرك لا الجسم الثابت الساكن ، وبالنسبة للمكان والزمان اللذين تقع فيهما الحركة ويقوم بهما الشخص المدرِك .

وبما انه قد ثبت علمياً انه ما من جسم في الكون من الذرة الى المجرة الا وهو في حركة دائمة بسرعات مختلفة . وبما انه قد ثبت ايضاً ان الاجسام تتقلص وتنكمش في خط اتجاه سرعتها تقلصاً نسبياً يزداد بازدياد السرعة وينقص بنقصها . وبما انه قد ثبت ان كتلة المادة هي صفة نسبية ايضاً تزداد قيمتها بازدياد سرعة الجسم . وبما انه ثبت ايضاً ان بين الكتلة والطاقة تناسباً مطلقاً اي ان الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في مربّع سرعة الضوء فعدد وحدات الطاقة في جسم من الاجسام يساوي دائماً عدد وحدات كتلته مضروباً بعدد ثابت وهو مربّع سرعة الضوء . وبما ان هذا التناسب الثابت بين الطاقة والكتلة اي القوة والمادة يجعلها شيئاً واحداً ، فكلما زادت الكتلة زادت الطاقة ، وكلما فنيتْ الطاقة من جسم نقصت كتلته ، وبهذا صارت المادة شيئاً قابلاً للفناء . وبما ان الزمن نفسه يختلف ادراكه عند شخصين مدرِكين يقف احدهما في كوكب والثاني في آخر باختلاف سرعة كل واحد من الكوكبين ، لان الزمن هو تعاقب الحركات كما تعلم ، وبهذا اصبح قياس الزمن نسبياً ايضاً . فقد نتج عن كل هذه الحقائق العلمية التي لخصتها لك عدة نتائج علمية منها ان تصورنا

لابعاد الاجسام المتحركة لا يجوز ان يقوم على اساس ابعادها المكانية الثلاثة وهي الطول والعرض والعمق التي نعرفها ، بـــل لا بد ان يدخل فيه عنصر (للزمن) اي عنصر السرعة التي تتحكم كما علمت في (طول) المادة وفي (كتلتها) وفي (طاقتها) وبالتالي في طول مدة بقائها او فنائها ...

وهكذا لم يعد لنا ان ننظر الى المادة والطول والكتلة والطاقة والمكان والزمان نظرات متفرقة وثابتة (باطلاق) ، بل صار حقاً علينا ان ننظر الى الاشياء المدركة نظرة نسبية تمزج بهـا بين مكانها وزمانها وحركتها وسرعتها . وهـذا هو معنى (النسبية) (Relativité) . فهل رأيت فيه يا حيران شيئاً يقلب المعقولات او ينكر البديهيات ؟

اما كنت تحسب ياحيران اني اتهرب من ذكر (النسبية) لانها تبعد عن الايمان؟

حيران – هكذا كنت احسب

الشيخ – كلا يا حيران كلا . فالنسبية بما قررته من عدم مطلقية الزمان والمكان اوضحت ما قاله الغزالي قبل الف سنة وقربت الى الايمان بالله ؛ وبما قررتـــه من الوحدة بين المادة والقوة ، ومن تحول المادة الى طاقة وفنائها ، وبما استنتجته من عـدم استحالة (الخلق والفناء) خلافاً للمبدأ لقائل انْ (لا شيءَ في الطبيعة يُخلَق ولا شيء يَفْنَى) ، ذلـك المبدأ لذي كان يتحكم في عقولنا ويعسّر علينا الايمان بالخلق بعد العدم ... هذه لنسبية قد قربتنا ، بكل هذا ، الى الايمان وقربتنا من الله .

حيران – اذن كان انشتين من المؤمنين بوجود الله .

الشيخ – لم يكن مؤمناً فحسب ، بل كان يرى انه ما من عالم عبقري ينفذ الى بعض اسرار الحكمة والنظام في الخلق إلّا ويكون ايمانـــه بالله عظيماً ، بل انه ليرى ان العلم لا يستقيم في مشيته بلا ايمان ، وان الايمان لا يستنير بغير العلم ، وفي هذا كله يقول وما اروع ما يقول :

ان اجمـل هزّة نفسية نشعر بها هي تلك الهزة التي تَعْرونا عندما نقف على عتبة الخفاء من باب الغيب . انها النواة لمعرفة الحق في كل فن وكل علم . وانه لميت ذلك الذي يكون غريباً عن هذا الشعور ، فيعيش

مستغلقاً رُعباً ، من غير ان تجد روعة التعجب الى نفسه سبيلا . ان جوهر الشعور الديني في صميمه هو ان نعلم بان ذلك الذي لا سبيل الى معرفة كُنْه ذاته موجودٌ حقّاً ويتجلّى باسمى آيات الحكمة وابهى انوار الجمال التي لا تستطيع ملكاتنا العقلية المسكينة ان تدرك منها الا صورها الجبْليّة في السطح دون الدقائق في الاعماق) .

ثم يهتف بإيمان العالِم الذي يدرك ما بين الايمان بوجود الله والعلم من تعاون : (ايّ ايمان عميق بالحكمة التي بني عليها هذا الكون كان ايمان كپلر ونيوتن ؟ وايّ شوق لهّاب كان شوقهما لأنْ يريا اضأل شعاع من نور العقل المتجلي في هذا الكون ؟.... انني لا استطيع ان اتصور عالماً حقاً لا يدرك ان المبادىء الصحيحة لعالم الوجود مبنية على حكمة تجعلها مفهومة عند العقل . ان العلم بلا ايمان ليمشي مشية الاعرج ، وان الايمان بلا علم ليتلمّس تلمّس الأعمى.)

حيران — هذا عظيم يا مولاي .

الشيخ — والآن دعنا يا حيران نرجع الى الفندق والى النار التي جعلها صاحبه في مطابخه وغرفه .

هذه النار التي اشار اليهـــا القرآن في بعض الآيات ، ومنّ علينا بها ليذكّرنا بوجود القصد والحكمة في خلقها ، قــل لي ، يا حيران ، ما هو حظ المصادفة في إعداد عُدّتها ، وتهيىء عناصرها ، وتوفير مادتها ، وتيسيرها وجعلها كامنة ، وتسليط الانسان على توْريتها ، عند الحاجـــة ، بمقتضى نواميس محددة وخواص معينة ؟

يقول القرآن :

— (أفَرَأيْتُمُ النّارَ التّي تُورُونَ . أأَنْتُمْ أنْشأْتُمْ شَجَرَتَهَا أمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرةً ومَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ .)

— (الّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإذَا أنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ .) .

اما العلم فيقول ان النار هي عبارة عن ظاهرة لتزايد الحرارة الناتج من احتراق بعض الاجسام . وان (الاحتراق Combustion) بمعناه العام ، هو عبارة عن ظواهر كيماوية تحصل عند اتحاد جسم من الاجسام مع الاوكسجين . ولكن الاحتراق الذي يولد الحرارة انما يحصل من اتحاد (الاوكسجين مع الكربون) . وهذا الكربون موجود في الطبيعة في اجسام مختلفة من الجمادات والاحياء ، ولكن اعظم وجوده وايْسَرَه في النباتات ؛ فانسجة النبات ، كما تعلم ، كلها من الكربون ، بل يكاد يكون الكربون العنصر الوحيد في تركيب جسم النبات وغذائه وثماره . فهل ادركت الآن ، يا حيران ، ما تنطوي عليه هذه الآيات ، وما اعظمها واوضحها (تَذْكِرةً) في بيان القدرة والحكمة : فالنار من اعظم الضروريات لحياة الانسان ، في دفئه وطعامه وصناعته . ولو وُجدتْ مكونةً كالماء والهواء لاهلكتْ الحياة ، او كانت خطراً دائماً عليها . فانظر كيف اعدّ الخالق لها نواميسها ، وعناصرها ، وجعلها (كامنة) في الشجر الاخضر كموناً بالقوة ، وسلّطنا على توريتها ، عند الحاجة ، وبقدر اللزوم ، وجعلها لنا متاعاً وتذكرة نتذكر بها (حينما نستخرجها من مكنها في الشجر الاخضر الطريّ المائيّ الذي لا نتوقع كمون النار فيه) ، تلك القدرةَ العظيمة والحكمة الباهرة التي انشأت لنا شجرة النار . فان هذا التذكير مما يثير عجب البدوي الساذج ، ويدله على قدرة الخالق ، كما يثير عجب العالِم ، فيدرك ما وراءه من اسرار القدرة والحكمة والنظام والقصد والتصميم . فهل كانت هذه النار ، يا حيران ، هذه النار (غير المتكونة بالفعل ، ليقال انها تكونت بالمصادفة العمياء ، بل مُعَدّة ومهيّأة للتكوين بالقوّة ، ومتوقفة على عمل يُنتجها ويخرجها عن كمونها، عند الحاجة ، وفق نواميس دقيقة) ، هل كانت هذه النار التي منّ الله علينا بها ليذكرنا بوجوده ، أثراً من آثار المصادفة العمياء ، يا حيران ؟

حيران — سبحان الله العظيم .

الشيخ — وهذه النباتات ، يا حيران ، التي اتى على ذكرها القرآن في

آيات كثيرة ، وكرر ذكر (اختلافها في الالوان والثمرات) ما هو حظ المصادفة في تكوينها ، بانواعهـا واشكالها وطعومها وروائحها وخواصها ومنافعها ، وهي تَنبتُ في تراب واحد ، وتُسقى بماء واحد ؟

يقول القرآن :

– (وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .)

– (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ...)

– (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .)

– (وهو الذي انزل من السماء ماءً لكمْ منه شرابٌ ومنه شجرٌ فيه تُسيمون يُنبتُ لكم بـه الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومن كل الثمرات انّ في ذلك لآية لقوم يتفكرون .)

– (والارضَ مددْناها والقينا فيها رواسيَ وانبتْنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرةً وذكرى لكل عبدٍ منيب . ونزّلنا من السماء ماءً مباركاً فانبتنا به جنات وحَبَّ الحصيد . والنخلَ باسقاتٍ لها طَلْعٌ نضيد . رزقاً للعباد ...)

– (وانزلْنا من السماء ماءً بقَدَر فاسكنّاه في الارض وإنّا على ذهابٍ به لقادرون . فانشأنا لكم به جناتٍ من نخيل واعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون . وشجرةً تخرج من طُور سيناءَ

تنبُتُ بالدّهْن وصِبْغٍ للآكلين .)

– (فلينظر الانسانُ الى طعامِه . إنّا صَبَبْنا الماء صَبّاً . ثم شقَقْنا الارضَ شقّاً . فأنبتْنا فيها حَبّاً . وعِنَباً وقَضْباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائقَ غُلْباً . وفاكهةً وأبّاً . متاعاً لكم ولأنعامكم .)

فانظر كيف يسوق القرآن الحجة البالغة على وجود الله وقدرته بمختلف الآيات الدالة على ان هذا التكوين أثر من آثار القصد والارادة والحكمة ، لا من أثر المصادفة العمياء .

ان العلم نفسه يقف مدهوشاً امام هذه القدرة التي جعلت الارض الواحدة تنبت انواعاً مختلفاً من النبات ، فيقول العلماء ان العناصر التي تتألف منها كل النباتات معلومة ، وكلها تمتص غذاءها من الارض من تراب واحد ، وتسقى بماء واحد ، وتتنفس من هواء واحد ، وتصنع غذاءها وثمارها من كربون واحد ، فالاقرب الى المصادفة ، ان تنبت كلّها نوعاً واحداً . فما هو السر الذي يجعلها تختلف بعضها عن بعض في الثمرات والأكُل ، كما قال القرآن ، حتّى لو زرعنا في مساحة لا تزيد على ذراع مربع من الارض ، الحلوَ والحامض والمرّ والسام ، وسقيناها بماء واحد ، نجدُ ان كل صنف يُخرج ثمارَه المختلفة المتميزة من دون اقل اختلاط او امتزاج ...؟

لقد عرف العلم اليوم ، ان الله جلت قدرته جعل في بذور النبات ، كما في بيوض الحيوانات ، عناصر التخطيط النوويّ للخلية ، حسب نوع النبات ، وبهذا التخطيط يتبع سيره في تكوين الثمرات والاكُل على اختلاف الوانها وثمراتها ، فهل كان هذا التخطيط النووي العجيب أثراً من آثار المصادفة يا حيران ؟

ثم انظر كيف اختار القرآن من انواع النبات التي تبلغ الملايين ، الحب والزيتون والنخيل والاعناب والرمان ، خصّها بالذكر من بين كل الثمرات التي تنفع الناس . ليشير الى وجود القصد و (العناية) في الخلق : فانت تعلم ان الاغذية التي نحتاج اليها تتألف ، من المواد النشوية السكرية

الكربونية ، والمواد الدهنية ، اما البروتينية فسيأتيك بيان القرآن لمنابعها عند ذكر الانعام . واما الثلاثة الاولى ، فالنشوية منها نستخرجها من الحبوب على اختلافها ، والسكرية الكربونية نستخرجها من الاعناب والنخيل والرمان ، واما الدهنية فنستخرجها من الزيت ... فتأمل يا حيران في اسرار الخطاب : انه خاطب العرب ، اذ خاطبهم ، باشياء يعرفونها ، ووجه المنّ بها ظاهر لهم ، وخاطب من ورائهم اقواماً علم الله انهم سوف يأتون ، بعد اكثر من الف سنة ، ليفهموا من ذكر هـذه الانواع ، ما ينطوي تحتها من عناصر التغذية الاولية الضرورية للانسان ، فضلاً عن الحيوان الذي خصّه بذكر الاعشاب .

حيران — ارى القرآن يكثر من ذكر الزيتون ، ويصف شجرته بانها مباركة ، وقد ادخلها في ضرب المثل عن نور الله .

الشيخ — الزيتون شجرة مباركة ومقدسة عند جميع الامم ، التي عمرت حوض البحر المتوسط من قديم الزمان ، وكانت عندهم رمز (الحكمة) و(الخصب) و (المجد) ، وهي اكثر ما تنبت في هذه البقعة المتوسطة التي هي ، كما وصفها الله (لا شرقية ولا غربية) وفي ما جاورها من الارض المقدسة ، مهدِ المدنيات ومهدِ الديانات السماوية كلها ...

وكيف لا تكون مباركة وقد باركها الله ، حين جعلها ، في عالم النبات ، من اعجب آيات خلقه ، الدالة على قدرته ، وحكمته ، وعنايته ، بما اكمنَ لنا فيها من غذاء ودفء ونار ، ونور ، ما كنا نرجو ولا نتوقّع ، ولا يخطر ببالنا ، ان يكون كامناً كله في هـذه الشجرة ذات الورق الدائم الخضرة ، التي نستخرج منها الدهن غذاءً اصيلاً لابداننا ، وصِبغاً لطعامنا ... ودفئاً لاجوافنا ، ونستخرج النار ، والنور ، من زيتها هذا ، الذي يكاد يضيءُ ولو لم تمسَسْه نار ... (نورٌ على نور يَهدي اللهُ لنوره مَنْ يشاء) يا حيران ...

حيران — نور على نور .. يهدي الله لنوره من يشاء ...

الشيخ — وهذه الحيوانات ، يا حيران ، من الدواب والطير ، التي ذكرها

القرآن في آيات كثيرة ، واشار الى اختلافها وقد خلقت من اصل واحد، هو الماء والتراب ، ما هو حظ المصادفة في خلقها وتكوينها ، واختلاف انواعهـــا واشكالها ، واقدارها واعضائها وقواها ، والوانها واصواتها ، ومنافعها ومضارها ؟

يقول القرآن :

– (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم مَنْ يمشي على بطنه ومنهم مَن يمشي على رجلَيْن ومنهم مَن يمشي على اربَع يخلق الله مـــا يشاء ان الله على كل شيء قدير .)

– (أفلا ينظرون الى الإبل كيف خُلِقَتْ .)

– (وما مِنْ دابة في الارض ولا طائرٍ يطير بجناحيْه الّا أُمَمٌ امثالُكم .)

– (ان الذين تَدْعون مِن دون الله لن يَخلُقوا ذباباً ولو اجتمعوا له .)

– (ألم تر انّ اللهَ انزل من السماء ماءً فاخرجْنا بــــه ثمراتٍ مختلفاً الوانُها ومن الجِبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ الوانُها وغرابيبُ سودٌ . ومِنَ الناس والدوابّ والانعام مختلفٌ الوانُه كذلك انما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِه العُلَماء .)

ويقول العلم ان العناصر التي تتألف منها اجساد هذه الحيوانات معلومة ، وان كل حيوان نشأ ، في اصله ، من تراب هذه الارض ومائها . ثم تنوع وترقى على اساس قوانين النشوء والارتقاء التي سبق ذكرها . وقد يكون الامر كذلك ، فان الخلق المباشر ليس ادل على الله من الخلق بالنشوء والارتقاء ، كما قال الجسر ؛ ولكن هذه النواميس التي تسير عليها الحياة في نشوء الاحياء وارتقائها ، وتباينها وتماثلهـــا ، وتوارثها ، وتنوعها ، هي قوانين ، ومعنى انها قوانين انها أثر من آثار التصميم والارادة والحكـــمة ، فهل يعقل ان تكون أثراً من آثار المصادفة ؟

وانت تعلم انه ما من حيوان الا ويتكوّن من بيضة من الانثى ولقاح من الذّكر ، وقد كشف العلم ان لكل نوع من الحيوانات مخطّطات اصيلة خلقها الله في البيوض وفي الحيوان المنوي . وبهذه المخططات العجيبة يتميز

كل جنس عن الآخر بصفاته وخواصه ، مع ان كل الحيوانات قد خلقت من الماء كما يقول القرآن . فهل يكون هذا التنظيم والتخصيص والتمييز أثراً من آثار المصادفة العمياء يا حيران ؟

واي مصادفة هذه التي كونتْ البرغوث والفيل ، والبقّة وفرس البحر ، والضفدع والحوت ، والعَلَقة والتمساح ، والغزال والكركدنّ ، والحمامة والنعامة ، والفراشة والعقاب ، والجرادة والطاووس ، والاسد والحَمَل ، والنملة والجمَل ، والعقربَ بسُمّها الناقع ، والنحلة بعسلها النافع ياحيران ..!

حيران — اعوذ بالله من الضلال . اي مصادفـــة ...؟ والله اني طالما فكّرت ، في صِغَري ، بِهَذِهِ النّحل كيف تصنع لنا العسل الذي كنت احبه ؟ والساءل ، وانا العب في الحقل ، لماذا لا يصنع الفَراش مثل هذا العسل الذي تصنعه النحل ؟ اذاً لكان جَنْيه اهْون علينا واقل خطراً ...

الشيخ — ومن اين للفَراش ان يصنع العسل . ان القضية ليست قضية مصّ السكّر من كؤوس الزهر ، ليتساوى ، في صنع العسل النحــلُ والفَراشُ . ولكنها غرائز عجيبة خص الله بها كل حيوان بما اراد له ، وجهزه ، بعد ذلك ، بما يصلح ، في جسده ، لبلوغ الغرض الذي وجّهه اليه .

والى هذه الغرائز اشار القرآن في ذكر النحل خاصة ، لانها اوضح في الدلالة على خلق الله وهدْيه ووحْيه والهامه ، والصقُ بهذا الانسان ، المبْطان ، المترّف ، الشّره الى الطيّبات ؛ ليتذكّر ، وهو المقصود بالهداية ، ويتفكّر ، في هذا الخلق العجيب الذي يستحيل تكوينه ، بهذه الصورة ، دون سواه من انواع الذباب ، من طريق المصادفة العمياء ...

— (وأوْحَى ربُّكَ إلى النَّحْلِ أنِ اتَّخِذي مِنَ الجِبالِ بُيُوتاً ومِنَ الشَّجَرِ ومِمّا يَعْرِشُونَ . ثمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ ألوانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنّاسِ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون)

حيران — سبحان الله العظيم .

الشيخ – أليس عظيماً مَطْعَم هذا (الفندق) الكبير ، يا حيران .

حيران – لا اله الا الله .

الشيخ – تأمل يا حيران بهذه الغرائز التي في النحل وغيرها من الحيوانات الدُّنيا ، وقل ما هو حظ المصادفة في خلقها ؟

لقد قال بعض العلماء عن الغرائز انها ضرب من التعقل يتصاعد في سلم التطور . وقد يكون لبعض الحيوانات عقل بدائي يسير في سلم الترقي كما قالوا ، ولكننا نشاهد من الحيوانات الصغيرة ، التي يُفترض ان تكون ادنى مرتبة في سلّم التطور ، اعمالاً يعجز عنها الكبير الأرقى ، فينعكس معنا الدليل ، وينقلب سُلّم التطور العقلي من الاعلى الى الادنى . وهذه الحيوانات الصغيرة نفسها غير متساوية ولا متقاربة في تلك التصرفات الغريزية المعقدة ، اذْ منها ما لا يحسن عملاً سوى ان يبحث عن طعامه ، ومنها ما يدهش العقول باعماله كالنمل والنحل والعناكب والطيور . وبهذا الشذوذ والاختلاف يختل دليل التطور ، وتصبح الغرائز على غير قاعدة ، فيضطر العقل السليم الى التسليم بانها أثر لارادة حكيمة شاءت ان تُميّز بها بعض الحيوانات الضعيفة ، للدلالة على وجود الله. وقدرته وتصرُّفه في الخلق بمشيئته .

هذه النحل التي اشار اليها القرآن ، انظر يا حيران كيف تصنع لنا العسل ، وكيف تبني بيوتها ، وكيف تقسم البيت الى غرف في نظام هندسي عجيب ، منها الصغيرة للعمال ، ومنها الكبيرة لليعاسب ، ومنها غرف للملكات الحوامل . وانظر كيف يقتسمن الاعمال كما يتقاسمن المساكن ، فمنها ما يقوم بجَنْي السكر من كؤوس الازهار ، ومنها ما يقوم باعداد الغذاء للاطفال ، فيمضغ لها العسل ليسهل هضمه عليها ؛ فاذا بلغ الاطفال الحدّ الذي به تستغني عن هذه المساعدة ، كفّتْ العاملات الطابخات عن المضغ . ولكن هذا الدلال يبقى للمرشّحات للعرش .. ويستمر هذا التعاون الجماعي ، من دون ان يختل او يتبدل ، على كرّ الايام والسنين ، بدقة لا يتيسر لنا ان نراها ، في احسن مؤسسة اجتماعية يديرها الانسان العاقل .

وهذا النمل الذي نعرف عنه الشيء العجيب في تعاونه على جمع قوته ، وتكوين مساكنه وبيوته ، وتقاسمه الاعمـال والمصالح ، وصبره ، وحيلته في نقل الطعام ، وخزنه ، ونشره وتجفيفه ، وخرقه للحَبّ حتى لا ينبت في الرطوبة ؛ باي عقل ، بل باية غريزة يقوم بهذه الاعمال التي يعجز عنها ارقى الحيوانات في سُلّم التطور كالفيل والفرس والاسد والقرد ؟

وهذه العنكبوت التي تبني بيوتها من لعابها بذلك التنسيق الهندسي العجيب ، لتجعلها شباكاً وحبائل لصيد طعامها ، ما هي درجتها في سلّم التطور حتى تَقْدر على هذا الاتقان المدهش والاحتيال الغريب ؟

وتلك الطيور التي يروى عنها انها تداوي نفسها ، اذا كُسرت ارجلها ، بالتجبير ، فتجمع على محل الكسر الطين والعشب وتقف في الشمس حتى يجفّا ، ويتكوّن منهما رباط قوي متين كالجَبِيرة ، تبقيها على المكسر حتى يلتحم وينجبر .

وهذا الحيوان المائي الذي يسمى (القندر) الذي يروى عنه ما يدهش العقول في طريقة بنائه لبيوته وسدوده التي يختزن فيها طعامه طيلة ايام الشتاء والثلج ، فيقطع الشجرة باسنانه ، ثم يجرّ الجزع في مجرى الماء الى المكان الذي اختاره ليبني فيه سدّه ومخزنه وبيته . وحين يعلو السدّ ، بما يتراكم على الجزع من الطين ، وبما يضعه القندر عليه من الورق واللحاء والالياف ، يشرع كل زوجين من القنادر في بناء مسكنهما فوق السد من عيدان واغصان وحجارة يحبكانها حبكاً متيناً ، ويجعلان منها غرفة مقبَّبة مطيّنة ذات بابين ، وارضٍ من خشب جاف . ثم يأتيـان بطعامهما من الاغصان فيجعلانه في الحوض تحت بيتهما مخزوناً ، فكلما ارادا ، اخرجا من (بيت المونة) طعاماً فاكلاه واويا الى بيتهما الجاف يسكنانه هادئين دافئين آمنين ...

بايّ عقل ، بل باية غريزة ، تقوم هذه الحيوانات بهذه الاعمال المدهشة التي يعجز عنها الفيل والحصان والاسد بل القرد ، وما هي علاقة التطور بين النمل والنحل والعنكبوت وكلب البحر ...؟

حيران – صدق الله العظيم . (وربُّكَ يَخلُقُ ما يشاءُ ويختَار) .

الشيخ – وهذه (الانعام) التي ذكرها القرآن في ايات عديدة وامتن علينا بمنافعها الكثيرة ، قل لي يا حيران ، ما هو حظ المصادفة في خلقها، وتكوينها ، وتذليلها ، وجعلها ، (على كونها من آكلات العشب) ، مخزناً للمواد البروتينية والدهنية ، وتمكيننا من ضروب الانتفاع بالبانها ولحومها واصوافها واشعارها واوبارها وجلودها وعظامها ، فضلاً عن استخدامها في حرث الارض ، والركوب ، وحمل الاثقال وجرها ؟

يقول القرآن :

– (أوَ لمْ يَرَوا انّا خلقْنَا لهم مما عملتْ ايدينا انعاماً فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها رَكوبُهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون) .

– (وإنَّ لكم في الانعام لعبرةً نسقيكم مما في بطونه من بين فَرْثٍ ودَمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين) .

– (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إقَامَتِكُمْ وَمِنْ أصْوافِهَا وأوْبَارِهَا وَأشْعَارِهَا أثَاثاً وَمَتَاعاً إلى حِينٍ .)

– (اللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا ومِنْهَا تَأكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُون .)

هذا بعض ما ذكره القرآن من المنافع الصريحة المفصلة ، والمنافع الخفية المجملة .

فماذا يقول العلم عن هذه الأنعام ؟

انه يقول كما يقول القرآن ان هذه الحيوانات اللبونة من (آكلات العشب) هي من النفع للانسان في المرتبة العظمى : فهي تعطيه الحليب ، واللحم ، والصوف ، والوبر ، والشعر ، خاصة ، فضلاً عما ينتفع بـه من جلودها وعظامها وقرونها . ويقول العلم : ان الانسان يحتاج لحفظ حياته الى اغذية

تتألف من المواد البروتينية ، والمواد الكربوهيدراتية ، والمواد الدهنيـة ، والاملاح المعدنية والفيتامينات . وان البروتينات منها الكاملة ومنها الناقصة . وان اعظم مصدر للبروتينات الكاملة هو (اللحم واللبن) . وان المواد الدهنية هي اغنى الاغذية في انتـاج الحرارة ، وان من اعظم مصادرها (السمن والزبدة واللبن واللحم) — اي الانعام — ، وامـا المواد المعدنية فاول مصدر يذكرونه لها هو (اللبن) ، وكذلك اهم انواع الفيتامينات موجودة في (اللحم واللبن) . ويقول العلم ان هذه الانعام هي وحدها ، من بين جميع الحيوانات اللبونة تنتج اللبن باستمرار ، وكثرة عظيمة ، ولو قُطـع عنها رضيعُها ، وهي وحدها التي تجمع بين هذه الخصائص ، وبين القدرة على الحرثْ والحمْل والجرّ .

فاية قدرة ، يا حيران ، هذه القدرة التي جمعت في الانعام بين ان تكون آكلة عشب ، ميسوراً غذاؤها ، يسيراً تذليلها ، وبين ان تكون مخزناً دائماً ، ومصنعاً دائباً للحليب والسمْن واللحم وكلهـا من المواد البروتينية ؛ وقد كان المتوقّع ، عقلاً ، ان تنتج هـذه الانعام ، التي كلُّ غذائها العشب ، (وهو عبارة عن كربون) ، مادةّ كربوهيدراتية نشوية سكرية ، لا ان تنتج مادة كلها بروتينات ، من لحم ولبن وسمن ودهن وشحم ؟ فهل كان كل هذا أثراً من آثار المصادفة يا حيران ؟

وايّة قدرة هذه القدرة التي جمعت ، كما اشار القرآن ، في هذه الانعام الى الضعف والذلة والانقياد ويسْر التغذي بأهون عشبة ، تلك القوةَ العظيمة الكافية لحرث الارض وجرّ الاثقال وحملها ، وجمعت فيها بين طعام الانسان ولباسه ودفئه ، ومسكنه واثاثه ، ومركبه وحرثه ، حتى لو ملّك الرجل منها بقرة واحدة نهضتْ بكل اعبائه ، وقضت كل حاجاته ، بدون ان تكلفه سوى ان يطلق سراحها لتأكل من رزق الله الذي يقول (وما مِنْ دابّة في الارض إلّا وعلى اللهِ رزقُها ...) . أكُلّ هذا من أثر المصادفة العمياء يا حيران ؟

حيران — اعوذ بالله من الضلال المبين . ولله انت يا مولاي ما احكمك

حين سميت هذه الأرض التي نسكنها (الفندق الكبير) . حقاً انها لفندق عظيم ، هيأ لنا فيه الخالق العظيم كل اسباب الراحـة من المأوى والملبس والدفء ، والنار والنور ، وكل الطيبات من الاطعمة والاشربة والفواكه ، حتى الحلوى .

الشيخ – لقد نسيت ان تذكر ما فيه من صُوَر الجمال يا حيران .

حيران – ما كنتُ ناسياً لهذا الجمال الرائع يا مولاي ولا غافلاً عنه .

الشيخ – مـا كنتَ ناسياً له ولا غافلاً عنه ، ولكن هل خطر على بالك ، وانت تقف في هذا الفندق مبتهجاً مشدوهاً امام سحر الالوان والظلال ، في ياقوت الشفق ، وذهب الاصيل ، وزمرّد الحقـل ، ولجَين الماء ، واوراق الزهر ، واجنحة الفَراش ، وريش الطير ، واذناب الطواويس ، ان تسأل عن حقيقة هذا الجمال ، الذي تسحرنا آياته وروائعه ، او تسأل عن حظ المصادفة في تكوين اشكاله وألوانه ، وخطوطه ومقاييسه وصوره ، وما ينطوي عليه هذا التكوين من احسان ، واتقان ، وتقويم ، واتزان ، وتناسب ، وتنسيق ، وتزيين ، وتزويق ؟

حيران – كلا يا مولاي .

الشيخ – ما هو هذا الجمال يا حيران ؟ وهل هو معنى نسبيٌّ اعتباريّ كونتْ صوَره عقولنا ، ام هو شيء له وجود ذاتي في الخارج ، تتذوقـه حواسنا وتدركه عقولنا كما تدرك غيره من صور الخلق ؟ وهل نبتهج نحن بصور الجمال لانها بذاتها تفرض علينا هذه البهجة ، التي اشار اليها القرآن ، ام نبتهج بها لأننا تعودنا بتأثير مصالحنـــا ورغباتنا وعواطفنا واذواقنا وشهواتنا ان نبتهج بها فصرنا نسميها جميلة ؟

حيران – لم افهم كيف يكون للجمال وجود ذاتي في الخارج .

الشيخ – ليس المراد ان هنالك شيئاً مستقلاً في الخارج يسمى جمالاً ، كما ان هنالك شيئاً يسمى هواء او ماء ، ولكننا نتسائل هـــل هنالك اشكال ، ومقاييس ، وألوان مقدرة ، بنسب معينة ، كلما اجتمعت وتلاءمت تكوّن الجمال لذاته ، ام هذا الجمال شيء اعتباريّ خلقتْـه عقولنا وحدها

يوحي المصالح والرغبات والعواطف والشهوات التي ترينا مثلاً ان الاحمر جميل لاننا تعودنا ان نراه في الوجه الاحمر رمزاً للصحة ، وانّ الاخضر الزمرديّ جميل لاننا تعودنا ان نراه في الحقل النضير مبشراً بالغيث الكريم والخير العميم .

امْ ان هذا الجمال مزيج من حقيقة موجودة في الخارج وخيالٍ من نسيج الذكريات والعواطف تضْفيه عقولنا على تلك الحقيقة ؟ -

أالحقّ يا حيران ان هذا الاخير هو الواقع ، فهنالك في الخارج جمال صحيح نحسه احساساً مادياً وندركه ادراكاً عقلياً ، ولكننا اذا اضفينا عليه ذلك الخيال من عواطفنا وذكرياتنا تزايد احساسنا به ، وفي هذا يظهر سر التفاوت في تذوّق الجمال بين الطفل والرجل .

نعم هنالك حالات يطغَى فيها خيال العواطف والاذواق على حقيقة الجمال الاصيل طغياناً يكاد يخفيها او يعطل ادراكنا لمقاييسها الصحيحة ، فيصبح احساسنا بالجمال مشوباً ؛ ولكنه يبقى صافياً في الصور الاخرى التي لا نكون فيها تحت حكم الذوق والعادة ، فنتفق مع الهمج ، بل مع الطفل الرضيع ، بل مع الحيوان الاعجم ، احياناً ، على ادراك سحر الالوان في جمال الزهور والفراش والطيور .

فاذاً هنالك في الخارج جمال واقعٌ حقٌ اصيل ، ونحن في ادراك هذا الجمال الاصيل امام عملية احساس نتعقله ، كما نحس ونتعقل كل صور الوجود المادية الاخرى .

فما هو هذا الجمال الاصيل ، وما هي عناصره ؟

انه صور من التناسق ، والتناظر ، والتناغم ، في الاشكال والالوان والاصوات ، تتكون من نسب مقدَّرة خاضعة لناموس ثابت ، ليس ادلُّ عليه من الايقاع الموسيقي ، الذي يتألف من اصوات تكون في اصلها مختلفة متنافرة ، ثم نمزج نحن بينها ، على نِسَب مقدرة من الايقاع والتناغم ، تبعاً لقانون ثابت معلوم ، فنخلق منها انغاماً شجية ساحرة . وهكذا الالوان والاشكال تخضع ، في تكوين صور الجمال التي نراها في

الطبيعة ، لنسب مقدّرة تبعاً لقانون ثابت احكمته القدرة لتكوين الجميل ؛ فليس لنا ، اذن ، ان نعتبر الجمال الذي نراه في الكون وهماً كونته عقولنا ، بل هو حقيقة موجودة في الخارج نحسها كما نحس الحجم والشكل والوزن والطعم والرائحة التي يتكون كل منها من نسب مقدرة ايضاً في العناصر والذرّات . واذا كنا نضفي على صور هـذا الجمال الاصيل ثوباً من نسيج عواطفنا وذكرياتنا ، فتلك اضافة تزيد في ابتهاجنا ، كما يزداد الطفل ابتهاجاً بالثوب الاحمر اذا قيل له هذا ثوب العيد ، فانه في غير العيد يراه جميلاً ، ولكنه بذكريات العيد يراه اجمل وابهج .

فهل يعقل ، يا حيران ، ان يكون هذا القانون الثابت الباهر الذي ينتج هـذا الجمال الساحر ، بهذا الاحسان والاتقان ، والتقويم والاتزان ، والتناسب والتنسيق ، والتزيين والتزويق ، أثراً من آثار المصادفة العمياء ؟

حيران — اعوذ بالله من الضلال المبين .

الشيخ — وهل يُعقل ان يكون هذا الفندق العظيم ، بكل ما رأيت فيه مَن نظام ، واحكام ، وعناية ، واختراع ، وكمال ، وجمال ، قد تكوّن هكذا بالمصادفة العمياء يا حيران ؟

حيران — حقاً انه لفندق عظيم !

الشيخ — واعظم من ذلك ان صاحبه لا يطلب منا عليه اجراً سوى ان نقول له شكراً ...

حيران — ما اهونه اجراً وما ارضاه .

الشيخ — وما اكثرَ ما ننساه ... ولعلّنا لا ننساه يا حيران ، فانّا اليه راجعون ...

وفي أنفسهم

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ
حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ
(سورة فصّلت)

فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ

١

الشيخ – وهذا النظام العجيب (نظام الزوجين) الشامل المطّرد في كل حيّ ، الذي ذكره القرآن في آيات كثيرة ليـــدل على القصد والارادة والحكمة في الخلق ، مـــا هو حظ المصادفة في خلقه وتكوينه وتنظيمه واطّراده في الحيوان والنبات يا حيران ؟

يقول القرآن :

– (والله خَلَقَ الزوجين الذَّكَرَ والأُنثَى)

– (سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تُنبِتُ الأرضُ ومِنْ انفسهم)

– (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم ازواجاً ...)

– (وهو الذي مدَّ الارض وجعل فيهـــا رواسيَ وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين)

– (ومن كل شيء خلقْنا زوجين لعلكم تذكّرون)

هذا بعض ما يقوله القرآن عن نظام الزوجية الذي تشير الآيات الى شمولهِ واطّراده في كل شيء من الأحياء ، نباتاً كان او حيواناً او انساناً ... فماذا يقول العلم عن هذا النظام العجيب . ؟

يقول العلماء ، والعجب يأخذ منهم مأخذه ، ان نظام الزوجية مطّرد وشامل لجميع الأحياء من الحيوانات والنباتات كلها بطريقة واحدة ، ونسق واحد ، واعضاء تكاد تكون متماثلة ، ولقاح يكاد يكون متماثلاً ؛ ويتساءلون كيف اتفق هذا الاطّراد والشمول والتماثل في كل حي ؟

ان هذا الاطّراد العجيب كُشِفَ لي فيه عن بصيرتي ، كما سبق القول يا حيران ، بفضل مـــا قرأته للفيلسوف المعاصر (هنري برغْسون) . فقد كنت ، قبل ذلك ، لا ادرك ابداً سر الحكمة في تكرار ذكْر الزوجين الذكر

والانثى . وكنت اظن ان هذا التكرار انما يريد به الخالق سبحانه مجرّد المنّ علينا ، فــلا افهم وجه المنّة في خلق الزوجين وهما الوسيلة لبقاء الحياة التي شاء الله بقاءها واستمرارها على الأرض بالتناسل . ولكني بعد ان قرأت برغْسون ادركت ان تكرار ذكر الزوجين لا يراد به المنّة ، وانما يراد به شيء اعظم ، وهو التنبيه الى ما في اطراد الزوجية في النبات والحيوان من دليل عظيم على القصد ، ونفيٍ للمصادفة .

ان هذا الاطراد استلفت ، كما حدثتك قبل اليوم ، نظر برغْسون ، فبعد ان تكلم عن حاسة الابصار واستبعد ان يكون اطّرادها في الانسان وفي جميع الحيوانات ، على نسق واحد وتركيب متماثل ، أثراً من آثار المصادفة قال : واذا سلّمنا بان هذه المصادفة جائزة الحدوث في تكوين حاسة ابصار واحدة في جميع الحيوانات ، وقلنا ان الحيوانات ترجع الى نوع واحد، فماذا نقول في النبات وهو نوع آخر يسير في طريق مختلفة كل الاختلاف عن طريق الحيوان اذا نحن رأيناهما يسيران على طريقة واحدة في عمليــة التناسل ؟ فكيف اتفق ان اخترع الحيوان الذكورة والأنوثة وَوُفّق النبات الى الطريقة نفسها وبالمصادفة نفسها ؟

حيران – (سبحان الذي خلق الازواج كلهـا مما تُنبتُ الأرض ومن انفسهم) سبحانه .

الشيخ – وهذا التكوين الجنينيّ للانسان الذي ذكره القرآن في اكثر من عشر آيات بينات ، ما هو ، يا حيران ، حظه من المصادفة في تصويره وخلْقته ، من بيضته ونطفته ، وعَلَقته ومضغته ، وعظامه وكسوته، وقراره ومِكنته ، الى قدره ومدته ، في زوايا ظلمته ...؟

يقول القرآن :

– (يا ايها الناس ان كنتم في ريْب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من عَلَقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة لنبيّن لكم ونُقِرّ في الارحام ما نشاء الى اجل مسمىً ثم نخرجكم طفلاً ...)

– (انّا خلقنا الانسان من نطفة امْشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً)

– (يا ايها الانسان ما غرّك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في اي صورة مّا شاء ركّبك)
– (او لم ير الانسانُ انّا خلقناه من نُطفة ...)
– (قُتِلَ الانسانُ ما اكفره . من اي شيء خَلَقَه . من نطفة خَلَقَهُ فقدّره .)
– (قال له صاحبه وهو يحاوره اكَفرتَ بالذي خلقكَ من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً)
– (ألم نخلقكم من ماء مَهين . فجعلناه في قرار مكين . الى قدر معلوم . فَقَدَرْنا فَنِعْمَ القادرون)
– (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ...)
– (الذي احسن كل شيء خَلَقَه وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سُلالة من ماء مهين . ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً مّا تشكرون)
– (هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء ...)
– (يخلقكم في بطون امهاتكم خلقاً بعد خلقٍ في ظلماتٍ ثلاث ...)

هذا بعض ما يقوله القرآن يا جبران فما الذي يقوله العلم ؟
بيضة مثل بيضة الدجاجة ولكنها اصغر منها بكثير . قطرها يتراوح بين جزء وجزئين من ٢٤٠ جزء من القيراط ، ايْ جزء او جزئين من عشرة اجزاء من المليمتر . ووزنها جزء من مليون جزء من الغرام . وفيها (محّ Cytoplasme) وفي المح (الحويصلة الجرثومية noyau) التي يبلغ قطرها جزء من (٧٠٠) جزء من القيراط ... وفيها تكمُن (النقطة الجرثومية nucléole) التي يبلغ قطرها جزء من ثلاثة آلاف جزء من القيراط ...
هذه البيضة تتكوّن في ظلمة المبيض ضمن حويصلة تسبح في سائلها

الألبوميني . فاذا نـمتْ هذه الحويصلة وازداد السائل الذي في باطنها يتمدّد غشاؤها ويرقّ ثم ينفجر وتخرج البيضة منها ومن المبيض كله . فالى اين تذهب هذه البيضة الصغيرة الغريرة العذراء وحدَها في هذا الظلام ... ؟

انها على موعد مع العشير الذي تحلم به من غير ان تعرفه ولا يعرفها ، فهي تسعى اليه وهو يسعى اليها ، ويتلاقيان في الطريق ، ثم يسيران متعانقين متزاوجين الى بيت الزوجية الأمين المهيّأ لهما ليصنعا فيه من نفسيهما بشراً سويّا ...

ولكن هـذا الطريق (الملتقى) عبارة عن بوق مظلم مظلم ، ضيق ضيق ، رفيع رفيع ، قطره قطر شعرة ، يختبيء وراء الرحم ويمتد منه الى المبيض . فمن اين وكيف يأتي اليه الحبيب للقاء الحبيبة ... ؟

ان هذا الحيوان المنوي الذّكر لخبير ذكي شاطر ، وجريء وقح ماكر يا حيران ... انه عرف ان البيضة تنتظره في فم البوق ، وانْ لا طريق اليها الا من الرحم فدخـل اليه وخرج منه لا يلوي على شيء حتى وصل الى البوق فلاقاها ... ورأى نفسه صغيراً صغيراً بالنسبة الى البويضة الضخمة ، لأن طوله عبارة عن ٦٠ جزء من الف جزء من المليمتر ، فعلم انه ان لم يكن له رأس مكوّز لم يستطع خرق جدار البيضة ... وعلم انه ان اتاها سابحاً سبحاً رهواً بطيئاً ، مثل سبحها ، فاته الوصولُ اليها في الوقت المناسب ... وعلم ان السبح يكون اسرع ان كان في حركة لولبية ... وعلم ان السبح السريع لا يكون الا بتلبُّط في الماء ... وعلم ان جوهره في رأسه لا في ذنبه ...: علم الحيوان المنويُّ الصغير كل هذا فجعل لنفسه رأساً مكوّزاً ، وجعل لرأسه عنقاً لولبياً ، وجعل لعنقه ذنباً طويلاً يضرب به الماء الذي يسبح فيه ويتلبّط ، وجعل هـذا الذيل معقوداً بانشوطة لينفك عنه اذا دخل الى البيضة ...

وانّ هذه البيضة الانثى لذكية وفية عفيفة حَصَان يا حيران ... انها عرفت انها وحيدة ، وان الذكور كُثر كُثر يربو عددهم على (٢٠٠) مليون تشتد سعياً اليها ، وتدور حولها تغازلها من وراء الجدار تستفتح . فاذا اتاها

القوي السابق رضيت بــه زوجاً وفتحت له الى قلبها باباً خاصاً يسمى (باب الجاذبية Cône d'attraction) فاذا دخـل اغلقت بابها وقطعت جذبها واستغلقت واحصَنَت وصدّت الملايين الأخرى من الخطّاب وردتهم خائبين ليموتوا حزناً واسفاً ...

وانّ هذا الرّحم (البيتَ الزوجي) لمضيافٌ رحوم عطوف يا حيران ... انه يستعد ويتهيأ كل شهر لاستقبال العروسين وايوائها واطعامها ، فتنتفخ خلايا غشائه المخاطي ، وتتسع الشعيرات الدموية فيه ، وتنشط الغـدد . فاذا تمّ التزاوج استقبل الزوجين على الرحب والسعة ، وان تعرقل الزواج ، لسبب من الاسباب ، تميّز غيظاً وتمزّق اسفاً وبكى على البيضة الميتـة دماً غزيراً ...

حيران – يا للعجب ثم يا للعجب . سبحان الخلاق العظيم .

الشيـخ – والذي يكون بعد ذلك اعجب واغرب يا حيران وادلّ على اعجاز القرآن واعون على فهم اسراره . فما يكاد يتم التزاوج والاختلاط حتى يبدأ العمل المشترك في بناء الانسان الجديـد . فيمشج الشريكان كلّ مـا عنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط النوَوي (الكروموزومات Chromosomes) وما فيها من الخِلَق المخلّقة (الجينات Gênes) التي خطّتها وخلّقتها وسوّتها يد القدَر باقلام الأرث المتحدّر عبْر الاجيال ، من الجــدود والآباء الى الابناء وابناء الابناء (سلالةٌ من طـين) ثم (سلالةٌ من ماء مهين) ، ومن هذا الاختلاط تتكوّن النطفة الامشاج التي اشار اليها احسن الخالقين .

حيران – ما هذه الكروموزومات والجينات ؟

الشيـخ – هي كما عرّفتها لك عناصر التخطيط والتخليق والتسوية التي يخلّق الله بها المضغة لتكون بشراً سوياً فرداً يتميز عن غيره من الناس بكل صفاته الجسدية والعقلية من شكل وقدّ ولون وذكورة وانوثة وجمال وقوة وذكاء واخلاق ، ترسُم كلّهـا للفرد الخطوطَ الاولى من حظه في الحياة . فقـد كان الناس في الماضي يعرفون ان الجنين يتكوّن من التلاقح

بين بيضة الانثى وماء الذكر ، وانه يرث من ابويه واجداده كثيراً من صفاتهم ، ولكنهم ما كانوا يعرفون ما هو الحيوان المنوي ، وما هي البيضة وما تركيبها وما خلاياهما ومـا انواعها ووظائفها ، وكيف يتم التلاقح وكيف يحصل التوارث ؛ ويحار المفسرون للقرآن في تفسير (المضغة المخلـّقة وغير المخلـّقة) . امـا اليوم فقد عرف العلماء اكثر اسرار هذا الخلق العجيب حين كشفوا عن الخلايا وعرفوا وظائف كل قسم منها ، ورأوا بعيونهم ما يحمل الحيوان المنوي في رأسه وما تحمل البيضة في نواتها من عناصر التخطيط التي ذكرتُها لك ؛ فادركوا الفرق بين خلايا المضغة المخلـّقة التي تُكوّن الجنين بذاته ، وبين غير المخلـّقة التي تتولى امر حفظه ووقايته وتغذيته ، فامتلأتْ قلوبهم بالخشية التي خصّ الله بهـا العلماءَ من عباده يا حيران ...

حيران — زدني ، بربك ، ايضاحاً . زدني .

الشيخ — وتسير هـذه البيضة الملقحة الامشاج سيراً رهواً بطيئاً في البوق فلا تنتهي منه الى الرحم الا بعد ثمانية ايام او عشرة تقوم خلالها بتقسيم نفسها تقسيماً بعد تقسيم ، لكي تهيّء كلّ قسم وتُعدّه للدور الذي سيقوم به في تكوين الجنين الجديد ، او في حفظه وحمايته ووقايته ، او في تغذيته .

وتصل البيضة النطفة الى بيت الزوجية المهيأ لها فتلتصق بجداره وتبدأ خلايا الاقسام عملـها العظيم بالتعاون مع بعضها او مع خلايا جدار الرحم ، فتجعل حول الجنين غلافاً فوق غلاف فوق غلاف . امـا الغلاف الاول الظاهر الذي يحيط بجميع الاغشية ويسمى (السّلى Chorion) فتتخـذ من جانبه اللاصق بجدار الرحم وسيلة للتغذية الاولية ثم لتكوين المشيمة العجيبة ، وتتخذ من جانبه الظاهر غير الملتصق بجدار الرحم وسيلة لوقاية الجنين وحفظه . اما الغلاف الثاني الباطن فتنسجه بعد ذلك تحت الكوريون ليحيط بالجنين احاطة كاملة من وراء غلاف مائي يحيط بالجنين احاطـة مباشرة ليقيه مع الغلافين الاولين كل صدمة او رجّة تأتي من الخارج...

فللّه ما اعقلها هذه الخلايا وما احرصها على حياة الجنين ...

وتبدأ ، في الوقت نفسه ، الخلايا الجرثومية (المخلّقة) التي تكوّن الجنين سيرَها في تطورها من نطفة الى علقة الى مضغة ، على الترتيب الذي ذكره القرآن . ومن هذه المضغة المخططة المخلقة بكروموزوماتها المتخالطة وجيناتها يبدأ تكوين الاعضاء والاحشاء ، كما بـــدأ تكوين اغشية الحفظ والوقاية والتغذية من الخلايا المحيّة غير المخلّقة . فيقوم قسم من الخـلايا الجرثومية بتكوين مبادىء القلب ، بينما يقوم قسم آخر منهـا بتكوين مبادىء المخ ومبادىء العمود الفقري ، الى جانب خلايا اخرى تقوم بتكوين مبادىء الاحشاء من الجهاز الهضمي والتنفسي والتناسلي ، الى جانب أُخرى تقوم بتكوين العظام ؛ كلٌّ في دائرة اختصاصه . فـــلا ينتهي الشهر الثاني الّا وتكاد المضغة تصبح انساناً كاملاً بجميع اعضائه واحشائه واعصابه . فللّه ما اعلمها هذه الخلايا بالخلق وما اقدرها عليه ، يا حيران ، حين تخلُق انساناً كاملاً ... وما اعجزها ، حين تصبح هي نفسها انساناً كاملاً ، عن انْ تخلُق ذبابة ...

حيران – سبحان الخلاق العظيم .

الشيـخ – والله ما اذكاها هذه الخلايا خلايا الكوريون وخلايا جدار الرحم وما احكمها وما ارحمها حين تشترك في صنع المشيمة للجنين العزيز ... انها تعلم ان الانسان الجديد سوف يحتاج ، اذا صار مضغة وتكونت أعضاؤه، الى طريقة من التغذية غير الطريقة الامتصاصية الارتشاحية الساذجـة التي تحصل بين خَمْل الكريون وبين جيوب الدم الرحمية ؛ لان حاجة الجنين الى الدم اذا كبُر ستكون اكبر ، وحاجة الدم الى التصفية اذا كثُر ستكون اكثر ، وعلمتْ ان دم الام لا يجوز ان يدخل بذاته الى الجنين ، وان دم الجنين حقّ عليه ان يتخلص من اقذاره وسمومه كما يتخلص كل حيوان ، فلا بد من احداث آلة كبرى تتولى هـــذا الترشيح والتوريد والتصدير بين دم الأم الوارد الطـَهر ودم الجنين الصادر القذر ؛ فاخترعتْ (المشيمةَ) العجيبةَ وبَنَتْها من خمل الكوريون واهدابه ومن جيوب الدم

الرحمية ، وجعلتها موصولة بسرّة الجنين بحبْل يحمـــل منها اليه عناصر الغذاء والاوكسجين التي تستخلصها المشيمة من دم الأم ، ثم يحمل الحبـل من الجنين الى المشيمة ، في وريد اخر ، مـا يتكوّن في جسم الجنين من سموم واقذار ، حتى اذا خرج الجنين من ظلماته الثلاث الى عـالم النور والهواء والثدي ، واصبح قادراً على ان يتنفس الهواء برئتيه ، ويمتص الغذا بشفتيه ، ويحرق ُقمامته في َسحْره ويلفظهـا من َنحْره ، ُقطعتْ المشيمة عن ربيبها المستغني عن حليبها ، وانصرم الحبلُ عن الولد ، وسُدّ باب السرة الى الأبد ...

حيران — سبحان الخلاق العظيم .

الشيخ — افكل هـذا الابداع والتنظيم والاختراع والتصميم التي اشار اليها القرآن في تكوين الانسان وخلقته ، من بيضته ونطفته ، وعلقتـه ومضغته ، وعظامه وكسوته ، ومشيمته وسرّته ، وقراره ومكنته ، الى قدَره ومدته ، في زوايا ظلمته ، اثرٌ من آثار المصادفة العمياء يا حيران .

حيران — سبحان الخلاق العظيم .

الشيخ — وهذا الحُبّ الذي تسحر الناس مباهجه ، وتكويهم لواعجه ، ما هو حظ المصادفة في خلقه يا حيران ... ؟

هذا الحب الذي ما ُقدّرتْ اقداره ، ولا ُفضحتْ اسراره ، ولا رنّت اوتاره ، ولا أُوقدتْ ناره ، الّا لغرض واحد عبّر عنه القرآن احلى تعبيرٍ والطفه ، واحكمه واشرقه ، واصحّه واصدقه ، وابسطه واعمقه ، حيث قال:

— (ومِنْ آياته انْ َخلقَ لكم من انفسكم ازواجاً لتَسْكُنوا اليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً ان في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون) .

هذا الحبُ الذي من ودّه ينشأ الود كله في كل الصدور ، ومن َسكَنِه تخيم السكينة كلا ً على كل النفوس ، ومن رحمته تفيض الرحمـة كلها على كل القلوب ...

هذا الحب الذي من خيوطه ينسج الزوجان (اوكار الصغار)... وهي اجمل واحلى واقدس صورة خلقها الله في ملكوته من السماوات والارض ... يدخل

اليها الرجل وحشاً فيصبح انساناً ... وتدخل اليها المرأة لُعْبة فتصبح الجَنّة تحت اقدامها ...

تلك الاوكار التي تخيّم عليها السكينة ، وتورق فيها الرحمة ، ويُزْهر بها الحنان ، وتثمر منها عبادة الله ، فيبدأ اول دعاء صادق نستمطر به رحمة الله على افلاذ اكبادنا الذين جعلهم الخلاق الحكيم بسرّ الحب اعزّ علينا من اكبادنا ...

(هو الذي خَلَقكم من نفْسٍ واحدة وجعل منها زوجها ليَسْكُن اليها فلمّا تغَشّيها حَملتْ حملاً خفيفاً فمرّتْ به فلمّا اثْقلَتْ دعوا اللهَ ربّهما لئن آتَيْتَنا صالحاً لنكوننّ من الشاكرين) .

هذا الحب الذي بسرّه صرنا نحب اطفالنا وازواجنا وآباءَنا وامهاتنا والاهلَ والاخوانَ والخلانَ والجيرانَ وكلّ اخٍ لنا في الانسانية ، بل الحيوانَ الاعجم الضعيف الذي نأسى عليه اذا رأيناه يفقد عشيره او صغيره ، حتى نكاد نبكي عليه من الرحمة ...

هذا الحب الذي من اجله خَلَق الله الجمال كله ... وفي خدمته صنع الانسان الجميلَ كله ... من الشجاعة الى الكرم الى الزهو والخيلاء الى الأناقة الى الظَرف الى الترف الى الحِداء والغناء الى الشعر والنحت والتصوير ... وهو يظن بهذا كله انه يتعبّد الحبّ والحبيب ، من غير ان يدري انه ، في اعماق نفسه ، انما يتعبّد الذي خلق فيه هذا السر العجيب ...

هذا الحب الذي يبدأه اللهُ فينا شهوة وينتهي بنا فيه الى عبادة ... قل لي يا حيران ما هو حظ المصادفة العمياء في خلق آياته ، وتوفير اسبابه وآلاته ، وسوقه الى اعظم اغراضه واقدس غاياته ... ؟

أكلّ هذا النظام العجيب والتصميم الغريب ، من خلق الزوجين ، الى خلق هذا التعاطف الغريزي التلقائي الساحر الطاغي العنيف ، الى خلق الانسال في اصلاب الرجال ... والبيوض والاجنة في بطون النساء ... اثر من آثار المصادفة العمياء ؟

في مساكن الجن

٢

الشيخ — وهذا (السمع) يا حيران ، الذي كرر القرآن ذكره مع (البصر) في آيات كثيرة حيث يقول :

— (هَلْ أتى على الانسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً .
انّا خلقناه من نُطفة امشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) .

— (وهو الذي انشأ لكم السمع والابصار والافئدة ، قليلاً مّا تشكرون) .

— (الذي أحسَنَ كلَّ شيء خَلَقَه وبدأ خَلْقَ الانسان من طين .
ثم جعل نسله من سُلالة من ماءٍ مَهين . ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة ، قليلاً مّا تشكرون) .

هذا السمع يا حيران ، ما هو حظ المصادفة في بناء مغارته العجيبة الغريبة بأبوابها وصماخاتها ، وكواها وغشاواتها ، وغضاريفها وعظيماتها ، وكهوفها ومتاهاتها ، ودهاليزها وطرقاتها ، واعصابها ورباطاتها ، وجوامدها ومائعاتها ، وسلالمها وقنواتها ، ولوالبها وقوقعاتها ، واكياسها وجراباتها ، واحجارها وحصواتها ... ؟

حيران — ما هي هذه المغارة العجيبة التي تكاد تشبه مغاور الجنيات في قيعان البحار او كهوف الشياطين في متاهات القفار .

الشيخ — انك لم تبعد يا حيران في خيالك وسأجاريك فيه .

حيران — كيف ؟

الشيخ — ساصفها لك باسان سكانها من الجن والشياطين ، فكثيراً ما يكون الخيال عوناً على الادراك والتعقّل ، فاسمعْ .

قال شيطان من شياطين الشعر : سألت (جنّياً) من عشيرة (الأنغام) اين مساكنكم ؟ قال اننا نطير ونرقص بين السماء والارض على متن الرياح

والامواج ، واذا اردنا ان نستريح أوينْنا الى آذان هذا (الانسان) المضياف الطروب الذي يتلقانا تارة بالسرور وتارة بالدموع ...

قلت : صف لي هذه المساكن كيف حالها ؟ قال اني اعجز عن وصفها فهي تكاد تشبه ، بدهاليزها وقاعاتها وسراديبها واقنيتها ومنافذها وكُواها ، مسكناً من مساكن جنّيات البحر في اعمق اغواره ... وليس الخبر كالعيان .

قلت : هل لي ان ازورك مرة لأراها ؟ قال حبّاً وكرامة ، ولكن تعال إليّ بعد نصف الليل ، حين يستغرق صاحبي في نومه فلا يشعر بك .

قال شيطان الشعر : وجئته في الموعد فوقفت من (أُذُن) الرجل امام (بوّابة) عظيمة تحيط بمدخل ضيق ، لم ار في البوابات مثيلاً لها في اقواسها وحنيّاتها ، واطنافها وطيّاتها ، فقلت هذه أُولى العجائب ... واخذتُ اتلفت لأرى صاحبي ، فوجدته واقفاً عند المدخل الضيق ، يختبيء وراء شعيرات نابتات عند فمه . فاشار إليّ بالصمت ، ومشى امامي فتبعته ، ودخلنا في قناة كالنَفَق تذهب في اولها صُعداً ثم تنحدر عند نصفها وتضيق ، وفي ارضها دهن لزج اصفر ؛ ولما انتهينا الى آخر النفق وجدنا انفسنا امام ستار صغير رقيق نصف شفاف كغشاء الطبل ولكنه مقعّر ... فلما دنوت منه همس صاحبي كالخائف قائلاً : لا سبيل لدخولك انت من هاهنا . قلت وانت ؟ قال اني ادخل كعادتي ، واما انت فترجع وتدخل من دهليز آخر . قلت كيف ارجع وحدي ؟ دعني اشق هذا الغشاء شقاً قليلاً . قال اياك ان تفعل فانك ان فعلتَ عطلت اذن الرجل واغضبته وحرمتني من دخول هذا المسكن الى الابد . قلت واين المعبر الثاني ؟ قال تخرج وتقف عند شفتي الرجل فاذا انفرجتا مرةً ، عند غطيطه ، عبرت بلطفك المعهود الى بلعومه ، وهنالك تجد قناة مكتوب عليها (بوق اوستاكيوس) وهي السبيل الوحيد الذي تتصل به الاذن بالهواء ، فتدخل انتَ منها الى القاعة التي وراء هذا الغشاء ، فتراني في انتظارك .

قال شيطان الشعر : ففعلت ما اشار به ، ودخلت الى البلعوم ، وعبرت من تلك القناة صُعداً ، فوجدت نفسي في قاعة واسعة من العظم الرقيق ،

وقد ُشدّ في جدارها ذلك الغشاء الطبلي الذي منعني من الدخول . وفي الجدار المقابل له كوة بيضيّة الشكل مسدودة بغشاء ، وكوة مستديرة مسدودة بغشاء ايضاً ، وفي الجدار الخلفي ثقب كبير وثقوب صغار . وبين هذه الجدران ُعلقت سلسلة عظام عجيبة : احدها على صورة (المطرقة) ، والثاني على شكل (سندان) الحداد ، والثالث على شكل (ركاب) السرج الافرنجي ، وهي تتصل ببعضها : (فالمطرقيُّ) يتصل بالغشاء الطبلي ويدخل بين طبقتيه ويرتبط بهما ويشد الغشاء الى داخـــل الغرفة فيجعله محدباً من الداخــل مقعراً من الخارج ، (والركابيُّ) يتصل بغشاء الكوة البيضية المقابلة ، امّا (السندانيُّ) فهو متوسط بين الاثنين ويتصل بهما بمفاصل . فقلت لصاحبي ما هذه العظام المعلقة ؟ قال لا ادري ولكني اعلم اننا اذا قرعنا (الغشاء الطبلي) ودخلنا تهتز اهتزازاً خفيفاً . قلت وما السر في كونها معلقة هكذا في الهواء ؟ قال لا ادري ولكن اعلم انه ان نقصت واحدة منها او تعطلت مفاصلها ضعف السمع . قلت وما هذه الكوة المستديرة المغشاة والى اين تؤدي ؟ قال انها معبر ثان الى اعصاب السمع . قلت وما وراء هاتين الكوتين ؟ قال وراءَهما القاعة الاخيرة التي نستقر بها في نهاية مطافنا ، وهي اعظم القاعات واعزها على صاحبها ، وفيها دهاليز واقنية وسلالم كثيرة يتيه بها السالك ولهذا يقال لها (التّيه) (labyrinthe) . قلت من اين ندخل اليها ؟ قال : انا ادخل من الكوة البيضية او الكوة المستديرة ، واما انت فلا تستطيع الدخول منهما لانهما مسدودتان بغشائيهما كما ترى . قلت ما العمل ؟ قال لا اعرف لك حيلةً في هذه الساعة ... قلت ، وقد ظهر في وجهي اثر الغضب ، وهل من حيلة في غير هــــذه الساعة ؟ قال نعم ولكن هذا يحتاج الى وقت وفرصة سانحة . قلت ما هي هذه الفرصة ؟ قال نبحث عن انسان شاعر له ولع بالموسيقى ، فتذهب انت اليه وتلهمه ابياتاً من الشعر لا تصلح الا للغناء ، واذهب انا اليـــه فالقنه انغاماً لا تصلح الا لهذه الابيات ... فاذا استغواه الشعر ، واستهواه النَغَم جمــع بينهما فتقمّصتني وتقمصتُك فصرتَ شيئاً مني ، واستطعتَ الدخول معي الى حرم التّيه العجيب ... قلت ان الشاعر الذي انا شيطانه

من اكبر الشعراء ، ولكنه لا يحسن الغناء ، فهـــل تعرف ، بين هواتك انت ، من ينظم الشعر ؟ قال لا يخلو البلد من مثل هـذا ، ولكن الذي يتاح له ان يكون شاعراً موهوباً يأنف من ان يكون مغنّياً ... قلت وكيف عرفتَ ذلك ؟ قال ، وقد اخفى بين فكّيه ابتسامة ماكرة ، عرفته من صاحبي هذا الذي نحن في اذنه ، فانـــه يُحسن الشعر ويجيد الغناء ، وان كان يتستّر فيهما عن الناس ... قلت : مالك اذاً تصعّب علينا البحث والتنقيب ؟ قال اخشى ان ايقظت الرجل ان يغضب . قلت لا عليك . انا انفث ابياتاً من الشعر الباكي في ثنايا احلامه ، فاذا افاق رددها تراقصتَ انتَ في حلقه فغنّاها ... قال ولماذا اخترت له الشعر الباكي ؟ قلت ألا تراه عجوزاً يكاد يشرف على ارذل العمر ... ؟ لقد خبرتُ هؤلاء الشعراء ، وهم على عتبة القبر ، فلم اجدهم يستلهمون منّي إلّا شعر الشكوى والحنين الى الصّبا ...

قال شيطان الشعر : وكان ما كان ، واستيقظ الرجل يردد الابيات باكياً ، وما انقضت لحظة الّا وسمعناه يُدَنْدِنُ بها ويجمعنا كلينا في حلْقه ويوحّد بيننا شعراً ونغماً كما اردنا ، فانطلقنا متحدّين ودخلنا ثانيــة من قناة البلعوم الى حيث كنا في قاعة الاذن الوسطى ، فقلت لصاحبي : من اية كوة ندخل الساعة الى قاعة التيه ؟ قال انهما مدخلان مستطرقان ولكن الأولى ان نركب متن هـذه العظيمات المعلّقة وندخل عبْر اهتزازاتها من غشاء الكوة البيضية ، فهذا الطريق هو الطريق المفضل . وفعلنا فوجدنا انفسنا في دهليز بيضيّ الشكل على جدرانه حفر وثقوب وطاقات ثلاث دخلنا من احداها فوجدنا انفسنا في (قنوات هلالية) الشكل ، منهـــا قناتان في وضع عمودي وقناة في وضع افقي . ثم دخلنـا من الدهليز الى قاعـة عجيبة لها شكل الحلزون ... فقلت لصاحبي : انك لم تبالغ حين وصفتَ مسكنك بانه يشبه مساكن جنيات البحر ، فما هـذه القاعة التي تشبه (القوقعة) ؟ قال انك لم تخطيء ... انهم يسمونها (القَوقعة) ... ثم سرنا فيها فاذا هي مؤلفة من محور مركزي (كالعمود) ، وقناةٍ تدور

حول العمود على هيأة لولب دورين وزيادة . وهذه القناة تقسمها صفيحة رقيقة بعضها عظمي وبعضها غشائي ، ثم تنتهي القناة بقبّة مسدودة هي رأس القوقعة . ومشينا في احد قسمي القناة اللولبية المستطرق الى الدهليز حتى وصلنا الى رأس القوقعة فوجدنا القسم الذي نحن فيه يستطرق الى القسم الثاني من فتحة بينهما عند رأس القوقعة ، فنزلنا منهـا الى القسم الثاني من القناة فادّى بنا الى (الكوة المستديرة) التي سبق ذكرها . قلت لصاحبي ها قد انتهينا الى حيث بدأنا . قال نعم هذان سلّمان في داخل القناة اللولبية احدهما يُسَمَّى (السلم الدهليزي) لانه يستطرق الى الدهليز ، والثاني يسمى (السلم الطبلي) لانه يستطرق الى غرفة الطبلة من الكوة المستديرة ، وكلا السلمين يستطرق الآخر عند قبّة القوقعة كما رأيت . امـا الصفيحة التي رأيت انها تقسمها فتدعى (الصفيحة اللولبية) ونصفها العظمي يبدأ من الدهليز ، وهو يفرز سائلاً صافياً يسمونـه (اللّمفا الظاهرة) ونصفهـا الغشائي عبارة عن زقّ غشائي مسدود يحتوي على سائل ايضاً يسمونه (اللّمفا الباطنة) وهـذا الزقّ مؤلف في اوله من زقّين يقال لاحدهما (الجراب) وللآخر (الكيس) والجراب يستطرق الى القنوات الهلالية وفيه حجران صغيران من كربونات الكلس المتبلور يقال لهما (الحجران الاذنيان) .

قال شيطان الشعر : واراد صاحبي ان يسترسل في الوصف فقلت له كفى كفى ، فقد احتقن ، والله ، رأسي وزاغ بصري وتاه عقلي في هذا المكان الذي حقّ لهم ان يطلقوا عليه اسم (التّيه) . ولكن قل لي بكلمة مختصرة ما هذه الحبال والخيوط الدقيقة المنتشرة في كل مكان ، والداخلة في كل ثقب ، والسابحة في كل قناة وقوقعة ، والغائصة في كل سائل ؟ قال هذه بعضها شرايين واوْردَة ، والدقيق منها الغائص في القنوات والقوقعة والسوائل اعصابُ السمع التي تذهب الى الدماغ وتنقل الصوت الى الرجل . قلت ولِمَ كل هذه العظيات والدهاليز والاقنية واللوالب والقواقع والسلالم والاغشية والصفائح والكُوى والثقوب والسوائل والاحجار وغيرها ؟ امّا

كان يكفي ان يقف عصب السمع عند الطبلة فيتلقى هزة الصوت وينقلها لدماغ الرجل ؟ قال لا ادري من اسرارها الخفية شيئاً سوى انه اذا اختل احدها او انسد او تلف ، اختل سمع الرجل او تعطل ، فاصبح لا يهشُّ لنا ولا يبشُّ ابداً .

قال شيطان الشعر : فبادرت ، قبل ان يُتم صاحبي كلامه ، الى الخروج من حيث دخلنا من قناة (اوستاكيوس) ، فودعته شاكراً ، وانا اقول له : حقاً لقد كنا في مسكن من مساكن الجن .

حيران – ولكن ما الحكمة في خلق هذا الجهاز المعقّد العجيب ؟

الشيخ – باختصار اقول لك انه لولا هذه الترتيبات المحكمة ، التي تسير من البوابة الخارجية التي تسمى (الصيوان) الى (الصماخ السمعي) الى (الغشاء الطبلي) الى (الاذن المتوسطة) الى (الاذن الباطنة) وتنتهي عند اعصاب السمع ، لما امكن وصول الاصوات الى الدماغ بشكل محتمل او مفهوم ابداً . فكل هذه الغضاريف المدرّجة والدهاليز المعوجّة ، والقاعات المتداخلة والاقنية المتواصلة ، والغشاآت المشدودة والكوى المسدودة ، والعظيمات المعلقة والصفائح المطرّقة ، والسلالم النازلة الصاعدة والمياه السائلة الراكدة ، والاكياس الرقيقة والاحجار الدقيقة ، انما خُلقت وأُحكمت لاجل ترقية توزيع الاهتزازات الصوتية على وجه يضعّف قويّها ويقوّي ضعيفها ، ليتّقي الجهاز السمعي كل رجّة وصدمة ، ويشعر الاحساسُ بالطف نغمة واضعف نأمة .

حيران – انني مؤمن بأن هذا الجهاز لم يخلق عبثاً ، ومدركٌ لفائدة بعض اجزائه ، ولكني اسأل مولاي الشيخ عن الحكمة في خلق هذه الترتيبات المعقّدة من العظيمات والصفائح والكوى والمنافذ والمياه والقواقع والقنوات والسلالم .

الشيخ – سلْ عنها (المصادفة) التي خلقت هذا الجهاز العجيب ...

حيران – اعوذ بالله من الضلال المبين .

الشيخ – اذا كنت لا تؤمن بالمصادفة ، فاسأل خلايا المُضغة التي صنعت

الاذن ، فانها ، على ما يظهر ، عاقلةٌ ومدركةٌ وحكيمةٌ وعالمةٌ بطبائع الاشياء وخواصها والنواميس واسرارها ...

انها علمتْ ان الاصوات تأتي الينا بتموجاتِ الهواء ، وان هذه التموجات ، منها الشديد الحادُّ القاسي ومنها الضعيف الواهن اللّيّن ، ومنها ما يقع عمودياً ومنها مـا يأتي جانبياً ، فخلقتْ (صيوان الاذن) وجعلته غضروفياً بين العظم واللحم ، وجعلت فيه طيّات وليّات ليتلقى امواج الصوت ويعكسها من طية الى ليّـة ويوصلها الى الصماخ ...

وعلمتْ انـ الرياح التي تحمل الصوت قد تكون عنيفة هوجاء وقد تحمل معها المؤذيات من غبار وتراب وحشرات ، فجعلت (الصماخ) معوجاً متقوساً نحو الاعلى ، وجعلت في فمه سياجاً من الشعر ، وفي باطنه دبْقاً اصفر شمعياً ، ليتقي بعوجه صدمة الرياح ، وبسياجه ودبْقه المؤذيات ، فلا تصل الى غشاء الطبلة الرقيق الواهن ...

وعلمتْ انـ بعض الاصوات تكون وجساً او همساً ، فجعلتْ من الصماخ بشكله الكهفي المملوء بالهواء وسيلة لتقوية الصوت ومضاعفته (بالتّصدية) على النحو الذي نسمعه في الحمامات والكهوف من ضجة الصوت الضعيف برجْع الصَدى ...

وعلمتْ ان الغشاء المتوتر كالطبل هو افضل الاجسام الصلبة في ايصال الصوت فخلقتْ غشاء الطبلة وغشاء الكوة البيضية والاغشية الاخرى في الأذن الداخلية ...

وعلمتْ انه اذا تثبّت جسم صلب صغير في طرف غشاء مشدود متوتر اوصل الاهتزازات الصوتية على وجـــه افضل ، فخلقتْ سلسلةَ العظيمات الثلاث وربطتها بين غشاء الطبلة وغشاء الكوة البيضية ...

وعلمتْ ان كل جسم صلب محاط بوسط مختلف عنه في الجوهر يرسل الاهتزازات في جوهره باشدّ مما يرسلها في الوسط المحيط به ، فجعلتْ العظيمات الثلاث معلقة في الهواء يحيط بها ويفصلها عن عظـــام الرأس ، وفعلتْ مثل ذلك في الصفيحة اللولبية فاحاطتها بسائل مختلف عنها في

الجوهر كي لا تنتقل الاهتزازات السارية في العظيمات والصفيحة اللولبية الى عظام الخُوذة وتتبدّدَ فيها ...

وعلمتْ ان سلسلة العظيمات قد تصاب بما يعطل عملها في نقل الصوت من غشاء الطبلة الى غشاء الكوة البيضية فخلقتْ (الكوةَ المستديرة) وغطتها بغشاء يساعد على ايصال الصوت الى الاذن الداخلية ، وجعلتْ لكل كوة من الكوتين طريقاً سُلماً في داخل القوقعة ...

وعلمتْ ان الشكل الحلزوني اللولبي هو الشكل الاصلح لانتشار الالياف العصبية السمعية على مساحـــة متسعة ضمن حسم صغير في حيّز ضيّق ، فخلقتْ (القوقعةَ) وجعلتْ فيها القناة اللولبية سلّمين مستطرقين يصعد احدهما الدهليزيُّ من الكوة البيضية وينزل ثانيهما الطبليُّ الى الكـــوة المستديرة ، وجعلتْ في القناة اللولبية هـــذه الصفيحة اللولبية العظمية الغشائية التي تفرز سائل اللمفا ...

وعلمتْ ان بعض الاصوات تأتي من الخوذة فخلقت القنوات الهلاليـــة لتساعد على جمع التموجات الصوتية الآتية من الخوذة وتوجّه سير الاصوات بحسب اتجاه تجاويفها المنحنية وتوصلها الى اعصاب السمع المنتشرة في سوائلها وسوائل القوقعة ، وخلقتْ الزقّين الغشائيين المملوئين باللمفا وجعلتْ في احدهما الحجرين الاذنيين المتباورين ليزيدا بصداهما شدة الهزات الصوتية ... وعلمتْ فوق ذلك ، تلـك الخلايا العاقلةُ المدركةُ يا حيران ، ان للهواء ضغطاً خارجياً عنيفاً طاغياً يؤذي غشاء الطبلة ان لم يقابَل من داخل الاذن الوسطى بهواء يعادله ويقاومـه ويحفظ الموازنة في ضغط الهواء وحرارته ، كما تعلم ذلك من نفسك اذا حصل لـك زفير او شهيق غائر طويل وكان الانف والفم مسدودين فيتوتر الغشاء الطبلي ويتحدّب نحـو الخارج عند الزفير ونحو الباطن عند الشهيق فيتشوش السمع ، فخلقتْ بوق (اوستاكيوس) ، وادخلتْ منه الهواء الى الاذن الوسطى ، وجعلتْ من هذا البوق في الوقت نفسه موضّحاً للاصوات كما توضّح ثقوب الآلة الموسيقية اصواتها ، وجعلتْه منفذاً للمخاط الذي يفرز من باطن الطبلة ...

أليست عاقلة مدركة حكيمة عليمة قديرة ، يا حيران ، تلك الخلايا ، حتى استطاعت ان تعرف كل هذه الاسرار والطبائع والنواميس التي عرفها العلماء اليوم بعد ان مضى على خلق الانسان حين من الدهر ، فخلقتْ جهازَ الاذن المعقّد على مقتضى هذه الاسرار ؟

حيران - سبحان الخلاق العظيم العليم الحكيم القدير ... سبحانه .

الشيخ - سبحانه يا حيران ... وتَبّاً للغافلين الذين (لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا ، اولئِكَ كَالانْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ اولئِكَ هُمُ الغافِلون) .

إحْفَظ لِسَانَك

٣

حيران – عن ايّ آيات الله يريد مولاي ان يحدثني الليلة ؟

الشيخ – عن اي آيات الله تريد ان احدثك يا حيران ... ؟ كلٌّ ما في جسمك يدل على الله ، لأن كل ما خلق الله فيك بديع في تركيبه محكم في ترتيبه ، رائع في اتقانه دقيق في اتزانه ، متناسب في حركاته متوافق في غاياته ، سواء في ذلك ما تراه بعينك من اقل الاعضاء شأناً وأثراً كالشعرة والقلامة الى اعظمها قدراً وخطراً كالعين والاذن والقلب والكبد والمعدة والامعاء واللسان والشفتين ، وما لا تراه بعينك المجردة من ملايين الخلايا والاعصاب التي هي اعجب باسرارها واغرب ، وابدع واروع ؛ ولكني يا حيران احصر لك القول حصراً في آيات الله التي اختارها هو ، جلّت حكمته ، واكثَرَ من ذكرها في القرآن ليقيم البرهان القاطع للناس على وجوده وقدرته وحكمته ، من غير ان يتعنّتهم بذكر اعضاء ما كانوا يعرفون اسماءها فضلاً عن وظائفها. ولو اردنا يا حيران ، في هذا الحوار معك ، ان نتناول كل ما خلق الله فينا من الاعضاء كبيرها وصغيرها ، ظاهرها وباطنها ، لانقلبتْ هذه الامالي التي اردتُ ان ادلك بها على الايمان (بدلائل القرآن) الى مجلدات في الطب والتشريح ومنافع الاعضاء . وما اظن ان العمر يتسع بي انا ، ولا الوقت يتسع بك انت ، لكل هذا ؛ ويكفيك منه ما يشرح صدرك للبحث والتنقيب عن كل حكمة من حكم الله في نفسك او في الآفاق ، لعلك تكون من اولئك الذين يصدق عليهم قوله تعالى (ومَنْ احسنُ قولاً ممن دعا الى الله ؟...). وقد حدثتك عن العين بلسان الجسر ، وحدثتك عن بعض ما ذكره الله من آياته في الآفاق ، ثم انتقلتُ بكَ الى بعض ما ذكره الله من آياته في نفسك ، فحدثتك عن

تكوين الجنين في بطن امه ، وعن السمع ؛ والآن سأحدثك عن اللسان والشفتين .

حيران – ولكني لا ارى في هاتين العضيلتين المضيغتين ما يستحق ان يُتعب مولاي الشيخُ نفسَه بالكلام عنهما .

الشيخ – ايذكرهما الله في القرآن ليدلنا على القدرة والحكمة والاتقان ، وانت تستخف بهما يا حيران ؟

حيران – معاذ الله .

الشيخ – احفظ لسانك يا حيران ، واياك ان تستخف بهذا الرائـــع الأروع ، الصامع الاصمع ، ذي الوزارات الاربع ، الذي ان حفظتَه سلَّمك ، وان سيَّبته سَلَمك ، وان استطعمته اطعمك ، وان كلَّمته كلَّمك ، وان سألته علَّمك ، من قبل ان تعرف اسرار الحكمة في تنويع وظائفه واعماله ، وتصريف حروفه واقواله ، وتعدُّد حُليماته ، واختلاف حركاته ، بين شفتيه ولهاته ، وتمييز اعصابه ، وتوفير لعابه ، وتيسير تلعابه ...؟

حيران – ما كنت احسب ان هذه العضيلة البسيطة لها كل هذا الشأن ، فما معنى ان اللسان ذو الوزارات الاربع ؟

الشيخ – كل عضو من اعضاء الحس يا حيران له وظيفة واحدة الّا هذا اللسان . فالعين للبصر ، والاذن للسمع ، والانف للشم ، والانامل اشد جوانب الجلد احساساً باللمس . اما هذا اللسان فقد شاءت له المصادفات ان يكون آلة للذوق ، وآلة للمضغ والبلع والهضم ، وآلة للحس واللمس ، وآلة للتكلم ...

فمن اجل ان يكون آلة للذوق شاءت المصادفة ان يُفرش سطحه وجانباه بحُليْمات تمتص الطعوم وتؤديها الى الاعصاب المنتشرة في باطنها ... وشاءت المصادفة ان يكون صنفان من هــذه الحليمات للذوق خاصة دون اللمس كي لا يختلطا فيتعطل عمـــل احدهما عند فقد الآخر ، فقد يفقد الحس العام عند الانسان وتدوم له حاسة الذوق ، او يفقد الذوق ويدوم له الحس العام ... ومن اجـل ان الحليمات لا تمتص الطعوم الا اذا كانت

ذائبة محلولة ، والّا اذا كان اللسان رطباً ، شاءت المصادفة ان يُزوّد اللسان بغشاء مخاطي فيه اجربة وغدد تفرز المخاط ، وان يزود من تحته بغدة تفرز اللعاب فوق ما تفرزه الغدد اللعابية الاخرى ؛ ولولا ذلك ما استطاع اللسان ان يتذوق الطعوم ، ومـا كان يحدث له سوى الاحساس بمس الطعام ، كما تعرف ذلك من نفسك اذا كان لسانك جافاً من الزكام مثلاً فانه لا يتذوق الطعوم ولو كانت مذابـة ... ومن اجل ان الطعوم مختلفة المذاق ، ولها في تلاقيها تآلف وتنافر ، على نسب معينة ، كتآلف الالوان والاصوات وتنافرها ، فقد شاءت المصادفة ان تختلف الحليات الذوّاقة بعضها عن بعض ، شيئاً قليلاً ، في تذوقها وفي قدرتها على الاحتفاظ بطعم بعض المواد حتى بعد زوالها ؛ وعلى هذا يقوم الطهاة المهرة في خلط الاطعمة ومزجها ...

ومن اجل ان اللسان مفتقر بحكم مركزه ووظائفه الى ان يكون حساساً ، قوي الاحساس ، ليلوك اللقمة ويدور بها من حنك الى حنك ، ومن سن الى ضرس ، ويستقصي اصغر اجزائهـا في مطاوي الفم وثنايا الاضراس ، ويتقي باحساسه المرهف كل ما يدخل الفم من المؤذيات من كاوٍ ومحرق ولاذع وشائك وجارح ، شاءت المصادفـة ان تكون له حليات للحس واللمس خاصة ، كما سبق القول ، وان تكون هذه الحليات (الخيطية) مرهفة جـداً في رأس اللسان وجانبيه لا يساويها في دقة الاحساس الا طرف البنصر ...

ومن اجل ان اللسان آلة للمضغ والبلع فقد شاءت المصادفة ان تكون هذه العضيلة قوية قوية ، نشيطة ، لعوباً ، تلعابة ، لعابية ، مخاطية . ولولا ذلك ما تم مضغ ولا بلع ... فاللسان هو الذي يلاعب اللقمة ويلوكها ويعجنها عجناً باللعاب ، حتى اذا اكتمل مضغها واصبحت صالحة للبلـع لفّها بمخاطه ، وضغطها بين سطحه وسقف الحلق ، ودفعها بقوته وزلقها حتى تعبر قوس (اللهاة) فيكون البلع بعد ذلك بغير ارادة الآكل ...

ومن اجل ان اللسان آلة للهضم فقد شاءت المصادفة ان يكون هضم

الاطعمة مختلفاً مكانه باختلاف عناصرها : فمنها ما يُهضم في المعدة ، ومنها ما يهضم في الامعاء ؛ ولكن شيئاً واحداً منها ، وهو النشاء ، لا يهضم في المعدة ، بل ان عصارات المعدة تعيق هضمه وتبطل تحويله ؛ ولذلك شاءت المصادفة ان يكون الوسط الوحيد الصالح لتحويل النشائيات الى سكر وهضمها هو اللعاب . ولولا هذا اللسان التّلعاب ، الذي يمزج اللعاب باللقمة ويعجنها ، لما تم هضم النشاء ، وهو من اهم عناصر الغذاء ...

ومن اجل ان اللسان آلة للتكلم ، ومن اجل ان الاصوات تخرج من الحنجرة كما تعلم ، ومن اجل ان الحنجرة لا تستطيع توليد الحروف كلها بل يقتصر عملها على توليد الحروف الصوتية المعروفة بحروف العلة ، دون الحروف الاخرى المعروفة بحروف الصحة التي لا بد لتوليدها من تقطيع مجرى الهواء الذي يحمل الصوت من الحنجرة ، فقد شاءت المصاد ان يُخلَق هذا اللسان مع الشفتين ليكون وسيلة لتقطيع الهواء وا اج حروف الصحة ؛ ولولا ذلك ما كان لنا كلام فصيح ، بل كنا نحون كالحيوانات نطلق اصواتاً نمدُّها مدّاً ، فلا نُحسن الّا عواءً ونعيقاً ، او صفيراً ونقيقاً ، او صهيلاً ونهيقاً ...

فما اعجبها يا حيران هذه المصادفات التي كثرتْ ، وتوالت ، وتلاقت ، وتلائمت ، وتوافقت حتى كوّنت لنا هذا اللسان العجيب ...

حيران – حقاً يا مولاي ان اللسان عضو عجيب ... ولكن ماذا في الشفتين سوى انهما تساعدان على لفظ بعض الحروف .

الشيخ – أكان يرضيك يا حيران ان تُخلق بلا شفتين مكشّراً ، فاغراً ، يسيل لعابك ، ويدخل الغبار الى صدرك ، والذباب الى لهاتك ...؟ ألا تشكر المصادفة التي خلقت هذا الانسان (في احسن تقويم) فجعلت له ، من الشفتين ، زينة لوجهه ، وستراً لفمه ، وحاجزاً للعابه ، ومانعاً من دخول الغبار الى رئاته ، والذباب الى لهاته ، ليتنفس من حيث ينفع التنفس بانفه وخيشومه ، ويصدّ المؤذيات عن حلقه وبلعومه ...؟ ألا تشكر المصادفة التي سلّحت هاتين الشفتين بقوة مرهفة من الاحساس ليصدّا كل مؤذٍ

وكاوٍ ومحرق ، وزودتهما ، تحت غشائها المخاطي ، بغـــدد تفرز اللعاب لتظلا رطبتين مرطّبتين ، وربطتهما باعصاب تجعل كل حركة لهما ، من فتح واغلاق ، ومطّ وزمّ ، بارادة الانسان واختياره ، ليفتحهما ساعـــة يشاء ويغلقهما ساعة يريد ، فيقطع بهما الهواء ويحبس الصوت ليتمكن من لفظ الحروف الشفوية ... فلولا كل هذه المصادفات ، يا حيران ، لانـقلب هذا الانسان المليح الفصيح ، الظريف النظيف ، مسخاً ، قبيحاً ، مكشّراً ، فاغراً ، عييّاً ، قذراً ، يسيل لعابه على ذقنه وثيابه ، ويزدحم الذباب على رضابه ...

حيران — لماذا يكرر مولاي ذكر المصادفة كأنه يتهكني ؟

الشيخ — لست اتهكمك يا حيران ، ولكني اريد ان أقتحم بك العَقَبة لأبلغ بنفسي الذّروة .

حيران — اي عقبة واي ذروة ؟

الشيخ — عقبة الشك التي يريـد الله منا ان نكابد لنقتحمها ، وذروة الايمان التي يريد سبحانه منا ان نكابد لنصل اليها ...

حيران — ومـا هي ذروة الايمان التي تريد ان تبلغها انت المؤمن يا مولاي ؟

الشيخ — هي التواصي بالحق يا حيران ... (أَلَمْ نَجْعَلْ لهُ عَيْنَيْنِ . ولِساناً وشَفَتَيْنِ . وهَدَيناه النَّجْدَيْن . فلا اقْتَحَمَ العَقَبَة . ومـا ادراكَ ما العقبة . فَكُّ رقَبَة . او إطعامٌ في يومٍ ذي مَسْغَبَة . يَتيماً ذا مَقْرَبة . او مسكيناً ذا مَتْربـة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصَوا بالحقّ وتواصَوا بالمرحمة ...) ، هذه هي الذروة من الايمان ، ومن اجلها اسهر الليالي الطوال على حافة قبري لادعوك الى الله يا حيران ...

الصَّبُورُ الدّؤوبُ

٤

يقول حيران بن الاضعف : خرج الشيخ الموزون ، بعد صلاة الصبح ، الى الرياض على جاري عادته في النهار ، ولكنه خالفها ، لأول مرة في حياتي معه ، عندما امرني ، وهو يخرج من المسجد ، ان احمل اليه طعامه بنفسي بعد أذان الظهر ، فكان فرحي بهذا الامر عظيماً ، لانني طالما تمنيت ان ارافقه في النهار ، وارى كيف يقضيه بين الرياض من الفجر الى (النّجْر) ...

ولما جاء خادم المسجد يحمل جونة طعام الشيخ ، وصعد في المأذنة ليؤذّن بصلاة الظهر ، قلت له : لا عليكَ ، انّي ساضع الجونة في مكانها من السياج ، ثم اذهبُ الى (خرتَنْك) في شغل عاجل ؛ فشكرني وهو يقول : اياك ان تغلط في المكان ... انه المكان الذي وضعتَها فيه يوم قدومك علينا ، أما تزال تذكره ؟

وهرولت احمل الجونة الى البستان ، واوغلت فيه ابحث عن الشيخ فلا اجده حيث اتوقع ان يكون في ظل الشجر ، او على اطراف السواقي . فاخذت انادي ليسمعني ... ولما كررت النداء ولم اسمع مجيباً عرتني هِزةٌ من الهلع ، فاخذت اعدو الى آخر البستان ، حتى خرجت منه الى ارض جرداء واسعة ، فرأيت الشيخ قاعداً في آخرها . ولما وصلتُ اليه تبسم وقال اقعد معي ؛ ولما قعدت اخذ يشكرني ، ويعتذر عما سببه لي من عناء .

حيران — ولكني ناديت كثيراً فلم اسمع جواباً ، حتى انتابتني الهواجس .

الشيخ — انني سمعت ندائك واجبتك ، ولكن من اين للشيخ الهرم صوتُ الجَزَع مثلك ، يا حيران .

قال حيران : وبعد ان تناول الشيخ غدائه ، وادّى صلاة الظهر ، سألتــه :

حيران – ولماذا اختار مولاي هذا المكان ، وترك الرياض والماء .

الشيخ – لم اجئه باختياري ، ولكن جرّني اليه احد اهل القرية الذي جاء يستشيرني في امر ارضه هذه ويطلب مني العون على اعمارها .

حيران – ومتى كان مولاي الشيخ فلّاحاً عليماً بزراعة الارض واعمارها ؟

الشيخ – انه لم يطلب مني علماً ، ولكن طلب مني معجزة . . .

حيران – معجزة . . . ! ما الذي يطلبه ؟

الشيخ – انه يملك هذه الارض الواسعة الجرداء ، ويريد ان يشجّرها ويسقيها .

حيران – هذا سهل ، فزرعها بالاشجار وسقيها بالماء لا يحتاج الى معجزة . . .

الشيخ – هذا صحيح عن الزرع ، ولكن الماء بعيد ، وارضه عالية ، فقلت له ليس لك الا ان تبني حوضاً خزاناً يحفظ لك مياه الشتاء لتسقي منها ارضك .

قال : ولكن ماء الحوض سوف ينضب . وانا اريد ان اجعله لا ينضب .

قلت : كيف ؟

قال : اريد اختراع طريقة يجري بها ماء الحوض على محرّك فيحركه ليدفع الماء الى الارض فيسقيهــا ، ثم يعود الى الحوض ثانية ، ليعود الى الارض ، ثم الى الحوض ثم الى المحرك ، وهكذا الى الابد .

قلت : الى الابد ! مالك وللابد ؟

قال : طيلة حياتي ، وما ادري ، لعلي اعيش مائة سنة .

قلت : العمر الطويل انشاء الله . ولكن الماء الذي تطلب عودته ، لو امكن رد بعضه ، سيعود محمّلاً بالوحل والتراب فيؤذي المحرك ويعطله .

قال : ألا نستطيع ان نجعل له مصفاة تصفيه من التراب قبل ان يعود الى الحوض .

قلت : وما الذي يسوقه الى المصفاة ؟

قال : المحرك نفسه . ألا يستطيع سوقه الى المصفاة من قناة اخرى .

قلت : ولكن لو قدّر لنا ان نخترع مثل هذا المحرك ، فمن الذي يرد الماء ، بعد تصفيته ، الى المحرك ليدفعه الى سقي الارض ؟

قال : المحرك نفسه يدفعه الى المصفاة دفعاً قوياً ، فيدخل في ثقوبها ويخرج منها ليعود الى المحرك .

قلت : ولكن هذا الماء سينضب اخيراً مهما كان الحوض كبيراً .

قال : أليس هنالك طريقة تجعله لا ينضب ؟

قلت : كيف ؟

قال : أليس بالامكان ان نغذي الحوض بماء آخر جديد ؟

قلت : من أين نأتي بالماء الجديد ؟

قال : ألا نستطيع ان نضع على طرف الحوض محركاً ثانياً ونجعل له اذرعاً طويلة يتناول بها ، من فواكة الارض وحشائشها ، ما يعصره ويخرج ماءه ، ويغذي به الحوض فلا ينقص ... ؟

قلت : بلى ، ولكن من يحرك المحرك الثاني ليتناول الفواكه والحشائش ويعصرها ؟

قال : ألا نستطيع ان نجعل للمحرك الثاني محركاً آخر يحركه ؟

قلت : بلى ، ولكن من يحرك هذا المحرك الثالث ويغذيه ليتحرك ؟

قال : ألا نستطيع ان نجعل من قوة المحرك الاول ما يغذي المحركات الاخرى ويحركها ؟

قلت : بلى ، ولكن كم تحمّل المحرك الاول من مشاق ومتاعب ؟

قال : ألا نستطيع ان نجعله من القوة والمتانة والدقة بحيث لا يتوقف لحظة عن الحركة .

قلت : بلى ، هذا ممكن في محرك يتحرك يوماً او شهراً او سنة او سنتين ، وانت تريده محركاً يظل يتحرك ، بلا توقف ، مائة سنة .

قال : أهذا مستحيل ؟

قلت : لا ، ما هو بالمستحيل عقلاً ، ولكن هذه المحركات العجيبة

تحتاج الى مهندس عظيم عليم قدير ، يعرف كيف يخترعها ، ويعرف كيف يربط بعضها ببعض ، ويسقي بعضها من بعض ، ويعرف كيف يصوغها من معدن لا يصدأ ولا يتأكّل ، او من ذرات لها عقل وتدبير ، لتصنع مكان الذرة المتأكلة غيرها .

قال ، وقد حسبني اتهكّمه ، وهل للذرات والمعادن عقل وتدبير ؟

قلت : سل المهندس العظيم .

قال : أيحتاج الامر الى مهندس عظيم ؟

قلت : أترى كل هذا الذي طلبته ورسمته يحصل من نفسه بلا هندسة ولا حساب ولا تفكير ؟

يقول حيران بن الاضعف : وهنا لم يتمالك الشيخ نفسه فانفجر بالضحك ...

حيران – أتهزأ بي يا مولاي ؟

الشيخ – لست اهزأ بك يا حيران ، ولكني اروي لك قصة (القلب) في فعله واثره ، وغرضه ووطره ، وقدْره وقدَره ، وحيطانه وجُدُره ، ومنافذه وحُجَره ، وابوابه وسُتُره ، وكهوفه وحُفَره ، وجداوله وغُدُره ، وصفاءه وكدره ، ودأبه وسهره ، وصبره وحذره ، وعظيم خطره ...

حيران – أكل ذلك في هذا القلب الصغير ؟

الشيخ – هذا بعض ما يسمح به السجع من اوصافه ، والرويّ من الطافه .

لقد اراد الله لهذا الحيوان ان يعيش ويحيى . والحياة غذاء ودفء ، فخلق فينا هذا الدم الذي يحمل غذاء الابدان ودفئها . ولكن هذا الدم يحتاج الى مَدد من الغذاء ، فخلق لنا المعدة والكبد والامعاء ، وجعل في غذائنا (الكربون) الذي يوفر لنا الغذاء والحرارة بالاحتراق الناتج من اتحاده مع الاوكسجين . ولكن هذا الاحتراق في داخل ابداننا يولد سُمّاً هو ثاني اوكسيد الكربون ، فلا بد من طرحه عنا مع كل السموم الاخرى ، التي تنتج في اجواف ابداننا من جثث الخلايا الموتى ، فكيف نطرح عنا هذه السموم ؟ لقد اراد الخالق الحكيم ان يجعل لنا في اجوافنا مصفاتين

عظيمتين ، بل محرقتين هائلتين ، فخلق الرئتين نملأهما من الهواء بالشهيق لنحرق باوكسجينه طعامنا ، اي كربوننا ، واكثرَ الفضلات والسموم التي في الدم ، ثم نلفظ هذا السم المحروق ، بالزفير ، الى خارج البدن ...

ولكن هذا الدم ، لو بقي في الجسم ساكناً راكداً لا يتحرك لامتنع عليه ان يذهب الى المصفاة ، ليلقي فيها سمومَه وجثثَ الموتى وغيرَ ذلك من الفضلات والقمامات ، ولعَسِر عليه ان يتناول الغذاء الجديد من مخازنه في المعدة والامعاء والكبد ، بل امتنع عليه ان يُفرّق هذا الغذاء الجديد ، ويوزعه على جميع اجزاء الجسد بالسرعة اللازمة . فلو بقي راكداً في الجسم لنتج عن ركوده موت الجسد : لانه من جهة لا يستطيع تناول الغذاء من مخزنه بسهولة ويُسْر ، حتى لو تَحلّبَ له هذا الغذاء من جدران الامعاء والكبد ، فانه لا يتحلّب اليه الا نزّاً ، فلا ينتشر في الدم مع سكونه وركوده ، ولا يصل الى اطراف الجسد ، الّا بعد ايام طويلة ، وفي هذا الموتُ من الجوع ؛ ولانه لا يستطيع ، مع السكون والركود ، ايصال سمومه وفضلاته الى المصافي ليحرقها فيها ، وفي هذا الموتُ العاجل من التسمم ؛ ولانه لا يستطيع ، مع هذا الركود ، ان يتناول ، بالسرعة المطلوبة ، من الرئتين اوكسجيناً جديداً يحرق به طعامه ، بدلاً من الاوكسجين الاول الذي تحوّل بالاحتراق الى سمّ قاتل ، وفي هذا الموت من الاختناق ...

فلا بد ، اذاً ، لهذا الدم ان يتحرك وان يسير ، وان يكون في سيره سريعاً سرعة عظيمة ، فانه بهذا السير السريع يمرّ على مخازن الغذاء فيتناول منها حاجته ، ويوصلها ، باسرع من لمح البصر ، الى كل اطراف الجسد ؛ وبهذا السير السريع يوصل الى المصافي سمومه وفضلاته ليطرحها فيها ، باسرع من لمح البصر ، ويتناول من الرئتين وقوداً جديداً من الاوكسجين ، فيعود به ليكرر عملية حرق طعامه فيوفر للجسد غذائه وحرارته ...

حيران — سبحان الخلاق العظيم ... ولكن لِمَ كل هذه السرعة في سير

الدم؟ وكيف تكون كلمح البصر ...؟

الشيخ – لِمَ كل هذه السرعة ..؟ لان الاحتراق من شأنه ان يتم بسرعة ، والتسمم يقع بسرعة ... جَرِّبْ ان تسدّ انفاسك وانظر، كم تصبر ، مهما ملأت رئتيك من الهواء ..؟ أم تريد ان تكون رئتاك بحجم الجرّة لتتسعا لكمية من الاوكسجين تكفي الى ان يسير الدم بطيئاً ، حتى يصل الى الرئتين بعد ساعة ؟

واما قولك كيف تكون تلك السرعة كلمح البصر ، فانها كذلك لان الله القادر جعلها كذلك ... فقد ثبت ان نقطة الدم لا تحتاج ، لتخرج من القلب وتمرّ في الجسد كله ثم ترجع الى محل خروجها ، الّا لعشرين ثانية تقريباً ، اي بمقدار ما يدق نبضك المعتدل ٢٥ دقة تقريباً ، او بمقدار ما تقول ، يا حيران ، (لا الـه الّا الله) تكررها عشراً ...

حيران – لا الـه الا الله الخلاق العليم .

الشيخ – هذا في حالة الراحة والاعتدال ؛ وجرّب ان تأخذ نفساً عميقاً ، ايْ زيادة من الاوكسجين ، فترى نبضك يبطيء ، ثم جرب ان تكتم انفاسك لينقص الاوكسجين ، او ان تجري ليزيد الاحتراق ، فترى قلبك يدق دقاً عنيفاً ليأخذ الدمُ حاجته من الاوكسجين بسرعة مدهشة .

حيران – سبحان الخلاق العظيم .

الشيخ – والآن ، يا حيران ، تحقّق لك ان الدم يحتاج الى حركة سريعة جداً ، والى محرك ، وهـذا المحرك العظيم هو القلب . والى هنـا يكون الامر بسيطاً اذا اعتبرنا القلب عبارة عن مضخة تضخ الدم فيذهب الى الجسد ، ويعود اليها فتضخه ثانية .

ولكن الامر اعقد من ذلك : انه يحتاج الى مضختين ، واحدة تضخ الدم الى الجسد ، واخرى تضخـه الى الرئتين ، ليتصفى فيهما ويعود الى القلب نقياً طاهراً قوياً نشيطاً مجهزاً بالوقود اللازم . ولا تكفي ضخـّـة واحدة لدفعه الى اطراف الجسد وايصاله الى الرئتين ثم رده الى القلب ، لان الدم حين يندفع عند الضخة الاولى في الشريان الاعظم الاكبر الذي

يسمى (آوورْط) ، يتفرع الى فروع وفروع ، ثم يرتـــد بقوة الضخة الاولى ، بعد ان يغذي الجسد ، الى (الاوردة) ، ومنها يتجمع في الوريد الاجوف السفلي الكبير وفي الوريد الاجوف العلوي ، فتنقص ، بهذا السير الطويل المتشعب ذهاباً واياباً ، قوة اندفاعه من الضخة الاولى ، فلا يستطيع ان يصل الى الرئتين ثم يعود منهما الى القلب . فلا بد له اذاً من ضخة ثانية ، تدفعـه الى الرئتين ، ليتصفى فيهما ويعود منهما الى القلب . ومن هذا ترى ان الامر ، كما قلت لك ، يفتقر الى مضختين ...

فما العمل ؟ أيخلق الصانع مضختين منفصلتين ؟ انه سهل عليه ، ولكنه جلت حكمته وعظمت قدرته ، جعلهما مضختين في قلب واحد ، تعملان في لحظة واحدة ، لحِكَم كثيرة : منها الى نتجنب شر ما قد يقع ، لمرض او سوء هضم او توتر عصبي ، من تقطّع ، في احدى المضختين ، يُسبّبُ تشويشاً قاتلاً في سير الدم واحتراقه ، ومنهـا ان المضخة الواحدة اهون على الجوف واخف واقلّ حيّزاً . ومنها ان الحكيم القادر يُحسن كل شيء خلَقه ، فالمضخة الواحدة اعجب خلقاً ، واغرب توافقاً وانسجاماً ، وادلّ على القدرة ؛ وهذا سر الابداع الذي يحيّر الالباب .

ولكن اذا اراد الصانع ان يجعل المضختين في قلب واحد وان يتحدا في لحظة الضخ ، ويتحدا في لحظة الامتلاء ، وان لا يختلط فيهما الدم الاحمر الظاهر ، بالدم الاسود القذر فكيف العمل ؟

انه قسم القلب قسمين : احدهما ايمن والآخر ايسر ، وجعـــل بينهما جداراً مصْمتاً ليس فيه باب .

ولكن اذا كان لكل مضخة حجرة واحدة فحسب ، ادّى الامر الى ان يتعطل الضخ في لحظة ، او يتعطل انسكاب الدم في تلك اللحظة .

حيران — لم افهم يا مولاي .

الشيخ — ان القلب ، يا حيران ، يضخ في كل دقـّة ما يقرب من عشرين سانتيمتراً من الدم . اي انه يضخ بسرعة فائقة وبدون انقطاع ، فاذا كانت الحجرة محلُّ الضخ واحدة ، فانه اذا عصر حجرتـه ليضخ الدم ،

توقف بهذا العصر ورود الدم الطاهر الجديد من الرئتين ، وارتد بالعصر اليهما القهقرى ؛ وكذلك حال المضخة التي تضخ الدم القذر الى الرئتين ، اذا كانت مؤلفة من حجرة واحدة ، فانها حين تضخ الدم الى الرئتين ، تتقلص وتنعصر ، فتصدّ ورود الدم القذر من الوريدين الاجوفين الى القلب فيرتدّ الدم فيهما . فما العمل ...؟

لا بد ان يكون في القلب الأيسر صاحبِ الدم الاحمر الطاهر حجرتان ، احداهما عُليا والثانية سفلى ، ولا بد ان يكون في القلب الأيمن صاحب الدم الاسود القذر حجرتان كذلك . فالحجرة العليا في القلب الأيسر ، وهي التي تسمى (الأذَيْن الايسر) تستقبل الدم الاحمر الطاهر الآتي من الرئتين ، عند استرخاء القلب ، ثم تسوقه الى الحجرة السفلى التي تسمى (البُطَيْن الايسر) ، ومنه يدفعه القلب بالضخ الى الشريان الاكبر .

وكذلك الحجرة العليا في القلب الايمن ، وتسمى (الأذَيْن الايمن) تستقبل الدم الاسود القذر الآتي من الوريدين الاجوفين ، ثم تسوقه الى الحجرة السفلى وهي (البطين الايمن) ، وهذا يعصره ويدفعه الى الرئتين ليتطهر ، ثم يعود بقوة هذه الدفعة الجديدة من الرئتين صافياً نقياً ليدخل الى الاذين الايسر ، ثم الى البطين الايسر ، ثم الى الشريان الاكبر ، وهكذا دواليك ، ما دام الانسان حياً .

ولكن لو كان المدخل الذي بين كل من الحجرتين في القلب الايسر والقلب الايمن مفتوحاً دائماً لفسد الامر ، لان العصر الذي تقوم به عضلات القلب بقوة وشدّة لا بد ان يردّ الدم الوارد من الرئتين او من الوريدين ويدفعه الى الوراء . ونحن اردناهما حجرتين لنتّقي هذا التدافع بين دم يضخّ ، ودم يَردُ ، فما العمل ؟

لا بد ان يكون بين كل من الحجرتين باب موصد ، يمنع ارتداد الدم عند العصر والضخ ، فاذا وجد هذا الباب ، استطاع الأذين الايسر ان يستقبل دم الرئتين بلا مانع ولا دافع ، واستطاع البطين الايسر ان يعصر الدم ويضخه الى الشريان الاكبر بلا ازعاج لجاره الأذين الايسر .

ولكن انجعل هذا الباب موصداً دائماً ؟ هذا غير معقول ، فمن اين يدخل الدم الاحمر الجديد الى البطين الايسر ، والدم الاسود الى البطين الايمن ؟

لقد شاءت قدرة الخلاق العظيم ان تجعل البابين بشكل صمامين عضليين عصبيين ينفتحان وينغلقان ، من نفسهما ، لحظة بعد اخرى بلا توقف . ولكنهما صمامان لبابين في قلبين منفصلين عن بعضهما بحائط ، فهل من الضروري ان يكون انفراجهما معاً ، وانطباقهما معاً في آن واحد ؟

انهما قلبان مستقلان ، أفلا يمكن ان يتناوبا الفتح والغلق في دقتين مختلفتين ؟

ابداً لا يجوز ، لان القلب في الحقيقة واحد ، من حيث حركته وتقلصه وعصره وضخه ، وان كان قلبين في اقسامه . فكيف يكون الحال اذا انعصر القلب كله ، في وقت يكون به صمام القلب الايمن ، الذي يندفع منه الدم الاسود الى الشريانين الرئويين مغلقاً ... ؟ ان هذا يفجّر القلب ويمزقه .

اذاً يجب ان نجعل الصمامين كليهما ينفتحان معاً ليسهّلا دخول الدم الى الأذينَيْن ، وينطبقان معاً ليمكنا البطينَيْن من ضخ الدم في آن واحد .

وهكذا الحال في مخرج الدم الاحمر من البطين الايسر الى الشريان الاكبر ، وفي مخرج الدم الاسود من البطين الايمن الى الشريانين الرئويين : فانه لا بد ، في هذين المخرجين ايضاً ، من صمام لكل منهما ، كي لا يرتد الدم من الشريان الاكبر ، او من الشريانين الرئويين الى الوراء ، ولا بد ايضاً في هذين الصمامين ان ينفتحا وينسدا معاً ، كالصمامين اللذين بين الحجرات ...

والى هنا انتهينا من احكام عملية الضخ للدم ، واستقباله ، بنوعيه الاحمر والاسود .

ولكن بقي علينا ان نوصل الدم الى كافة انحاء الجسد . وفي الجسد اطراف علوية هي الرأس والذراعان ، واطراف سفلية وهي الرجلان ، وفيه الاحشاء بباطن الجسم . فكيف نوصل الدم من شريان واحد الى الجهات الثلاث ؟ انجعله يمر اولاً على الرأس ثم على الاحشاء ثم على الرجلين ؟

انه اذاً لا يصل الى الاحشاء والرجلين الا قذراً مسموماً . بل هذا متعذر ، لان الدم يذهب الى الرأس بفروع ، والى الذراعين بفروع اخرى ، ومن الرأس والذراعين يذهب الى كل زاوية وخلية عَبْرَ عروقٍ وعروقٍ لا تزال تتفرع وتدقّ ، حتى تصبح (اوعية شعرية) ، كما سموها لدقتها ؛ فكيف ، بعد ان يذهب الدم في هذه الفروع والشعريات ، يرجع ليتجمع مرة ثانية في الشريان الاكبر ، ليذهب منه ثانية الى الاحشاء حيث يتفرع مرة ثانية الى فروع وعروق وشعيرات ؟ وكيف يعود فيتجمع مرة ثالثة ليرجع الى الشريان الاكبر ليذهب الى الرجلين ... ؟ وبأي حال يكون هذا الدم من القذارة والتسمم ؟

لا بد ، اذاً ، من جعله فروعاً كباراً تتفرع من الشريان الاكبر ، فيذهب فرع كبير منها الى الرأس والذراعين ، ويذهب فرع كبير الى الاحشاء ، ويذهب فرع كبير ثالث الى الرجلين .

والى هنا نكون قد وفرنا للجسد الغذاء والحرارة ، وبقي ان نوفر لهذا الدم ، الطهارة والتصفية ، والمدد الجديد من الاوكسجين ، عن طريق الرئتين ، فكيف نرده ونوصله اليهما ؟

لقد جعل الخالق الحكيم ، سبحانه ، لهذا الردّ عروقاً خاصة يقال لها (الاوردة) ، يرجع فيها الدم الاسود من الرأس الى (الوريد الاجوف العلوي) ، ومن الاحشاء والرجلين الى (الوريد الاجوف السفلي) ؛ وساق هذين الوريدين حتى ردهما الى (الأذين الايمن) ثم الى (البطين الايمن) ليذهب الدم الى الرئتين فيتم له حرق فضلاته واوساخه وسمومه ، والتزود باوكسجين جديد ، ثم يعود احمر قوياً طاهراً ليدخل من (الوريدين الرئويين) الى القلب حيث يصب ، عند انبساطة القلب ، بين لحظة ولحظة وضخة وضخة ، في الأذين الايسر ، ليدخل منه الى البطين الايسر ، ويضخ منه في الشريان الاكبر وهكذا ...

حيران – سبحان الخلاق العظيم ... سبحانه .

الشيخ – اتظن هذه العجائب والغرائب انتهت عند هذا الحد من

العروق والشرايين والاوردة ؟ كلا يا حيران ، بل هنالك شرايين واوردة اخرى في القلب .

حيران – كيف ؟

الشيخ – أليس من حق القلب الذي غذّى الجسد كلـــه ان يتغذى هو ايضاً ؟

حيران – بلى انه يتغذى من الدم الذي فيه .

الشيخ – ولكن القلب ، كغيره من الاعضاء ، بل اعظم من غيره من الاعضاء ، فيه عروق وعروق ، وشعريات تصل الى اعمق خلية في نسيجه ، تغذيها وترجع منها باقذار وفضلات وسموم ؛ ولا بد لهذا الدم القذر ان يتبع الطريقة السابقة نفسها ، فيرتد الى القلب في اوردة خاصة تصب في الأذين الايمن ، ليرسلها البطين الأيمن الى التصفية . ولهذا جعل الخالق الحكيم لتوريد الدم الطاهر الى القلب نفسه ، شريانين يقال لهما (الشريانان التاجيّان) يتفرعان من الشريان الاكبر (الأورْط) عند مخرج الدم من القلب ، اي في وقت يكون الدم فيه اطهر ما يكون واقوى ما يكون . كيف لا ، والقلب ، واهب الدماء للاعضاء ، أحق منها واحوج الى الدم كمّاً وغذاءً وطهراً وقوة ، فله وحده خمس دم الجسد ، مع ان جرمه لا يزيد على واحد من مئة من جرم الجسد ، وله وحده اكثر ما فيه من الاوكسجين ، بينما الاعضاء الاخرى لا تأخذ اكثر من ربع الاوكسجين الذي يصل مع الدم اليها ؛ ولذلك جعل الخالق العظيم لهـــذا القلب شريانات خاصة واوردة خاصة .

هذا هو القلب يا حيران ... هذا هو القلب في فعله واثره ، وغرضه ووطره ، وقدْره وقدَره ، وحيطانه وجُدُره ، ومنافذه وحجَره ، وابوابه وسُتُره ، وكهوفه وحفَره ، وجداوله وغُدُره ، وصفائه وكدره ، ودأبه وسهره ، وصبره وحذره ، وعظيم خطره ...

هذا هو القلب المسكين الذي يضرب سبعين عاماً ، او تسعين ، ليلا ونهاراً لا يستريح طرفة عين ، يا حيران ...

كل عضو في بدنك يستريح ، اذا ارحته ، كلّ الراحة او بعض الراحة ، الا هذا القلب المسكين الذي يظل ساهراً عليك ، دهرَكَ كله ، لا ينعس ولا يغفُو ، ولا ينسى ولا يسهو ، ولا يعثر ولا يكبو ، ولا يخمد ولا يخبو ، ولا يملّ ولا يشكو ؛ وانت بجبروتك تؤذيه ، وبهمّك تصْليه ، وبأحقادك تكويه ، وبهواك تُضْنيه ، وبدموعك تبكيه ، وبأحزانك تُبليه ... وهو عفوٌ غفور ، دائب صبور ، بأمر الذي احسن خِلْقَتَه ، واعدّ له عُدَّته ، واوْقَدَ فيه جَزْوته ، وقدَّر له اجله ومدّته ؛ فاذا انقضى الأجل ، وانقطع العمل ، سكن في قَفَصه ، واستراح من غُصَصِه ... (فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهم مِنْ ذكْرِ الله) يا حيران ...

الصَّخْرَةُ الضَاحِكَةُ البَاكية

٥

الشيخ – وهذه الحياة يا حيران ، وما ادراك ما هذه الحياة التي خلقها الله في الصخرة الموات الصماء القاسية ، فاصبحت حية ساعية ، مدركة واعية ، غاضبة راضية ، شاكرة شاكية ، ضاحكة باكية ... ليت شعري ما هو حظ المصادفة في خلقها من التراب والماء يا حيران ؟

– (أوَ لمْ يَرَ الذين كفروا ان السماوات والارضَ كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كلّ شيء حيٍّ أفلا يؤمنون)

– (واللهُ خلق كل دابة من ماء ...)

– (ومن آياته انْ خلقكم من تراب ثم اذا انتم بَشَر تنتشرون)

– (وهو الذي خلقكم من طين ثم قضى اجلاً واجلٌ مسمّى عنده ثم انتم تَمْتَرون .)

– (يا ايها الناس ضُربَ مثلٌ فاستمعوا له انّ الذين تَدْعُون من دون الله لنْ يَخلقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له وإنْ يَسلبْهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب ما قَدَروا اللهَ حقّ قدْره انّ الله لقوي عزيز .)

– (فاستفتهم أهمْ اشدُ خلْقاً امْ مَنْ خلَقْنا انّا خلقناهم من طين لازب . بل عَجِبتَ ويَسْخَرون . واذا ذُكّروا لا يَذْكُرون . واذا رأو آيةً يَسْتَسْخِرون .)

هذا بعض ما يقوله القرآن في خلق الحياة من (الطين اللازب) ؛ وهو نفس ما يقوله العلم . فما هي هذه الحياة التي اجمع العلماء ، مع القرآن ، على انها تكوّنت من الماء والطين ، ثم وقفوا على عتبة الخفاء من سرّها حائرين ... ؟

انهم عرفوا الشيء الكثير من فروعها واصولها ، وعناصرها وطبائعها ، وُنظمها ونواميسها ، وعلموا ان جميع الاحياء تتألف من خلايا ، وان الخلية تتكون من النطفة الاولى (پروتو پلاسما Protoplasma) وعلموا ان هـذه النطفة الاولى مكونة من الكربون والاوكسجين والهيدروجين والنيتروجين ... وجربوا ان يخلقوا الحياة في شيء فعجزوا ... ثم اعترفوا ، مع القرآن ، باستحالة خلق ذبابة ...

ألا تذكر يا حيران قول بُخنرْ (ان الكرية ذاتها ، على بساطتها ، ذات بناء وتركيب يمتنع معه صدورها من الجماد مباشرة . بل ان ظهورها من الجماد لَيُعَدُّ ، في نظر العلم ، معجزة ليست اقل بعداً عن العقل من ظهور الاحياء العليا من الجماد مباشرة) .

حيران – كيف لا اذكره !

الشيخ – ألا تذكر قول توماس اكويناس (مـا مِن عالم عرف حق اليوم حقيقة ذبابة ...)

حيران – كيف لا اذكره

الشيخ – ألا تذكر قول روجر باكون (انه لا يوجد عالِم من علماء الطبيعة يستطيع ان يعرف كل شيء عن طبيعة ذبابة واحدة) .

حيران – كيف لا اذكره .

الشيخ – ولكنّ هذا القرآن الذي يقول للناس (يا ايها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ...) قد سبقهم جميعاً يا حيران ...

حيران – أتراهم قد اقتبسوا قول القرآن يا مولاي ؟

الشيخ – ان العقول السليمة تتلاقى على الحق يا حيران . وكلما ازدادت علماً كان تلاقيها على الحق ايسر واقرب . ومن اجـل هذا رأينا العلماء ، بعد ذلـك الانتكاس المادي الذي اعترى بعضهم في اواخر القرن التاسع عشر ، يرجعون الى التلاقي على الحق ، ويكادون يجمعون اليوم اجماعاً ، بلسان اكابرهم ، على ان هذه القوانين والنواميس ، التي نشأت على اساسها

الحياة وتطوّرت ، تنطوي على وحدة ، في القصد والارادة والعناية والحكمة ، يستحيل معها على العقل السليم المفكر ان يؤمن بأن هذه الحياة خُلقت وتطورت بالمصادفة العمياء .

فهذا اللورد كلفن العالم الانكليزي الكبير يعلن هذا الايمان على الناس ويسخر من القائلين بالمصادفة في خلق هـــذه الحياة ويعجب من اغضاء بعض العلماء عما في آثار الحكمة والنظام من حجة دامغة وبرهان قاطع على وجود الله ووحدانيته ، حيث يقول (يتعذر على الانسان ان يتصور بداية الحياة او استمرارها دون ان تكون هنالك قوة خالقة مسيطرة . واني لاعتقد من صميم نفسي ان بعض العلماء ، في ابحاثهم الفلسفيـــة عن الحيوان ، قد اغضوا اغضاء عظيماً مفرطاً عما في نظام هـذا الكون من حجة دامغة . فان لدينا فيما حولنا براهين قوية قاطعة على وجود نظام مدبّر وخـيّر . وهي براهين تدلنا ، بواسطة الطبيعة ، على ما فيها من اثر ارادة حرّة وتعلّمنا ان جميع الاشياء (الحيّة) تعتمد على خالق واحد احديّ ابديّ) .

وهذا انشتين العظيم يأتي من بعد كلفن ليقول (ان جوهر الشعور الديني ، في صميمه ، هو ان نعلم بان ذلك الذي لا سبيل لمعرفة كنه ذاته موجودٌ حقاً ، ويتجلى باسمي آيات الحكمــة وابهى انوار الجمال ... وانني لا استطيع ان اتصور عالماً حقاً لا يدرك ان المبادىء الصحيحة لعالم الوجود مبنية على حكمة تجعلها مفهومة عند العقل . فالعلم بلا ايمان يمشي مشية الاعرج والايمان بلا علم يتلمس تلمس الاعمى) .

فهل تريد احسن من هذا التلاقي بين عقول العظماء ، وبين القرآن الذي يقول لنا (انما يخشى الله من عباده العلماء) ...؟

حيران — حقاً انما يخشى الله من عباده العلماء .

الشيخ — وهذا الانسان يا حيران ، الذي يقول الله تعالى انه خلقه في (احسن تقويم) ما هو حظ المصادفة في خلقه وتقويمه ، ورعايته وتكريمه ، وتعقيله وتعليمه ...؟

– (لقد خلقنا الانسانَ في احسن تقويم .)
– (يا ايها الانسان ما غرّك بربك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك .)
– (الذي احسن كلّ شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين .)
– (أكفرتَ بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاكَ رجلاً .)
– (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى اجلاً واجلٌ مسمّى عنده ثم انتم تمترون .)
– (انّا خلقناهم من طينٍ لازب .)
– (هل اتى على الانسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . انّا خلقناه من نطفة امشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً .)
– (اقرأ باسم ربكَ الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذي علّم بالقلم . علّم الانسانَ ما لمْ يعلم .)
– (وعلّم ادمَ الاسماءَ كلّها ...)
– (واذْ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من طين . فاذا سوّيته ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين .)

هذا بعض ما يقوله القرآن في خلق الله لهذا الانسان ، من التراب والماء ، في الاجل المسمّى عنده ، بعد ان لم يكن له وجود على الارض ، ولم يكن شيئاً مذكوراً ؛ وهو يكاد يكون نفس ما يقوله العلم عن تكوين الانسان من التراب والماء والنطفة الاولى ، في آجال من التطور ، بعد ان لم يكن له اثر في طبقات الارض السفلى . فما هو حظ المصادفة في خلق هذا الانسان يا حيران ؟

هذا الانسان العجيب الذي يبدأ حياته من تراب وماء ثم من نطفة ، مثل كل حيوان اعجم ، ثم يصبح فيلسوفاً (يعلم الاسماءَ كلها) ويتسع عقله لادراك كل ما في هذا الكون من وجود ، ومادة ، ونظام ، وحق ، وخير ، وجمال ، فيصوغ منها علماً ، وفناً ، وادباً ، وشعراً ، ونغماً ، وحكمة ، وفلسفة ، وتصوفاً ، يكشفُ بانوارها ، وهو لا يدري ، عما فيه من روح الله ... هذا الانسانُ هل كان خلقه اثراً من آثار المصادفة العمياء يا حيران ؟

ما هذا الانسان بأيّ عجائبه اذكّرك ؟

كيف يُخلق في الظلمات الثلاث ... ؟

كيف يتطور في بطن امه من نطفة الى علقة الى مضغة الى انسان كامل ، خلقاً بعد خلق ... ؟

كيف يتغذى في بطن امه بتلك الطريقة العجيبة ؟

• كيف يتنفس ... كيف يرضع ... كيف يأكل ... كيف يمضغ ... كيف يبلع ... كيف يهضم ... كيف يمتص غذاءه ... كيف يدفيء جسده ... كيف يكنس جوفه ... كيف يلفظ كناسته ... كيف يقايض عليها بوقود جديد ... ؟

كيف يدفع دمه في جداول بدنه ليسقي حقوله الواسعة الشاسعة بتلك المضخة العجيبة ذات البيوت المقسّمة والصمامات المحكمة ، التي تعمل دهراً كاملاً في دورة دموية مستمرة تذهب فيها الجداول الحمراء بالدم النظيف المصفّى الى اقصى اطراف الجسد ، وترجع الجداول الزرقاء به ، مملوءة بالسواقط والنفايات واشلاء العمال الموتى ، الى مصفاة بل محرقة هائلة تنقّيه وتطهره وتحمّله الوقد الجديد ، ليرجع الى المضخة التي تدفعه ثانية في الجسد ، لتستمر الحياة دهراً كاملاً لا تقف فيه لحظة واحدة ... ؟

كيف يحوّل هذا الانسان غذاءه في كبده ويعدّله ويخزنه ؟

ما هو هذا الكبد ... ؟ ما هذه الغدة العظيمة الجليلة ، الكريمة البخيلة ، المتّزنة العاقلة ، المعدّلة العادلة ، المدّخرة الموفّرة ، الخازنة المقتّرة ، التي اذا زاد السكر (Glucose) في دمكَ عن واحد في الالف منعتْ وحرّمتْ ، وان نقص اعطتْ وتكرمتْ ، وان كثر الفائض خزنته بعد تحويله الى يوم حاجته ولزومه ، لتغذوك بترياقه وتحميك من سمومه ...؟

ما هذه الغدد (الهرمونية) ذات الافرازات الكيماوية السرّية التي تتحكم في الاعصاب والعضلات والعظام والعقل والقلب والشرايين والجنس : فتكبّر الجسمَ وتصغّره ، وتطوّله وتقصره ، وتذكي العقل فلا يهمد ، وتدفيء الجسد فلا يبرُد ، وترفع الضغط وتهبطه ، وتنشط العصب وتثبطه ،

وتحفظ على الملح نسبته ، وتضبط له حُسته ، وتزيد في السكر عند نقصانه ، وتحرقه عنــد طغيانه ، وتمسك على العظام كلسها ، وتعطي خلايا الجنس جنسها ... يا حيران ؟

ما هي هــذه الخلايا التي لا تُرى بالعين والتي يبلغ عددها في جسم الانسان التريليونات ، وكيف تنتظم جماعات ليصنع كل منها جانباً من الجسم ، كأنها النمل او النحل تعرف الدور الذي كُتب عليها ان تقوم به في رواية الحياة ... ؟

ما هذا التنسيق الآلي الكيماوي العصبي العجيب الذي يجعل كل عضو وكل غدة وكل خلية تتجاوب وتتعاون لايجــاد توازن ثابت دقيق في دم الجسم ، ومائه ، وحرارته ، وامصاله ، وعصاراته ، واملاحه ، واحماضه ، وقلوياتــه ، وسكرياته ؛ وتقوم باصلاح كل فساد ، وترميم كل خراب ، وتعويض كل نقص ، وتسديد كل عجز ، وتعديل كل افراط او تفريط ، ورتق كل فتق ، ورقع كل خرق ، وجبر كل كسر ، وقطع كل نزيف ، وتعبئــة كل قوة ، وشحذ كل سلاح ، وصنع كل سُم ومَصْل لرد كل عدوان ، وتحطيم كل عدو ، وامدادِ الجيش بجنود جدد ، بدلاً من شهداء الوطن العزيز ...؟

وهذا العقل الذي حارت كل العقول ، وما زالت حائرة ، في اسراره يا حيران ، عن اي عجائبه احدثك ...؟

كيف نفهم يا حيران ؟ كيف ندرك ، كيف نعقل ، كيف نحفظ ، كيف نختزن ملايين الملايين من المعارف ، واين نختزنها ، وكيف نستخرجهـا من مخازنها عند الحاجة ، وكيف نتذكر ، وكيف نقارن ، وكيف نعلّل ، وكيف نستنتج ، وكيف نحكم يا حيران ... ؟

وما هي هــذه القطعة من اللحم والشـّلة من الاعصاب التي علّمنا بها الخالق الاسماء كلّها وجعلنا بها فوق الملائكة يا حيران ... ؟

ما هــذا الجهاز العصبي العجيب المدهش الذي نسيطر عليه ، ويسيطر علينا ، من حيث ندري ومن حيث لا ندري ، فنتحكم ، بجانب منه ، في

بعض اعضائنا ، بارادتنا ، ويتحكم هو بجانب آخر من خيوطه ، في اعظم اعضائنا خطراً بل في كل خلية من جسمنا ، بارادته الخاصة المطلقة بدون علم منا ، كأنما في هذا الجهاز عقلان مستقلان : الواعي ، وغير الواعي الذي هو احق واجدر ان يوصف بالوعْي ، لان ذلك الواعي قد يخطيء وهذا لا يخطيء ابداً ، ولأن الواعي لا يعي اعمال زميله ولا يتدخل فيها ابداً ، ولو وعاها وتدخل فيها لافسدها ، اما غير الواعي فيشعر بكل اعمال الواعي ويتدخل سراً بتنسيقها . واذا سكن الواعي او تعطل فكل الذي ينتج عن سكونه او تعطيله ان عضلاتنا تتوقف عن الحركة ودماغنا يكلُّ عن التفكير الصحيح ، ويصبح حالنا اشبه بحال النائم ؛ واما اذا اذا تعطل غير الواعي فالقلب يختلّ ، والمعدة تختلّ ، والكبد يختل ، والسمع يختل ، والبصر يختل ، ... بل كل شيء فينا يختل ويكون مصيرنا الموت المحتم ... فهل كان هذا الفصل العجيب المحْكم الحكيم بين السلطتين اثراً من آثار المصادفة العمياء يا حيران ؟

وما هذه المادة المخيَّة المحتوية على اكثر من ١٢ مليون خلية تتصل احداها بالاخرى بليف عصبي ذي فروع لا تعد ولا تحصى ، فتعمل ، بدقة عجيبة وتناسق مدهش ، كأنها خلية واحدة يا حيران ...؟

وما هذا السحاء الدماغي الذي كأنه مركز قيادة في كل بيت من بيوته ضابط يتلقى من الخارج ألوف الرسائل الواردة من طريق الحواس ويخبر بها القيادة العليا ... ؟

وما هو هذا القائد الاعلى الذي يتولى تنسيق تلك الرسائل العديدة ، فيقرأ هذه ، ويؤخر هذه ، ويطرح تلك في الاعماق ، ثم يقارن ، ويعلّل ، ويصحح ، ويعدّل ، حتى يستنتج ، ويكوّن ، من الاحاسيس الجديدة والقديمة المخزونة ، ادراكاً عقلياً عجيباً يخرج به هذا الحيوان الأعجم السافك الدماء عن بهيميته ، حتى يسمو احياناً الى عتبة ذلك الذي جعله في الارض خليفة وكرّمه ، وبالقلم علّمه يا حيران ... ؟

افكلُّ هذا الاحسان ، والاتقان ، والتقويم في الخلق ، والتقدير ، والاتزان ،

والتنظيم ، والاحكام ، والتعديل ، والترابط ، والتجاوب ، والتعاون ، والتناسق بين ملايين الملايين من الذرات والخلايا والاعصاب هو أثر من آثار المصادفة العمياء يا حيران ...؟

(أتكفر بالذي خلقك من تراب ثم سوّاك رجلاً) يا حيران ... ؟

(بلْ عجبتَ ويسْخرون . واذا ذُكّروا لا يذكرون . واذا رأوْا آيةً يستَسْخِرون) ...

يقول حيران بن الاضعف : وهنا اجهش الشيخ وشرق بدمعه فاكببْت على يديه اقبلها واغسلها بدموعي فجأر بالبكاء وهو يقول (فويْلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله) يا حيران ... يكررها حتى هدأت نفسه فاستسلم الى سكون عميق .

وما زلنا ساكتين ساكتين حتى نبهتنا اشعة الشمس المشرقــة من خلال الشجرة التي تظلّل ضريح الامام . فقال الشيخ ، بصوت ضعيف لا تزال فيه بحّة الباكي : يا حيران اني تعِب . احضر لي وَضوني ... وبعد ان توضئنا وقضينا صلاة الصبح اوى الشيخ الى فراشه وهو يقول . دثّرني دثرني ، يا حيران ، فقد بردّني الليلُ وانهكني السهر ...

وصيّة الشيخ

٦

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ؟ ... »

(القرآن)

صنفان من الناس فقط يجوز ان نسمّيهم عقلاء (وهم الذين يخدمون الله لأنهم يعرفونه ، والذين يجدّون في البحث عنه لأنهم لا يعرفونه)

باسكال

يقول حيران بن الاضعف : وبعد ان دثّرت الشيخ وخرجت من عنده لم انمْ لاني كنت على موعد مع رجل من اهل (خرتنك) فذهبت اليه ، وقضيت النهار عنده . ولما عدت بعد الغياب ، وصلّيت العشاء مع المؤذن العجوز ، قال لي : هل رأيت مولانا في هذا النهار ؟ قلت : كلا لم أره لاني ذهبت عند طلوع الشمس الى القرية ، ولم اعدْ منها الا الساعة . قال : اني لقَلِقٌ عليه ، فقد ذهبت بعد المغرب لآخذ جُونة طعامه كعادتي فوجدتها لا تزال معلقة في سياج البستان ، حيث نضعها له ، والطعام فيها على حاله ؛ فهل ترى ان نتفقده في الغياض ؟ ان البرد قارس في هذا المساء . قلت لا داعي لهذا ، فانه لا يبقى في الغيضة مع هذا البرد ، وارجّح انه في غرفته ، ولعلّه مريض ، فقد تركته عند الفجر مقروراً تعِباً ، وسأتفقده الآن . فاذهب انت الى عيالك وكن مرتاح البال .

وبعد ان ودّعني هذا العجوز الطيّب ، اوصدت باب المسجد ، وعدت الى غرفة الشيخ ، فرأيتها مظلمة ، فاعترتني رعدة من الخوف حين خطر ببالي انه اصيب بمكروه . وتهيّبت الدخول عليه حتى لا اهجم على الفُجاءة ، فعدتُ ادراجي متجسّساً ، فخرجت من المسجد ودُرت حول فنائه حتى دخلت الى الروضة الصغيرة المسوَّرة ، التي بها ضريح الامام ، لأنظر الى الشيخ من نافذة غرفته المطلّة على الضريح . فوجدته في فراشه ، وسمعت نشيجاً ودندَنَةً تُشبه الدعاء ... ولمّا دنوت من طرف الشبّاك ، واصغَيْت الى الصوت سمعته يقولُ : (رَبِّ اوزِعْني انْ اشكر نعمتك التي انعمْتَ عليَّ وعلَى والديَّ وان اعمل صالحاً ترضاه وأصْلِحْ لي في ذرّيتي إنّي تُبتُ اليك وإنّي من المُسْلمين) ثم نشج نشجة عميقة سمعته يقول

بعدها (ولْيخْشَ الذين لو تركوا مِنْ خلْفِهم ذُرّيّةً ضعافاً خافوا عليهم فلْيتّقوا الله ولْيقولوا قوْلاً سَديداً .) ، ثم رفع يديه الى السماء ، واعْول في البكاء وهو يقول : اللهم جنّبنا مصارع السوءِ برحمتك يا ارحم الراحمين ...

هنا عدت ادراجي الى المسجد عجِلاً ، وقد ارعدني البرد القارس ، فدخلت على الشيخ ، قبل ان يأذن لي . فلما رآني قال : لا تَخَفْ ... انني لا ازال حياً ... ولكنّي مريض ... اسرِج المصباحَ ، وأْتني بشيء من اللبن اسدّ به رمقي ، فقد قضيت النهار كله طيّاً . وبعد ان شرب اللبن ، امر بوَضوئه ، ثم صلّى العشاء قاعداً . وعاد بعد الصلاة الى سريره ، وجلس متكئاً ، ونظر اليّ مبتسماً وقال :

– يا حيران ! أما قال الله (ولا تَجَسّسُوا) ? ، أما قال (وأْتوا البيوتَ من ابوابها) ?

حيران – بلى . ولكنه تجسُّسُ المحب الهلوع يا مولاي ... فقل لي ، بربك ، ما الذي كان يبكيك ، وبماذا كنت تدندن ?

الشيخ – انها وحشة الشيخ الفاني ، اذا شعر بدنوّ أجَله يا حيران ...

حيران – العمر الطويل يا مولاي .

الشيخ – لقد طال يا حيران ... ومن نِعَم الله على عبده ، ان يقبضه اليه قبل ان يصير الى ارذل العمر . وما كنت ابكي من خشية الموت . ولكني كنت اضرع الى الله في وحدتي ... فانه ، سبحانه ، يحب من عبده ان يدعوه تضرُّعاً وخُفية .

حيران – ما هذا الذي كنت تدعو به يا مولاي ?

الشيخ – لكلٍ منّا آلامُه ، وآماله ، ومخاوفه ، وذكرياته ، يا حيران . وكلٌّ يدعو بما يتصل بذات نفسه .

ثم حوّل الشيخ وجهه عني نحو النافذة ، والدمع يجول في عينيه ، وقال ، وهو يتشاغل بأغلاقها ، ليصرفني عن النظر اليه : أرْتِجها يا حيران ، فان برد الخريف اضرّ من برد الشتاء .

ولما دنوت من سريره ، وانحنيتُ عليه لأرْتِجَ النافذة ، احسّ الشيخ اني اشرق بالدمع ، فقال :

– وخُلِقَ الانسانُ ضعيفاً ، يا حيران ...

حيران – ومن هو ابوك يا مولاي ؟

الشيخ – ابي وابوه عبدان من عباد الله الصالحين .

حيران – وأينَ هم اولادك يا مولاي ، وما حالهم ؟

الشيخ – انهم هناك في سمرقند ، وهم بألف خيرٍ ونعمةٍ من الله يا حيران .

حيران – اذاً لماذا اراك جزوعاً عليهم ، هلوعاً على مصيرهم ؟

الشيخ – ليس المالُ كلّ شيء يا حيران ... اللهمّ جنّبْهم مصارعَ السوء واسْتُرْهم بستْرك الجميل ...

حيران – ولماذا اخترتَ البعد عنهم ، واعتزلتَ الناس في هذا المسجد ؟

الشيخ – لستُ ببعيد عنهم ، فسمرقند على بعد فرسخ من خَرْتَنْك . ولكني سعيتُ لهم في زادهم اربعين عاماً ، وجئت ، اليوم ، اسعى في زادي لِمَعادي ...

حيران – أليس السعي على العيال ، والقيام عليهم ، من اعظم البرّ عند الله ؟

الشيخ – بلى بلى يا حيران ... ولكنّ الانسان ، اذا شعر بدنوّ أجله احب الانقطاع الى الله ... وهذا ما لا يتيسر في زحمة المدينة . ولي في هذا المسجد ، بين هذه الغياض ، ذكريات من ايام الشباب ، تُعاودني فأجد فيه أنساً لا اجده في مكان سواه ؛ وطالما كنتُ ، اذا حَزَبتْني المصائب ، احدّث نفسي ، وامنّيها بيوم انقطع فيه الى الله في هذا المسجد عند قبر هذا العبد الصالح ... فالنفس ، يا حيران ، اذا استوحشتْ من الخلْق ، لا تأنس الّا بالخالق ، ولا تحسُّ بالقرب منه ، الّا اذا لاذتْ بجوار عبد من عباده المقربين ...

حيران – هذا صحيح . وقد اعتَدْنا ان نتقرب من ملوك الارض وراء احدِ المقرّبين اليهم .

الشيخ – شتّان وهيهاتَ يا حيران ... (مَنْ ذا الذي يشْفَعُ عنده

الآ بأذنه ؟...) ولكننا ، مع هذا اليقين ، نشعر بلذة التذلل الى الله من طريق الاستشفاع باوليائه واحبابه ؛ كأننا نعترف بذنوبنا ، ونرى نفوسَنا اذلّ واهون ، امام الله ، من ان تدنو من باب رحمته الآ متواريةً وراء عبد من عباده المقربين ...

حيران – الآن فهمت معنى قولك ، يوم جئتك ، اني ازعجتك ، وافسدت عليك لذة استغراقك في ذلّك وانكسارك الى الله . حقاً لقد ثقّلتُ عليك يا مولاي ، وقطعتك عن العبادة .

الشيخ – لقد زدتني عبادةً يا حيران ... بل اتحتَ لي خيرَ ضروب العبادة ... (ومنْ احسَنُ قولاً ممّنْ دعَا الى الله) يا حيران ؟

حيران – احسن الله اليك يا مولاي .

الشيخ – ولكنك شغلتني ، الليلة ، بالحديث عن نفسي .

حيران – كل الحديث معك خير ... وقد وجدتك تعِباً مكتئباً ؛ وما اراني اطيق السهر ، فاني لم انَمْ منذ تركتك بعد طلوع الشمس ابداً ، بل ذهبت الى خرتنك ، وعدتُ اليها بعد الغياب تعِباً مقروراً كأني محموم .

الشيخ – وزدتَ نفسك اذى حين خرجتَ الى الروضة ، متجسّساً عليّ ، في هذا البرد القارس ... قمْ . قم واذهب الى فراشك ، واليك هذا الدثار فاستدفئ به .

يقول حيران بن الاضعف : ولما تركت الشيخ ، واويت الى فراشي ، اخذت اشعر برعدة الحمّى ... ثم قضيت الليل كله اتقلب على مثل الجمر . ولما طلع الفجر وجاء الخادم العجوز ، تحاملتُ على نفسي ، حتى فتحت له الباب . فلما رأى ما بي جزِعَ ، وبادر الى الشيخ ، فاخبره بحالي ، فاقبل عليّ يدلف في مشيته ، ودنا مني حتى امسك بيدي ، فلما احس لذع الحمّى اكفهر وجهه ، وامر خادم المسجد ان يدعو له كبيرَ القرية ليحملني الى المستشفى في سمرقَنْد .

وعبثاً حاولت ان اصرفه عن ارسالي الى سمرقند ، فانه اصرّ بعناد وهو يقول : لا بأس عليك ، انشاء الله ، يا ولدي . ولكن انت غريب

بعيد عن اهلك . والحمّى عليك شديدة الوطأة . قلت : يا مولاي ، انني اعرف من انواع الحمّى ما يكون موقتاً ينتهي في يوم وليلة ، فدعني في جوارك الى الغد ، لعلّهـــا تفـْتر عني ، والّا فاني اصدع بامرك . قال : عسى ان تكون موقتة ، ولكني اعرَف منك بانواع الحمّى . فهذه التي تأتي من البرد ، هكذا صاعقةً ، بعد يوم كامل ، تحتاج الى معالجة وعناية ، والتأخير لا يأتي بخير .

وما انتصف النهار حتى شتدت عليّ وطأة الحمّى ، وشعرت بدُوّار في رأسي ، ثم غبت عن الوعي . ولم افـق من غيبوبتي الّا بعد يومين ، فوجدت نفسي في المستشفى . وعلمت بعد ذلك ان الشيخ (الموزون) احضرني بنفسه اليه ، وامر بالعناية بي ، وكان امره مطاعاً .

وقضيت في المستشفى اسبوعين كاملين ، حتى زال الخطر عني ، وسمح الطبيب بدخول العوّاد عليّ . وكان اول الداخلين خادم المسجد . فسألته عن الشيخ ، فبلّغني سلامه ، واخبرني انه اصيب بنَوبة ، بعد عودته من سمرقند ، وانه يلازم فراشه من ذلك اليوم . فدعوت الطبيب ورجوته ان يسمح لي بالخروج ، فأبى وقال : انت في اول النقاهة ، ومن الخطر عليك ترك الفراش قبل انقضاء اسبوع على الاقل . فذكرت له قلقي على الشيخ ، فقال : انه الآن بخير ، وقد مرت النوبة عليه بسلام . وقد حذّرته من ترك السرير ، ومن كل جيْشة نفْسية ، ومنعت اخانا العجوز من اخبـار اهله بمرضه ، كي لا تكون زيارة اولاده له سبباً لحزنٍ قد يجدد له النوبة ، ويقضي عليه ، وحذّرته من المطالعة والكتابة .

قال الخادم العجوز الذي يسمع الحديث : ولكنه يكتب طيلة النهار يا سيدي ، وعبثاً حاولت ان امنعه . وكل ذلك من اجْل سيدي حيران .

قلت : من اجْلي انا ؟ قال : نعم من اجْلك يا سيدي . فاني كنت اختلس النظر اليه ، فاقرأ ، فيما يكتب ، اسمك انت يكرّره ...

قلت : هذا عجيب . واين الكتاب . ولماذا لم يبعث به اليّ ؟ قال لا ادري ، انه مكتوب طويل يا سيدي .

وبعد ايام جاء الخادم العجوز يحمل اليّ (دفتر الأمالي) وبلـّغني سلام الشيخ ، فاخذت الدفتر وخبأته في خزانتي ، واقفلت على بابها . ثم سألت العجوز ، لِمَ بعث اليّ الشيخ بهذا الدفتر، فقال لا ادري ، ولكنه اوصاني ان اسلـّمه اليك بيدك ؛ فتناوبتني الهواجس ... واقسمتُ على العجوز ان يَصدقني الخبر عن الشيخ ، فاقسم انه بخير وعافية . فقلت : واين مكتوبه الذي قلتَ انه يكتبه اليّ ؟ قال لا ادري .

وانقطع عني الخادم العجوز ، بعد ذلك ، خمسة ايام كاملة ، فقلقتُ على الشيخ . ولما سألت الطبيب عنه تشاغل عن الجواب . وفي اليوم السادس دخل عليّ الخادم العجوز وهو مكفهر الوجه ، منكـّس الرأس ، مقرّح الاجفان . وما سألته عن الشيخ حتى انفجر بالبكاء وهو يقول مُعْوِلاً : انه مات يا حيران ... انه مات وهو يذْكرك كما يذكر اولاده ...

واعولـْنا كلانا حتى ضجّ المستشفى . وجاء الطبيب فاخذ يعاتب الرجل على انبائي بوفاة الشيخ . وبعد ان سكنتْ نفسي اخبرني ان الشيخ اصيب بنوبة ثانية لم يتحملها قلبه . وانهم دفنوه ، عملاً بوصيته ، قرب المسجد بين الرياض التي كان يقضي بها آخر ايام حياته .

ثم سمح لي الطبيب بالخروج ، فارتديت ثيابي ، وحملت دفتر الامالي ، ورافقت الخادم الى خرتنك ثم الى المسجد ، وهناك قعدت الى قبر الشيخ الحبيب ، اسقي ترابه بدموعي . وما زلت ابكي حتى اقبل الليل ، وشعرت بأثر البرد ، فعدتُ الى المسجد ، واويت الى غرفة الشيخ مع الخادم العجوز الذي لم يشأ ان يفارقني تلك الليلة .

وبعد ان نام الخادم ، اخذت ابحث في خزانة الشيخ ، عن ذلك الكتاب الذي قيل انه كان يكتبه اليّ ، فلم اجد له اثراً .

واستعصى عليّ النوم من فرط حزني وغمي ... وضاق بي المسجد ، على سعته ، وكدت اخرج منه الى العراء لولا خوفي من البرد القارس ... وطال عليّ ليل الشتاء ، فالتمست في الغرفة كتاباً اقطـّع الليلَ بقراءته ، فلم اجد شيئاً ، لان اهل الشيخ قد اخذوا كل متاعه الى بيتهم ... ولم

اجد امامي ما اتسلى به الّا دفتر الأمالي . فتناولته وفككت رباطه الذي عقده الشيخ ، رحمه الله ، بيده . وما انفرجتْ دفّتاه حتى وقع نظري على اوراق بخط الشيخ ، فاذا هي كتابه ، الذي علمتْ انه كان يكتبه اليّ ... وهذا هو :

يا ولدي يا حيران بن الأضعف !

السلام عليك ورحمة الله . والحمد لله على شفائك .

وبعد فاني اشعر بدنوٍّ اجلي منذ اصبت ، في غيابك ، بفأْد في القلب ، لا ارجو ان انجو من عواقبه ... وقد عزّ عليّ ان اقضي نحبي وألْقَى ربي قبل ان أُلقيَ اليك بآخر امانة لك في عنقي ، فكتبت اليك هذه الرسالة ، لتُلْحِقَها بدفتر الأمالي ...

يا حيران بن الاضعف !

لقد جئتني ، حيران ، ضالًّا ، متورّطاً في وحول معرفةٍ بَتْراء ، وعلمٍ فَطير ، تلاقيا فيك على عقل غرير ، متطلّعٍ ، بفطرته ، الى الادراك ، مستشرفٍ ، بغروره ، الى ما وراء الادراك ... فبذلتُ كل ما في وسعي لأهديك الى الحق الذي لا ريب فيه .

واحسب اني كنت موفقاً في هديك ، لاني وجدتُ بك مرآة نفسي في شبابي ، فعرفتُ من اين أُخذْتَ وعلمتُ من اين تؤخذ حتى تُردّ الى الحق . فجاريتك كما جاريت نفسي ، وداويتك كما داويتها ، ولعلّي ابرأتك كما ابرأْتها ...

يا حيران بن الاضعف .

اعلم ان الايمان بالله (حقٌّ) و (حاجةٌ وضرورة) . فأمّا انه حق فقد عرفْتَه مما حدثتُك بـه في تلك الليالي الطوال التي عشتَها معي .

وأمّا انّه حاجة وضرورة فانك تعلمه ، يا حيران ، حين تدرك ، كما ادرك المؤمنون والملحدون قاطبةً ، على السواء ، انّ الايمان بالله هو :

أُسّ الفضائل ،
ولِجامُ الرذائل ،
وقِوامُ الضمائر ،
وسندُ العزائم في الشدائد ،
وبلسمُ الصبر عند المصائب ،
وعمادُ الرضى والقناعة بالحظوظ ،
ونور الأمل في الصدور ،
وسَكَنُ النفوس اذا اوحشتْها الحياة ...
وعزاء القلوب اذا نزل الموت او قَرُبَتْ ايامه ...
والعروة الوثقى بين الأنسانية ومُثُلها الكريمة .

ولا يخدعنّك ، عن هذا يا حيران ، من يقول لك ان مكارم الاخلاق تغني ، بوازع الضمير ، عن الأيمان ، لأن مكارم الاخلاق التي تواضعْنا عليها ، للتوفيق بين غرائزنا وحاجات المجتمع ، لا بد لها ، عند اعتلاج الشهوات في الشدائد والأزَمات ، ان تعتمد على الايمان . بل انّ هذا الشيء الذي نسميه ضميراً انما يعتمد في سويدائه على الايمان ...

وانقياد الناس لمكارم الاخلاق ، يا حيران ، انما يكون بزاجر من السلطان ، او وازع من القرآن ، او رادع من المجتمع ، فاذا كنا في نجوة من سلطان القانون والدّين والمجتمع لم يبق لنا وازع الّا الضمير . ونحن في معركة الشهوات والغرائز مع الضمائر ، قلّ ان نرى الضمير منتصراً ، الا عند القلّة من الناس ؛ وهذه القلة نفسها لا تستمسك بضمائرها ، عند جموح الشهوات ، الّا اذا كانت تخشى الله يا حيران .

ولو تركْنا مكارم الاخلاق جانباً ونظرنا الى حاجتنا الى الايمان من حيث هو سَنَد في الشدائد ، وبلسم للمصائب ، وسَكَنٌ للنفوس ، وعزاء للقلوب ، وعلاج لشقاء الحياة ، لوجدْنا اننا ، عند فقد الايمان ، نكون

اسوء حظاً في الحياة ، وادنى رتبة في سلم المخلوقات ، من اذلّ البهائم واضعف الحشرات واشرس الضواري :

فالبهائم تجوع كما نجوع ، ولكنها في نجْوة من همّ الرزق ، وخوف الفقر ، وكَرْب الحاجة ، وذلّ السؤال ...

وهي تلِد كما نلد ، وتفقد اولادها كما نفقد ، ولكنها في راحة من هلع الثّكلة ، وجزع الميْتمة ، وهمّ اليتامى المستضعفين ...

وهي ، في اجسادها ، تلذّذ كما نلتذّ ، وتألم كما نألم ، ولكنها في راحة ممّا يأكل القلوب ، ويقرّح الجفون ، ويقضّ المضاجع ، ويقطّع الارحام ، ويفرّق الشمل ، ويخرّب البيوت من المهلكات : كالحسد ، والكذب ، والنميمة ، والفرية ، والقذف ، والنفاق ، والخيانة ، والعقوق ، وكفر النعمة ، ونكران الجميل ...

وهي تعرف ، بنوع من الادراك ، ما يضرّها وما ينفعها ، ولكنها في نجوة من اعباء التكليف ، واثقال الأوزار ، ومضض الشك ، وكرب الحيرة ، وعذاب الضمير ...

وهي تمرض كما نمرض ، وتموت كما نموت ، ولكنها في راحة من التفكير في عُقبى المرض ، وفراق الأحباب ، وسكرات الموت ، ومصير الموتى وراء القبور ...

والضواري تسفك الدماء لتشبع بلا سَرَف ، ولكنها لا تسفكها انَفاً ، ولا جَنَفاً ، ولا صَلَفاً ، ولا تَرَفاً ... ولا علوّاً في الأرض ولا استكباراً ...

اما هذا الحيوان الفيلسوف ، الضّعيف ، الهلوع ، الجزوع ، المطماع ، المختال ، الفخور ، المترّف ، المتكبّر ، المتجبر ، السافك الدماء ، الذي لا يأتيه شقاء الحياة ، اكثر ما يأتيه ، الا من تفكيره ، فانه لا علاج لشقائه الّا بالايمان . فالايمان هو الذي يقوّيه ، وهو الذي يعزّيه ، وهو الذي يسلّيه ، وهو الذي يُمَنّيه ، وهو الذي يُرضّيه ، وهو الذي يجعله انساناً يسعى الى مَثَله الاعلى لتسجدَ له الملائكة ... ومن دون هذا الايمان يكون هذا الانسان المسكين اتعس الخلائق ، واسوأها حظاً ، واعظمها

شقاءً ، واشدّها بلاءً ، واحطّها رتبةً ، وارذلها مصيراً ...

وسبيله الى الايمان هو ذلك (التفكير) الذي كان سبب شقائه . انه عبدٌ لتفكيره قبل ان يكون عبداً لربه ، ولا يكون عبداً لربه ، حقّ العبْد ، الّا بهذا التفكير ... الذي ينسج اكثر خيوط سعوده ونحوسه في الحياة الدنيا وفي الاخرة .

لقد خلق الله هذا الانسان ورفعه ، وكرّمه ، وميّزه بهذه النفس العاقلة المفكّرة التي علّمه بها الاسماءَ كلّها ، وخلّفه بها على الارض ، وصيّره بها فوق الملائكة ، وكتب الفَلاح لمن زكّاها والخيبة لمن دسّاها (ونفسٍ وما سوّاها . فالهمَها فجورها وتقواها . قد افلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها) فكيف نزكّيها يا حيران ...؟

اننا نزكّيها بالتفكير حتى تتسامى الى مَثَلها الاعلى ، وتصل الى (اليقين) من الحق والخير والجمال ، فترى الله عنده ... وتجد من حلاوة الايمان ما تدرك به سرّ شقائها وسعادتها ، وضعفها وقوتها ، وعجزها وقدرتها ، وعبوديتها وحريتها ، بل سرّ خلقها ، ووضعها على مفترق (النّجْديْن) ، وتركيبها على هذه الصورة القابلةِ (للضدّيْن) ، التي من دونها لا يُفهَم معنى (العبودية) ، ولا يستقيم معنى (العبادة) يا حيران ...

لذلك كان حقاً علينا ، من باب الحاجة والضرورة ، ان لم يكن من باب الحقّ والعبادة والتقوى ، ومن اجل سلامة عقولنا ، وسلامة قلوبنا ، وسلامة ضمائرنا ، وسلامة انسانيتنا ومثلها العليا ، وسلامة المجتمع ، ان ندعو الى الايمان بالله ، ونُيسّره للعقول ، ونشرح له الصدور ...

يا حيران بن الأضعف !

لقد عراني ، في عهد الشباب، من كرْب الشك والحيرة ، مثلُ الذي عراك .

واغراني بالفلسفة ، مثل الذي اغراك .

واولعني بالجدل والسفسطة ، مثل العلم الابتر ، والنظر الاخزر ، الذي اولعك .

واوجعني ، من بعض رجال الدين ، مثل الجمود ، الذي اوجعك .

وقطعني ، عن البحث والدرس ، مثل الذي قطعك .

وكرّت بنا الايام والسنون ، والحّت علي الحياة بآلامها ، في ذات نفسي ، وفيمن أُحبّ فاستشرى بي الشك من جديد ، حتى صرتُ اقرب الى الالحاد مني الى الايمان ...

وما زال سوء الطالع يدفعني في ظلمات الحيرة ، حتى اوقفني ، في عبادة ربي ، على حرْف ، بين الايمان الموروث ، والقنوط من رحمة الله ...

ودارت بي الايام ، ودخلتُ في خدمة الامير ، مرافقاً اثيراً عنده ، وصاحبته الى الحجاز . وهنالك في المدينة المنورة ، هُديتُ الى شيخ جليل صالح ، يدعى الشيخ عبد القادر ، رأيته في المسجد النبوي ، يقرأ ، بعد صلاة الصبح ، درساً على رهط من شيوخ الهند ، الذين جاءوا لاداء فريضة الحج . وقعدتُ ، بعد الصلاة ، بينهم في حلقة الدرس ، استمع الى الشيخ ... وطال عجبي ، حين سمعته يقرأ في كتابٍ ، امامَه ، سرداً لا يقف فيه لتقرير ، او شرح ، او ايضاح ، او تعليق . وازددتُ عجباً حين رأيت ان الذي يقرأه كلام في تلخيص مذهب الفلاسفة الطبيعيين المنكرين لوجود الله ؛ فاني ما سمعتُ ابداً بأن مثل هذا يُقرأ في المساجد .

ولما انتهت ساعة الدرس ، وانفرط عقد المتحلّقين حول الشيخ ، دنوت منه وسألته عن هذا الكتاب . وذكرت له عجبي فقال : يا ولدي . هؤلاء رهط من علماء الهند ، كل واحد منهم اعلم مني بالفقه والحديث والتفسير . وقد جرَت عادتهم ان يسمعوا ، طيلة اقامتهم في المدينة ، دروساً من علمائها ، للتبرّك ، ثم يطلبون منا الاجازة للتيمُّن ، ويجزوننا على ذلك خير الجزاء ...

ولما اتوني اول مرة ، شاورتهم فيما اقرأ لهم ، فتركوا الأمر اليّ . فذكرت لهم كتاب (الرسالة الحميدية) للشيخ الجسر ، وهو شيخي وانا من بلده ، ففرحوا به ، وابتهجوا ، لانه كان معروفاً لديهم ، ومترجَماً بالاوْرديّة ؛ فاخذت اقرأه عليهم ، من غير شرح ولا تقرير ، لان كلامه واضح جداً ، ولاني قليل الاطلاع على الفلسفة ، فخفت ان يعترضني احدهم

بسؤال او إشكال لا استطيع له جواباً ولا حلاً ..

وقد انتفعتُ ، ببركة شيخنا الجسر ، من هـــذه القراءة ، وما زلت انتفع منها في كل عام : فما من عالم او طالب علم ، يأتي من الهند ، الاّ ويطلب مني ان اقرأ عليه كتاب الجسر ، ويشتري منه نسخاً ، يأخذها معه ، هدية ، الى بلده .

وبعد ان حدّثني الشيخ عن اصله وبلده ، وكيف هاجر منهـا الى المدينة مجاوراً ، طلبتُ منه نسخـة من (الرسالة الحميدية) ، فاتاني بها . فشكرته ، وودعته ، وعـدت الى مأواي ، فتفرغت لقراءة الكتاب في ليلتين . ثم اعدتُ قراءته لِمّا رايت من سموّ تفكير الجسر ، وسعة علمه ، وسداد نظره ، ونفوذ بصيرته ، وبُعْده عن الجمود ، واعتماده على العقل ، واحترامه للعلم ، وبراعته في التوفيق بـــين حقائق العلم القاطعة وحقائق الدين الساطعة .

فلما قضى الامير سنّة الزيارة لمسجد رسول الله ، وعدْنا بطريق البحر الى ديار الشام ، استأذنته بزيارة الجسر في بلده ، فاذن لي . ونزلت في طرابلس الشام ، وزرت الشيخ في جامع يُسَمّى جامع الامير (طينَال) ، وهو اشبه شيء بهذا المسجد ، الذي نحن فيه ...

ولما عرّفته بنفسي ، وذكرت له اصلي ونسبي ، وقصصت عليه حكاية اطّلاعي على كتابه ، وقصدي لزيارته ، وعَرَفَ مـــا اشكو من مضّ الشك ، وكرْب الحيرة ، رحّب بي ، وسألني عن علماء بلادي فرداً فرداً ، ثم اكرم مثواي وانزلني في دار له هناك في سفح الجبـــل ، تطلّ على المسجد والرياض التي حوله . ثم صرت ارافقه ، كل يوم ، الى الجامــع ، استمع الى دروسه ، مع رهط من اجلة العلماء من تلاميذه .

وبعد ان قضيتُ في ضيافته شهراً كاملاً ، استأذنته في السفر ، والعودة الى بلادي ، وذكرت له عذري ، وارتباطي بالأمير ، فقال لي : يا أبا النور ! هذه الايام المعدودات التي سمعتَ بها الدرس لا تكفيك ، ولكني انصحك ان تُكْثِر من قراءة الفلسفة ، حتى لا تترك منهـــا شيئاً ، وتُكثر من

قراءة علوم الطبيعة ، وتُكثر من قراءة القرآن .

قلت : كيف أُكثِرُ من قراءة الفلسفة ، وهذا الشك ما اتاني الّا منها ؟

قال يا ولدي يا أبا النور : ان الفلسفة بَحْر ، على خلاف البحور ، يجد راكبه الخطرَ والزَّيغَ في سواحله وشطآنه ، والأمانَ والايمانَ في لُجَجِه واعماقه . فاقرأها يا ابا النور ، بصبر واناة ، ولا تترك شيئاً مما قاله الفلاسفة عن وجود الله وأحَديّته . ثم اجمع اقوالهم ، وقارنْ بينها ووازنْ ، ثم اجمع من القرآن كل الآيات الدالة على وجود الله ، واقرأها بتدبّر ، على ضوء ما قرأتَ من الفلسفة والعلم . وارجع ، في التوفيق بين العلم والدين ، الى تحكيم العقل . وسوف تجدُ نفسَك ، بعد ذلك ، في احضان الايمان واليقين ... وأكْثِر ، يا ابا النور ، من قراءة سورة الضُّحى ، وسورة الأنبياء . ولا تقنط من رحمة الله ، ما دمتَ تطلبها من ابواب التوبة والرجوع الى الله ... ولسوف يعطيك ربك فترضى ... ولسوف يُصْلِحُ بالكَ ... ويَهديك الى الطيّب من القوْل ، والى صراط الحميد ...

ولما عدتُ الى بلادي لقيت شيخ الاسلام في (طشقند) ، فحدثته عن الجسر وكتابه وزيارتي له في بلده وسؤاله عنه ؛ فما انتهيت من كلامي حتى رأيت الدمع يجول في عينيه ، ثم قال لي : انّ كتاب الجسر هذا معروف في بلادنا ومشهور ومترجم بالتركية ، فلا تجد عالماً عندنا الّا ويعرفه ، ولا داراً للكتب الّا وترى فيها (الرسالة الحميدية) مع ترجمتها بالتركية . وله ايضاً كتاب يسمى (الحُصون) في العقائد مطبوع في بلادنا تحت اسم (العقائد الاسلامية) . ثم افاض شيخ الاسلام في الحديث عن الجسر ، وايمانه ، واخلاصه في الدفاع عن دين الاسلام ؛ ولما استأذنت للخروج من حضرته شيعني ولدُه الى باب الدار ، فسألته عن سبب بكاء الشيخ فقال لي : ان ابي يُحب الجسر محبة عظيمة ، وقد بلغ من تعلقه به وحسن ظنه ، انه كلما ضاق صدرُه ، وكثيراً ما يضيق بَعْد ان طعن في السن وساءتْ صحته ، يطلب مني ان اقرأ عليه القصيدة التي نظمها

الجسر في مولد الرسول ﷺ ، فاذا قرأتها عليه انهلّت دموعه وقال لي : جزاك الله خيراً يا ضياء الدين فقد انشرح صدري وارتاح قلبي . وقد حفظت ، والله يا ابا النور، هذه القصيدة الطويلة من كثرة ما قرأتها عليه .

وبعد شهرين من عودتنا من الحجاز استعفيت الامير من خدمته ، يا حيران ، وتفرّغت للمطالعة ، فقرأت من الفلسفة ما شاء الله ان اقرأ ، في سنين عديدة ، وألّفت فيها . وقرأت من القرآن ما شاء الله ان اقرأ ، وجمعت منه الآيات الدالة على وجود الله كلها . ورجعت ، في التوفيق بين العلم والدين ، الى تحكيم العقل ، كما امرني الجسر . وخرجت من هذا الجهد الطويل ، بعد عشر سنوات ، الى الهدى واليقين ، وفُتحت عليّ ابواب الرحمة ، كما بشّرني الجسر ، حتى رضيتُ ...

اما الهدى واليقين فقد بلغتها : بالموازنة بين كلام الكثرة العظمى من اكابر الفلاسفة القائلين بوجود الله ، وكلام القلّة من الضعفاء الشكاك ، وبالمقارنة بين ادلة الفلاسفة وادلة القرآن ، وبجمع كلّ ما جاء في القرآن من آيات الخلق والتكوين الدالة على الله ، وتدبّرها ، على ضوء الحقائق القاطعة التي اثبتها العلم ، حتى استنار قلبي فرأيت الله فيه ...

فقد دلتني الموازنة بين اقوال الفلاسفة الأصلاء المستمسكين بشرط الفلسفة (وهو النظر العقلي الخالص المجرد من الهوى ومن كل غرض وغاية سوى البحث عن الحق) ، على انه ليس فيهم ملحدون ، بكل معنى كلمة (الالحاد) التي تعني تعمُّدَ انكار وجود الله انكاراً مطلقاً ، او تعمُّدَ وصفه بما يناقض احديّته وكماله ، ولكنْ فيهم (شُكّاك) يبحثون عن الحق من وراء حجب الغيب ، فيأتيهم (الشكّ) الذي لا يتخلّص منه باحث مفكر متفلسف ، مهما علا كعبُه في الايمان ، لأنه من طبيعة (البحث) عن المجهول المغيّب الذي لو كان معلوماً ما كان بحثٌ ولا تفكير ، ولا نظر ولا تأمل ، ولا شك ولا استدلال . ولكنّ الباحثين يختلفون عقلاً وذكاء وصبراً وجلداً ، فمنهم العباقرة الاقوياء الذين يكابدون ليلَ الشك حتى يصل بهم التفكير السليم الى صبح (اليقين) ، فلا يعبأون ، بعد

اليقين ، بشك مبهم لا يُحدث تناقضاً عقلياً مع هذا اليقين الذي ادركوه. ومنهم الضعفاء الذين ترزح عقولهم تحت عبء الشكوك ، فيقف بهم التفكير في العِقاب الصّعاب ، وتنقطع بهم الهِمَمُ دون اقتحامها ، فيجعلون كَلَلَ العقل عن (تصوّر) الشيء حجةً على عدم امكان (تعقُّله) ، او يتخذون من غموض الحكمة ، في (فرع) من فروع الخلق والتدبير ، سبباً للشك في (الأصل) الذي يشهد عليه اليقين ، فيقفون حائرين بين وميض العقل وخَبْوه (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ ناراً فلمّا اضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بنُورهِمْ وَتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرون) ... (يَكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ ابْصَارَهُمْ كُلَّما أضاءَ لهُمْ مَشَوا فيه واذا اظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) وجمّدو امام شكهم وقالوا لا ندري ...

ودلّني ذلك (التلاقي) على الحق واليقين والايمان ، بين العباقرة ، في كل ملّة وفي كل عصر ، على ان الحق واحد لا تختلف عليه العقول عند قوم (يتفكّرون) و (يَعْلَمُونَ) و (يَعْقِلونَ) و (يُوقِنُونَ) و (يؤْمنُونَ) ، كما وصفهم القرآن ، يا حيران ...

ودلّتني المقارنة بين الادلةِ العقلية التي ذكرها القرآن على وجود الله (الخالقِ ، البارئ ، المصوّر ، العليم ، الحكيم ، القادر ، المريد ، العدْل ، الرحمن ، الرحيم ، الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ، ولم يكن له كُفُواً احَدٌ) والادلةِ التي ذكرها الفلاسفة والعلماء ، من المسلمين وغير المسلمين ، واستدلوا بها على وجود الله ووحدانيته وجميع صفات كماله هذه بذاتها ، على أنَّ الحقّ واحد ، وطرق الاستدلال عليه واحدة ، سواء كان اهتداءُ العقول بالتفكير قَدْحاً في نفسها ، او قَبْساً من القرآن ؛ فهذا التلاقي ، بين وحْي العقل الذي خلقه الله لنا ، ووحْي القرآن الذي انزله الله علينا ، دليل قاطع على ان الدّين الحقّ لا يتنافى ولا يتعارض مع العقل في شيء ابداً . وهذا اعظم ما هداني اليه الجسر ، رحمه الله ، يا حيران .

ودلّني التوافق والتطابق بين ما اشار اليه القرآن ، في آيات الخلق

والتكوين ، من آثار القصد ، والحكمة ، والاحسان ، والاتقان ، والاتزان ، والتقدير ، والتدبير ، والعناية ، الدالة على الله ، وبين اسرار العلم التي عرفها العلماء بعد اكثر من الف سنة من نزول القرآن ، على أنّ هذا القرآن من عند الله الذي ارانا ، بعد حين من الدهر ، كما وَعدَنا ، آياتِه في الآفاق وفي انفُسِنا حتى تبيّن لنا انه الحق ... فعرفتُ من اعجاز القرآن ما لم اكن اعرف ، من قبلُ ، يا حيران .

ثم احصَيتُ اسباب الشك وادلةَ الايمان ، وميّزتُها ، ورددتُها الى الى مصادرها ، على ضوء ما خبرتُه في الحياة بنفسي ، وما قرأتُه وسمعته من كلام المجادلين في الله ، فعلمتُ وايقنتُ ان دلائل الايمان موجودة في كل ما خلق الله من صُوَر الوجود ، وان اسباب الشك منحصرة حصراً فيما قُدّر للناس من اختـــلاف الحظوظ : في الرزق ، والمال ، والولد ، والصحة ، والمرض ، والعزّ ، والذل ، والتوفيق ، والخذلان ، والشقاء ، والسعادة ؛ فما مِن عاقل يُتاح له ان يرى ، بنظرة شاملة كاملة ، جميع ما في هـــذا الكون من ابداع ، وقصد ، وعناية ، وحكـــة ، واتقان ، واحسان ، واحكام ، وتقويم ، وتقدير ، واتزان ، وتنسيق ، وجمـــال ، وجلال ، ثم يستطيع ، بعد ذلك ، ان يُصدّق ، مهما استسلم الى الشك ، ومهما الحّ عليه سوءُ الطالع ، بانّ هـــذا العالم خُلق وتكوّن ، لنفسه ، بالمصادفة العمياء من غـير خالق مدبّر قدير عليم حكيم . كما انه ما مِن مؤمنٍ ، مهما عظُـم ايمانه ، خَلا الصدّيقين ، يستطيع ان يُقصِي عن فكره العَجَبَ من اختلاف الحظوظ ؛ فعلمتُ ان البحث في سرّ القدر مَزْلقةٌ للعقول .

ولكني وازنتُ بين هذا السبب الاوحد للشك والحيرةِ ، وبين ما لا يُعدّ ولا يحصى ، كثرةً ، من البراهين القاطعة على وجود الله ، فوجدتُ ، بعد التأمل الطويل ، الصادق ، المجرّد عن كل ميـــل مع الهوى او مع التقوى ، ان اختلاف الحظوظ يمكن تأويله وردّه الى علة غابت عنـــا ، او حكمة خفيت علينا ، او خطأٍ في فهم معنى القَدَر على حقيقته . وهو ،

على كل حال ، غيبٌ ... والشك الآتي من وراء الغيب اضعفُ من ان يهدم (اليقين) المشاهَد القائم على البرهان القاطع ...

نعم ، يا حيران ، ان المصائب والكوارث تَرُجُّ الايمانَ رجّاً ، وتذهب بالعقل الى التساؤل عن السرّ في خلق هـذا الانسان الضعيف الهلوع الجزوع ، فيمدّ شيطان النفس الهُلَعة اصبعَه ليسْتر عن اعيننا رحمة الله وحكمته ... ولكن هذا الشك لا يدوم الّا ريثما تمرّ سحابة الأسى وتنقشع عن القلب الموجَع الحزين ... بل لو اردتَ ان تحتفظ لنفسك بشكك ، وتعمدتَ ان ترضاه ، وتركن اليه ، وتغذّيه بما شئتَ من سوء الظن بالله ، فانه لا يـدوم اذا كنتَ موثقاً الى سارية الايمان بالـف الف حبْلٍ من هذه الادلة التي فتَلْتها واحكمتها حول عقلك في هذه الليالي الطويلة التي عشتَها معي ...

فهذه البراهين العقلية القاطعة الدالة على الله هي اكـثر ، واوضح ، واظهر ، واقوى من ان يستطيع العقل السليم الافلات منها ، من اجْل امرٍ من عالـَم الغيب يمكن تأويله وردّه الى اسباب عديـدة ، أو حِكمٍ كثيرة خفيتْ علينا كما خفي علينا الكثير من اسرار المحسوسات في عالم الشهادة . وطالِبُ الحق ، اذا تجرد عن الهوى ، لا يترك اليقين ليأخـذ بالشك ، وانْ فعل فانما يفعل بلسانه لا بقلبه . والمؤمن الذي رسا باليقين على صخرة الحق لا (يَعْبُدُ اللهَ على حَرْفٍ فإنْ اصَابَهُ خَيْرٌ اطمأنّ بِهِ وإنْ اصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلَبَ على وجْهِهِ خَسِرَ الدنيا والآخرة ...)

وقد علم الله ، سبحانه ، اننا في شقاء الحياة سنقف ، من ايماننا به ، وعبادتنا له ، على (حَرْفٍ) ، فحذّرنا . وعلم اننا سنقع على كثير من الشكوك والشبهات فأمرنا ان نستمسك بما عرفناه ، بالبرهان ، من (اليقين) ، وان نُعْرض عن المتشابهات التي لا يعلم تأويلها الا الله وحده ، فقال جلّت حكمته : (هُوَ الذي انزَلَ عليكَ الكتابَ مِنْـه آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنّ امُّ الكتاب وأُخَرُ متشابهاتٌ فامّا الذين في قلوبهمْ زَيْغٌ فيتّبعون ما تشَابَهَ منه ابْتغاءَ الفتْنَةِ وابتغاء تأويلهِ ومـا يَعْلمُ تأويلَه الّا اللهُ ،

والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا وما يذّكّر الّا اولـوا الألباب) .

فمن المحْكَمَاتِ المحكماتِ ، يا حيران ، تلك الآيات الدالة على وجود الله دلالة قاطعة ، تجعل العالمين بها ، المدركين لأسرار معانيها ، راسخين على صخرة (اليقين) ، لا تزحزحهم عنها امواج الشك مهما توالتْ ، وتعالتْ وارغت وازبدت ، في خضمّ الحياة وشقائها . وهؤلاء الراسخون في العلم هم الذين يُقرّون بعجز العقول عن ادراك كثـــير من اسرار الغيب ، فيستمسكون (باليقين) الذي دلّتهم عليه (المُحْكَمَاتُ) من طريق البرهان العقلي القاطع ، وتأبى عليهم عقولهم ان يتفلّتوا من هذا اليقين الذي عقلوه من اجـــل (متشابهاتٍ) قد اتبس عليهم فهمها وتأويلها ، ولم يكوّنوا منهـــا يقيناً آخر يعارض اليقينَ الاول او يناقضه . وهؤلاء هم (اولوا الالباب) الذين يَقِفُون عند كنة (الله) يا حيران ...

ولكن الادلة التي تنطوي عليها هذه الآيات المحكمات اذا بقيتْ متفرقةّ ، ولم تتكشّف اسرارها في اغوارها ، لم يَقْوَ كلُّ واحدٍ منها ، بمفرده ، على التّثبيت والتّرسيخ على صخرة الايمان ، والشدّ الى سارية اليقين . اما اذا جُمعتْ مع حقائق العلم ، على صعيد واحد ، ظَهَر الحق الذى يستحيل على الشك ان ينازع فيه اليقينَ او يزعزعه أو يزلزله . والى هـذا الجمْع قصدتُ حين جمعتُ لك ، يا حيران ، ادلةَ القرآن وادلة الفلاسفة مـــع شواهد العلم ، على صعيد واحـــد ، لتدلهر لك ، بكل جمالها وجلالها ، الصورة الكاملة الشاملة للحق الذي نطق به الوحي ، وايده العقل السليم

ولطالما ترحّمْتُ على الجسر الذي هد ني الى هذه الطريقة يا حيران ، فان جمْع هذه الادلة القرآنية ، مع الشواهد لعلمية ، الى جانب الادلة العقلية ، على صعيد واحد ، وفي حُزْمة واحدة ، هو الذي يجعل لها قوةَ البداهة في الاستدلال ؛ فكلّنا ، يا حيران ، نقرأ القرآن ، وكلنا نعرف تلك الحقائق العلمية ، ولكنّ تشتّت هذه الآيات والمعارف في الذهن يجعل كل واحدة منها ضعيفةً امـام ضغط الشك العنيف الذي يشدّده علينا شقاءُ

الحيـــاة : فهي كالقطرات من الماء تكونُ اضعفَ شيء وألْيَنَه ، فاذا تجمّعتْ وتدفقتْ في مجرى واحد كوّنت السَّيلَ الجارف الذي يهدّ الجبال ، او هي كالصورة التي لا يتمّ وجودها ، ولا يكتمل معناها ، ولا يظهر جمالها ، الّا اذا عُرضَتْ للناظر بكامل اجزائها في اطار واحد .

فلما هُديتُ الى جمع هذه المعارف والآيات كلّها في مجرى واحدٍ ، وحُزمة واحدة ، واطار واحـــد ، بلغتُ ، بنفسي ، هذا اليقينَ الذي رويتُ لك بنوره (قصّةَ الأيمانِ) بلسان الفلسفة والعلم والقرآن ...

يا حيران بن الاضعف :

إحفظ هذه الأمالي التي امليتُها عليك ، مع هذه الوصيّة الأخـيرة ، وانشرْها بين الناس ، لعلّ الله يشرح بهـا ، للايمان ، صدورَ الحيارى ، ويُصلح بالَهُم ، ويهدي مَن شاء منهـم الى الطيّبِ مِنَ القوْل والى صِراطِ الحميد .

يا حيران بن الأضعف :

انْ كان في الأجَلِ فُسْحَة تلاقَيْنا ... والّا فترحَّمْ علينا

Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina